منهج الدكتور محمد حسين هيكل
في كتاباته الإسلامية

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسـم الكتـــاب: منهج الدكتور محمد حسين هيكل في كتاباته الإسلامية
المـــؤلـــــف: هلال محمد لطفي الديب
موضوع الكتاب: تحليل ودراسة
عـدد الصفحات: 524 صفحة
عـدد المـــلازم: 32.75 ملزمة
مقـاس الكتـاب: 17 x 24
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـــم الإيـــداع: 2025 / 7248
الترقيم الدولي: 978-977-8796-40-7

القاهرة - جمهورية مصر العربية
01012355714
01152806533
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

منهج الدكتور محمد حسين هيكل في كتاباته الإسلامية

(تحليل ودراسة)

تأليف

هلال محمد لطفي الديب

مقدمة البحث

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونستفتح بالذي هو خير. اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر، ونسألك يا الله الفوز بالجنة والنجاة من النار ونعوذ بالله من الضلالة والغواية ومن غضبه وعقابه. ونصلي ونسلم على خير الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ تسليمًا كثيرًا ما دام الليل والنهار إلى يوم لا يوم بعده. صلاة نرجو بها رضا ربنا وشفاعة نبينا يوم لا مال ينفع ولا ولد يشفع ولا جاه يدفع، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه.. أما بعد..

فقد شاء الله تبارك وتعالى أن أعود إلى طلب العلم مرة أخرى بعد انقطاع دام أكثر من عشر سنوات، شغلت أثناءها بشؤون الحياة الدنيا، والحمد لله على ذلك، فطلب العلم وتيسير سبل تحصيله نعمة من الله سبحانه أدعوه أن يتمها فيجعلنا من العاملين، وهي نعمة عظمى ومنة كبرى تستوجب شكر المُنعم جل وعلا، إذ طلب العلم فريضة يجزي بها الله يوم القيامة الجزاء الأوفى. وفي هذا خير عزاء عما يعانيه طلاب العلم من تعب ونصب، وما يتطلبه تحصيله من تضحية وإيثار. وجزى الله علماء السلف من هذه الأمة خيرًا، فكم تركوا الديار وجابوا الأقطار وتحملوا مشاق الأسفار من أجل تحصيل العلم، فتركوا لنا ميراثًا عظيمًا حفظ الله به الدين ونفع به المسلمين، وجزاؤهم لقاء ذلك أجر موصول، كما قال الصادق الأمين ﷺ: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له "رواه مسلم"[١].

ومن تمام نعمة الله عليَّ أن يسر لي متابعة السير في طريق العلم، فالتحقت بالدراسات العليا بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، معقل العلم الإسلامي والنبع الفياض لدراسة علوم الدين الحنيف، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يكون موضوع البحث الذي تقدمت به لنيل درجة التخصص (الماجستير) من كلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة بقسم الدعوة تحت عنوان: "منهج الدكتور محمد حسين هيكل في كتاباته الإسلامية.. تحليل ودراسة".

أهمية الموضوع:

وترجع أهمية هذا الموضوع إلى أنه يتعلق بسيرة سيد المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده: أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهم الثلاثة الذين أُتيحَتْ الفرصة للدكتور هيكل رحمه الله أن يكتب عنهم قبل أن يرحل عن هذه الدنيا.

ولا شك أن سيرة النبي ﷺ كانت موضع عناية الكتاب والباحثين من المسلمين على مر العصور، بل موضع اهتمام الكتاب والباحثين من غير المسلمين. فأما أنها موضع اهتمام الباحثين والكتاب المسلمين فهذا أمر منطقي، لأنه بعض الواجب عليهم تجاه رسولنا ﷺ، فهو الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لكل من آمن إلى يوم الدين. وحتى تتحقق هذه الأسوة فلا بد للمسلمين أن يتدارسوا سيرة رسول الله ﷺ حتى يقفوا على مواطن العظة والعبرة في هذه السيرة العطرة، ومن هنا كان اهتمامهم بها بحثًا ودراسة وكتابة، حتى صارت علمًا مستقلًا له علماؤه والمتخصصون فيه.

وأما أن الباحثين من غير المسلمين قد اهتموا بسيرة النبي ﷺ، فقد كان هذا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة ج٥ كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

الاهتمام إما للبحث عن الحقيقة، فلما وصلوا إليها هدى الله الكثيرين منهم إلى الإسلام، وإما للبحث والتنقيب عن ثغرات يستطيعون أن ينفذوا منها للطعن في نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، وبذلك وجدت على الساحة الفكرية الإسلامية مؤلفات في سيرة النبي وتاريخ الخلفاء الراشدين ليس لها هدف إلا الطعن في النبي عليه الصلاة والسلام، والهجوم على التاريخ الإسلامي. ولقد كان لهذه الكتابات المغرضة أثر سيء على الفكر الإسلامي، ظهر أثره واضحًا في كتابات بعض المسلمين الذين يحسنون الظن بها ويتلقونها بالقبول.

ولا شك أن محو هذا الأثر السيء يحتاج إلى جهد إسلامي لمواجهته وتصحيحه، حتى لا يُؤتَى الإسلام من قبل أهله.

ومن الكتابات الإسلامية التي كتبت من أجل تصحيح المفاهيم لدى المسلمين ولدحض مفتريات المبطلين كتابات الدكتور هيكل الإسلامية، التي كتبها –رحمة الله– تبيانًا للحقيقة، وحفزًا للهِمَم، ودحضًا لافتراءات المبطلين، وذودًا عن حياض سيد المرسلين وخلفائه الأكرمين.

ولما كان ﷺ من غير المتخصصين في دراسة العلوم الإسلامية، فقد اختص منهجًا نابعًا من ثقافته الغربية، حاول عن طريقه الوصول إلى هذه الأهداف الجليلة.

سبب اختيار الموضوع:

ومن هنا كان السبب لاختيار هذا الموضوع، آمِلًا أن أحدد المنهج الذي أنتهجه في الكتابه عن رسول الله ﷺ وعن خلفائه الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان، وعن بعض التشريعات الإسلامية، لأتناول هذا المنهج بالدراسة والتحليل، حتى أظهر عناصر القوة والضعف فيه.

وليس الهدف من ذلك مصادرة لرأيه ولا محاكمة لفكره، ولا تصيدًا لأخطائه،

فإني أحسن الظن بالدكتور هيكل رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له المثوبة لقاء حبه لرسول الله ﷺ ودفاعه عن سيرته ﷺ، وإنما أبتغي من ذلك تدارك هنات وقع فيها لأنه من غير المتخصصين، ولأنه اتبع منهجًا جديدًا كان يحتاج إلى مزيد من التخصص في الدراسات الإسلامية، حتى لا يقع فيما يقع فيه غير المتخصص، إذ سار خلف كتاب مسلمين تأثروا بالأثر السيء الذي أحدثته كتابات غير المنصفين على الساحة الفكرية الإسلامية، ومن هؤلاء الدكتور أحمد أمين في كتابه: (فجر الإسلام)، والدكتور طه حسين في كتابه: (في الشعر الجاهلي)، وهذان الكتابان من مراجع الدكتور هيكل لبحثه في كتابه: (حياة محمد).

لذا فقد كان هذا الكتاب موضع انتقاد منذ صدور الطبعة الأولى منه، وحاول الدكتور هيكل الرد عليها في طبعته الثانية.

ولما كانت سيرة النبي ﷺ هي المذكرة التفسيرية لعمل الداعية، وكان تاريخ الخلفاء الراشدين نموذجًا للتطبيق العملي للدعوة، ونظرًا لما تمتعت به كتابات الدكتور هيكل من ذيوع وانتشار، كان حتمًا أن نتدارك ما بها من هنات كان السبب الأكبر فيها أن عصر الدكتور هيكل كان عصر قلق واضطراب وبحث عن الذات في ظروف عصيبة، فالوطن محتل، والمسلمون مستذلون ومستضعفون في كل مكان، والإسلام نفسه يتعرض لهجمة شرسة في عقر داره من أعدائه الذين أصبحوا أصحاب السيادة والسلطان على بلاد المسلمين، فأصبح المسلمون في حالة تخاذل عجيب وجمود رهيب هو أقرب إلى الموت بل هو الموت نفسه.

منهج البحث:

ولقد انتهجت في بحثي هذا طريقة تحليلية تهدف إلى تحديد معالم منهج الدكتور هيكل في كتاباته الإسلامية، وتوضيح هذه المعالم عن طريق تتبع كتاباته لأضرب الأمثلة التي تبرزها وتوضحها، ثم أعلق على ما أراه من نقاط الضعف في هذا المنهج، مما أدى إلى وقوعه في أخطاء في تفسيره أو تعليله أو استنتاجاته من أحداث

السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

ولقد أردت أن أكون منصفًا وحاولت ذلك جاهدًا، فقمتُ بدراسة كتابات الدكتور هيكل أولًا ودونت ملاحظاتي عليها، غير متأثر بآراء الغير فيه، ثم اطلعتُ على وجهة النظر الأخرى واستندت إليها فيما اتفق مع آرائي منها، وهذا طبعًا فيما فيه مجال للرأي.

خطة الدراسة:

لقد قسمت الموضوع إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

فبينت في المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهج البحث فيه وخطة الدراسة، وفي التمهيد ذكرت نبذة عن حياة الدكتور هيكل عرضت فيها نشأته وثقافته ونشاطه وعصره من الناحية الثقافية والاجتماعية والدينية.

أما الباب الأول فكان بعنوان: منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن رسول الله ﷺ، ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: دوافع التأليف ومحاولة النهوض بالأمة الإسلامية من خلال الكتابة عن تراثها لتربط حاضرها بماضيها.

الفصل الثاني: حركة التبشير والرد عليها بما يتفق مع أسلوب العصر.

الفصل الثالث: ما اختلف فيه مع كتاب السيرة والمحدثين ووجه الصواب في ذلك.

وأما الباب الثاني فعنوانه: منهجه في الكتابة عن الخلفاء الراشدين الثلاثة رضي الله عنهم.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: منهجه في الكتابة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهجه في الكتابة عن الصديق رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني: منهجه في الكتابة عن الصديق ﷺ في عصر خلافته.

والفصل الثاني: منهجه في الكتابة عن عمر بن الخطاب ﷺ ، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في الكتابة عن عمر قبل رسالة رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني: منهجه في الكتابة عن عمر مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ﷺا.

المبحث الثالث: منهجه في الكتابة عن عمر ﷺ أميرًا للمؤمنين ودوره في الدولة الإسلامية.

والفصل الثالث: منهجه في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ ، وفيه مبحثان.

المبحث الأول: منهجه في الكتابة عن عثمان ﷺع رسول الله ﷺ ومع الشيخين ﷺا.

المبحث الثاني: منهجه في الكتابة عن عثمان أميرًا للمؤمنين وتحمله للمسؤولية الأولى في الدولة الإسلامية بعد عمر.

وأما الباب الثالث فعنوانه: منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن المشاعر الإسلامية وبعض التشريعات الإسلامية، ويشتمل على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: منهجه في الكتابة عن الحج وما يتعلق به من الأماكن وغيرها.

الفصل الثاني: منهجه في الكتابة عن المدينة وما يتعلق بها.

الفصل الثالث: منهجه في الكتابة عن نظام الحكم في الإسلام.

وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم النتائج والتوصيات.

والله أرجو أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه تعالى، وأن يثقل به موازيننا يوم تخف الموازين.

"ربنـا لا تؤاخذنا إن نسـينا أو أخطأنا، ربنـا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"[١].

آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين.

(١) جزء من الآية رقم ٣٨٦ من سورة البقرة.

التمهيد:

نبذة عن حياة الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله..

نشأته وثقافته ونشاطه وعصره من الناحية الثقافية والاجتماعية والدينية..

نشأة الدكتور هيكل:

ولد المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل في العشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٨٨م في قرية كفر غنام، وكانت تابعة لمركز السنبلاوين من أعمال محافظة الدقهلية، وكان أبوه حسين أفندي عبد السلام هيكل عمدة القرية من الأعيان الذين يمثلون الطبقة الوسطى، التي أخذت تظهر وتسود الريف المصري وترث ما كان للطبقة التركية من نفوذ وثراء.

وكان والده متميزًا عن أقرانه من أعيان الريف بوسط الدلتا بنزعته إلى الجديد، فلم يكن يرتدي الملابس الريفية مثل غيره من كبار الزراع أو الأعيان، بل تعوَّد منذ طفولته أن يرتدي ثياب الأفندية[١].

وعلى عادة الأسر الريفية فقد بكر به أبوه إلى كُتَّاب الشيخ إبراهيم جاد بالقرية حين بلغ الخامسة من عمره، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ نحو ثلث القرآن الكريم، وكان كُتَّاب القرية في ذلك الحين يمثل القاعدة العريضة للتعليم في مصر، فلم تكن هناك رياض أطفال أو غيرها من المؤسسات التي تُعنَى بتربية الأطفال وتعليمهم، وكان لهذا الأسلوب الكثير من المزايا التربوية إذ كان الأطفال

(١) انظر: الدكتور هيكل بين الحضارتين. أحمد زلط ص ٥٣.

يتعلمون مبادئ القراءة والكتابة ثم يحفظون القرآن، فتقوم ألسنتهم في نطق اللغة العربية بتلاوته وحفظه، ويشب النشء من أبناء المسلمين مرتبطًا ارتباط وجدان وعاطفة بالدين الحنيف، بل إن البعض من غير المسلمين كانوا يبعثون بأبنائهم إلى الكتاب مع أبناء المسلمين[١].

وفي تقديري إن لكتاب القرية من الأثر في تربية النشء وفي تقويم ألسنتهم ما لا يعوضه نظام آخر، وهذا واضح كل الوضوح في طلاب الأزهر في العصر الحاضر، الذين تربوا في المعاهد الابتدائية الأزهرية التي يلتحقون بها حين يبلغون سن السادسة، والتي أُنشِئت كبديل للكتاتيب التي كادت تنقرض بانقراض طبقات الحفاظ لكتاب الله ممن كان يطلق عليهم في القرية (الفقهاء)، ولما كان حسين سالم هيكل والد الكاتب من الأفندية فقد أرسل ابنه محمدًا حين بلغ السابعة من عمره إلى القاهرة برفقة عمه الشيخ صالح هيكل للدراسة بمدرسة الجمالية الابتدائية، فحصل منها على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠١، ثم انتقل إلى المدرسة الخديوية فأتم دراسته الثانوية وحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٠٥م، وعزم على السفر إلى انجلترا لدراسة الهندسة بها، وفي ذلك العام توفي جدُّه الشيخ سالم هيكل، وجاء أحمد لطفي السيد لأداء واجب العزاء، وجرى الحديث فيما جرى حول الاتجاه الذي يختاره محمد لدراسته، فاختار له لطفي السيد دراسة الحقوق على غير ما كان يرى الشاب الذي يتوق إلى السفر إلى الخارج. ونزل الشاب على رأي أستاذه بعد أن وعده بأن يبعث به أبوه إلى الخارج للحصول على الدكتوراة بعد إتمام دراسة الحقوق في مصر.

وأقبل الشاب على دراسة الحقوق حتى أتمها في أربع سنوات دون تخلف، فتخرج في مدرسة الحقوق عام ١٩٠٩م، وسافر إلى فرنسا فحصل على الدكتوراة من جامعة السوربون عام ١٩١٢م برسالته عن (دين مصر العام)، وعاد إلى مصر

(١) انظر: محمد الرسالة والرسول د/ نظمي لوقا ص ٣٠، ٣١.

ليكون أول مصري يحصل على هذه الدرجة العلمية في القانون[١].

وهكذا أُتيحَت لهيكل فرصة الميلاد لأسرة على شيء من اليسار الذي يتمتع به وجهاء أهل الريف، وأُتيحَت له فرصة التعليم ابتداءً من كتاب القرية، فالتعليم الأوَّلي فالثانوي فالجامعي.

وكانت نشأة هيكل في الريف المصري وفي أسرة لها العصبية والسيادة في القرية من أهم المؤثرات في حياته، فالطفل حين ينشأ في مثل هذا الجو العائلي الذي تعيش فيه الأسر الريفية الكبيرة يحس بعصبية الأسرة ومكانتها إحساسًا تامًا، وحين يكون الابن الأكبر لرب الأسرة وعمدة القرية يرى من رعاية الأب وإكبار الأسرة ما يؤهله لزعامتها بعد أبيه، فتتكون شخصيته وتتفتح مداركه وتنمو مشاعره منذ الصغر، ويظهر رجولته واعتداده بنفسه قبل الأوان، وينمِّي شعورُه بالمسؤولية إحساسَه بكيانه في محيط الأسرة[٢].

وهكذا كان محمد حسين هيكل حيث كان بكر أبوه عمدة القرية.

ولقد استمرت صلة الدكتور هيكل بحياة القرية بعد رحيله إلى القاهرة لتلقي العلم في مدارسها، إذ كان يقضي عطلته الدراسية كل عام في أحضان الريف بقريته كفر غنام، وكان له مزاجه الخاص فلم يكن يقبل على العمل اليدوي في الحقل كما يفعل معظم أبناء الريف أثناء العطلة الدراسية حين يمضون أوقات فراغهم في الحقل، فيجدون متعة وتسلية في مزاولة بعض أعمال الفلاحة، إذ كانت ملكاته الذهنية تفوق ملكاته اليدوية، ولذلك كان يقضي معظم وقته في القراءة أو في النظر إلى طبيعة الريف أكثر مما يقضيه في أي عمل آخر[٣].

(١) انظر: هيكل وحياة محمد منهج في دراسة التاريخ الإسلامي د/ حسين فوزي النجارص٢٩.

(٢) انظر: محمد حسين هيكل في ذاكرة د/ عبد العزيز شرف ص ١٧، ١٨.

(٣) انظر: محمد حسين هيكل في ذكراه د/ عبد العزيز شرف ص١٧، ١٨.

أما عن صفاته فقد برزت صفتان أصليتان في نفسه منذ شبابه، ألا وهما: الأنفة والحياء، ولقد تمثلت الأولى عندما كتب مقالًا صحفيًا أفرغ فيه كل الجهد إتقانًا، وأرسل به إلى جريدة المؤيد ولم يفكر في الذهاب بنفسه إلى الجريدة، ولم يحاول مقابلة الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد ورئيس تحريرها، ولقد انتابته الدهشة حين رأى مقاله لم ينشر، رغم أن الجريدة تنشر غيره مِمَّا يراه دون مقاله بمراحل.

ويعتقد الدكتور هيكل أنه لو ذهب بنفسه ودفع المقال إلى صاحب الجريدة أو إلى أحد محرريها لوجد منهم تشجيعًا وعطفًا، ولكنه كبر على نفسه أن يقف هذا الموقف حياء وأنفة، فهو لا يريد أن يجعل لأحد حكمًا على ما يكتبه قد لا يعجبه، وهذا أثر من آثار ما جبل عليه من أنفة وحياء، فهو يأنف أن يكون لغيره حكم عليه، ويستحي أن يطلب من غيره شيئًا كائنًا من كان[١].

وإلى جانب الأنفة والحياء، كان شديد الاعتداد برأيه الذي كونه بمنطقه وعقله، فكان لا يؤمن إلا بما يقتنع به، ولا يكيف سلوكه في الحياة إلا بما يؤمن به[٢].

وحين سافر هيكل إلى باريس للدراسة ورأى فيها من مظاهر الحرية بهر بما رأى منها وأعجب بها أيما إعجاب، إذ تصادف حين وصل إليها أن كانت تحتفل بعيد الحرية، وكانت بشائر العيد تنتظم مدينة النور – على حد تعبيره – وتضفي عليها حلة من ساطع البهاء والرواء، فلما كان الغد انقلبت الشوارع مراقص عامة، وجعل الناس يقبل بعضهم بعضًا رجالًا ونساءً ابتهاجًا بيوم الحرية وسقوط الاستبداد، ثم يعقب هيكل على هذا الهرج فيقول: "فكان لهذا المنظر أبلغ الأثر في نفسي لأنني رأيت حرية الأفراد وحرية الوطن مجسمتين أمام عيني على نحو لم آلفه في وطني قط".

(١) انظر: مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢.

وعـاش هيـكل في باريـس فرأى فيهـا ألوانًا من الحياة تفسـح أمـام نظره آفاق التفكـير، وتزيـده إيمانًـا بحرية العقيـدة والرأي، وبـأن التعصب ذميـم، وأن أول واجـب على الإنسـان أن يديم البحث عن الحقيقـة، وألا يكتفي بما يظن أنه وصل إليه منها، بل يجعل دأبه تقليب هذا الذي وصل إليه لينفي عنه ما علق به من زيف، ويرى من خلاله آفاقًا جديدة لهذه الحقيقة العظمي تتراءى له من وراء الحجب.

وأثناء إقامته في باريس للدراسـة لم تنقطع صلته بمصر، فقد انضم إلى الجمعية المصرية وإلى الجمعية الإسـلامية، فكان عضوًا بهاتين الجمعيتين اللتين كانتا تهتمان بالشـؤون المصرية والإسـلامية من غير تدخل في الشـؤون السياسـة أو الخلافات المذهبية طبقًا لقانون تأسيس كل منهما[١].

ثقافته:

تقـوم ثقافـة الدكتور هيـكل على دعامتين كبيرتـين، هما: العلم والفلسـفة. أما العلم فيرى الدكتور هيكل أنه الدعامة الأساسـية في التشـكيل الثقافي للإنسـان، باعتبار أن العلم هو الوسـيلة الأولى لمكوناته وترقيته، وأما الفلسـفة فهي الدعامة الثانيـة المعتمـدة عـلى العلم، وهـي الوسـيلة اللازمة لبنـاء مذاهـب إدراك الحياة والوجـود وما فيها من حق وخير وجمال، وهذا يتحقق بدراسـة العلوم الإنسـانية والاجتماعية والآداب.

فمـن الناحية العلمية، فكما سـبق القول قـد تهيأت للدكتور هيكل منذ نشـأته الأولى أسـباب تحصيلـه، فمن كتاب القرية إلى الدراسـة الأولية بمدرسـة الجمالية الابتدائية بالقاهرة، ثم الدراسـة الثانوية بمدرسـة الخديوية بالقاهرة، ثم الدراسة العاليـة بمدرسـة الحقوق، ثم السـفر إلى جامعة السـوربون بفرنسـا ليحصل على درجـة الدكتـوراة في القانون، وخـلال هذه المرحلـة حرص على الثقافـة العربية،

(١) المرجع السابق ص ٣٢.

فأقبل بشغف على دراسة الأدب العربي قديمه وحديثه بقدر ما يسمح له إدراكه، يقول الدكتور هيكل عن هذه المرحلة: "أتممتُ دراستي الثانوية وليس لي في أمور السياسة ولا في أمور الاجتماع رأي مكون، على أنني كنت شديد الميل إلى دراسة الأدب العربي والاطلاع على قديمه وحديثه بقدر ما يسمح به إدراكي، فلما انتقلت إلى مدرسة الحقوق وبدأت وأنا في السابعة عشرة من عمري أتصل بهذه البيئة الجديدة ألفيتني مضطرًا للإحاطة بهذه التيارات أكثر من ذي قبل"[١].

وخلال هذه الفترة قرأ الكثير من كتب التراث العربي، ومنها: الأمالي لأبي علي القالي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والأمثال للميداني، والبيان والتبيين للجاحظ، كما قرأ الكثير من المؤلفات العصرية في الأدب العربي.

ولقد ظل هيكل حريصًا على تثقيف نفسه بالثقافة العربية، إلى أن التقى بصديق العائلة الأستاذ أحمد لطفي السيد مؤسس حزب الأمة ومدير "الجريدة" لسان حال الحزب، وقد يسرت له صلة النسب بين عائلته وعائلة لطفي السيد أن يزوره في الجريدة وأن يفتح بابها أمام هيكل للكتابة فيها[٢].

يقول الدكتور هيكل في مذكراته: "لم تقف صلتي بلطفي السيد عند الكتابة في الجريدة، بل كنت أتردد عليه في سراي البارودي فأجد منه خير أستاذ يشرح في

(١) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص ٣٦، ٣٧.

(٢) ترجمة أحمد لطفي السيد: هو مفكر وفيلسوف عربي مصري ورائد من رواد الحركة الوطنية، حصل على ليسانس الحقوق عام ١٨٩٤، وخلال الفترة ما بين عامي ١٩٠٦ و١٩١٤ تولى رئاسة تحرير الجريدة، وجعلها منتدى لأهل العلم والأدب والرأي، وعين مديرًا لدار الكتب المصرية ما بين عامي ١٩١٥ و١٩١٨م، وفي سنة ١٩٢٥ عين مديرًا للجامعة المصرية عندما أنشئت، واختير وزيرًا للمعارف سنة ١٩٢٨م، وفي سنة ١٩٤٠ عين عضوًا بمجمع اللغة العربية، ثم رئيسًا له، وفي عام ١٩٤٦ عين وزيرًا للخارجية في وزارة إسماعيل صدقي، وقد ترجم مؤلفات لأرسطو، وتم تجميع خطبه ومقالاته وأحاديثه كتراث نفيس، وتوفي -رحمه الله- عام ١٩٦٣م.

حديث عذب ومنطق دقيق مبادئ الحرية على ما فهمها أهل القرن التاسع عشر في أوروبا، وكنت أشعر بعطف عليَّ من جانبه، وأشهد لقد أفدت من أحاديثه الكثيرة معي ومن متابعة منطقه الدقيق فائدة لم أنسَها قط ولن أنساها أبدًا، وكان من أثر هذه الأحاديث أنني عدلت عما كنت ماضيًا من الاكتفاء بقراءة الأدب العربي إلى قراءة كتب إنجليزية في الموضوعات التي كان يحدثني فيها، فقد كنت منصرفًا إلى قراءة: أمالي القالي، وأغاني الأصفهاني، وأمثال الميداني، والبيان والتبيين للجاحظ، وقراءة المؤلفات العصرية الحديثة، فانتقلت من ذلك إلى قراءة (الحرية) لجون ستيوارت مل، و(العدل) لهربرت سبنسر، و(الأبطال) لكارليل، و(الثورة الفرنسية) لكارليل أيضًا، هذا إلى جانب كتب في الأدب الإنجليزي أفسحت أمامي آفاقًا لم يكن لي من قبل بها عهد"[١].

وعلى هذا نجد أن البنية الأساسية لثقافة هيكل هي الثقافة العربية متمثلة في القرآن الكريم وكتب الأدب العربي قديمه وحديثه وكذا الأدب الشعبي، لتكتمل الصورة عنده من خلال قراءة الأدب الرسمي والشعبي، وكذلك من خلال توجيهات أستاذه لطفي السيد من معارف وأفكار جديدة نضجت معها عقليته ليتأثر بالمد الفكري الذي شمل الحياة المصرية حينئذٍ"[٢].

وإلى جانب الثقافة العربية كان هناك رافد آخر من روافد الثقافة لدى هيكل، ألا وهو التيار الفكري الغربي، الذي بدأ بتوجيه الأستاذ الروحي له لطفي السيد، حيث وجهه إلى قراءة الأدب الغربي في بداية انفتاحه على الثقافة الغربية، وذلك بقراءة الأدب الإنجليزي، ثم استكمل هذا التيار تأثيره إبان بعثته إلى فرنسا لدراسة الحقوق، فقد قرأ هيكل عيون الأدب الإنجليزي أثناء دراسته بباريس، بالإضافة إلى الثقافة الفرنسية الغزيرة التي نهل منها عن بحث وتذوق وإعجاب خاصة في

(١) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص ٣٠ – ٣١.

(٢) انظر: الدكتور هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية. أحمد زلط ص ٧٢.

اتصاله بمدرسة العلوم الاجتماعية العليا، أو تزود بها من خلال اتصاله المباشر بباقي المصادر الأخرى لنتاج الثقافة الفرنسية في ميادين الأدب والفلسفة والفن والاجتماع. وبهذا تفتحت آفاق هيكل مع روافد التيار الغربي أول الأمر مع الثقافة الإنجليزية، قبل أن يولي وجهه إلى الثقافة الفرنسية فيعجب بأعلامها وبأفكارهم الحضارية الجديدة، وخاصة أصداء الثورة، مما أثر في اتجاهاته الفكرية من بعد"[١].

فلما أنهى الدكتور هيكل دراسته في فرنسا عام ١٩١٢م عاد منها وفي عقله معطيات الثقافة الغربية الجديدة، ولكنه لم ينسَ قط روح الشرق الإسلامي وعقيدته الخالدة، كما أبقى تراث بلاده في منزلة العظمة والتقدير، وللجديد الوافد في عقله إعجاب مقرون بالسعي نحو تجديد طرائق وأساليب الفكر العربي الإسلامي وفق أساسين متينين، هما: الإيمان والعمل[٢].

ولقد كان هيكل معجبًا بكثير من الكتاب الفرنسيين، فقرأ لهم وتأثر بهم وترجم لهم وتناول أفكارهم الجديدة بالعرض والتحليل، وعلي رأس هؤلاء "جان جاك روسو"[٣] الفيلسوف والمفكر الاجتماعي الذي قدمه للمصريين كنموذج لمفكر مجدد وكاتب مبدع من الغرب ثائر على أوضاع الغرب التقليدية، للاحتذاء به والأخذ بأفكاره في حركة التنوير، وبهذا يوضح هيكل الوجهة الفكرية التي آمن بها رواد النهضة الأدبية والفكرية في مصر الحديثة، والتي تتمثل في الدعوة إلى الأخذ بالعناصر السديدة والقوة الفاعلة في الحضارة الغربية، من خلال الالتقاء

(١) الدكتور هيكل بين الحضارتين أحمد زلط ص٧٧.

(٢) نفس المرجع ص ٧٨.

(٣) ترجمه جان جاك روسو: هو فيلسوف وكاتب ومحلل سياسي سويسري أثرت أفكاره السياسية في الثورة الفرنسية وفي تطوير الاشتراكية ونمو القومية، ولد هذا الفيلسوف عام ١٧١٢م بجنيف بسويسرا، وتوفي عام ١٧٧٨م في فرنسا، وتعتبر مقولته الشهيرة "يولد الإنسان حرًّا ولكننا محاطون بالقيود في كل مكان" والتي كتبها في أهم مؤلفاته "العقد الاجتماعي" أفضل تعبير عن أفكاره الثورية، وربما المتطرفة.

الحضاري الذي يأخذ بالمعطيات القائمة على الإيمان والعلم.

ومـن الكتاب الفرنسـيين الذيـن تأثر بهم هيـكل وأعجب بأفكارهـم "أناتول فرانـس" و"هبوليـت أودلف تـين" والأديب الشـاعر "بيير لـوتي". وبغير هؤلاء تأثر هيكل بكتاب فرنسـيين آخرين طوال السـنوات الأربع التي عاشـها في فرنسا دارسًـا وقارئًا ومتذوقًا وكاتبًا، واسـتطاع بذلك أن يهضم أشهر الأعمال الإبداعية في الآداب الفرنسية والإنجليزية والروسية والأمريكية، وغيرها من روافد الثقافة التي ملأت البيئة الفرنسية بآراء التجديد والإصلاح الاجتماعي ومذاهب الفلسفة واتجاهات الفكر ونظريات النقد والأدب التي سادت الحضارة الغربية[1].

نشاط الدكتور هيكل:

كان الدكتـور هيـكل ﷺ وافر الحيوية متدفق النشـاط، فترك بصمة واضحة في مجالات عديدة: في الصحافة والتأليف والكتابة، وكذلك على المسرح السـياسي المصري.

الكتابة الصحفية:

أما في مجال الكتابة الصحفية فإنه منذ صدر شبابه أحس بهوى في نفسه للكتابة في الصحف، وكان متأثرًا في ذلك بطريقة الشـيخ محمد عبده وبأسـلوبه في العروة الوثقـى، فلـما تألف حزب الأمة عـام ١٩٠٧م وكانت (الجريدة) لسـان حال هذا الحـزب كتب هيـكل فيها أول مقالاته الصحفية في المجـال الاجتماعي، وكان عن حرية المرأة، وتتابعت مقالاته التي أعجب بها أستاذه أحمد لطفي السيد، ولم ينقطع عـن الكتابـة حتى وهو يدرس في فرنسـا، إذ كان يرسـل مقالاته مـن هناك، وبعد أن عـاد من فرنسـا وبدأ عملـه في المحاماة وافتتح مكتبًا لـه في مدينة المنصورة عام ١٩١٢ م لم يثنِه عمله هذا عن إدامة المطالعة في الفلسفة والتاريخ والسياسة، وظل

(١) المرجع السابق ص ٨٠ – ٨١.

عطاؤه الصحفي متصلًا حتى تأسس حزب الأحرار الدستوريين[١]، وأصدر الحزب صحيفة (السياسة) لتكون لسان حاله. تولى هيكل رئاسة تحريرها من أول صدورها في ٣٠ أكتوبر عام ١٩٢٢م، ثم أصدر (السياسة الأسبوعية) في شهر إبريل عام ١٩٢٦م، وضم الدكتور هيكل إلى جريدة (السياسة) و (السياسة الأسبوعية) أعلام المفكرين والسياسيين المعاصرين، فكان لهم أثر ضخم في مصر، بل امتد تأثيرهما إلى أرجاء الوطن العربي كله.

التأليف

وأما في مجال التأليف فقد كان هيكل من الكتاب المبدعين الذين أثروا المكتبة العربية بمؤلفات كثيرة في مجالات شتى، منها:

١. القصة الأدبية:

وتتمثل في قصة (زينب) التي كتبها إبان إقامته بباريس للدراسة، ونشرها للمرة الأولى عام ١٩١٤م، وتعتبر قصته هذه رائدة الرواية العربية في الأدب المصري المعاصر[٢]، وأيضًا قصته (هكذا خلقت) التي نشرها في عام ١٩٥٥م،

(١) ترجمة لحزب الأحرار الدستوريين: هو حزب سياسي مصري أنشأه أعضاء لجنة الثلاثين التي وضعت في سنة ١٩٢٢م، أول مشروع دستور لمصر المستقلة، وقد قرر أعضاء هذه اللجنة تكوين حزب سياسي جديد تحت مسمى "حزب الأحرار الدستوريين" برئاسة عدلي يكن باشا، تكون مهمته الدفاع عن الدستور، وكان من أبرز أعضائه مدحت يكن باشا ومحمد محمود باشا وحسن عبد الرازق باشا ومحمد حسين هيكل باشا وحافظ عفيفي باشا، وقد أصدر هذا الحزب جريدة يومية تحت اسم "السياسة" في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢م لتكون لسان حاله، ثم أصدر جريدة "السياسة الأسبوعية" في شهر إبريل سنة ١٩٢٦م، وقد ضم الدكتور هيكل إلى هاتين الجريدتين أعلام المفكرين والسياسيين المعاصرين، فكان لهم أضخم الأثر في مصر وفي العالم العربي كله، وقد حل هذا الحزب طبقًا لقرار مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م بحل الأحزاب السياسية في مصر.

(٢) رواية "زينب" تعتبر أول رواية مصرية حديثة نشرت عام ١٩١٤م، وكان عنوانها الكامل باللغة العربية "زينب مناظر وأخلاق ريفية"، وتصور هذه الرواية الحياة في الريف المصري وتتناول العلاقات الزوجية والرومانسية التقليدية بين الرجل والمرأة، والتفاعلات بين عمال الزراعة

هذا بالإضافة إلى كتاباته في القصة القصيرة.

١- كتابات وصفية:

ويتمثل هذا النوع من الكتابة والتأليف في ثلاثة كتب أصدرها الدكتور هيكل، وهي: كتاب "عشرة أيام في السودان"، وكتاب "ولدي"، وكتاب "في منزل الوحي".

٢- كتابات في التراجم والسِّيَر:

وعلي رأس هذه الكتب كتاب (حياة محمد) وكتابا (الصديق أبو بكر) و(الفاروق عمر)، وقبل هذه التراجم الإسلامية كان قد كتب تراجم أخرى، فترجم (جان جاك روسو) في ثلاثة أجزاء، كما أصدر كتابه (تراجم مصرية وغربية).

٣- كتابات في النقد الأدبي:

وتتمثل معظم كتاباته النقدية في كتابيه: (في أوقات الفراغ) و(ثورة الأدب).

نشاطه السياسي:

أما عن نشاطه السياسي فلقد كان نشاطًا كبيرًا وعريضًا جدًا، حتى إنه استغرق معظم فترات حياته، وكان فكره السياسي نابعًا من مدرسة أستاذه أحمد لطفي السيد الذي كان له أثر كبير في توجيه حياته الفكرية والسياسية، فهو الذي اختار له دراسة الحقوق ووعده بالسفر إلى أوروبا للحصول على الدكتوراة في القانون، ولما عاد من باريس عام ١٩١٢م اشتغل بالمحاماة من شهر ديسمبر سنة ١٩١٢م حتى شهر أكتوبر ١٩٢٢م، واشتغل بالصحافة منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ١٩٣٧م حين اختير وزيرًا، فبدأ بذلك حياة جديدة وهي حياة الوزارة، وبدأها بوزير دولة بوزارة الداخلية في وزارة محمد محمود باشا في أواخر سنة ١٩٣٧م[١].

وأصحاب المزارع، وتعتبر هذه الرواية بحق حدثًا مهمًا في الأدب المصري الحديث.

(١) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨.

ثم وزيرًا للمعارف في وزارة محمد محمود الثانية من إبريل سنة ١٩٣٨م وحتى أغسطس سنة ١٩٣٩م، وكان له بصمات واضحة وسياسة ثابتة أثناء قيامه بأعباء وزارة المعارف، ويوضح الدكتور هيكل سياسته فيقول: "لم أفصل موظفًا، ولم أنقله من مكانه لاعتبار شخصي، حتى يشعر الموظفون بالطمأنينة إلى عملهم، وقضيت على المركزية، فأنشأت مناطق التعليم ليتعلم رجال التعليم حمل المسؤولية، ويعودوا الناشئة على حملها، وأنشأت كليتي الآداب والحقوق بالإسكندرية نواة لجامعة فاروق الأول، وسعيت برغم العقبات للارتفاع بمستوى اللغة العربية ودراستها، وعملت على أن يستقل المصريون وحدهم بكل ما يتصل بسيادة الدولة من إدارة شؤون الوزارة، وألغيت اللغة الإنجليزية من السنة الأولى للتقريب بين ألوان التعليم في المرحلة الأولى -الأوَّلي والإلزامي والابتدائي- وليتيسر انتقال الممتازين من التعليمين: الأوَّلي والإلزامي إلى التعليم الابتدائي بالمجان، وأنشأت مراقبة للثقافة العامة تُعنَى بنشر هذه الثقافة في المدارس وخارجها، وعنيت بالإذاعة المدرسية تمهيدًا لاتخاذ الإذاعة وسيلة لتثقيف الشعب وتعليمه، وكرست كل تفكيري لأجعل من التعليم وسيلة للنهوض القومي السريع حتى تكاتف مصر الدول التي سبقتها في مضمار الحضارة، وتنهض بالعبء الإنساني المُلقَى على عاتق كل أمة متدينة نهوضًا كاملًا". كما عمل ﷺ أثناء توليه وزارة المعارف على تدعيم استقلال الجامعة، والذي أحس بأهميته أثناء قيامه بالتدريس بها خلال المدة من سنة ١٩١٧م وحتى ١٩٢٢م، ثم عُيِّنَ وزيرًا للمعارف أيضًا في وزارة حسن صبري ووزارة حسين سري حتى عام ١٩٤٢م.

وقد آلت إليه رئاسة حزب الأحرار الدستوريين الذي كان من مؤسسيه، ثم عاد ليشغل وزارة المعارف والشؤون الاجتماعية في وزارة النحاس، وظل بها حتى عام ١٩٤٤م، ثم عُيِّنَ رئيسًا لمجلس الشيوخ حتى عام ١٩٥٠، ثم رأس وفد مصر أكثر من مرة إلى هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية. ومن هذا العرض نرى أن الدكتور هيكل واحد من السياسيين المصريين الذين كان

لهم دور بارز على الساحة السياسية في مصر خلال أربعين عامًا من عام ١٩١٢م وحتى عام ١٩٥٢م، حفلت بكثير من الأحداث، حتى كانت حركة الجيش في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، والتي أنهت العهد الملكي وأقامت النظام الجمهوري، فاعتزل هيكل العمل السياسي، فلكل زمان دولة ورجال، وسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء وينزعه مِمَّن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، سبحانه بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

وفي صباح يوم السبت الثامن من ديسمبر سنة ١٩٥٦م فاضت روحه إلى بارئها[١].

رحمه الله رحمة واسعة.

عصر الدكتور هيكل من الناحية الثقافية:

لقد عاشت مصر في أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين حالة فكرية مترددية، يوجهها ويهيمن عليها فكرية العصور الوسطى، فلما تولى محمد علي زمام الأمور في مصر عمل على تحديثها والنهوض بها، وكان النهوض الثقافي أحد وسائله لإحداث هذه النهضة، فأرسل البعوث إلى أوروبا وأنشأ المدارس المدنية لدراسة العلوم العصرية كالطب والهندسة والزراعة، كما شجع حركة الترجمة للإفادة من ثمرات التقدم العلمي لدى الأوربيين فأنشأ مدرسة الألسن، وبذلك أوجد محمد علي نظامًا تعليميًّا على النمط الغربي الحديث يختلف عن نظام التعليم الديني السائد والمتمثل في كتاتيب القرية والمعاهد الدينية والجامع الأزهر.

وقد أدى هذا إلى وجود نمطين ثقافيين متباينين في مصر: الأول نمط تقليدي محافظ قبلته إلى القديم أو التراث، والثاني نمط متغير حديث قبلته دائمًا إلى الغرب، مِمَّا أدى إلى انقسام المثقفين في مصر إلى فريقين كل فريق منهما متشيع لنمط ثقافي يؤازره ويناصره، فيشتعل بينهما الصراع وتشغل به آلاف الصحف وتهتز لكلماته

(١) انظر: محمد حسين هيكل في ذاكره د/ عبد العزيز شرف ص٤٨.

المنابـر والقاعـات، فيمتص بذلـك طاقات كان أولى بها أن توجه توجيهًا أحسـن. كذلـك فإن هذه الخطوة كانت طعنة للتعليم الديني، فقد انصرف فريق من الناس عنـه، حيث يطمحـون إلى مركز اجتماعي أو مكسـب مادي ومسـتقبل مضمون، وكانـت المـدارس ذات النظـام الحديث هـي الطريق إلى كل ذلـك، علاوة على أن المناهـج الحديثة التي تـدرس في هذه المدارس وطريقة التدريس بها أدخلتا في روع كثـير مـن النـاس أن التعليـم الديني جامـد ومتخلف، فـأدى ذلـك إلى التباغض والتحاسد بين أبناء المجتمع الواحد، وإلى تفتيت وحدته الفكرية، وعن هذا الأثر السيء يقول الدكتور هيكل:

"لقد كنت شديد البرم بما في مصر من تباين في ألوان الثقافة، وبما يؤدي إليه هذا التبايـن من اختلاف في نظرة الطوائف إلى الحيـاة اختلافًا يحول بين هذه الطوائف وما يجب من تفاهمها وتضامنها القومي للمصلحة العامة.

ولقـد كان هـذا الاختلاف في وجهـات النظر واضح الأثر أشـد الوضوح بين المتعلمـين في مدارس الدولة والمتعلمين في المعاهد الدينية، ثم كان لهذا الاختلاف أثره الظاهر كذلك بين المتعلمين في مدارس الدولة والمتعلمين في المدارس الأجنبية الكثـيرة المنتشرة في أرجاء البلاد، لذلك رأيت أنه لا بد لي من العمل على التقريب بين الثقافة المصرية ما استطعت"[١].

وعـلى الرغم مـن أن التعليم المدني نـال كل عناية الدولة، فقـد احتفظ التعليم الدينـي بمركـز الصدارة، فقد أقبـل عليه الناس بحب ورغبة حيث كان الشـعور الدينـي هو صاحب السـيطرة والغلبة، ومن ثم كان الحصـول على تعليم ديني هو الأصل والهدف الذي تهفو إليه قلوب الكثيرين[٢].

ولقـد كان لخريجـي الأزهر دور كبير في المدارس المدنيـة، فقد تولوا تدريس اللغة

(١) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ٢ ص ٩٦.

(٢) انظر: دور الأزهر في السياسة المصرية د/ سعيد اسماعيل علي ص ١٥٠ – ١٥١.

العربيـة فيهـا، فترك هـؤلاء المعلمـون الكثير من بصـمات التعليم الأزهـري في هذه المدارس، وخاصة من حيث طريقة التعليم التي كانت تقوم على الاستظهار والحفظ.

وفي ظـل سـيطرة الدولـة العثمانيـة على العـالم الإسـلامي ومنه مصر تسـللت أوروبـا سـلميًا إلى هـذا العالم، متخـذة من الامتيـازات التي حصلـت عليها إبان ضعف الدولة العثمانية وسيلتها إلى هذا التغلغل، وكفلت هذه الامتيازات حقوقًا للأجانب جعلتهم وكأنهم يعيشـون في أوطانهم، فأنشـأوا المـدارس الأجنبية التي تتبعهـا، وانتـشرت هذه المدارس في ربوع مصر، وأقبل الناس على إرسـال أبنائهم إليهـا، وكانت في الحقيقة تهـدف إلى نشر ثقافة ودين الدولة التـي تنتمي إليها على حساب الثقافة القومية والدين الرسمي للدولة.

وبعـد انهيار الدولة العثمانية بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

خضعت مصر للاسـتعمار البريطاني، ففرض نظمه وثقافته على التعليم المدني في مـصر، فكانت كل العلوم تـدرس باللغة الإنجليزية حتى في المرحلـة الابتدائية، مِمَّا جعـل المصلحين ينادون بـضرورة تعريب التعليم في مراحلـه المختلفة، حتى تنتقل الأمة كلها إلى العلم وينتقل العلم إليها حين تكون لغتها القومية هي لغة العلم فيها.

ولما أُنشئَت الجامعة المصرية كانت توفد البعوث من طلابها لتلقي العلم في جامعات أوروبا، كما كانت تسـتقدم الأسـاتذة من هذه الجامعات ليقوموا بمهمة التدريس بهـا، وكان هـذا ضرورة لعدم توافر الكوادر العلميـة المطلوبة للتدريس بالجامعة.

وفي أثنـاء تولي الدكتور هيكل لوزارة المعارف وزاد عدد الطلاب حتى ضاقت جامعة فؤاد الأول عن استيعاب الحاصلين على القسم الثاني من الشهادة الثانوية، تم إنشـاء كليتي الآداب والحقوق بالإسكندرية لتكونا نواة لجامعة فاروق الأول، ومع الاسـتمرار في سياسـة إيفاد البعـوث إلى الخارج واسـتقدام العلماء الأجانب للتدريـس بالجامعـة المصريـة فقد حـرص الدكتور هيـكل على تمصير الرياسـات

الإدارية في وزارة المعارف.

وقد كانت سياسة التعليم في مصر في ظل الاحتلال البريطاني تهدف إلى تخريج موظفين يقومون بشؤون الإدارة الحكومية في سلاسة وانقياد، وكان المستشار الإنجليزي في وزارة المعارف يتولى تنفيذ السياسة البريطانية بدقة، ويعمل على ألا تخرج اليقظة القومية بها عن النطاق الذي حددته بلاده، فلما اعترفت إنجلترا بمصر دولة مستقلة في ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢م وانسحب المستشارون الإنجليز من الحكومة المصرية تبدلت سياسة التعليم، ليكون هدفه تربية الشعب تربية حرية واستقلال، وتعليم أبناء الشعب جميعًا تعليمًا يسلحهم لمواجهة الحياة كما صورتها المدنية الحاضرة في قوة وكرامة، والسبيل إلى ذلك هو أن يغير رجال التعليم ما ألفته نفوسهم من عشرات السنين، وما طبعه الماضي القريب في قلوبهم وعقولهم أيام النشأة الأولى، وأن يتعاونوا مع وزير المعارف تعاونًا يكفل تحقيق النجاح للسياسة التعليمية الجديدة في مصر[١].

ولقد نشأ بسبب اختلاف الجذور الثقافية في مصر تياران فكريان متعارضان: الأول تيار فكري غربي يدعو إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، والثاني على النقيض من ذلك يدعو إلى الاحتفاظ بتقاليدنا الإسلامية الشرقية، وظهرت آثار هذين التيارين في شتى نواحي الحياة السياسية والتعليمية والاجتماعية، فمن الناحية السياسية كان هناك أنصار الجامعة القومية ويمثلهم الفريق الأول، وكان هناك أنصار الجامعة الإسلامية ويمثلهم الفريق الثاني، وفي التعليم كانت مدارس عصرية أخذت بأساليب الدراسة الأوروبية، ومدارس أوروبية للجاليات الأجنبية أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على دراسة العلوم الشرعية الإسلامية وما يتصل بها. ومن الناحية الاجتماعية كان هناك مجددون أو مقلدون للغرب يبغضون إلى الناس قديمهم

(١) انظر مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ٢ ص ١٠٧.

وتراثهم ويصرفونهم عنه، داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستحدث طريف، وكان هناك المحافظون في الأزياء وفي الآداب الاجتماعية وفي أساليب العيش وأنماط الحياة، وقد نشأ عن هذا تناقض في الحياة المصرية التي جمعت بين المحافظة المتزمتة وبين التطرف في الأخذ بأساليب المدنية الأوربية، وبين التوسط الذي يأخذ من كُلٍّ من الاتجاهين نصيبًا[1].

الحالة الاجتماعية في عصر الدكتور هيكل:

لقد تأثرت الحالة الاجتماعية للشعب المصري إبان هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين) بالحالتين السياسية والفكرية السائدتين، فكانت ترجمة لهما وانعكاسًا لآثارهما، فمن الناحية السياسية كانت مصر تابعة تبعية اسمية لتركيا لا تتعدى تعيين الولاة وقاضي القضاة، وظل الحال كذلك حتى كانت الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م، فدخل الإنجليز مصر على أثرها، متعللين بأنهم إنما دخلوها لإنقاذها من الخراب المالي وإنقاذ أهلها من استبداد الترك والخديو، وتخليص المصريين من الرق والسخرة والسوط، وهكذا وقعت مصر تحت السيطرة الفعلية للإنجليز، مع بقاء التبعية الاسمية لدولة الخلافة العثمانية، حتى زالت هذه التبعية بهزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى وانفراد الإنجليز بأمور مصر.

ولما كانت الدولة العثمانية قائمة على القوة العسكرية فقد أخفقت من الناحية الداخلية والاجتماعية، وارتبط الحكم التركي بكثير من المساوئ الاجتماعية والسياسية حتى كانت سياسة التتريك قمة هذه المساوئ، ولما طال العهد بالدولة العثمانية وبدأت تفقد مزيتها من الناحية العسكرية تداعت عليها الأمم الأوروبية لتخلفها في السيطرة على الممالك الإسلامية، ومهدت لذلك الهدف بأن غزت الشرق الإسلامي بل وغزت تركيا نفسها غزوًا سلميًّا في أشكال مختلفة: معاهد

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٣٥، ٢٣٦.

علميـة، وشركات أجنبيـة، وبضائـع وملابـس، وفـرش وأثاث، وقـد دأب أبناء الأمـراء والأثريـاء والطبقات العليا من المسـتوزرين والحكام على إرسـال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب، وأقبل عليها أبنـاء الطبقة المتوسـطة تقليدًا لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيـان، وإعجابًا بنظامها المحكـم الدقيق وببراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها لكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى[١].

ولقـد كان من أثر إهمال الشـؤون الداخلية في الدولة العثمانيـة أن تردت حالة المجتمع المصري إلى حالة بالغة السـوء من الانحلال والفسـاد، بعد أن ساد الجهل وعـم الفقر وانتشرت الأمـراض الاجتماعية الخطيرة، فـكان الجمود وكان اليأس والتخاذل، حتى بلغ حالة تشبه الموت إن لم تكن الموت نفسه، فكان الفتور والتبلد الذي اسـتولى على المجتمع المصري بعد أن توالى على الناس الاستعباد والاستبداد والذل والهوان، فماتت فيهم الآمال وفقدوا بتوالي العصور أخص ما يميز الإنسان، وهـو الإرادة، فتركوا أنفسـهم للتيارات المعتركة تقذف بهـم حيثما قذفت وهم في سكون الجماد الذي لا يحس شيئًا[٢].

كان هذا هو واقع الحال في أواخر حكم الأتراك لمصر، فلما دخلها الإنجليز عام ١٨٨٢م كانـت الحياة الأوروبية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة لا تني ولا تفتر، فتأسسـت شركـة التليفونات الإنجليزية عـام ١٨٨٤م، وافتتحت السـينما الأولى بالقاهـرة عـام ١٨٩٦م، وافتتـح أول خط للترام عـام ١٨٩٧م، ثم أُنشِـئ البنك الأهـلي ومنح امتيـاز إصدار الأوراق المالية عـام ١٨٩٨م، وافتتحت الخمارات في كل مكان حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم، وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٤٤.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٤٠.

الحريـة الشـخصية التي لم يفهموا منهـا إلا أن يحل الناس أنفسـهم من كل قيد، لا يبالون دينًا ولا عرفًا ولا مصلحة[١].

ولقـد ظهر أثـر ذلك المنـاخ الاجتماعي الذي ظهـر مع الاحتـلال الإنجليزي لمصر في دعوات كثيرة، كان من أهمها ثلاث شـغلت الرأي العام في مسـتهل القرن العشرين، وهي:

١ – المطالبة بالحرية الشخصية وبالحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية الحديثة.

٢ – المطالبـة بتحرير الفكر من سـيطرة رجال الدين عن طريق فصل السـلطة المدنية عن السلطة الدينية كما حدث في أوروبا.

٣ – المناداة بتحرير المرأة المصرية حتى تصل إلى ما وصلت إليه المرأة الأوروبية.

أما الدعوة إلى الحرية الشـخصية فكانـت رد فعل عنيفًا للخضوع والذل الذي خضـع له الشـعب المصري زمنًا طويـلًا، ومن المعروف أن الحرية مطلب أسـاسي للإنسـان حتـى يستشـعر ذاته ويجد كرامتـه، ولا غضاضة في ذلك لـو كان الهدف هـو الوصـول إلى الحرية المسـؤولة، ولكـن الدعـوة إلى الحرية حينئـذٍ كانت تعني التحلـل من كل قيد حتى يفعل الإنسـان ما يشـاء ويعتقد ما يريـد ويدعو إلى رأيه بـكل وسـيلة. وكان دعاة الحرية هـذه متأثرين بالثورة الفرنسـية وبـآراء مفكريها وفلاسفتها وزعمائها.

وأمـا الدعوة الثانية التي تنادي بضرورة تخليص فكرنا الاجتماعي من سـلطان رجال الدين فقد تمثلت في المطالبة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية، وكأن الدين حجر عثرة في سبيل التقدم الفكري أو التقدم الاجتماعي، كما كانت الكنيسة عقبة في سبيل ذلك في أوروبا إبان القرون الوسطى.

(١) المرجع السابق ص ٢٥٥.

ولقد دعم الاستعمار البريطاني هذا الاتجاه بالقول والفعل، ويتمثل ذلك في الافتراء والزعم بأن الإسلام لا يصلح لحياة العصر، يقول كرومر –المعتمد البريطاني في مصر– إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي، فقد وضع قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني.

ويعدد كرومر ما يراه من معايب فيزعم بأنه يحرم المرأة حقوقَها ويعتبرها أحط من الرجل، وأنه يبيح الرق، وأنه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورقيقًا[١]، إلى آخر مزاعم ومفتريات هذا المتعصب الذي يريد أن يلفت المسلمين عن إسلامهم، حتى تدوم لهم السيطرة على ممالك الإسلام أبد الدهر. كما تمثل ذلك التدعيم لفصل الدين عن الحياة في الإهمال للدين ولرجاله وللمتمسكين به، فقد اتبع الاحتلال الإنجليزي سياسة جديدة في نظام التوظيف أدت إلى اختفاء أصحاب الثقافة الإسلامية من ميادين الإصلاح وتخلفهم عن ركب الحياة، وانحصار وظائفهم في المساجد، وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية الذين ينشؤون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ما تعلموه، فكان من جملة ما نقلوه نقلًا أعمى السخرية برجال الدين والاستخفاف بأمر الدين نفسه تبعًا للاستخفاف برجاله[٢].

وأما الدعوة إلى تحرير المرأة فكانت تعتمد على الدعوتين السابقتين، فهي تعتمد على أن الحرية الشخصية قد أصبحت حقًّا لكل إنسان ذكرًا كان أم أنثى، كما تعتمد على تخليص تفكيرنا الاجتماعي من سلطان رجال الدين الذين كانوا يصدرون في التحليل والتحريم عن اعتبار التقاليد والأوهام الموروثة واعتبارها جزءًا من

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٨١.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٨٢.

الدين، على حد زعم المنادين بتحرير المرأة، وكان من أبرز هؤلاء قاسم أمين الذي عرف بلقب محرر المرأة، فأصدر كتابين في هذا الموضوع، وهما: "تحرير المرأة" في سنة ١٨٩٩م، و"المرأة الجديدة" في سنة ١٩٠٠م، وزعم قاسم أمين في كتابه الأول أن حجاب المرأة بوضعه السائد يومئذٍ ليس من الإسلام، وأن السفور ليس فيه خروج على الدين أو مخالفة لقواعده.

يقول الدكتور / محمد محمد حسين في معرض تقويمه لهذا الكتاب: "هو كتاب موجه لخدمة فكرة معينة، يحاول مؤلفه أن يسخر النصوص لخدمتها، ولذلك جاء الكتاب مملوءًا بالمغالطات، سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الأدلة العقلية"[١].

ولذلك تعرض الكتاب والكاتب لنقد شديد، إذ ثارت ضده موجة من المعارضة، فلم يلبث قاسم أمين حين واجه هذه المعارضة وأحرجته أن كشف عن أهدافه الحقيقية في كتاب ظهر في العام التالي ١٩٠٠م، وهو كتاب (المرأة الجديدة)، الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحًا، فالتزم فيه مناهج البحث الأوروبية الحديثة التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة، سواء ما جاء منها عن طريق الدين أو ما جاء من غير طريقه، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع على حسب ما يفعله باحثو الاجتماع الأوروبيون، وهو ما يسمونه الأسلوب العلمي[٢].

وهكذا يتبع قاسم أمين في كتابه هذا المنهج الغربي ويعتمد فيه على آراء المفكرين الغربيين ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية، ويهاجم علماء الدين الذين هاجموه من قبل هجومًا عنيفًا واتهموه بالتفرنج وبإفساد تقاليد الإسلام عندما نشر كتابه الأول، وقد جرته مهاجمته

(١) نفس المرجع ص ٢٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥.

لرجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة الإسلامية في بعض الأحيان[١].

ولقد كان الدكتور هيكل من المعجبين بآراء قاسم أمين، ومن الذين يرون رأيه، وإن كان الواقع قد برهن على خطأ قاسم أمين ومن شايعه، إذ إنه فتح الباب لتهتك المرأة وتبرجها كتبرج الجاهلية الأولى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وللنهوض من هذا التردي الاجتماعي في مصر ظهرت على الساحة نزعات إصلاحية تهدف إلى النهوض بالمجتمع المصري، وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه المصلحين هي: كيف نوجد أمة راقية قوية من هذا المجتمع المفكك الذي انتهى به الجهل والفقر مع تحكم الاستبداد فيه أجيالًا طويلة إلى حال من اليأس أصبح معها لا يكترث لشيء مما يجري حوله، بل أصبح في حالة فقد معها التمييز بين الضار والنافع، واختلط عليه فيها الخير والشر، وأنس إلى الظلام حتى أصبح النور يؤذي عينيه؟[٢]

وتتلخص هذه النزعات الإصلاحية في ثلاث:

١ - الأخذ بأساليب الحضارة الغربية:

وكان ينادي بهذا الاتجاه عدد من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين، بعضهم من الشاميين المسيحيين الذين استقروا في مصر، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم في أوروبا أو في مدارس الإرساليات الأوروبية، وكان هؤلاء الداعون إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية في الإصلاح من الذين فتنتهم مظاهر هذه الحضارة حين عاشوا في البلاد الأوروبية أثناء دراستهم، أو من نشأوا في مدارس الإرساليات الدينية المنبثة في أنحاء الشرق، واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم من ثقافتهم الغربية التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية بأدنى صلة، وبذلك توثقت الصلات الثقافية والروحية بينهم وبين الغرب المسيحي على حساب صلاتهم الثقافية والروحية

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٣٩، ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩١.

بينهم وبين الشرق الإسلامي، وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقترن في أوهامهم إلا بحاضر الشرق المهين، وبتلك الحالة المتردية من الجهل والفوضى والانحلال التي تسود مجتمعات الشرق، فصدقوا مقولة الأعداء الآثمة التي تدعي أن الإسلام دين لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين.

ولقد نال هذا النفر عناية مندوب الاحتلال في مصر كرومر، الذي أعلن في غير حياء أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد من غير مواربة أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين الذين تربوا تربية أوروبية، وبذلك استطاع هذا التيار على مر الأيام أن يكسب أنصارًا من الشباب والمفكرين الذين يطمحون إلى القوة ويتوقون إلى النهضة بوطنهم، ويرون أن من الخير الاستفادة من تجربة الغرب، ولا يرون في ذلك بأسًا على الإسلام والمسلمين، بل طمحوا إلى منافسة الغرب في هذا الميدان، حيث خيل إليهم أن السبيل إلى نهضة الشرقيين هو في الأخذ بأساليب الغربيين في الحياة والتفكير[١].

٢ – النهضة على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا:

وقد رأى أصحاب هذا المذهب في الإصلاح الاجتماعي أنه لا بد أن يقوم هذا الإصلاح على أساس سليم من ديننا الحنيف وتمسك بتقاليدنا الشرقية النابعة من روح هذا الدين العظيم، وردوا على أصحاب المذهب الأول قائلين: "إن الأمم الإسلامية التي سقطت تحت أقدام الغرب لا يمكن أن تنهض على أساس اعتناق مبادئه، لأن هذا لا يؤدي إلا إلى إفناء نفسها فيه، ولا ينتهي إلا إلى إعجابها بمستعبديها وسكونها إليهم وأنسها بهم، وعند ذلك لا تجد في نفسها ما يحفزها للتخلص منهم، لأنها ستفقد إحساسها بأنهم غرباء عنها". ولذلك نادى هذا الفريق من المصلحين بأن النهضة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا[٢].

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين جـ ١ ص ٢٣٩، ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩١.

وكان منهج هؤلاء في الإصلاح هو تبصير الناس بحقيقة الدين، ونفي ما علق بـه على مر العصور من أمور ليسـت منه، ولكن حسـبها النـاس -جهلًا- أنها منه رغم أنها تناقضه أشد المناقضة، فاتجهوا إلى تخليص الإسلام مما شابه من أوهام وما خالطـه مـن انحرافات، ليقدموه للنـاس في صورته الصحيحـة النقية التي أوحى بها الله وطبقها رسـول الله ﷺ، ليبينوا للناس أن الإسـلام سهل وبعيد عن التعقيد الذي اكتنفه بسـبب ما ألصق به من بدع ومنكرات، وكان من أنصار هذا المذهب السيد جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم والشيخ محمد عبده في أول أمره.

٣- مذهب التوفيق بين الإسلام وحضارة الغرب:

ويري أصحاب هذا الاتجاه أن النهوض الاجتماعي يجب أن يقوم على أسـاس الإسـلام، مع ضرورة الاسـتفادة من معطيات الحضارة الغربيـة التي لا تتعارض مع قواعد الإسـلام، وذلـك في محاولة للتوفيق بين الإسـلام كدين وبين الحضارة الغربية كأسلوب حياة.

ولا شـك أن هذا من الخطورة بمكان، لأنه يتشـح بوشـاح الإسـلام ثم يعيش حياته بأسلوب حضارة الغرب، التي هي في الحقيقة نتاج عقيدة وفكر مناقض بل ومناهض للإسلام، فكيف يلتقي النقيضان ويتحاب العدوان؟

وكان من أنصار هذا المذهب الشـيخ محمد عبده حين اتجه إلى تقريب الإسـلام مـن الحضـارة الغربية والتفكـير الغربي الحديث بعـد عودته من المنفـى، وقد اتخذ اتجاهه هذا أشـكالًا مختلفة، منها تفسـيره لنصوص الدين من قرآن وسـنة تفسـيرًا يخالف ما جرى عليه السلف، ليقرب بها إلى أقصى ما تحتمله بل إلى أكثر مما تحتمله في بعـض الأحيـان من قرب لقيم الغـرب وتفكيره، لكي يصل آخـر الأمر إلى أن الإسلام يساير حضارة الغرب ويتفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه[1].

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين جـ ١ ص ٣١٦.
انظر المرجع السابق ص ٢١.

وهكـذا كانت الحياة الاجتماعية في عصر الدكتـور هيكل قلقة مضطربة يحاول المصلحون أن يجدوا مخرجًا من هذا القلق ونهاية لهذا الاضطراب.

الحالة الدينية في عصر الدكتور هيكل:

إن الديـن الإسـلامي الذي ندين الله بـه هو دين كامل ومنهاج شـامل يضمن للمؤمنين به –إن هم سـاروا على هديه– سـعادة الدنيا وفلاح الآخرة، وهي ميزة لا تتوفر لغيره من الأديان المعاصرة له، سـواء الديانات السماوية إذ إنها قد حُرِّفتْ وبُدِّلتْ، أو الديانات البشرية لأنها من وضع البشر.

وشـمولية هذا الدين العظيم كانت على مـر العصور مثار حقد الحاقدين وكيد الشـانئين الذين جعلوا الكيد للإسـلام شـغلهم الشـاغل، واتخذوا من الصد عنه وتعطيله هدفهم الأسمى الذي يعملون جاهدين لتحقيقه والوصول إليه.

وفي عـصر الدكتـور هيـكل ظهر هذا الحقـد واضحًـا جليًّا، واتخذ هـذا الكيد صورة سـافرة كالحة بعد أن أصبحت السيادة على ممالك الإسلام لهؤلاء الأعداء، فقد وقعت معظم أقطاره تحت سيطرة الاستعمار الغربي الصليبي منذ أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين، فما كاد الحلفاء ينتصرون في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) حتى وضعوا أيديهم على تركيا بلد الخلافة الإسلامية، واقتسموا توابعها من أقطار العالم الإسلامي، وقبل هذا الاحتلال العسكري كان الأعـداء قد مهدوا لـه بالاحتلال الفكري، وتغلغلوا عن طريقـه إلى مراكز التأثير على النفسية الإسـلامية، وأخذوا يزحزحون الإسلام عن توجيه الحياة، وحاولوا جاهدين أن يحصروه في مظاهر تعبدية ميتة لا أثر لها في حياة المسلمين، فكانت الهجمة الشرسة ضد كل مظهر من مظاهر الإسلام في واقع الحياة، سواء كان هذا في الناحية السياسـية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو غيرها من كل جوانب حياة المسـلمين.

لقد تعرضت الخلافة كصورة من صور الحكم الإسلامي لضربات عنيفة، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة سنة ١٩٢٤م، ونُحِّيَ نظام الإسلام في الاقتصاد عن الحياة

ليحل محله النظام اليهودي الربوي والشيوعي، وتعرضت المؤسسات التعليمية التي تُعنَى بالتعليم الديني للإهمال الشديد، لتنتزع منها مكانة الصدارة مؤسسات التعليم المدني ومؤسسات التعليم الأجنبي، وانعكس هذا كله على الحالة الدينية بالتدهور، لقد انتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م بانتصار دول الحلفاء وانكسار دول المحور وحليفتها تركيا، ودخلت القوات المنتصرة الأستانة عاصمة الخلافة الإسلامية فاحتلتها، وتقاسمها الإنجليز والفرنسيون والطليان وسيطروا على كل شيء فيها، حتى أصبح الخليفة سجينًا أو كالسجين.[١] ولكن سرعان ما اندلعت نار الثورة في الأناضول بقيادة مصطفى كمال، واتخذ من أنقرة مركزًا لحركته، وأخذ يحوز الانتصارات ضد قوات اليونان، حتى تم له إجلاؤها عن الأناضول كله في أواخر سنة ١٩٢٢م[٢].

وقد اعتبر المسلمون أن هذا انتصار للإسلام والمسلمين، فتعلقوا بهذا القائد المظفر وكأنه مبعوث العناية الإلهية لإقالة عثرة الخلافة وإحياء مجد الإسلام، وكان الناس إذا قارنوا كفاح هذا القائد المظفر مصطفى كمال باستسلام الخليفة القابع في الأستانة مستكينًا لما يجري عليه من ذل، كبر الأول في نظرهم بمقدار ما يهون الثاني، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف من إهداره دم مصطفى كمال واعتباره عاصيًا متمردًا، ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلًا مكافحًا يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة[٣].

ولما تم النصر لمصطفى كمال وجنوده ودخلوا الأستانة عزلوا وحيد الدين عن السلطنة، فاحتمى بالجيوش الإنجليزية ولجأ إلى مالطة، ثم أعلن مصطفى كمال فصل الدين عن الدولة، وعين ولي العهد الأمير عبد المجيد خليفة مجردًا عن السلطة

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين جـ ٢ ص٢٠.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢١.

(٣) نفس المرجع ص ٢٥.

ويقيم بالأستانة، ثم أعلن قيام الجمهورية التركية، واتخذ من (أنقرة) عاصمة لها، ثم كانت قمة المأساة حين عزل عبد المجيد وأعلن إسقاط الخلافة الإسلامية.

وإزاء هذه الأحداث انقسم الناس بين مؤيد له ومعارض، ولكن الكثرة كانت من المؤيدين، ويلقون عليه آمالًا كبيرة، عسى أن يعيد للمسلمين مجدهم السليب وعزهم الغابر، وفجأة وبينما الناس في مصر مشغولون بتبرير تصرفات مصطفى كمال والدفاع عما ابتدعه في الخلافة حين جردها عن السلطة وفصلها عن الدولة، إذا بهم يفاجؤون ويفاجأ العالم الإسلامي كله بالرجل الذي يضعون فيه ثقتهم وآمالهم ويجتهدون في حمل تصرفاته المريبة على أحسن الوجوه يكشف القناع فجأة عن وجهه ويسفر عن حقيقة نواياه، فيلغي الخلافة ويطرد الخليفة وآله وأسرته جميعًا إلى خارج حدود تركيا بعد أن جردهم من أملاكهم وأموالهم[١].

هنالك أسقط في أيدي هؤلاء الكثرة التي خُدِعَت فيه، وأصابهم الجزع والذهول وأخذتهم الحيرة والاضطراب، فلم يعرفوا ماذا يصنعون، وقد أصبح العالم الإسلامي بلا خليفة وذلك للمرة الأولى منذ وفاة النبي ﷺ. كانت أول خطوة أخرجت الناس مِمَّا هم فيه من حيرة وارتباك صدور بيان مذيلًا بإمضاء ستة عشر عالمًا من علماء الأزهر يقررون فيه بطلان ما فعله الكماليون من عزل الخليفة عبد المجيد، وينبه هذا البيان المسلمين إلى حاجتهم للخليفة، ثم يدعوهم للإسراع في عقد مؤتمر يقرر ما يراه في أمر الخلافة من الطريق الشرعي، ويحذرهم من الخلاف الذي يؤخر الإسلام ويوهنه[٢].

وعندئذٍ كثرت الدعوات لعقد مؤتمر الخلافة، وبرز اسم مصر ولمع اسم الأزهر كمصدر لهذه الدعوات ومركز من أهم مراكز النشاط الإسلامي الذي يحاول معالجة هذه المشكلة، وقرر العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر في مارس سنة

(١) نفس المرجع ص ٢٣، ٣٣.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين جـ ٢ ص ٢٠.

١٩٢٤م دعوة ممثلي جميع الأمم الإسلامية إلى مؤتمر يعقد في القاهرة برئاسة شيخ الإسلام للبت فيمن يجب أن تسند إليه خلافة المسلمين، وحددوا تاريخ انعقاده بعد عام، ولكن المؤتمر لم ينعقد في موعده، إذ تأجل مرة بعد مرة، ولم ينعقد إلا في الثالث عشر من مايو عام ١٩٢٦م، وكان اجتماعًا فاشلًا لم يسفر عن شيء،[١] وذلك بسبب الخلاف والمنافسة على منصب الخلافة، إذ كان ملك الأفغان طامعًا فيها، كما كان الملك فؤاد ملك مصر يرشح نفسه لها، في حين أن الملك حسين بن علي قد أخذ لنفسه البيعة بها في فلسطين وشرق الأردن، وكانت إنجلترا تتآمر ضد الخلافة الإسلامية وتعارض ظهورها في أي صورة من الصور. وهذا يظهر أهمية الخلافة الإسلامية ودورها في كيد أعداء الإسلام، إذ إنها تمثل الرابطة التي تجمع شتات العالم الإسلامي وتجعله كتله واحدة مترابطة.

ولقد انقسم العلماء وذوو الرأي من المسلمين في شأن الخلافة إلى قسمين:

الأول تمثله الهيئة العلمية لعلماء الأزهر الرسميين وعلى رأسهم شيخ الجامع الأزهر، والثاني تمثله جماعة الخلافة الإسلامية برئاسة الشيخ محمد ماضي أبو العزايم، وكانت الهيئة الأولى ظاهرة الميل لمؤازرة الملك فؤاد وترشيحه للخلافة، وكانت تحظى بتشجيع الحكومة، وتلقى منها كل ما تطلب من معونة، وكانت اللجنة الثانية تعارض في هذا الترشيح، وتقرر أن مصر لا تصلح دارًا للخلافة بل ولا تصلح لانعقاد المؤتمر العام للخلافة بها، وهي تدعو لوجوب انعقاد هذا المؤتمر في مكة المكرمة، أو في أي مكان آخر من عواصم الممالك الإسلامية الحرة.[٢]

ولقد كان الدكتور هيكل -سامحه الله- مخطئًا، حيث كان من الذين يرون أن مسألة الخلافة ليست مسألة دينية، وإنما هي مسألة سياسية، ولذلك فعلى علماء الأزهر أن يعدلوا عن المؤتمر ويتركوا بحث هذه المسألة للسياسيين.

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٥، ٤٦.

(٢) نفس المرجع ص ٤٧، ٤٨.

وشنت صحفية (السياسة) و(السياسة الأسبوعية) التي يرأس تحريرها الدكتور هيكل حملة شعواء ضد الخلافة ومؤتمرها، وتزعم هذه الحملة الشيخ علي عبد الرازق، وأصدر كتابه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) الذي يقول عنه الأستاذ الدكتور / محمد محمد حسين:

"كان هذا الكتاب أخطر ما ظهر فيما كُتِب عن الخلافة مما كان صدى لما تلا الحرب من تطورات في تركيا، ولا ترجع خطورته لدقته في البحث، فالكتاب يمتاز بجمال أسلوبه أكثر من امتيازه بالتزام المنهج العلمي، فهو يعتمد على المستشرقين فيما لا يوثق بهم فيه، بينما يفرط تفريطًا ظاهرًا في الرجوع إلى المصادر العربية الأصلية على كثرتها وأهميتها وتوافرها"[١].

ثم يقول: "ليست خطورة الكتاب راجعة إلى دقته في البحث، ولكن خطورته ترجع إلى الظروف التي أحاطت بظهوره، كما ترجع إلى جرأته وعنفه في مصادمة عواطف الناس، ثم إن الكتاب قد ظهر بعد إلغاء مصطفى كمال الخلافة، والناس يكادون يجمعون على تسفيه صنيعه، وظهر حين كان كثير من المسلمين يطعمون في الخلافة ويسعون إليها، وظهر حين كان الأزهر يبدي نشاطًا واضحًا في الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي أو مؤتمر الخلافة، وانتهت هذه الظروف بمؤلف الكتاب إلى المحاكمة أمام هيئة كبار العلماء، فأصدرت حكمها في الثاني عشر من أغسطس عام ١٩٢٥م، وهو يقضي بإخراج الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء"[٢]. وثارت لهذا الحكم ثائرة حزب الأحرار الدستوريين الذي ينتمي إليه الشيخ علي عبد الرازق والدكتور هيكل، واعتبروا هذا الحكم حَجْرًا على حرية الرأي ومصادرة لحرية الفكر، ورفض وزير

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د / محمد محمد حسين ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق ص ٨١.

الحقانيـة حينئذٍ عبـد العزيز فهمي تنفيذ هذا الحكم، لأنـه كان من حزب الأحرار الدسـتوريين، فعزله الملك، فاستقال وزراء الدستوريين من الوزارة احتجاجًا على عزل الوزير وتضامنًا معه[١].

هـذا وقـد كان إلغـاء الخلافـة الإسـلامية عـام ١٩٢٤م نكبة أصابـت وحدة المسـلمين في مقتـل، فلم يجتمع لهم شـمل بعدها أبـدًا، وصاروا كالجـزر المعزولة التائهـة في محيـط البشرية المتلاطم، يقتلون في كل مـكان ولا يبكيهم أحد، ويجري دمهـم المسـفوح أنهارًا على أيـدي أعدائهم، ولا نصير لهم بعـد أن تقطعت أواصر الوحدة بين أبناء الإسلام.

إن واقـع المسـلمين ليؤكد أن الخلافة هـي التطبيق الصحيح لوحدة المسـلمين وتضامنهـم، ولذلـك عمل الأعداء عـلى إسـقاطها وإلصاق كل نقيصـة بها، فلما سـقطت عملوا على عـدم عودتها مرة أخرى، وأقنعوا المسـلمين بذلك حتى صار من ينادي بعودة نظام الخلافة الإسـلامية كأنه يدعو إلى عودة الظلم والاسـتبداد، ونسـوا عصر الخلافة الراشـدة، ولو عقلوا لعلموا أن ما حدث من مسـاوئ إبان عصـور الخلافـة كان مرجعـه إلى عيـب في التطبيـق، ولم يكن قصـورًا أو خللًا في النظام حتى نتخلى عنه أو نحمله أخطاء المخطئين.

كذلك اتسمت الحالة الدينية في عصر الدكتور هيكل باشتداد الحملة التبشيرية وعنفها ضد الإسـلام، بعد أن أضحت السـيطرة السياسية لدول الغرب الصليبي على بلاد الإسـلام، فعمل الاستعمار المسـيحي على إنجاح خطط المبشرين، ومهد لهـذا النجاح بإحيـاء القوميات العرقية كالفرعونية في مـصر، والبربرية في المغرب العـربي، والآشـورية والبابليـة في العراق، وذلـك لفك عرى الوحدة الإسـلامية وتوهين الرابطة الدينية، ومكن الاسـتعمار لهؤلاء القوميين في كل قطر حتى كانت لهم السـيطرة وصار إليهم زمام الأمور، فلما تم له ذلك خيل إليه أن الإجهاز على

(١) نفس المرجع ص ٨٢.

الإسـلام صار قريب المنال، بعد أن رأى سـيادة الأحزاب الداعية إلى الشعوبية في الممالك الإسـلامية، وخفوت صوت الداعين إلى الجامعة الإسلامية، عند ذاك غزا المبشرون البلاد الإسـلامية بحملة تبشـيرية ضخمة، ظهر فيها اسم قسيس عرفته مصر قبل الحرب العالمية الأولى في جولاته التبشـيرية، وهو القسيس البروتستانتي (زويمر) الذي كان رئيسًـا لإرسالية التبشير العربية في البحرين، والذي كان أول من دعا إلى عقد مؤتمر عام للداعين إلى التبشير بين المسلمين، فرأس مؤتمر القاهرة عام ١٩٠٦م. عاد اسم زويمر للظهور مرة أخرى، وكثر حديث الصحافة المصرية عـن جرأته على الإسـلام في بلـده، حتى إنه ليخطـب في الأحيـاء الوطنية التي لا يسكنها إلا المسلمون، حاثًا الناس على اعتناق النصرانية، بل لقد بلغ من جرأته أن دخل الأزهر يومًا ليوزع فيه منشوراته التي تفيض بالطعن على الإسلام[1].

ومما زاد الحالة الدينية سـوءًا إبان هذه الفترة زيادة جهود المبشرين المنطلقة من ميـدان التعليم، ففتحوا المـدارس الأجنبية التي لم تقتصر على تعليم أبناء الأجانب وإنـما فتحت أبوابهـا أمام أبناء المسـلمين وزاد الإقبال عليها على حسـاب التعليم الوطنـي عامـة والدينـي منـه خاصـة، ذلـك أن الأعداء قـد أحكمـوا الخطة ضد الإسلام دراسة وعلومًا ونظمًا، فصوَّروا الأزهريين والتعليم الأزهري بالجمود في الفكر والعقم في الأسلوب، وإذا كان حال التعليم في الأزهر قد اتسم فعلًا ببعض هذه السـمات فإنـه كان الوعـاء الحافظ للتراث الإسـلامي إبان عصـور التخلف والانحطـاط، وكأنـه في حالـه هذا أشـبه شيء بالشـجرة التي تتخلى عـن أوراقها فتنفضهـا في فصـل البرد القارس لتحتفظ بأصل الحياة، فـإذا ما انتهت هذه الفترة القاسـية واعتـدل المناخ أخرجـت أوراقها وأزهارهـا وثمارها، فكانـت أكثر بهاءً وأعظم عطاءً. هكذا كان الأزهر في العصور القاسـية التي مرت بها أمة الإسـلام، فكان الحافظ لتراث الأمة والأمين عليه، فهل يُعاب بذلك؟

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ص ١٥٤ (جـ ٢).

لقد اتُّهِمَ الأزهر والتعليم الأزهري خلال هذه الفترة بالتخلف والجمود، ولم يكن الأزهر هو المقصود، وإنما كان الإسلام هو المستهدف بهذه الحملة المسعورة، فقد أراد الكارهون للإسلام أن يعزلوه عن الحياة بعزل من يحملون اسمه ويتوفرون على تعلمه وتعليمه، فأنشأوا المدارس المدنية وأولوها عنايتهم ورعايتهم، وآثروا من يتخرجون فيها بالمناصب المرموقة، وبالمقابل أهملوا شؤون الأزهر وحاولوا احتواءه والسيطرة عليه ليزلزلوا مكانته ومكانة خريجيه، حتى كان عالم الأزهر لا يتقاضى ما يتقاضاه زميله من خريجي المدارس المدنية، رغم أنه يقوم بنفس العمل.

وكما فصلوا الدين عن السياسة بحجة أن الدين لا يعني إلا الجانب الروحي من جوانب الحياة، أما كافة جوانبها الأخرى بما فيها القيادة والحكم فاعتبروها من شؤون الدنيا التي لا دخل للدين فيها، فكذلك عزلوا علماء الدين عن الحياة بدعوى أن عملهم إنما هو الوعظ في المساجد والصلاة على الجنائز، وما عدا ذلك فمن نصيب أهل الدنيا.

وهكذا حورب الدين الإسلامي حربًا لا هوادة فيها، وللأسف كان المسلمون هم أدوات هذه الحرب الظالمة، فكانوا هم السلاح في يد الأعداء وكانوا هم المعاول في أيدي من يحطمون صرح الإسلام.

وحتى يخرج علماء الأزهر من هذه الدائرة الضيقة التي وضعهم فيها أعداء الدين، كان التفكير في إصلاح الأزهر بإدخال العلوم الحديثة فيه وتغيير طريقة التأليف والتدريس فيه، حتى يتسلح أبناؤه بأدوات العصر التي تتيح لهم أن يتواجدوا على مسرح الحياة، ليؤدوا دورهم فيها بفاعلية.

وهكذا نجد أنه في ضوء ظروف التعليم في مصر حتى النصف الأول من القرن العشرين، حيث إنه كان يتكلف الكثير، فقد كان السبيل الوحيد للطبقات الفقيرة للتعلم هو الأزهر الذي فتح صدره لمن لم يستطيعوا تحمل مصروفات المدارس

المدنيـة، وأصبـح التعليم في الأزهر حسـنة من الحسـنات ونوعًا مـن التقريب بين الغنـي والفقير بالعلم ولو في المسـتقبل القريب، ونتيجة لهذا المسـتوى الاجتماعي فقد عرف عن العلماء صفة التواضع[١].

والحق أن تواضع علماء الأزهر ليس ناشئًا عن ضعف راجع لانخفاض طبقتهم الاجتماعية أو قلة حظهم من حطام الدنيا، وإنما تواضعهم هو تواضع العلماء، فهو أثر من آثار العلم الصحيح وثمرة من ثمار تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

ونظـرًا لمعاناة علماء الأزهر أثناء مسـيرتهم العلميـة والعملية، فقد كان أكثرهم يجنبـون أبناءهـم التعليـم في الأزهر، بـل كانوا يرسـلونهم إلى المـدارس المدنية أو المدارس الأوروبية، ربما إشفاقًا عليهم من الظروف التي واجهوها في حياتهم.

ولقد أدرك زعماء الإصلاح في الأزهر هذه الحقيقة، فدعوا إلى تشجيع الطبقات الغنية على إرسـال أولادهم إلى الازهر، وربطوا ذلك بإصلاح منهج الدراسـة بما يسـمح للأزهري أن يتولى الوظائف المرموقة في الدولة، لأن الأزهر في وجود دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي وتجهيزية دار العلوم كان يقتصر دوره على تخريج علـماء للمعاهـد الدينية وخطباء للمسـاجد، وهي وظائف غـير مرغوبة في معظم الأحوال، وقد جعل ذلك التعليم الديني قاصرًا على بعض الطبقات التي ليس لها آمال سامية في الحياة[٢].

أي ليس لها تطلعات إلى المجد والشـهرة والسلطان، ولم يكن هذا بطبيعة الحال ناشـئًا عن ضعف أو هوان، وإنما هو الزهـد في العاجلة والرجاء في الآجلة، لأنهم نظروا فإذا الدنيا لا تُنَال إلا على حسـاب الآخرة، لأن القائمين على أمر المسـلمين إما هم ملوك آل اليهم الأمر بالميراث، وإما هم عسـكريون وصلوا إلى الحكم عن طريق القوة، وهؤلاء وأولئك لا حظ لهم من علوم الدين.

(١) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ – ١٩٦١ د/ عاصم الدسوقي ص ٧٠.

(٢) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ – ١٩٦١ د/ عاصم الدسوقي ص ٧٠ – ٧١.

ولقد حرص أصحاب السلطان على أن يجعلوا من علماء الدين أدوات في أيديهم يسوسون بهم الناس، فبسطوا عليهم هيمنتهم، فكانت مشيخة الأزهر -منذ إنشائها عام ١٨٩٥- تدعم وجودها بين العلماء وبين المجتمع بشكل عام بالاستناد إلى السلطة الحاكمة (أولي الأمر)، فهي تدين بالولاء الكامل لهذه السلطة أيًّا كان نوعها، ملكيًّا أو جمهوريًّا، دكتاتوريًّا أو ديمقراطيًّا، وذلك استنادًا إلى أن الجالس على كرسي الحكم يمثل سلطة شرعية، وأن الأمر الديني في هذا يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[١].

ولقد زادت درجة الولاء والتبعية منذ خصصت الحكومة في ميزانيتها إعانة مالية للصرف على الأزهر في أواخر القرن التاسع عشر، وكان هذا بداية فقدان الأزهر لاستقلاله الذاتي، الذي كان يستمده أساسًا من استقلاله الاقتصادي المعتمد في التمويل المالي على الأوقاف الخيرية.

وبالاستناد إلى السلطة الحاكمة ابتعد العلماء عن الانتماء لأية قوة سياسة أخرى، وكانت اللوائح الداخلية تحظر على العلماء الاتصال اتصالًا تنظيميًّا بالأحزاب السياسية أو العمل في مهن غير الاشتغال بالعلم، وإلا تعرض للتأديب[٢].

وبهذا الارتباط بالسلطة الحاكمة خرج العلماء من صفوف قوى الثورة الاجتماعية التي تطالب بالتغيير الاجتماعي عن طريق تغيير نظام الحكم القائم، ولكنهم ظلوا في طليعة قوى الثورة الوطنية إذا كانت ضد الاحتلال الأجنبي، وهذا هو دورهم الحقيقي في التاريخ[٣].

(١) سورة النساء الآية ٥٩.

(٢) مجتمع علماء الأزهر في مصر د/ عاصم الدسوقي ص ٨٦، ٨٧.

(٣) المرجع السابق ص ٨٧.

"الباب الأول"

(منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن رسول الله ﷺ)

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: دوافع التأليف ومحاولة النهوض بالأمة الإسلامية من خلال الكتابة عن تراثها لتربط حاضرها بماضيها.

الفصل الثاني: حركة التبشير والرد عليها بما يتفق مع أسلوب العصر الحاضر.

الفصل الثالث: ما اختلف فيه مع علماء السيرة والحديث ووجه الصواب في ذلك.

الفصل الأول:

دوافع التأليف ومحاولة النهوض بالأمة الإسلامية من خلال الكتابة عن تراثها لتربط حاضرها بماضيها.

- دوافع التأليف:

لقد عاصر الدكتور محمد حسين هيكل ﷺ في صدر شبابه أحداثًا كبرى وظروفًا دقيقة عاشتها مصر والأمة الإسلامية، إذ ولد ومصر تحت حكم الولاة من أسرة محمد علي من عام ١٨٨٢، وانفرد الاستعمار البريطاني بمصر في أعقاب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، بعد زوال تبعيتها لتركيا التي انهزمت في هذه الحرب، وحتى ذلك التاريخ كان الشعب المصري تتنازعه هذه القوى المختلفة: القصر والسلطنة العثمانية وممثل الاحتلال أو المعتمد البريطاني، وانعكس هذا الوضع السياسي على الحالة الفكرية، وظهرت آثاره السيئة على الحالة الاجتماعية، والدكتور هيكل ﷺ عايش هذه الظروف وتأثر بها، وحاول أن يجد مخرجًا من هذا المأزق الذي أخذ بخناق الأمة وكاد يقضي عليها قضاء مبرمًا، وهي تغط في سبات عميق.

وحسب الدكتور هيكل كما حسب غيره من الشباب المثقفين بالثقافة الغربية وتشبعوا بها أن الأخذ بأساليب ووسائل الحضارة الغربية هو طوق النجاة الذي ينقذ الأمة من الغرق في مستنقع التخلف الآسن، ويحفظها من التردي إلى هاوية الدمار، لذلك ظل هؤلاء الشباب يدعون إلى الحضارة الغربية مستندة إلى أصلها الصحيح، أي إلى حرية البحث ونزاهة العلم، ويدعون إلى ذلك في حرارة، لم يكن من شأن الجامدين على التقليد الديني الذين رموهم بالإلحاد إلا أن زادوها قوة واستعارًا[1].

(١) ملحق السياسة الأسبوعية ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٢ عن كتب: المعارك الأدبية في مصر الأستاذ أنور الجندي ص ٣١٤.

وفي هذه الأثناء بدأ الجيل الجديد –جيل الدكتور هيكل وأقرانه– يتمثل الموجة الغربية ويعمل على تطوير الحياة المصرية على نمطها الأوروبي ومزج العقليتين المصرية والغربية، في جرأة يشوبها العناء، وكان أبناء هذا الجيل يكتشفون في نفوسهم كل يوم رواسب عميقة من تراث الماضي لا يتبينونها، وإن كانت تشدهم إليها شدًّا لا يستطيعون منه فكاكًا. فقد اجتاحتهم الموجة الغربية وكانت من القوة بحيث قذفت بهم مبهورين بالجمال والجلال والإبداع العقلي، الذي حفل به الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر بعيدًا عن جذورهم الأولى، يدفعهم التحدي لملاقاة الحركة المحافظة التي أسفرت وهي تجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف[١].

ولكن فوجئ هذا الشباب المصري الذي تبنى الدعوة إلى الأخذ بالحضارة الغربية الحديثة كمخرج من هذا التخلف بأن أصحاب هذه الحضارة من الغربيين يحاولون تدمير هذا الشرق والحيلولة دون وصوله إلى التحضر الحقيقي، فما يصدر الغرب إلى الشرق من آثار حضارته قد توقف أوكاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة، وعندما كان يؤتى بلاد الغرب من الربح المادي ما يمده بأسباب الرخاء والترف، فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة وأدوات اللهو وجوقات الهذر المسرحي كانت أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب في الشرق.

ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوآتها هذه، بل إن الغرب قد وقف حائلًا دون سرعة انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل في حدود طاقتهم لنشره والتمكين له[٢].

فوجئ هؤلاء الشباب بأن هناك تناقضًا بين ما تعلموه في أوروبا وبين مسلك الأوربيين تجاه الشرق الإسلامي، فبينما تعلموا حرية البحث العلمي من كل قيد

(١) هيكل بين الحضارتين. أحمد زلط ص ٩٥ – ٩٦.

(٢) ملحق السياسة الأسبوعية ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ عن كتب المعارك الأدبية في مصر أنور الجندي ص ٣١٥.

ديني أم غير ديني إذا بالاستعمار يحارب هذه الحرية في مستعمراته الإسلامية، ويحول دون وجودها، حتى إن المعتمد البريطاني يكتب في تقاريره أن مصر لا تحتاج إلى علماء، وإنما تحتاج إلى موظفين، وبهذا حارب الغربيون انتشار العلم الذي هو أساس الحضارة الحديثة، وجعلوا مناهج العلم في الشرق لا تخرج إلا موظفين مطواعين لأداء الأعمال لا غير.

وكذلك فوجئ هؤلاء الشباب المفتونون بمظاهر الحضارة الغربية بظاهرة غريبة تدل على عدم مصداقية الغربيين فيما يعلنون من أنهم إنما يريدون الخير والتقدم لأهل الشرق، ألا وهي ظاهرة انتشار المبشرين الغربيين في كل مكان، حتى في القرى والكفور والنجوع، يدعون إلى المسيحية ولا يتحرجون من التعريض بالإسلام، وبهذا أخذت الأقنعة الزائفة تتساقط، فكشفت الحضارة الغربية عن وجهها الكالح الذي غاض منه ماء الحياء وتبدت به عورات وسوآت استترت وراء هذه الأقنعة، وكان أقبح هذه السوآت مادية طاغية واستعمارًا أثيمًا وتعصبًا بغيضًا.

لقد أثبتت الأيام للشباب المفتون بحضارة الغرب أن الحرب العظمى التي دارت رحاها طوال أربع سنوات بين دول أوروبا أزهقت خلالها ملايين الأرواح وأفنت الملايين من الثروات وأهدرت الكثير من الموارد لم يكن لها من هدف تسعى من أجله أو قضية تناضل من أجلها إلا قضية الاستعمار، ومن يكون له حق التوسع فيه دول المحور أم الحلفاء، ثم أثبتت كذلك لهؤلاء أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني ما زال يذكر الحروب الصليبية التي نشبت خلال القرون الوسطى بين المسيحية والإسلام، وأن كلمة اللورد (اللبي) يوم استولى على القدس، وهي قوله: "إن الحرب الصليبية قد انتهت"، كانت تعبر عن معني يجول بخاطر الدول الأوروبية جمعاء[1].

(١) ملحق السياسة الاسبوعية ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٢ عن كتاب المعارك الأدبية في مصر أنور الجندي ص ٣١٥.

كل هذه الحقائق جعلت الذين بهروا بأضواء الحضارة الأوروبية والذين رأوا فيها المخلص للشرق مما يعانيه من جمود وتخلف، جعلتهم يراجعون أنفسهم وحفزتهم على الرجوع إلى جذورهم الفكرية وأصولهم الحضارية يلتمسون فيها ما عجزت الحضارة الغربية عن تقديمه، فقد لاحظ هؤلاء أن الترقي في الحضارة الغربية الحديثة لم يمنع من أن تهبط تلك الحضارة ذاتها بمقدار ما وصلت إليه من رقي، لأنها في أساسها ومظاهرها قامت على أساس مادي، وأهملت في سعيها المادي أهم ركيزة، ألا وهي الركيزة الروحية التي لا تتناقض مع أسباب العلم وطرائقه، ومن ثم تتواصل معه فيحدث التواصل الحضاري المنشود لا الانقطاع الحضاري الذي تنبذه الإنسانية في مراحل سيرها[١].

عندئذ حاول هؤلاء النفر الذين يسعون إلى الارتقاء بوطنهم ومنهم الدكتور هيكل إيجاد قاعدة فكرية تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ المصري، كبديل عن هذه المعطيات الغربية التي فشلت في إشباع الروح المصرية لدى المصريين، فكانت دعوة الدكتور هيكل إلى إحياء الفرعونية في مصر بكتاباته المتعددة في هذا المجال، فقد شغلته الدعوة إلى الفرعونية طويلًا، إذ كان يطمح إلى أن يصل حاضر مصر بماضيها التليد، وتجاوز بدعوته هذه إلى تطبيق فكرته ببلاد الشرق، لأنها كواجب قومي -على حد تعبيره- تؤدي إلى نتيجة هي خير النتائج.[٢] ولكنه في نهاية المطاف وجد أنه لا سبيل إلى ذلك نظرًا لبعد المسافة بين الماضي والحاضر وتطاول الزمن بينهما، فآثر راضيًا الانسحاب بفكرته عن الفرعونية، وبدأ يعود إلى حظيرة العروبة والإسلام، ليكتب بعد ذلك بنحو عشر سنين بحوثه الإسلامية. والحقيقة أن دعوة هيكل للفرعونية لم تعش طويلًا، وكان من أخطائه أن يروج لها في وسط تطورت فيه نظم الحياة والحكم واللغة والعقائد في مجرى التطور الإنساني، ولأن الاختلاف واضح في نظريات التواصل الحضاري كما يقرر علماء

(١) الدكتور هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية أحمد زلط ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق ص ١١١.

الاجتماع والتاريخ والوراثة والأجناس، فكيف وقف الدكتور هيكل عند الدعوة إلى الفرعونية هذا الموقف الذي عد من أخطائه؟

العودة إلى رحاب التاريخ الإسلامي والسيرة العطرة:

لقد حاول الدكتور هيكل النهوض بمجتمعه واللحاق به في ركب الحضارة الحديثة التي بهر الأبصار ضياؤها وأسر العقول رواؤها، حتى يتبوأ المجتمع المصري مكانه بين العالمين، لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة لا ينكس الخجل رؤوسنا ولا يحز في نفوسنا الشعور الممض بأنا دون الغرب مكانًا[١]. وهو في هذه المحاولة غرب وشرق وباعد وقرب سابحًا في بحر الأفكار، ليصل في نهاية المطاف إلى شاطئ السلامة وبر الأمان ومرفأ الهداية، حيث وقف على عتبات التاريخ الإسلامي ليدق باب السيرة العطرة سيرة النبي محمد عبد الله ورسوله ﷺ، ليلج إلى طريق الحق والنور الذي لا يخبو على مر الزمان، فهو هداية السماء ونور الله في الأرض.

إنه الإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء وسيد المرسلين صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

يقول الدكتور هيكل ملخصًا هذه الرحلة الفكرية: "لقد خيل إليَّ زمانًا -كما ما يزال يخيل إلى أصحابي- أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية هو سبيلنا إلى النهوض، وما أزال أشارك أصحابي في أننا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله، ولكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب الروحي وثقافتنا الروحية غير ثقافته"[٢]. ثم يعلل ذلك فيقول: "كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢.

في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟ لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا"[١]. ثم يوضح تجربته الذاتية في هذا المجال فيقول: "وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعًا هدي ونبراسًا، ولكني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه، فانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلًا لوحي هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين هذا العهد من سبب يصلح أن يكون بذرًا لنهضة جديدة. وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها ولو بعد حين[٢].

الإسلام وسلامة الفطرة:

وبهذا نرى أن الإسلام الحنيف قد منح أتباعه حصانة فكرية تحفظهم من السقوط وتحميهم من الضلال.

فالتوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة الفطرة التي هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وعلمتنا أن الأمة التي لا ماضي لها ليس لها مستقبل، ومن ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقًا بين سواد الأمم في الشرق وبين الدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد الأعظم عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية مع

(١) نفس المرجع ص ٢٣.

(٢) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٣.

حرصه على نقل علومه وصناعاته[١].

فـاذا أردنـا تقدمًـا حضاريًّـا حقيقيًّـا ومتوازنًا فلا بد لنـا من العـودة إلى تاريخ الإسـلام الذي يمثـل القاعدة الروحية وقوام حياتنا المعنويـة، فالحياة المعنوية هي قوام الوجود الإنسـاني للأفراد والشـعوب، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا المذل ولنتقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه من دون الله[٢].

لقد شعر الدكتور هيكل بأن أبناء الشرق في حاجة إلى أكثر مما تمدهم به الحضارة الغربية، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السـلف من المسـلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة. وزادهم شعورًا بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقـوم في الغـرب على نضال اقتصـادي عنيف لا يعرف هـوادة ولا يقف في وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الإخاء الإنسـاني أو من المودة والرحمة، فالنضال في سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو الذي كان مثار الحروب ومثار أسـباب الشقاء والتعس في هذا العصر من عصور الإنسانية. فهل يجد العالم الإسـلامي في تراث الماضي ما يشـفي علة روحه مما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقـوم به؟ وما يقيم حياة جديدة وحضارة جديدة ليس فيها هذا الجشـع المادي الفظيع الذي يهوي بالإنسان إلى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة؟.

البدء بسيرة النبي ﷺ:

حـين وصل الدكتـور هيكل إلى هـذا الحد مـن التفكير واقتنع بالحـق الذي لا مرية فيه، وهو أن النهوض بالشرق لا يتحقق إلا على أسـاس روحي منبعه الدين

(١) المرجع السابق ص ٢٤.

(٢) ملحق السياسـة الأسبوعية ١٤ أكتوبر سـنة ١٩٣٢ عن كتاب المعارك الأدبية في مصر د/ أنور الجندي ص ٣١٧.

الإسلامي ووسيلته دراسة تاريخ الإسلام وفي مقدمته سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، أخذ على عاتقه تبيان هذه الحقيقة والدعوة إليها، فلم يلبث حين تبين هذا الأمر أن دعا إلى إحياء حضارتنا الشرقية، ومصدر الحضارة سنا الأرواح المضيئة وقوامها وثبة النفوس القوية، والأرواح تضيء ما اتصلت بروح أقوى سلطانًا وأبهر سنًا. وكم في ماضينا من أرواح ذات سنا باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خلقًا جديدًا، ومحمد بن عبد الله ﷺ هو النور الأول الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها، وهو الشمس التي أمدت كل هذه الأقمار بسناها، لذلك جعلت سيرته موضع دراستي في كتاب "حياة محمد"، وجعلت مواقفه في كتابي "في منزل الوحي" مصدر إلهامي لما تنطوي عليه من تعاليم أوحاها الله إليه كلها السمو والقوة والجلال والعظمة[1].

من العرض السابق يمكن تحديد دوافع الكتابات الإسلامية للدكتور هيكل في النقاط الآتية:

١- الرد على المتعصبين من غير المسلمين من المستعمرين والمبشرين ضد الإسلام ونبيه والمجتمع المسلم، وتبيان أخطائهم وافتراءاتهم، وذلك لإفساد الغاية التي يهدف إليها هؤلاء المتعصبون، وهي القضاء على الروح المعنوية للمسلمين بقصد إضعافهم والقضاء عليهم.

٢- الرد على الجامدين من المسلمين الذين يسيئون إلى الإسلام.

٣- هداية الحائرين من شباب الإسلام بالكشف عن قيم الإسلام العظيمة، وتبيان سمو المجتمع القائم على أساس هذه القيم حتى لا يجرفهم تيار الحضارة الغربية الزائفة.

٤- عرض الجانب الإنساني من حياة صاحب الرسالة ﷺ حتى تتضح الحقيقة أمام غير المسلمين من المغرر بهم، وأمام شباب الإسلام الذي آلمه واقع المسلمين

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص٢٤.

فانصرفوا عن فهم الرسالة ودراسة حياة صاحب الرسالة ﷺ.

٥- حفز الهمم لإقامة حضارة إسلامية في العصر الحاضر على نسق حضارة الإسلام في العصور الزاهرة، وذلك عن طريق ربط الحاضر بالماضي من غير جمود أو كهنوت.

ولتحقيق هذه الأهداف اتبع الدكتور هيكل في دراسة حياة النبي ﷺ ما أسماه بالطريقة العلمية الغربية الحديثة، على أن تكون خالصة لوجه الحق وحده، يقول الدكتور هيكل: "فكرت في هذا وأطلت التفكير، وهداني تفكيري آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد ﷺ صاحب الرسالة وهدف مطاعن المسيحيين من ناحية، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ولوجه الحق وحده[1].

ولقد آثر الدكتور هيكل هذه الطريقة لأنها في نظره تجلو عظمة محمد ﷺ على نحو يبهر العقل والقلب معًا.

وأتناول هذه الدوافع بشيء من التفسير والتوضيح:

١- الرد على المتعصبين من غير المسلمين:

فقد اشتدت الهجمة ضد الإسلام ورسوله وتعاليمه ضراوة وشراسة بعد سقوط الأقطار الإسلامية في قبضة الاستعمار الغربي إبان القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فلم تكد تنتهي الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٨ حتى بسطت دول الحلفاء المنتصرة في الحرب سيطرتها على الولايات الإسلامية التي كانت تابعة لدولة الخلافة الإسلامية في تركيا.

ومن المعلوم أن التبشير والاستعمار قرينان يسيران جنبًا إلى جنب، ويرى المبشرون أن السيادة الغربية في قطر إسلامي ما معناها تسهيل انتقال المسلمين فيه

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٣٧.

إلى النصرانية، أما فقدان هذه السيطرة فينتج حركة عكسية تمامًا[١].

وبالنسبة لمصر، فمنذ أيام محمد علي باشا في مطلع القرن التاسع عشر طمع المبشرون بمصر لأن محمد علي أراد أن يدخل المدنية الحديثة فيها، فطمح هؤلاء إلى أن يتسللوا مع المدنية الغربية إلى عقائد المسلمين، ويبدو أن المبشرين تمتعوا ببعض الحرية حتى جاء عباس الأول عام ١٨٤٨، وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لأنه قاوم التبشير، أما سعيد باشا (١٨٥ – ١٨٦٣) فقد وصفوه بالعبقري لأنه سمح للنفوذ الأوروبي أن يعود سائدًا في وادي النيل، مع أن عهد سعيد هذا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين، وجاء بعد سعيد باشا الخديو إسماعيل، فأمدته أوروبا بالأموال حتى أغرقته في الديون، ثم إنها اقتضته تلك الديون مرة واحدة، فاستطاعت من هذه الطريقة أن تشتري في عام ١٨٧٥ أسهم الحكومة المصرية في قناة السويس، وأن تتدخل في إدارة القناة عمليًّا. وأخيرًا انتهزت إنجلترا فرصة الثورة التي قادها عرابي باشا، فضربت الإسكندرية وأنزلت جيوشها إلى البر المصري عام ١٨٨٢م، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر تحت الحماية البريطانية فعلًا، وإن كانت قد ظلت اسمًا تابعة للسلطنة العثمانية.

وبعد إسماعيل جاء توفيق، وأخذت مصر تنطوي رويدًا رويدًا تحت رقابة دولية أو تحت حكم أوروبي على الأصح، وتنازعت إنجلترا وفرنسا النفوذ على مصر زمنًا، ثم استطاعت إنجلترا أن تنفرد وحدها بالسيطرة عليها. ومنذ احتلال إنجلترا لمصر أصبحت تحت سلطة إنجلترا المسيحية، ولكن إنجلترا كانت تحسب حسابًا للشعور الإسلامي، فلا تود أن تجرحه بالتظاهر بالتبشير حرصًا على مصالحها العسكرية والسياسية، أما المبشرون فكانوا يريدون من إنجلترا أن تعلن سياسة دينية عنيفة في مصر بعد أن وجهوا جهودهم للتبشير بين المسلمين. ولقد اتهم بعض المبشرين اللورد كرومر –المعتمد البريطاني في مصر– بأنه كان حليمًا

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية د/ عمر فروخ، د/ مصطفى خالدي ص ١٤٦.

يحابي المسلمين، مع أنه كان يشجع التبشير بين المسلمين ويحمي القسيسين الأجانب والمبشرين. لقد أراد المبشرون أن يكون كرومر صريحًا عنيفًا بطاشًا، وكان هو ذا كيد خفي ويتدخل شخصيًّا في التنصير. وهكذا كثر التبشير في مصر بعد سقوط إسماعيل، ثم استطال واسبطر في عهد اللورد كرومر، وأما في السودان وكان تابعًا حينئذٍ لمصر، فإنه لما خفق عليه العلم الإنجليزي من جديد عام ١٨٨٥م عادت حمية المبشرين إلى البروز، واستعدت الجمعيات التبشيرية لتجعل من التبشير عملًا علنيًّا منظمًا، إلا أن اللورد كرومر ظل إلى عام ١٩٠٥ يحث المبشرين على التريث في إعلان حميتهم، لأن ظهور المبشرين مسفرين عن وجوههم قد يضر بالسياسة البريطانية ضررًا بالغًا، مع العلم أن كرومر نفسه كان يشجع التبشير.[١] وبهذا نرى أن التعاون بين الاستعمار والتبشير كان وثيقًا للغاية من أجل إخضاع أقطار الإسلام للسيطرة السياسية للدول الغربية المسيحية، فتكون تلك السيطرة سندًا لأعمال التبشير بين أبناء هذه الأقطار. وعلى أساس هذا التعاون فإن الدول الغربية كانت تقتسم مناطق النفوذ بينها للسيطرة على الشرق، ثم تقذف بمبشريها ليشقوا لها الطرق إلى استعمار هذه الأقطار[٢].

وتنفيذًا لهذه السياسة من جانب بريطانيا في مصر، فقد ساعدت مبشريها حتى إن نشاط المبشرين بالمسيحية ظهر فجأة في ثوب مخوف، وتناقلت الصحف يومئذٍ -في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين- أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعايات، وكان غريبًا حقًّا أن هذا النشاط الذي أبداه المبشرون والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين قد امتد من القاهرة إلى بورسعيد وإلى غيرها من المدن والأقاليم، وتحدثت الصحف عن وسائل الإغراء التي يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية وتنصير الأطفال الأبرياء من أبناء

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ – ١٤٨ باختصار.

(٢) انظر نفس المرجع ص ١٦٩.

المسلمين الفقراء[١]. وقد ارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع، وجعلوا ينظرون إلى موقف الحكومة المصرية منها نظرة عدم الرضا، وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير كانت تجتمع في دار الشبان المسلمين، وكان هيكل من أعضائها، كما كان من أعضائها أيضًا الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي كان شيخًا للأزهر في سنة ١٩٢٨، فلما لم يستطِع أن ينفذ آراءه في إصلاح الأزهر استقال من مشيخته، وكان انضمامه إلى هذه الجمعية التي تقاوم التبشير مِمَّا زادها قوة في نظر الرأي العام، مما دعا الحكومة المصرية إلى أن تحسب لهذا الجو الجديد كل حساب[٢].

ولقد كان الدكتور هيكل ﷺ من أشد أعضاء جمعية مقاومة التبشير تحمسًا للمقاومة، ويرجع ذلك إلى قناعته بأن الهدف من وراء التبشير كان إضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة، بقصد إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته، وإن لم يبلغ هذا الإضعاف إلى حد ارتداده عن دينه إلى دين آخر، كما كان يرى في هذه الحملة التبشيرية عدوانًا على حرية الرأي، ويرى فيها محاربة دنيئة لهذه الحرية واستغلالًا للضعف الإنساني، ولهذا فتح أبواب صحيفة السياسة لرجال الفكر ورجال الدين معًا، الذين شنوا حملة صحفية عميقة على هذا النشاط الإجرامي الذي يقوم به المبشرون.

ولم يتراجع الدكتور هيكل عن حملته ضد التبشير والمبشرين رغم إجراء التحقيق معه في بعض القضايا الصحفية.[٣] وحتى يكون الدكتور هيكل في مقاومته لحملة التبشير على مستوى المواجهة المطلوبة، فقد اندفع للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي يجب أن تقاوم بها، ورأى أن الطريقة المثلى لها توجب عليه أن يبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ﷺ ومبادئه بحثًا علميًّا، وأن يعرضه على الناس

(١) محمد حسين هيكل في ذاكره د/ عبد العزيز شرف ص ١٩٤.

(٢) انظر مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص ٣٢٨.

(٣) انظر المرجع السابق ص ٣٥٤.

عرضًا يشترك في تقديره المسلم وغير المسلم[١].

وسأعود إلى هذا الموضوع عند الحديث في الفصل الخاص بحركة التبشير والرد عليها إن شاء الله تعالى.

٢- الرد على الجامدين من المسلمين:

لا شك في أن عظمة ماضي المسلمين حقيقة واقعة، وعظمة هذا الماضي نابعة من أثر الإسلام في نفوس المسلمين حينما طبقوه وعاشوه كما أمر الله، وأثر الإسلام واضح كل الوضوح في نشأة وازدهار الحضارة الإسلامية في جانبيها الفكري والعملي، أو بتعبير آخر إن أثر الإسلام واضح في الحضارة الإسلامية في جانبيها الفكري والسلوكي، والجانب الفكري أو النظري يتمثل في المبادئ التي أرساها الإسلام وتمثلها المسلمون في سلوكهم في شتى نواحي الحياة، ومن أهم هذه المبادئ الاحترام الشديد لعقل الإنسان. وليس هذا فحسب بل إن الإسلام دفع المسلمين دفعًا إلى استعمال العقل في جميع نواحي الكون، ونهى نهيًا شديدًا عن تعطيله أو إهماله.

وإذا كان الإسلام قد احترم العقل الإنساني هكذا، فقد جاءت أصوله موافقة للعقل الإنساني الذي طبع على أن يوازن بين المادة والروح، ويعطي لكل حقه في الحدود التي شرعها الله، ولهذا تقدم المسلمون تقدمًا عظيمًا في جميع المجالات، ويشهد بذلك تاريخهم الذي أكد أن مبادئ الإسلام وأصوله أدت إلى تسامحه مع العلم الذي يؤدي إلى التقدم في كل المجالات، ولم يتأخر المسلمون في ميدان الحضارة إلا بعد أن تخلوا عن مبادئ الإسلام[٢].

وحين تمسك المسلمون بمبادئ الإسلام كانت لهم القيادة والريادة في شتى أنواع المعارف والعلوم، وأصبحت حضارة الإسلام هي حضارة العالم المتمدين،

(١) انظر محمد حسين هيكل في ذاكره د/ عبد العزيز شرف ص ١٩٨.

(٢) انظر أضواء على حاضر العالم الإسلامي د/ محمود عبد الحكيم عثمان ص ٧، ٨.

وتتلمذ على أيدي علمائهم طلاب العلم من شتى البقاع، وأصبحت الحواضر الإسلامية وجامعاتها في المشرق والمغرب -الأندلس- مركز إشعاع للعلوم والمعارف، وظلت كذلك حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي، ولكن منذ ذلك التاريخ تغير الحال، فقد أفل نجم الجامعات الإسلامية وبقي الأزهر في مصر وتعلقت به الآمال هو ودولة الخلافة العثمانية في تركيا، وتبوأت بذلك مصر وتركيا منصب القيادة الفكرية والسياسية بين مسلمي العالم[١].

ولقد نهض الأزهر بأعباء القيادة الفكرية للعالم الإسلامي على الوجه الأكمل حتى أوائل القرن السابع عشر، فكانت تدرس فيه العلوم الشرعية والعقلية والكونية، ويتبين ذلك من الإجازات التي كانت تمنح للعلماء، والتي كان يسمى الواحد منها سندًا. لكن حالة الأزهر ساءت في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية[٢].

وقد تبع الانحلال السياسي أن مات في نفوس الفقهاء تدريجيًّا الاستقلال الفكري، وركنوا إلى التقليد وبعدوا عن الاجتهاد شيئًا فشيئًا، حتى قفل باب الاجتهاد وأصبح الفقيه يلزم مذهبًا معينًا، بل أفتوا بمنع انتقال المقلد من مذهب إلى مذهب. فلِمَ إذن الاجتهاد والإجهاد ما دامت الحياة في عهدهم أصبحت ركودًا بعد حركة واضطرابًا بعد استقرار؟ وما دامت هذه الاضطرابات القوية العنيفة قد أحاطت بالنشاط العلمي تبعًا للنشاط السياسي ورجعت بهم القهقري؟ فبعد أن كانوا قد وصلوا بفقههم ذروة المجد أبدلتهم من قوتهم ضعفًا ومن نشاطهم فتورًا ومن شبابهم شيخوخة، وأماتت فيهم روح الاستقلال الفكري وحرية الرأي[٣].

(١) المرجع السابق ص ١٣.

(٢) نفس المرجع ١٤، ١٥.

(٣) المدخل للفقه الإسلامي تاريخه ومصادره د/ محمد سلام مدكور ص ٩٤.

أصبح علماء الأزهر إذن ابتداء من القرن السابع عشر وما تلاه أعداء للاجتهاد، فأعلنوا قفل بابه وعارضوا إدخال العلوم الحديثة في الأزهر وسيطر عليهم الجمود في كل شيء، حتى في طريقة التأليف التي ورثوها عن أسلافهم وحسبوا أنهم بذلك يحافظون على الشريعة وعلى ميراث الأولين، واحتجوا بأنهم يحافظون بذلك على الشرع وطريقة سلفهم الأزهري في كيفية التأليف، وهو أن يكون مؤلفًا من متن وشرح وحاشية، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف إليه التقارير، فهذه سنة المشايخ المألوفة. فتأليف كتاب أو كتب يقتصر فيها على القول الصحيح، ويجعل بعبارة سهلة مقسمًا إلى مسائل ترد بالعدد على كيفية كتب القوانين، يعتبر بدعة هدامة لتلك السنة التي جرى عليها السلف من عدة قرون، فكان ذلك سببًا في تنحية الشريعة الإسلامية عن الحياة بعد أن قصرت مؤلفاتها عن مواكبة حاجات العصر، وطبقت القوانين الفرنسية في مصر بلد الأزهر المعمور[١].

ولقد كان من نتائج هذا الوضع الناشئ عن الجمود أن وقف علماء الدين ضد كل جديد، وذلك بسبب إمعانهم في التمسك بالفروع والتخلي عن الأصول، حتى صارت الفروع هي الأصل وتفرعت عنها مئات الفروع، حتى اعتبرت الفروع أصل الإسلام. وقلب الوضع الطبيعي، ذلك الذي يقضي بأن الأصل الأول هو القرآن الكريم والأصل الثاني هو السنة النبوية، ويأتي بعد ذلك الاجتهاد، فترك العلماء التدبر في القرآن والسنة وقلدوا المجتهدين، وحصروا أنفسهم في ذلك وتعصبوا للمذاهب المختلفة، وصار ذلك أصلًا عندهم، فخمد الفكر الإسلامي وتوقف، والدنيا تسير من حول المسلمين وهم لا يستجيبون، فأدى ذلك إلى الإحساس العام بأن علماء الدين لا يقودون الأجيال الجديدة إلى التقدم العلمي والصناعي، فخرجت عليهم الأجيال الجديدة وتفرقت بهم السبل بدون قيادة، فاتهمت طائفة الدينَ نفسَه بأنه أكبر عائق في طريق التقدم الحضاري. وجاء آخرون فشتموا العلماء وسبوهم، وآخرون قدحوا في الفقهاء والأئمة وفقههم،

(١) انظر أضواء على حاضر العالم الإسلامي د/ محمود عثمان ص ١٦ – ١٧.

ومنهم من قدح إلى جانب ذلك في الحديث النبوي، ووصل الأمر إلى أن بعضهم رأى أن أحكام القرآن في حاجة إلى التعديل والترميم، ونادي كثيرون منهم بضرورة فصل الدين عن الدولة[١].

وبهذا نرى أن الجمود قد جنى على شتى مظاهر الحياة، وهو شيء طارئ وليس من طبيعة الإسلام، لأن الإسلام يدفع إلى التقدم وإلى الحضارة، لأنه يطلب من الفكر أن يعمل بكل طاقاته، وإنما طرأ الجمود على المسلمين بسبب سيطرة الأعاجم على الدولة الإسلامية، وقيام الحروب الصليبية، واجتياح التتار لممالك الإسلام، ومعاداة بعض الحكام للعلم والعلماء[٢]. ولما كان هذا الجمود ليس من طبيعة الإسلام، فقد ظهرت جماعة من المصلحين تحاول أن تعيد للدين صفاءه ونقاءه بالرجوع إلى مصادره الأولى قرآنًا وسنة، وتنقية التراث الإسلامي من الشوائب التي علقت به على مر السنين إبان عصور التخلف والانحطاط.

والدكتور هيكل ﷺ كواحد من مدرسة الإصلاح التي أسسها جمال الدين الأفغاني وأقام بنيانها في مصر الشيخ محمد عبده، يحاول بكتاباته الإسلامية أن يحقق هدف الإصلاح في مجال السيرة النبوية، ليطرح عنها ما علق بها من شوائب خلال عصور التخلف والجمود، وكذا تحقيق هذا الهدف في مجال التاريخ والحضارة الإسلامية.

٣- هداية الحائرين من شباب الإسلام:

لقد وقع شباب ذلك الجيل -جيل الدكتور هيكل- في حيرة شديدة بين واقع الحياة وبين مقتضيات الإيمان، إذ وجدوا صعوبة شديدة في التوفيق بينهما، فقد خضعت الحياة في مصر في شتى صورها وكافة مجالاتها لازدواجية وثنائية. ففي المجال السياسي نجد أنصار الجامعة الإسلامية في مقابل أنصار الجامعة القومية، وفي مجال الأدب والفن نجد من يستمد قيمه ومثله من الغرب في مقابلة من

(١) المرجع السابق ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٠.

يستمد قيمه ومثله من الشرق وتقاليده ودينه، وفي مجال التعليم نجد التعليم المدني والتعليم الأجنبي في مقابلة التعليم الديني الأزهري، وفي المجال الاجتماعي نجد المجددين المبهورين بحضارة الغرب في مقابلة المحافظين.

وهكذا في كل شأن من شؤون الحياة، مما أدى إلى ظهور تيارين متعارضين في الحياة المصرية، فقد جمعت بين المحافظة المتزمتة وبين التطرف في الأخذ بأسباب المدنية الغربية، وبين التوسط الذي يأخذ من الاتجاهين نصيبًا[1].

وأمام هذا الوضع الشائك وقف الشباب المسلم المتعلم حائرًا لا يدري أين يتجه ولا إلى أين يسير، أيتابع المجددين الذين يرميهم خصومهم بالإلحاد والخروج على الدين، أم يسير مع المحافظين الذين ينعتهم خصومهم بالجمود والرجعية؟

شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل والمنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد، كما أن الإيمان قرين الجمود، لذلك جزعت نفوسهم وانصرفوا يقرؤون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة اقتناعًا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين. وهم لم يفكروا في كتب المسيحية والتاريخ المسيحي بطبيعة الحال، وإنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمسون في أسلوبها العلمي ري ما في نفوسهم من ظمأ محرق للحق، وفي منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة في النفس الإنسانية، ووسيلة إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا، وهم واجدون في كتب الغرب سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفي وكتب الأدب نفسه الشيء الكثير مما يغري الإنسان بالأخذ به؛ لروعة أسلوبها ودقة منطقها، وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق، ولذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها، حرصًا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين جـ ١ ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

بين الإنسان وعوالم الكون اتصالًا يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال، وتتضاعف به قوته المعنوية. لقد انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها عليه الصلاة والسلام، وزادهم انصرافًا عنه أن العلم الواقعي والفلسفة الواقعية يقرران أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير العلمي، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي ليس هو أيضًا من الطريقة العلمية في شيء، ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحًا صريحًا في البلاد الغربية، فازدادوا انخراطًا في هذا التفكير العلمي، حرصًا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وفن وأدب بأوفر نصيب. فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية شغلتهم هذه الحياة عن التفكير في المسائل التي انصرفوا من قبل عن التفكير فيها، وظل اتجاههم الفكري في تياره الأول[١].

والدكتور هيكل وقد نهل من الثقافة الغربية قد أدرك التناقض الذي وقع فيه التفكير الغربي حين أخضع الدين لمقاييس العلم وموازين العقل، فانتهى من ذلك إلى أن الدين لا يخضع للمنطق ولا يدخل في حيز التفكير العلمي، فألقاه وراء ظهره وجعل المادة هي المقياس الحق وجعل من الإشباع المادي ميزان الرقي، وهذا خطأ فاحش، وقد أدرك الدكتور هيكل في نفس الوقت أهمية الجانب الروحي في حياة الإنسان، والذي يمثله الدين وتعاليمه، فاتجه إلى دراسة سيرة النبي ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين، ليوضح لهذا الشباب الذي تشعبت به السبل حياة رسول الله على حقيقتها الوضاءة المنيرة، لتكون المثل الأعلى في الكمال البشري ليقتدي به شباب هذا الجيل، ومن أجل هذا استعان الدكتور هيكل في كتاباته بأحدث صور التفكير في العالم، ليستطيع من هذا السبيل أن يصل بين هذا الجيل الحاضر وبين ثروة الماضي وتراثه العظيم[٢].

---

(١) حياة محمد د/ محمد حسين هيكل ص ٣٤ – ٣٥.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٦.

٤ – عرض الجانب الإنساني من حياة النبي ﷺ:

فالرسول الكريم ﷺ قد بعثه الله رحمة للعالمين وجعله الأسوة الحسنة، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١].

ولقد بلغ رسول الله ﷺ القمة في السمو الإنساني والذروة في الكمال البشري، وكانت حياته ﷺ إنسانية كاملة، والمعجزات في حياته إنما كانت لإثبات الرسالة والنبوة، ثم هي بعد ذلك تسير على سنن الله في الخلق، وذلك حتى يمكن التأسي به ﷺ، وقد حاول الدكتور هيكل رحمه الله في كتابته للسيرة النبوية أن يبرز ذلك الجانب الإنساني في حياة النبي ﷺ، وذلك بطريقة تجلو عظمة محمد عليه الصلاة والسلام على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة جميعًا، ويغرس فيها من الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم[٢].

ولعرض الجانب الإنساني من حياة النبي ﷺ فوائد، منها:

أ- أن يراجع المفترون على النبي ﷺ أنفسهم بعد أن يقفوا على جوانب العظمة الإنسانية من حياته ﷺ.

ب- توضيح الحقيقة أمام المغرر بهم من شباب الإسلام والذين فتنوا بقيم الغرب ظنًّا منهم أن الشرق ودينه ونبيه ﷺ خلوا من هذه القيم، مع أن الحقيقة الغائبة عنهم أن قيم الإسلام هي القيم العليا اللائقة بالإنسانية في أسمى مراتبها، وأن حياة النبي ﷺ هي التطبيق العملي لهذه القيم السامية.

ج – أن يزداد المؤمنون بالله ورسوله حُبًّا لهذا الرسول ﷺ وأن يقتدوا به في حياتهم، محاولين جهد الطاقة الوصول إلى الكمال الإنساني الذي تمثله حياة رسول الله ﷺ.

---

(١) الآية رقم ٢١ من سورة الأحزاب.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٠.

إذن فدراسة حياة محمد ﷺ تفيد العالم كله –لا الإسلام وحده والمسلمين وحدهم– خير الثمرات، فهي تجلو أمام العالم كثيرًا من المسائل النفسية والروحية، فضلًا عما تفيض عليه من ضياء في نواحي الحياة الاجتماعية والخلقية والتشريعية ما يزال العالم يتردد أمامها. وأذهب إلى أبعد مما تقدم فأقول: "إن هذا البحث جدير بأن يهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تتلمسها"[١].

٥– تمهيد السبيل لإقامة حضارة إسلامية في العصر الحاضر على نسق الحضارة في عصور الإسلام الزاهرة:

تلك الحضارة التي قامت على الميراث الروحي العظيم الذي خلفه محمد ﷺ قرآنًا كريمًا وسنة شريفة، ذلك الميراث الذي أظل العالم ووجه حضارته خلال عدة قرون مضت، والذي سيظله من بعد ويوجه حضارته حتى يتم الله في العالم نوره. وإنما كان لهذا الميراث كل هذا الأثر فيما مضي وسيكون له مثله وأكثر منه من بعد لأنه أقام دين الحق، ووضع أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة هذا العالم[٢].

وتظهر أهمية الحضارة الإسلامية وضرورتها للإنسانية في العصر الحاضر بعد فشل الحضارة الغربية المعاصرة، وقصورها في تحقيق سلام الإنسانية وسعادة البشرية، بعد أن جعلت المادة ركيزتها الأساسية وقاعدتها الأولي. ولا شك في أن حضارة تجعل الحياة الاقتصادية أساسًا، وتقيم قواعد الخلق على أساس هذه الحياة الاقتصادية، ولا تقيم للعقيدة وزنًا في الحياة العامة، تقصر عن أن تمهد للإنسانية سبيل سعادتها المنشودة. بل إن هذا التصوير للحياة لجدير أن يجر على الإنسانية ما تعانيه من محن في هذه العصور الأخيرة، وجدير بأن يجعل كل تفكير في منع

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٥١٦.

الحرب وفي توطيد أركان السلام في العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة[١].

وفي ظل هذه الحضارة المادية البحتة سيظل كل منا ينظر إلى الآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه، وسيظل الأساس الخلقي الكمين في النفس أساسًا حيوانيًّا بحتًا، وستظل المنفعة وحدها قوام هذا الأساس الخلقي، على حين تنزلق عليه المعاني الإنسانية السامية والمبادئ الخلقية الكريمة: مبادئ الإيثار والمحبة والأخوة، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق به[٢].

وعلى ذلك تقوم الحضارة الإسلامية، على أساس روحي يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء، فإذا بلغ من هذا الإدراك حد الإيمان دعاه إيمانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده وإلى تغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية: مبادئ الإباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والتقوي، وعلي أساس هذه المبادئ ينظم الإنسان حياته الاقتصادية، وهذا التدرج هو أساس الحضارة الإسلامية كما نزل الوحي بها على محمد ﷺ.

فهي حضارة روحية أولًا، والنظام الروحي فيها هو أساس النظام التهذيبي وأساس قواعد الخلق، والمبادئ الخلقية هي أساس النظام الاقتصادي، فلا يجوز أن يُضَحَّى بشيء من مبادئ الخلق في سبيل التنظيم الاقتصادي، وهذا التصوير الإسلامي للحضارة هو في يقيني التصوير الجدير بالإنسانية الكفيل بسعادتها، ولو أنه استقر في النفوس وانتظم الحياة انتظام الحضارة الغربية اليوم إياها لتبدلت الإنسانية غير الإنسانية، ولانهارت مبادئ يؤمن الناس بها، ولقامت مبادىء سامية تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها. والناس اليوم في الغرب وفي الشرق يحاولون حل هذه الأزمات، دون أن يتنبه أحد منهم ودون أن

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٥١٧.

(٢) المرجع السابق ص ٥١٨.

يتنبه المسلمون أنفسهم إلى أن الإسلام كفيل بحلها[١].

ولا شك في أن الدراسة العلمية الدقيقة لحضارة الإسلام في الصدر الأول كفيلة بأن تزيح عنها ما تراكم عليها من غبار الزمن وضلالات الفكر الإنساني خلال عصور الانحطاط، وتجليها على حقيقتها الوضاءة كما عاشها محمد ﷺ وصحابته الأماجد من بعده، وعندئذٍ يعود المسلمون سيرتهم الأولى، ويعيشون في ظلال حضارة إسلامية سامية تكفل لهم وللإنسانية جمعاء السعادة والخير والسلام. وهذا البعث الحضاري الإسلامي ممكن أن يتحقق اذا قام جماعة من العلماء يدعون إليها على طريقة علمية بعيدة عن الجمود والتعصب. فهي حضارة تخاطب القلب كما تخاطب العقل، وتكفل إقبال الناس من كل الأمم عليها إقبالًا لن تستطيع مطامع أصحاب المطامع صده. ولا يطلب إلى هؤلاء العلماء أكثر من أن يكونوا مؤمنين حقًّا، يدعون الناس إلى الله وإل هذه الحضارة مخلصين له الدين حنفاء. يومئذٍ يسعد الناس بالإخاء في الله كما سعدوا به في عهد النبي ﷺ[٢].

وقبل هذا وبعده يلزم وجود القيادة المؤمنة الرشيدة الواعية التي تقود الناس إلى الله حتى لا تتشتت الجهود، وحتى لا تصبح الدعوة إلى الله مجرد جهود فردية لا تقيم مجتمعًا ولا تنشئ حضارة. ويلزم وجود قيادة كقيادة النبي وكقيادة الراشدين من بعده تأخذ بأيدي الناس إلى الحق، وتهديهم إلى الخير، وتأطرهم على الحق أطرًا، وعندئذ يكون البعث الحضاري الإسلامي أمرًا واقعًا.

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٥١٨ – ٥١٩.

(٢) المرجع السابق ص ٥٤٥ – ٥٤٦.

"معالم منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن رسول الله ﷺ"

لقد تأثر الدكتور هيكل بواقع المسلمين المتردي فكريًّا وحضاريًّا، وفكر في طريقة لإنقاذهم من الجمود الذي قعد بهم عن متابعة مسيرة الحضارة والتقدم، وحاول إيقاظهم من السبات العميق الذي يغطون فيه، فلم يجد وسيلة إلى ذلك خيرًا من كتابة سيرة سيد المرسلين محمد عبد الله ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، ولكن ليس بطريقة تقليدية، وإنما بطريقة جديدة، يقول الدكتور هيكل رحمه الله "فكرت في هذا وأطلت التفكير، وهداني تفكيري آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد ﷺ، صاحب الرسالة الإسلامية، وهدف مطاعن المسيحية من ناحية، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده[1].

فمعالم منهجه في كتابة (**سيرة رسول الله ﷺ**) تتلخص في الآتي:

أولًا: اتباع الطريقة العلمية الغربية الحديثة في دراسة السيرة، والتي اقتضت اتباع الآتي:

١- مراجعة تاريخ النبي ﷺ.

٢- إعادة النظر في كتب السيرة كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازي الواقدي.

٣- العودة إلى الكتابات الإسلامية الحديثة ككتاب سيد أمير علي "روح الإسلام".

٤- الرجوع إلى ما كتبه المستشرقون في مجال السيرة، مثل كتاب "در منجم" وكتاب واشنطن أرفنج".

---

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٣٧.

٥- الاستعانة بمؤلفات المعاصرين من الكتاب المسلمين في السيرة النبوية، مثل كتابات أحمد أمين والشيخ عبد الوهاب النجار وطه حسين.

يقول الدكتور هيكل موضحًا منهجه في الكتابة عن رسول الله ﷺ: "بدأت أراجع تاريخ محمد ﷺ وأعيد النظر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازي الواقدي، وعدت إلى كتاب سيد أمير علي "روح الإسلام"، ثم حرصت على أن أقرأ ما كتبه بعض المستشرقين، فقرأت كتاب "در منجم" وكتاب "واشنطن أرفنج"، ثم انتهزت فرصة وجودي بالأقصر في شتاء سنة ١٩٣٢ وبدأت أكتب[١].

ثانيًا: تمحيص السيرة النبوية تمحيصًا علميًّا في ضوء القرآن الكريم:

فلقد تبين للكاتب أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم، فإن فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبي العربي، يتخذها الباحث منارًا يهتدي به في بحثه، ويمحص على ضيائه ما ورد في كتب السنة، وما جاء في كتب السيرة المختلفة[٢].

وحتى يقوم بهذا التمحيص اتبع الدكتور هيكل الخطوات الآتية:

١- الوقوف على كل ما ورد في القرآن الكريم من آيات متصلة بحياة النبي ﷺ وجمعها وتبويبها.

٢- دراسة هذه الآيات القرآنية دراسة دقيقة.

٣- معرفة أسباب نزولها وأوقاته ومناسباته.

٤- الرجوع إلى كتب التفسير لتحقيق هذه الغاية.

٥- الاستعانة بكتب علوم القرآن الكريم، مثل كتاب "أسباب النزول" للواحدي، وكتاب "الناسخ والمنسوخ" لابن سلامة.

٦- الاستعانة بكتابات المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية عمومًا

(١)، (٢) المرجع السابق ص ٣٧.

وسيرة النبي ﷺ خصوصًا.

٧- الأخذ بالمشورة من المهتمين بهذا الموضوع وخاصة من الشيوخ، وعلى رأسهم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، فيما يستغلق عليه من المسائل.

يقول الدكتور هيكل شارحًا طريقته في تحميص السيرة النبوية: "أردت جاهدًا أن أقف على كل ما ورد في القرآن متصلًا بحياة النبي ﷺ، فإذا معونة صادقة في هذا الباب يقدمها إليَّ الأستاذ أحمد لطفي السيد الموظف بدار الكتب المصرية، وهي مجموعة وافية مبوبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أوحي الكتاب الكريم إليه، وأخذت أدقق في هذه الآيات فرأيت أنه لا بد من الوقوف على أسباب نزولها وأوقات هذا النزول ومناسباته.

وأعترف بأني على ما بذلت من جهد لم أوفق لكل ما أردت منه، فكتب التفسير تشير أحيانًا إليه، وتهمل هذه الإشارة في أكثر الأحايين، ثم إن كتاب "أسباب النزول" للواحدي وكتاب "الناسخ والمنسوخ" لابن سلامة إنما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكل تدقيق واستيفاء تناولًا موجزًا، على أنني وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدة استطعت أن أمحص بها ما ورد في كتب السيرة. ولما تقدم بي البحث بعض الشيء ألفيت المشورة الصادقة تصل إليَّ من كل صوب، ومن ناحية الشيوخ أكثر من أي ناحية أخرى بطبيعة الحال. هذا إلى جانب ما وجدت من عون في مؤلفات المعاصرين القيمة، ككتاب "فجر الإسلام" للأستاذ أحمد أمين، "قصص الأنبياء" للأستاذ عبد الوهاب النجار، "في الأدب الجاهلي" للدكتور طه حسين، "اليهود في بلاد العرب" لإسرائيل ولفنسن، وغير هذه من كتب المعاصرين. وكما عاونتني كتب السيرة وكتب التفسير في الاهتداء إلى غاية أطمئن إليها، عاونتني كذلك كتب المستشرقين في الاهتداء إلى غاية أطمن إليها[1].

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٣٧ - ٣٩.

"ملاحظات على منهج الدكتور هيكل في كتابته عن النبي ﷺ"

إن ورود بعض الملاحظات على منهج الدكتور هيكل في كتابته للسيرة النبوية لا يعني محو أو إغفال ما قدم من حسنات في كتابته عن حياة محمد ﷺ، لأنه يعتبر فاتحة عهد جديد في كتابة السيرة النبوية هدفًا وأسلوبًا ومنهجًا، وإنما تهدف هذه الملاحظات إلى وضع النقاط على الحروف، وتوضيح ما حدث من خلل في بعض خطوات هذا المنهج، تلافيًا لما يحدثه هذا الخلل من قصور حتى يكون القارئ على بينة من الأمر، لأن كتابة السيرة إنما هي كتابة عن نبي الإسلام ﷺ الذي يجب له من القدسية والمكانة في قلب كل مسلم ما هو جزء من عقيدته وبضعة من إيمانه.

وكتاب "حياة محمد" للدكتور هيكل كان موضع انتقادات وملاحظات منذ صدور طبعته الأولى في عام ١٩٣٥، ورد الكاتب رحمه الله عليها في طبعة الكتاب الثانية، التي يقول في مقدمتها: "لما ظهر الكتاب تفضل بعض الكتاب والعلماء بالتنويه به في الصحف والمجلات وعن طريق الإذاعة، وأبدوا ما عن لهم من الملاحظات عليه، وقد أبديت هذه الملاحظات جميعًا بعد الثناء الجم على مجهود بذلته لست أحسبه جديرًا بكل هذا التقدير، وأبديت حرصًا على ألا تشوب كتابًا عن النبي العربي هنة من الهنات، ما دام مؤلفه قد وفق في وضعه توفيقًا أرضاهم ونال تقديرهم، ولذلك لم يكن بد من أن أعير هذه الملاحظات ما هي جديرة به من عظيم العناية".

ولعل هذا الرضا والتقدير هما اللذان جعلا طائفة من هذه الملاحظات ترد على مسائل كمالية لا تتصل بجوهر الكتاب ولا بما ورد من الروايات فيه[١].

الملاحظة الأولى: على عنوان الكتاب "حياة محمد":

هكـذا مجردًا مـن كل صفة وعاريًا عن كل تقدير، ولا أحسـب ذلك راجعًا إلى شـك في صفـة النبوة والرسـالة، أو إلى نقـص في تقدير ذلك النبـي الكريم، كيف والدكتور هيكل من المسلمين؟ وإنما كان ذلك العنوان حتى لا يصد غير المسلمين عـن قراءته، ليقفوا على عظمة ذلك الإنسـان الذي جعله الله بشرًا رسـولًا، أو أنه عنونه بذلك للإشـارة إلى أن هذا البحث يوضح الجانب الإنساني من حياة رسول الله ﷺ والذي لا يختلف في تقديره المسلم وغير المسلم.

لقد ظن الدكتور هيكل أن هذا العنوان البعيد عن الحساسـية قد يكون له تأثير في جذب غير المسـلمين لقراءة سـيرة النبي، ليقفوا على عظمة محمد الإنسـان من خلال قراءة سـيرته الصحيحة بدل قراءتها مشـوهة من خلال كتابات المستشرقين المتعصبـين، فآثـر أن يكتبها تحت هذا العنوان الذي ألفـه الغربيون، فقد كتب كثير مـن المسـتشرقين تحت هذا العنوان، من أمثال: واشـنطن أرفنج وسـير وليم موير وإميـل در منجم، كلهم كتبوا كتبًا في سـيرة النبي تحـت عنوان "حياة محمد"، ولهم عذرهم ولا تثريب عليهم لأنهم لا يؤمنون به نبيًّا ولا رسولًا. وهم حين يتناولون سـيرته ﷺ إنما يتناولونهـا ويكتبونها بعيدًا عن القدسـية والاحـترام، أعني تناولًا بعيدًا عن الإيمان ومجردًا منه.

أما الدكتور هيكل وهو كاتب مسلم فما كان يحق له أن يجاريهم في هذا العنوان بحجـة أنه يكتب هذا البحـث على الطريقة العلمية الغربيـة الحديثة، هذه الطريقة التـي تجلو عظمة محمد ﷺ على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة جميعًا، ويغرس

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٣ – ٤٤.

فيها من الإجلال للعظمة بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم[١]. ليس هذا مبررًا كافيًا في تقديري لأن إسلام الكاتب يحتم عليه أن يشير عنوان كتابه إلى عقيدته تجاه صاحب السيرة ﷺ، ويدل على تقديره وتعظيمه له ﷺ، فما أجدر أن يكون عنوان الكتاب "حياة النبي محمد" أو "حياة محمد رسول الله" أو "حياة محمد ﷺ"، خاصة وأنه أصدر كتابه باللغة العربية، وطبع في عاصمة إسلامية، ليقرأه المسلم قبل غير المسلم، فلو كان طبعه بلغة أوروبية ونشره في الغرب المسيحي لما كان على هذا العنوان أدنى ملاحظة، لأنه حينئذٍ يكون أشبه برسالة موجهة إلى غير المسلمين، فلا تثريب عليه أن يدخل إليهم من بابهم.

على أن هناك نقطة جديرة بالتوضيح، وهي أن عظمة محمد ﷺ ليست إنسانية بحتة، وإنما عظمته ﷺ نابعة من رسالته ونبوته، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[٢]. فإذا نظرنا إلى الناحية الإنسانية من رسول الله نظرة تقدير واحترام وإعظام، فإننا بذلك لا نؤدي حقه علينا، فلقد كان كفار مكة يقدرون فيه عظمته الإنسانية ولم يؤمنوا به رسولًا، ويقرون ببلاغة القرآن ولم يؤمنوا به وحيًا من عند الله، فهل أغنى عنهم هذا أو ذاك؟ كلا.. فإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يمكن فصل الجانب الإنساني من شخصية الرسول حتى نعرضه عرضًا لا يختلف في تقديره المسلم وغير المسلم، ثم إن المقصد ليس مجرد إظهار عظمة محمد ﷺ وكفى، بل المقصود الانتقال من إجلال العظمة فيه إلى الإيمان بنبوته ورسالته.

وليس معنى أن يتوجه الباحث في السيرة النبوية ببحثه إلى الإنسانية كلها أن يجاري السفهاء في سفاهتهم والمنكرين والجاحدين في إنكارهم وجحودهم، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٣].

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٠.

(٢) الآية رقم ١١٠ من سورة الكهف.

(٣) الآية رقم ٢٩ من سورة الكهف.

الملاحظة الثانية: أنه جعل من بحوث وكتابات المستشرقين مرجعًا لبحوثه وكتاباته في السيرة.

يقول الدكتور هيكل: "وكما عاونتني كتب السيرة وكتب التفسير في الاهتداء إلى غاية من تفكيري أطمئن إليها، عاونتني كذلك كتب المستشرقين في الاهتداء إلى غاية أطمئن إليها"(١).

كيف يسوي الدكتور هيكل بين بحوث المستشرقين وكتب التفسير والحديث كمراجع لبحوث السيرة؟ والمستشرقون على غير ملة الإسلام، وهم في دراساتهم وبحوثهم إنما يهدفون إلى الكيد للإسلام والصد عنه. إنه يجيب عن هذا التساؤل فيقول: "وأنت إذا طرحت جانبًا أولئك المتعصبين الحمقى الذين جعلوا النيل من محمد دأبهم كالمبشرين وأشباههم، فإنك واجد هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها في كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين، عقد كارليل في كتابه "الأبطال" فصلًا عن محمد ﷺ، صور فيه الجذوة الإلهية المقدسة التي أوحت إلى محمد ﷺ ما أوحت، فصور العظمة في جلال قوتها، وموير أرفنج وأسبر نجر وفيل وغيرهم من المستشرقين العلماء، قد صور كل واحد منهم عظمة محمد ﷺ تصويرًا قويًّا، وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة الإسلامية لغير شيء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحصها التمحيص العلمي الدقيق، ولأنه اعتمد فيها على ما ورد في بعض كتب السيرة أو كتب التفسير من الروايات المضطربة، متناسيًا أن أول كتب السيرة إنما كتب بعد قرنين من عصر محمد ﷺ، دُسَّتْ أثناءهما في سيرته إسرائيليات كثيرة، ووضعت أثناءهما ألوف الأحاديث المكذوبة"(٢).

إنه يجعل منهم علماء يؤخذ عنهم العلم الديني في مجال سيرة النبي ﷺ، بل

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٣٩.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٠.

ويبهر بما يبدونه من تقدير لعظمة محمد، وفرق كبير بين تقدير العظمة في شخصية الرسول والإيمان به، ولذلك لم يمنعهم تقديرهم هذا من الوقوف عند مسائل اعتبروها مآخذ على محمد ﷺ، وذلك لأسباب ترجع إلى عدم التمحيص العلمي الدقيق لهذه المسائل، فكيف نثبت لهم مع هذا صفة العلماء؟ ثم يعتذر الدكتور هيكل عن هذه الأخطاء بأنهم إنما نقلوها عن بعض كتب السيرة وكتب التفسير التي حوت من الروايات المضطربة ما لا يثبت أمام التمحيص والتدقيق العلميين.

ومع أن المستشرقين -كما يرى الدكتور هيكل رحمه الله- يعلمون ضعف هذه الروايات ويقررون ذلك، فإنك تراهم يأبون مع ذلك تناسيها، ليقرروا أمورًا يعتبرونها صحيحة، مع أن أقل التمحيص ينفيها، ومن ذلك مسألة الغرانيق ومسألة زيد وزينب ومسألة أزواج النبي ﷺ[1]. إن هذا اعتراف من الدكتور هيكل بأن المستشرقين حتى المنصفين منهم يحيدون عن الأسلوب العلمي، ولو في بعض المسائل، عند كتابتهم عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، والأسلوب العلمي يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبط من أحكام ونظريات، ولكنه الرغبة في التجريح والتشويه كثيرًا ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات، فهم لا يترددون في الاعتماد على الأحاديث الضعيفة، وهم ينقبون في طوايا كتب التاريخ والسير عن أخبار ضعيفة غير ثابتة يدعمون بها آراءهم، ولهم صبر لا ينفد في استكشاف هذه المخبوءات واستغلال الضعيف من الدلالات.

ومهما يكن من شيء فهم لا يستوعبون دراسة ما بأيديهم من المسائل، وكثيرًا ما يغفلون النصوص والأخبار التي تناقض ما يقررون. وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء، وإنما هو انحراف عن المنهج العلمي السليم. وهذا الانحراف العلمي هو للأسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام، الأمر

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٠.

الذي يجعلنا نحن المسلمين نقف من هذه الدراسات موقف الحذر، ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع[١]. هذا هو الواجب علينا، لا أن نجعل منهم علماء ونتخذ من كتاباتهم مصادر ومراجع، حين نكتب عن الإسلام، لشيء بسيط يجب أن يدركه كل مسلم، وهو أنهم غير مسلمين، وهذا يعني ببساطة شديدة أن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه ﷺ يختلف عن المنطلق الذي يصدر عنه تفكير المسلمين، ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم، وستظل مختلفة. ونحن بطبيعة الحال لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام، ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم[٢].

والدكتور هيكل ﷺ يقرر أنه قد تأثر كثير من المستشرقين في بحوثهم التي صيغت صيغة العلم بأهواء أمزجتهم[٣]. كما يقرر أنه ليس من اليسير أن يقوم المستشرقون في بحوثهم الإسلامية بكل هذه الدقة وهذا الإنصاف مهما حسنت نيتهم، ومهما تحروا الدقة العلمية فعسير عليهم أن يحيطوا بكل أسرار اللغة العربية وإن أحاطوا بعلومها، ثم إنهم متأثرون بالنصرانية الأوروبية التي تجعل أكثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة، وتجعل الأقلين المتمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية وبين العلم من نضال، فيخضعون في بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية، أو في بحوثهم الدينية بوجه عام، أقصد التأثر بهذا النضال الهدام، وهذا أمر لا يعاب به المستشرقون المنصفون، ولكنه يجعل بحوثهم في الأمور الإسلامية تشوبها شوائب تنأى بهم عن الحق ولو بقدر[٤].

أما وهذا رأي الدكتور هيكل في بحوث المستشرقين الدينية بوجه عام وبحوثهم

(١) الاستشراق والخليفة الفكرية للصراع الحضاري د/ محمود حمدي زقزوق ص ٩٤.

(٢) المرجع السابق ص ٩٥.

(٣) حياة محمد د/ هيكل ص ٧٦.

(٤) حياة محمد د/ هيكل ص ٧٧.

الإسلامية بوجه خاص، فما كان يجمل به أن يجعل هذه البحوث أحد مصادر بحثه في دراسته لحياة صاحب رسالة الإسلام ﷺ.

وهناك أمر وقع فيه الدكتور هيكل ويقع فيه الكثيرون عندما يبهر بما يكتبه المستشرقون مشيدين فيه بجوانب العظمة الإنسانية في شخصية الرسول ﷺ، وكأن هذا يرفع من قدر الرسول على حد قول القائل: "والفضل ما شهدت به الأعداء". إلا أن الحقيقة على خلاف هذا الفهم تمامًا، إذ إنهم يفعلون ذلك ذرًّا للرماد في العيون، ودسًّا للسم في العسل، فلو كانوا صادقين فيما كتبوا وما قالوا لكان لهذا الصدق ما بعده، ولترتبت عليه نتيجته الطبيعة، فأثمر الإيمان به رسولًا، كما فعل الصادقون من المستشرقين الذين اعتنقوا دين الإسلام.

أما غير الصادقين فإنهم يثبتون له العظمة الإنسانية حتى ينفوا عنه العظمة النبوية، كما اعترف كفار مكة بعظمة القرآن، فقالوا إنه شعر وقالوا إنه سحر وقالوا أساطير الأولين. كل ذلك لينفوا عنه أنه وحي من الله رب العالمين، وعلى هذا الوتر يعزف كذابو المستشرقين، فيجعلونها عظمة بشرية، والخلاف الذي بيننا و بينهم ليس في عظمته الإنسانية، وإنما في نبوته ورسالته ﷺ.

الملاحظة الثالثة: أنه لم يجعل كتب السنة أحد مصادر البحث:

لقد جعل الدكتور هيكل القرآن الكريم المرجع الأول لدراسة حياة النبي ﷺ، وهذا شيء لا غبار عليه، فهو الحق كل الحق، ولكنه لم يجعل كتب السنة مرجعًا تاليًا للقرآن الكريم، ورغم أنه أورد كتب الحديث في سجل المراجع، إلا أنه لم يذكرها ولم ينوه بها حين عرض منهجه لدراسة حياة الرسول الكريم ﷺ، ولم يستند إليها في ثنايا الكتاب إلا قليلًا جدًّا، وما استند إليه من الحديث لم يخرجه لأنه لا يعتبر الإسناد كافيًا لصحة الحديث، وبالتالي فهو لا يتقيد بالتخريج لأنه يقوم على الإسناد، ويعلل هذا المسلك تجاه السنة بأن الجامعين للحديث قد جعلوا مقياس السند والثقة بالرواية أساسهم في قبول الحديث أو رفضه، وهو مقياس له

قيمته لكنه وحده غير كاف[١].

ثم يلقي بظلال كثيفة من الشك والريبة حول صحة الأحاديث بعبارة يعزوها إلى ابن خلدون –وهو ليس من أئمة السنة الذين يحتج بقولهم– يقول فيها: "وإنني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم ولا صحابي يخالف ظاهر القرآن، وإن وثقوا رجاله، فرب راوٍ يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيء الباطن، ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من جهة سندها، لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض"[٢]. وقد ألمح إلى هذه الملاحظة الشيخ المراغي في تعريفه بالكتاب حين قال: "ولعل هذه الحيرة ستخفف من غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده، وتلويهم يومًا من الأيام إلى الدخول في حمى الحق وحصن اليقين، وهو الوحي الصادق وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة[٣].

فهو يشير إلى أن السنة الصحيحة من الوحي الذي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه حين قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤]. ومعلوم أن صحيح السنة هو ما استوفى شروط الصحة سندًا ومتنًا، كما يقول العلماء الأثبات الذين أمرنا الله أن نرجع إليهم حين قال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥]. فهم لم يقفوا عند حد نقد الأسانيد، وإنما كانت لهم جهودهم المشكورة في نقد المتون بعد نقد الأسانيد.

وسأتناول هذه النقطة بشيء من التفصيل في فصل قادم إن شاء الله.

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٧.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٧.

(٣) حياة محمد د/ هيكل ص ١٥ (التعريف بالكتاب للشيخ المراغي).

(٤) الآية رقم ٩ من سورة الحجر.

(٥) الآية رقم ٧ من سورة الأنبياء.

الملاحظة الرابعة: أنه جعل العقل المجرد المقياس لقبول الروايات:

أوردها فيما يتعلق بإثبات المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ، دون التعويل على شيء آخر من ورود النص بها وصحة الرواية فيها وما اضطر لقبوله منها لثبوته بالقرآن، ركب الشطط في تفسيره كمعجزة الإسراء التي انحاز إلى من يقولون إنه كان بالروح أو إنه كان منامًا، ولم يعارضه في هذا الاتجاه كتاب وعلماء، ومنهم الشيخ المراغي شيخ الإسلام، والشيخ محمد رشيد رضا الذي كتب ردًّا على المنتقدين للدكتور هيكل، أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها في كتاب "الوحي المحمدي" من جميع مناحيها ومطاويها، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجه الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته، ولا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة، لأنها غير موجودة في زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل، وبينت سبب هذ الافتتان[١].

ويستشهد بصحة هذا الرأي بقول الإمام محمد عبده في أول كتاب "الإسلام والنصرانية"، فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع فكرك بصيحة إلهية[٢]. ثم يحدد موقفه من هذه الروايات، مهما كانت درجة ثبوتها، فيقول: "أما ومضرة الروايات التي لا يقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة، فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعي جانب الدقة العلمية في تمحيصها، خدمة للحق وخدمة للإسلام

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٩.

(٢)، (٣) المرجع السابق ص ٧٠.

ولتاريخ النبي العربي، وتمهيدًا لما يجلوه البحث في هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية سبيلها إلى حضارتها الصحيحة[٣].

وسأعود إلى هذه النقطة بشيء من الايضاح في فصل قادم إن شاء الله.

الملاحظة الخامسة: التركيز على الناحية البشرية بصورة لا تليق بمقام النبوة:

فقد حرص الدكتور هيكل على تصوير النبي ﷺ بشرًا عاديًّا يعتريه الضعف البشري، ويقع تحت وطأة هذا الضعف، فهو يصفه حين ماتت ابنته زينب رضي الله عنها قائلًا: "فإذا أصابه المقدر في ابنته بعدما أصابه من قبل في أختيها، وكما أصابه قبل رسالته في أخويها، فلا جرم أن يحزن ويشتد به جوى الحزن، وإن وجد من بر الله ورفقه به ما يعزيه كيما يسلو[١]. ويصفه حين ولد له ابنه إبراهيم فيقول: "لم يكن محمد ﷺ يرجو أن يعقب بعد أن ظلت أزواجه جميعًا من بعد وفاة خديجة، ومنهن الفتاة الفتية، ومنهن النصف التي أعقبت من قبل، لم تبشر إحداهن بخصب عشرة أعوام متتابعة. فلما حملت مارية ثم ولدت إبراهيم وقد تخطى هو إلى الستين، فاضت بالمسرة نفسه، وامتلأ هذا القلب الإنساني الكبير أنسًا وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قربًا[٢].

وهكذا يصوره أمام موت ابنته بصورة من يحزن، بل ويشتد به جوى الحزن، إذ ليس مما يليق بمقام النبوة أن نتصور أن يشتد به الحزن إلى هذه الدرجة البالغة.

كما يصوره حين رزق بابنه إبراهيم بصورة الإنسان المتصابي، الذي يخرجه حبه لطفله عن حد الاعتدال، لدرجة تثير غيرة أمهات المؤمنين، وهذا أيضًا مما لا يليق بمقام النبوة الرفيع، الذي يسمو بالنبي ﷺ إلى درجة فوق البشرية العادية. ولقد

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٤٦.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧.

وردت أحاديث تدل على ذلك السمو، منها قوله ﷺ: "وأيكم مثلي؟"[١] ومنها قوله ﷺ: "إني أرى من خلفي كما أرى من أمامي".[٢] وقوله ﷺ: "إني لست كهيئتكم"[٣].

الملاحظة السادسة: النقل عن كتابات المستشرقين مؤثرًا إياها على المراجع الإسلامية الأصلية:

فمثلًا عند تناوله لمعجزة الإسراء وعرضه للقصة يلجأ أولًا إلى ما كتبه المستشرق إميل درمنجم، فيقول: "سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة في عبارات طلية رائعة، هذه ترجمتها: (في منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله، وصمتت فيه طيور الليل وسكتت الضواري، وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح، استيقظ محمد ﷺ على صوت يصيح به: أيها النائم، قم. وقام فإذا أمامه الملك جبريل وضاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج، مرسلًا شعره الأشقر، واقفًا في ثيابه المزركشة بالدر والذهب، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش، وفي يده دابة عجيبة هي البراق، ولها أجنحة كأجنحة النسر... إلخ".

ويستمر الدكتور هيكل في سرد القصة على لسان ذلك المستشرق ويجعل منها عمدته، فيقول: "هذه رواية المستشرق در منجم عن قصة الإسراء والمعراج، وأنت تقع على ما قصه منثورًا في كثير من كتب السيرة، وإن كنت تجد فيها خلافًا بزيادة أو نقص في بعض نواحيها"[٤].

---

(١) رواه البخاري في الصوم باب التنكيل لمن أكثر الوصال، ومسلم في الصيام باب النهي عن الوصال في الصوم.

(٢) رواه مسلم في الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها.

(٣) رواه البخاري كتاب الصوم باب الوصال، ومن قال ليس في الليل صيام، ورواه مسلم في كتاب الصيام باب التهني عن الوصال في الصوم عن عائشه أم المؤمنين ﵂ ا.

(٤) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٢٠٣ – ٢٠٥.

وهكذا يأخذ الدكتور هيكل بما أسماه رواية المستشرق درمنجم، مع أنه ليس من أهل الرواية، وأن الأولى به أن يعتمد على ما ورد في صحيح كتب السنة من روايات ثابتة، ولا ينحيها جانبًا متجاهلًا لها.

الملاحظة السابعة: إبرازه للخلافات العائلية التي حدثت في بيت النبي ﷺ بصورة لا تليق ببيت النبوة ولا بمكانة أمهات المؤمنين:

فهو يكتب عنهن مصورًا إياهن كأنهن نساء فارغات لاهم لهن إلا الغيرة والكيد وعبث النساء، فيصور حالهن بعد مولد إبراهيم ولد النبي ﷺ من مارية قائلًا:

"حمل النبي إبراهيم يومًا بين ذراعيه إلى عائشة وهو فياض بالبشر، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه، فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت إنها لا ترى بينهما شبهًا".

ولما رأت النبي فرحًا بنمو الطفل لاحظت في غضب أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيرًا منه نموًّا. وكذلك كان مولد إبراهيم سببًا أثار في زوجات النبي ﷺ امتعاضًا لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافية، بل تعداها إلى أكثر منه، وترك في تاريخ محمد ﷺ وفي تاريخ الإسلام ما نزل به الوحي وقدسه كتاب الله الكريم. وكان طبيعيًّا أن يحدث هذا الأثر، فقد جعل محمد ﷺ لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفًا قط عند العرب[1].

ثم يعلق على هذا الحال قائلًا: "طبيعي وقد جعل النبي ﷺ لهن هذه المكانة، بعد أن كن كغيرهن من نساء العرب، لا رأي لهن أن يتغالين في الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبي أن يظل يومه غضبان، وكم أعرض عنهن وكم هجر بعضهن حتى لا يدفعهن رفقه بهن إلى مزيد من غلوهن، وأن تخرج بإحداهن الغيرة إلى حد غير لائق بالسداد. فلما ولدت مارية

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٤٧ – ٤٤٨.

إبراهيم خرجت الغيرة بأزواج النبي ﷺ عما أدبهن به، حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة، إذ تنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه، ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبي ﷺ براءتها منه[١].

وهكذا تناول الدكتور هيكل سامحه الله بيت النبي ﷺ بطريقة لا تليق، وصور أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وكأنهن نساء عاديات، رغم أن الله تبارك وتعالى بين فضلهن على غيرهن من النساء، فقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾[٢]. وبمثل هذه التربية العالية يؤدب القرآن نساء النبي ﷺ، ومع ذلك يكتب الدكتور هيكل عنهن تحت عناوين مثيرة، مثل: نساء النبي يأتمرن به – ثورة نساء النبي – منازعات أمهات المؤمنين. ويصف واحدة من هذه المنازعات فيقول: "وبلغ من أمرهن أن أوفدن إليه يومًا زينب بنت جحش وهي عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بين نسائه، وأنه لحبه لعائشة يظلمهن. ألم يجعل لكل امرأة يومًا وليلة؟ ثم رأت سودة انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها فوهبت يومها وليليتها لعائشة إرضاءً للرسول ﷺ، ولم تقف زينب في سفارتها عند الكلام في ميل النبي عن العدل بين نسائه، بل نالت من عائشة وهي جالسة، بما جعل عائشة تتحفز للرد عليها، لولا إشارات من النبي كانت تهدئ من حدتها. غير أن زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت في النيل من عائشة، حتى لم يبق للنبي بد من أن يدع لحميرائه أن تدافع عن نفسها، وتكلمت عائشة بما أفحم زينب، وسر النبي ودعاه سروره إلى الإعجاب بابنة أبي بكر، وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في

(١) المرجع السابق ص ٤٤٩ – ٤٥٠.

(٢) سورة الأحزاب آية: ٣٢ – ٣٤.

بعض الأحايين بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعض حدًّا هم النبي ﷺ أن يطلق بعضهن، لولا أنهن جعلنه في حل أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء"[١]. ثم يعلق الدكتور هيكل على هذه الأحداث موضحًا أثرها على النبي ﷺ فيقول: "محمد ﷺ ليس خليًا فيشغل وقته بهذا اللجاج ويدع نفسه لعبث نسائه، فلا بد من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور بين أزواجه إلى نصابها، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرضه الله عليه من الدعوة إلى رسالته، وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن، فإذا ثبن إلى رشدهن فذاك، وإلا متعهن وسرحهن سراحًا جميلًا[٢].

وهكذا اجترأ الدكتور هيكل على بيت النبوة جرأة معيبة كان المفروض أن يربأ بنفسه عنها، إذ صور الرسول ﷺ بصورة إنسان تستبد به عواطفه حتى تخرجه عن حد الاعتدال، فصوره إنسانًا متصابيًا يخرجه حبه لطفله الذي رزقه الله به بعد أن تقدمت به السن، ويخرجه حبه لبعض نسائه عن حد العدل الذي بعثه الله سبحانه وتعالى ليقيمه. فمن يعدل بين نسائه إذا لم يعدل رسول الله ﷺ بين أزواجه أمهات المؤمنين؟ وهل كان أمهات المؤمنين على هذا المستوى المتدني حتى إن عائشة رضي الله عنها تعرض بمارية أم ابراهيم وهي التي عانت من البهتان والإفك حتى برأها الله من فوق سبع سماوات؟ وهل يتصور أن يكون بيت النبي ﷺ بهذا الشكل من الصراع والتمزق؟

وبعد أن يرسم صورة مضطربة لحياة النبي ﷺ مع أزواجه يعلق قائلًا:

"ما قصصت الآن عن هجر محمد ﷺ نساءه وتخييره إياهن ومقدمات هذا الهجر ونتائجه والوقائع التي سبقته وأدت إليه هو في رأيي الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحدث، وهي رواية يتضافر على تأييدها ما جاء في كتب السيرة وفي كتب الحديث، وما جاء متفرقًا عن أخبار محمد ﷺ ونسائه في كتب السيرة المختلفة.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥١.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٥٣.

بيد أنه لم تكن واحدة من هذه السير تقص الحوادث أو تضع المقدمات والنتائج بالصورة التي سردناها ههنا، وأكثر السير تمر بهذا الحادث مَرًّا دون أن تقف عنده، و كأنما تجده خشن الملمس فتختشي أن تقربه. وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير، ولا يشير بكلمة إلى مسألة حفصة ومارية[١].

ثم ينتقد الدكتور هيكل كتاب السيرة والتاريخ الإسلامي فيقول: "وعندي أن المؤرخين المسلمين لا عذر لهم في إغفال هذه الوقائع، ولها مغزاها الدقيق الذي سقنا شيئًا من أمره. فالنقد التاريخي النزيه يأبى كل الإباء على أي إنسان عظيم كمحمد ﷺ أن يجعل من إفضاء حفصة لعائشة بأنها وجدت زوجها في بيتها مع مولاة له هي ملك يمينه فهي بذلك حل له، سببًا لهجره نساءه جميعًا شهرًا كاملًا، وتهديده إياهن جميعًا بأن يطلقهن. والنقد التاريخي النزيه يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد، فإذا كان الرجل عظيمًا كمحمد ﷺ رقيقًا كمحمد واسع الصدر طويل الأناة متصفًا بما لمحمد ﷺ من سائر الصفات التي يقر بها مؤرخوه جميعًا على سواء، كان اعتبار أي الحادثين لذاته سببًا لهذا الهجر والتهديد بالطلاق، مما يزور عنه النقد التاريخي وينأى عنه بجانبه أشد النأي، وإنما يطمئن هذا النقد ويستقيم منطق التاريخ إذا سيقت الحوادث المساق الذي لا مفر معه من أن تؤدي إلى نتائجها المحتومة، فتصبح بذلك أمورًا طبيعية يسيغها العقل ويرضاه العلم، وما فعلنا نحن هو في نظرنا المساق الطبيعي للحوادث، وهو الذي يتفق مع حكمة محمد وعظمته وحزمه وبعد نظره ﷺ[٢].

وهكذا يضخم الأمور ويصعد المواقف حتى تكون على مستوى الهجر والتهديد بالطلاق، مع أنها كانت أمورًا عادية لا تتعدى ما يحدث في كل البيوت من طلب التوسعة عليهن في النفقة أو الغيرة التي فطر الله عليها المرأة، أو الميل

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٤٥٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٣ – ٤٥٤.

القلبـي الذي يودعه الله قلب الرجـل، والذي يكون بدرجات متفاوتة، ولكن مع التحفظ بالنسـبة لبيـت النبوة، فلا يصل الميل القلبي برسـول الله ﷺ إلى أن يجاوز العدل، ولا أن تصل الغيرة بنسـائه أمهات المؤمنين إلى حد السـب والقذف، وإنما كان الحزم معهن لمكانتهن من رسـول الله ﷺ ومن المسـلمين جميعًا. كما بين القرآن الكريم ذلك في سورة الأحزاب وسورة التحريم[١].

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج٣ ص ٤٧٩ وما بعدها وج٤ ص ٣٨٦ – ٣٩٠.

"الفصل الثاني"

حركة التبشير والرد عليها بما يتفق مع أسلوب العصر:

المبحث الأول:

المبحث الأول حركة التبشير:

الإسلام هو دين الله الحق على لسان جميع أنبيائه ورسله، من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد بن عبد الله صلوات الله ربي وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].

ومنذ بُعِث رسول الله ﷺ ليهدي الناس إلى طريق الحق والرشاد، واستجاب لدعوته من أراد الله له خيرًا، وأعرض عن دين الإسلام من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم، منذ ذلك الحين ودعوة الإسلام في انتشار مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: "سيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار."[2] وقوله ﷺ: "والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى على غنمه إلا الله

(١) سورة آل عمران آية: ١٩ – ٢٠.

(٢) أخرجه الأمام أحمد مسند الشاميين حديث تميم الداري والإمام البيهقي في السنة الكبرى باب إظهار دين النبي ﷺ على الأديان و المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن و الملاحم، كتاب السير، رواه الإمام البخاري و أبو داود و النسائي في الكبرى من حديث خباب رضي الله عنه.

والذئب، ولكنكم تستعجلون"[١].

ولأن دين الإسلام هو دين الفطرة فان رسول الله ﷺ: لم يكن في حاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه وينتشر في الخافقين لواؤه، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته ﷺ، ويومئذٍ وضع هو خطة انتشار الدين، فبعث إلى كسرى وإلى هرقل وإلى غيرهما من الملوك والأمراء كي يسلموا. ولم تمض خمسون ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علم الإسلام خفاقًا من الأندلس في غرب أوروبا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين في شرق آسيا، وبذلك وصلت الشام والعراق وفارس وأفغانستان، وقد أسلمت كلها ما بين بلاد العرب وممالك النصرانية، كما وصلت مصر وبرقة وتونس والجزائر ومراكش ما بين أوروبا وإفريقية ومبعث محمد ﷺ.

ومن يوم انتشر الإسلام في صولته الأولى وإلى يومنا هذا لم يتغلب عليه من الأديان متغلب، وإن تغلب على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله إيمانًا ولحكمه إسلامًا وفي رحمته وغفرانه أملًا ورجاءً[٢].

تحرك المسلمون لنشر دعوة الإسلام لأن رسالته عامة وخاتمة، فهو هداية الله للخلق كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[٤].

ولا يتحقق ذلك إلا بتبليغه للناس كافة، ومن هنا فإن الفتوحات الإسلامية ليست فتوح استعمار أو استغلال، وإنما هي فتوح هداية ورشاد لإخراج الناس

(١) رواه البخاري في المناقب باب علامات النبوة.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٢١، ٢٢.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٤) سورة الأعراف آية ١٥٨.

من الظلمات إلى النور، وهذه الفتوحات الإيمانية سرعان ما أوقفت الإسلام وجهًا لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت. فلقد تغلب خلفاء محمد ﷺ على المسيحية في الحيرة واليمن والشام ومصر، ووصل إلى مهد المسيحية مدينة القسطنطينية. أفقدر على المسيحية ما قدر على الوثنية من اضمحلال وهي دين كتاب من الأديان التي أشاد بها محمد ﷺ ونزل الوحي بنبوة صاحبها عليه السلام؟ وهل قدر لهؤلاء العرب الزاحفين من شبة الجزيرة الصحراوية القاحلة أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس وبيزنطة وسائر البلاد المسيحية؟ الموت ولا هذا واستمر القتال بين أتباع عيسى عليه السلام وأتباع محمد ﷺ قرونًا متوالية، ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع بل تعداها إلى ميادين الجدل والنضال الكلامي[1].

والحقيقة أن المسلمين ليس بينهم وبين أحد من الناس خصومة أو عداء، وإنما هو البلاغ عن الله، فمن استجاب فهو والمسلمون في دين الله سواء له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أعرض عن الإسلام وتمسك بما هو عليه من يهودية أو نصرانية فله دينه، ولا تثريب عليه طالما وفى بعهده فأدى الجزية ولم يقف حجر عثرة في طريق الدعوة، فإن ركب رأسه وتحكم فيه الشيطان وزين له سوء الفعال وحاد الله ورسوله ومنع نور الله أن يغمر الأرض ليهتدي الناس إلى التي هي أقوم، فليس له إلا القتال، حتى تنساح دعوة الحق وتصل إلى جميع الخلق، ولهذا وجدنا المسلمين حتى في حالة النزال يلتزمون الجادة ولا يحيدون عن الحق الذي علمهم الله إياه مهما تأزمت المواقف أو اشتدت حدة الصراع، ولهذا لم ينالوا من مكانة عيسي بن مريم عبد الله ورسوله ولم يتطاولوا عليه، فهو عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًا، وجعله مباركًا أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا، وبرًّا بوالدته ولم يكن جبارًا شقيًّا، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا. أما المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم يعرضون بمحمد ﷺ وينعتونه بأوصاف يبرأ منها المهذب من الرجال، شفاءً لما في نفوسهم من غل، واستفزازًا وحفزًا لشهوات الناس

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٢٢.

الدنيـا، وعلى الرغم ممـا يُقال من أن الحرب الصليبية وضعـت أوزارها منذ مئات السـنين، فقد ظل تعصب الكنيسـة المسـيحية على محمد ﷺ على أشـده إلى عصور قريبة. ولعله كذلك ما يزال إن لم يكن أشد وإن كان خفيًّا يعمل في ظلمات التبشير بالدون من الوسـائل. ولم يقف الأمر عند الكنيسـة بل تعداها إلى كتاب وفلاسفة في أوروبا وأمريكا لم تك تصلهم بالإسلام صلة تذكر[1].

حركة التبشير حلقة من حلقات الصراع:

فحركة التبشـير أو التنصير حلقة من حلقات الصراع بين الإسـلام والمسيحية تهدف إلى نشر المسـيحية على حسـاب الإسـلام، ولقـد بدأت حركة التبشـير هذه في الشرق الإسـلامي منذ قـرون عديدة، ولكن بصورة هادئة، وبأسـاليب لا تثير الضغائـن ولا تهيـج الرأي العـام، ولقد كان هدف المبشريـن أولًا إدخال الوثنيين إلى حظـيرة المسـيحية، محاولـين بذلك منافسـة الإسـلام الـذي انتـشر ودخل فيه الناس أفواجًا، نظرًا لما في دعوة الإسـلام من بساطة الفطرة الإنسانية، ولما ينطوي عليه الإسـلام من مبادئ وأخلاق يسـعد في ظلها الإنسان أفرادًا ومجتمعات. فلما أصبحت لدول الغرب المسـيحي السـيطرة السياسـية على بلاد الشرق الإسلامي تطور هذا التبشير إلى محاولة تنصير المسلمين.

وهـذه الحلقـة مـن حلقـات الـصراع لهـا جذورهـا التي تحـدث عنهـا القرآن الكريـم، فقـال تعالى مبينًا موقـف المعاندين من أهل الكتاب من رسـول الله ﷺ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[2] وقـال تعـالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ

(١) المرجع السابق ص ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة البقرة آية: ٨٩.

مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.[١] وقال تعالى فاضحًا سرائرهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[٢] وقال تعالى في معرض بيان افتراءاتهم وادعاءاتهم الباطلة: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.[٣] وقال تعالى موضحًا حقيقة مشاعرهم تجاه الرسول ومحذرًا إياه منهم: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾[٤].

ثم أعلنها القرآن صريحة، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٥]. ثم بين القرآن موقفهم من المسلمين حين يتمكنون منهم، فقال: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[٦]. وغير ذلك كثير في القرآن الكريم، يوضح فيه القرآن نواياهم السيئة وأساليبهم الخبيثة ووسائلهم الدنيئة، ثم أعقب ذلك البيان بكيفية التعامل مع هؤلاء الأعداء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٧]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا

(١) سورة البقرة آية: ١٠٩.
(٢) سورة البقرة آية: ١٠١.
(٣) سورة البقرة آية: ١١١.
(٤) سورة البقرة آية: ١٢٠.
(٥) سورة البقرة آية: ١٣٥.
(٦) سورة الممتحنة آية: ٢.
(٧) سورة المائدة آية: ٥١.

مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[1].

وهكذا يبين لنا القرآن الكريم ما كان مطويًّا في صدورهم ومكنونًا في نفوسهم، فأعلمنا به في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، حتى نعلم حقيقة أعدائنا في الدين، بل وبين لنا كيف نصمد أمام هذه الخطط الشريرة، فقال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[2].

كان هؤلاء الأعداء يضمرون ذلك ويعملون في الخفاء أيام قوة الإسلام وعز المسلمين، فلما دار الفلك دورته ونسي المسلمون كتاب ربهم وتحذير نبيهم دارت الدائرة عليهم وتحكم فيهم عدوهم فساموهم سوء العذاب، وصار المسلمون ودينهم وحضارتهم وتاريخهم وثقافتهم هدفًا لحملة ظالمة تحولت خلالها هذه المشاعر السوداء التي تحدث عنها القرآن إلى واقع سافر وشر حاسر يمسك بخناق المسلمين لردهم عن دينهم إن استطاعوا.

وقعت بلاد المسلمين في غفلة من الزمن أسيرة في أيدي أعداء الإسلام، وفي غبشات هذه الظلمة الحالكة وتحت ستار الليل تحركت كتائب التبشير والتنصير لتغير على عقيدة التوحيد ولتهدم حضارة الإسلام ولتطمس تاريخ الإسلام العظيم. تحركوا مثل خفافيش الظلام، وجاؤوا إلى بلادنا في هجمة صليبية أعظم خطرًا وأشد فتكًا من الحملة الصليبية القديمة. جاؤوا لاقتلاعنا من جذورنا أو تنصيرنا أو إبادتنا جميعًا لأننا كما يصفوننا في صرخاتهم الهستيرية الكتلة المركزية الصلبة التي تهدد أوروبا على الأبواب، وتمسكها من طرفي البحر أو الإسفين الثابت الذي يحجب الغرب المسيحي عن الشرق الوثني، الذي يمكن أن يصبح شرقًا أقصى مسيحيًّا يضاف إلى الكنيسة، لولا وجودنا كوتد معاد لهم وغريب

(١) سورة المائدة آية: ٥٧.

(٢) سورة البقرة آية: ١٣٦.

عنهم وغير منسجم معهم، لا يمثل فتقًا في ثوب الكنيسة فحسب بل صدعًا من القمة إلى القاع في ثوب الإنسانية كلها، والتي -لولانا أيضًا- لانتصر عليها المسيح[١].

١- أهداف التبشير في العصر الحديث:

٢- الهجوم على الإسلام: رسولًا، وقرآنًا، وحضارةً، وثقافةً، وبشرًا، وأرضًا؛ تنفيسًا عن حقد دفين وحسدًا لهذا الدين العظيم، حتى يقف مده المتعاظم لتحل محله مسيحية الكنيسة.

٣- خلق تخاذل روحي، وإيجاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين لحملهم على الرضا والخضوع للسيادة الأوروبية، وإيهامهم بأن هذا هو سبيل الرقي والحضارة.

٤- تنصير المسلمين، وتحويلهم عن دينهم: عقيدةً، وعبادةً، وسلوكًا، وأخلاقًا، ونظمًا، إن استطاعوا.

٥- إن عز عليهم تنصير المسلمين وتحويلهم عن الإسلام عقيدةً وعبادةً، فإن الهدف يصير إخراجهم عن الإسلام سلوكًا وأخلاقًا ونظمًا، فيصير المسلم مسخًا مشوهًا يحسب على الإسلام ليكون وصمة عار في جبين هذا الدين العظيم. يبين ذلك واحد من عتاة المبشرين "زويمر" في مؤتمر المبشرين الذي عقد في مدينة القدس عام ١٩٣٥م، في خطبته أمام المؤتمرين: "لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم فيها أسمى توفيق، وإن كان يخيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه. فمهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هدايةً لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام إلى لا شيء ليصبح إنسانًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها. وبذلك تكونون بعملكم هذا

(١) الوثيقة - الإسلام الخطر - محمود الشاذلي ص ٩.

طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام.

وليس زويمر صادقًا في هذا الافتراء الذي لجأ إليه لخيبة الأمل في أعمال التنصير التي لم تؤت ثمرتها على طول مائة عام، تحطمت خلالها كل المؤامرات على صخرة الإسلام الراسخ في قلوب المسلمين، حيث إن العليم الخبير قال: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾[1].

٦- خدمة الاستعمار الصليبي، وذلك بالعمل على تمهيد السبل إلى تحقيقه. فالمبشرون هم طلائع الاستعمار، فإذا تم لهم ما أرادوا شملهم الاستعمار بالعطف، ومكن لهم لإتمام مهامهم الدنيئة، وتحقيق أهدافهم الحقيرة في تنصير المسلمين وإبعادهم عن الإسلام فكرًا وسلوكًا، ليصبحوا مسلمين بالاسم فقط.

وسائل المبشرين:

وحتى يحقق المبشرون أهدافهم في بلاد المسلمين لجأوا إلى الدنيء من الوسائل والحقير من الأساليب، وصولًا إلى تحطيم الإسلام عقيدةً وفكرًا، وإلى احتلال بلاده واستغلال ثرواته وإذلال بنيه. وهم في عملهم هذا إنما يصدرون عن تنظيم محكم وتدبير دقيق تتم متابعته من خلال مؤتمرات التبشير لدراسة العقبات والمعوقات التي تعترض مسيرتهم في الممالك الإسلامية، واقتراح الحلول لحل تلك المشكلات وتذليل تلك العقبات. "وقد حرص الاستعمار والكنيسة على أن تسير خطة التبشير على أسس علمية ونفسية حتى لا تصاب بما باءت به الحملات الصليبية السابقة (الحملات العسكرية) من إخفاق. فعمدت إلى تسخير ما توصلت إليه الأبحاث النفسية بصفة خاصة لتهيئة الجو أمام المبشرين، ومن أجل هذه الغاية كانت المؤتمرات التبشيرية".

(١) سورة الممتحنة عجز الآية: ٢.

فقد عقدت عدة مؤتمرات للتبشير من أهمها:

١- مؤتمر القاهرة التبشيري الذي عقد في منزل أحمد عرابي بباب اللوق عام ١٩٠٦م/ ١٣٢٤ه.

٢- مؤتمر أدنبره في إنجلترا، وقد عقد عام ١٩١٠م بعد مؤتمر القاهرة بأربع سنوات.

٣- مؤتمر لكنؤ بالهند عام ١٩١١م.

٤- ثلاثة مؤتمرات في مدينة القدس أعوام ١٩٢٤م، ١٩٣٥م، ١٩٦١م.

وهكذا نرى أن القرن الرابع عشر الهجري (١٣٢٤هـ تاريخ أول مؤتمر - ١٣٨٠هـ آخر مؤتمر) قد شهد حركة منظمة وضخمة من أجل القضاء على الإسلام في دياره[١].

ولقد كان لهذه المؤتمرات نتائج كثيرة. فكان من نتائج مؤتمر القاهرة مثلًا أن قدم القسيس "زويمر" رئيس المؤتمر عدة نصائح، منها وجوب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداءهم، كما يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول من عند أنفسهم ومن بين صفوفهم...

وأما ما تخمّض عنه مؤتمر لكنؤ بالهند فهو ضرورة الإسراع بتأسيس مدرسة في مصر خاصة بالتبشير، ودخول النساء في أعمال التبشير لتنصير النساء المسلمات وأولادهن"[٢].

وهكذا كان الأعداء يدبّرون ويخطّطون ويأتمرون، في الوقت الذي ركن فيه المسلمون إلى الماضي، ولم ينظروا إلى المستقبل كما علّمهم دينهم، وسكنت نشاطاتهم عند حد سُمي بالجمود فيما بعد، فخمل فكرهم، وانحطّ سلوكهم.

(١) أخطار التبشير في ديار المسلمين محمد عبد الرحمن عوض ص ١٤، ١٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٥.

واستطاعت أوربا، التي استيقظت على أيدي المسلمين وبسببهم، أن تنتهز غفوة غفاها العالم الإسلامي لتسيطر عليه وتهدهد للغفوان، حتى غطّ في نوم عميق. لتعود هي إلى التفكير بحقد وكراهية في كيفية تحطيم الإسلام والقضاء عليه، ليبقى نوم المسلمين أبديًا، ويبقى الغول الصليبي الحاقد يمتص خيرات بلادهم. فلم يجدوا سبيلًا إلى ذلك غير العمل على غزو المسلمين عقليًا في فترة غزوهم عسكريًا، حتى إذا خرجوا من هذه البلاد تحت أي ظرف، أمِنوا نشاط المسلمين وقوتهم وشجاعتهم في الفتوح والجهاد. فاشتركت مصالح الملحدين مع مصالح الكنسيين الصليبيين مع مصالح اليهود المتآمرين، وذهبت المصالح المتشابكة تعمل للقضاء على الإسلام[1].

وهذه هي أهم الوسائل التي استخدمها المبشرون لإتمام مؤامراتهم الدنيئة:

١ - التربية والتعليم:

لقد استغل المبشّرون التعليم في بلاد المسلمين في شتى مراحله، من الحضانة حتى الجامعة، وللبنين والبنات على السواء، وذلك لصناعة العقول التي تتقبّل النصرانية وتتعايش معها. فاتخذت مؤسسات التعليم مراكز إشعاع لسموم التبشير، ولم يراعوا قدسية دور العلم، لأن الهدف الحقيقي من إنشائها وإقامتها، كما قال واحد من عتاة المبشّرين، وهو "هنري جب"، ليس العلم، وإنما يهدف التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إلى قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية.

ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه، وليُخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات... فإننا لا نتردد حينئذ في أن نقول إن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علمي دنيوي. ومثل هذا العمل يمكن أن تقوم به جامعات هايدلبرج، وكمبردج، وهارفارد،

(١) فقه الدعوة والإعلام د/ عمارة نجيب ص ١٧٢ - ١٧٣.

وشيفيلد، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فحسب[١].

والمبشّرون أنفسهم لا يخفون هذه الحقيقة، ويظهر ذلك في منشور الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٠٩م، وذلك ردًا على احتجاج الطلبة المسلمين لأنهم كانوا يُجبرون على الدخول يوميًا إلى الكنيسة. وقد جاء في هذا المنشور ما يفيد بإلزام الطالب بدراسة الإنجيل، كما أعلن مجلس الأمناء بالكلية في هذه المناسبة أن الكلية لم تؤسّس للتعليم العلماني ولا لبثّ الأخلاق الحميدة، ولكن من أولى غاياتها أن تعلّم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزًا للنور المسيحي وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به[٢].

ويشير رئيس مؤتمر المبشّرين "زويمر" في خطبته أمام المؤتمر الذي عقد بمدينة القدس عام ١٩٣٥م إلى أهمية التعليم في نجاح التبشير، فيقول: "لقد قبضنا في هذه الحقبة من الدهر على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية...".

ثم يقول: "وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراد له الاستعمار المسيحي، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همّه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلّم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء. إن مهمّتكم قد تمت على أكمل الوجوه، وباركتكم المسيحية ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم"[٣].

وعليه يبدو واضحًا أن الغرب الحاقد قد اتخذ من التعليم وسيلته الأولى في غزو العقول الإسلامية، وإزالة ما بقي بها من حصانة ومناعة، بعد أن ملأها شكوكًا

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية د/ عمر فروخ وآخر ص ٦٦ – ٦٧.

(٢) أخطار التبشير في ديار المسلمين محمد عبد الرحمن عوض ص ١٨.

(٣) فقه الدعوة والاعلام د/ عمارة نجيب ص ١٧٩.

وأوهامًا حول صلاحية الإسلام لحياة هذا العصر.

وقد سلك إلى طريقه هذا كل الدروب المظلمة التي تحقق غايته الآثمة، فكانت:

أ- البعثات العلمية إلى دول الغرب المسيحي:

تلك البعثات التي نصبوها شِراكَ خداعٍ لأبناء المسلمين ليجذبوهم عن طريقها إلى بلاد الغرب، والتي حرصوا من خلالها على تعليمهم كل ما يغسل عقولهم من تعاليم وآداب وأخلاق الإسلام، في الوقت الذي بخلوا فيه بشدة عليهم أن يتعلموا أسرار العلوم التجريبية اللازمة للتقدّم التقني الذي يحتاج إليه المسلمون.

ب - المدارس التبشرية في بلاد المسلمين:

وقد زرعها الاستعمار في بلاد المسلمين للتبشير بينهم تحت ستار التعليم، ففي مصر مثلًا تأسس معهد علمي سنة ١٨٨٢م تابع لجمعية تبشير الكنيسة، وله أربعة فروع: الأول قسم طبي، والثاني للصبيان، والثالث مدرسة للبنات، والرابع للتبشير بالإنجيل.

والنتيجة الأولى لمساعي هؤلاء تنصير قليل من الشبان والفتيات، والنتيجة الثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية.

وفي سنة ١٨٩٢ جاءت جمعية تبشير شمال أفريقيا لتؤسس معهدًا في مصر، وأعمال هذا المعهد قاصرة على فتح المدارس لتعليم الإنجيل بوجه خاص، وأن تزور المبشّرات منازل المسلمين، ويجتمعن بسيداتهم، وأن يوزعن المؤلفات والكتب التبشيرية، وأن يلقين المحاضرات الدينية لدراسة الإنجيل في أيام الأسبوع.

وفي سنة ١٨٩٨ تأسست الجمعية العامة لتبشير مصر، وغايتها تنصير المسلمين، ولها معاهد في الدلتا والسويس، وتدير مدارس الصبيان والبنات[١].

(١) انظر الدعوة والإعلام د/ عمارة نجيب ص ١٧٩ - ١٨٢.

٢- الطب والعلاج:

لقد استغل المبشّرون آلام المرض وجعلوا منها وسيلة لتعميد قلوب المرضى من المسلمين، فقدموا إليهم الدواء باسم المسيح. ومن المعلوم أن المريض الذي يتألم يضحي بأشياء كثيرة حتى يتخلص من آلامه، ويضحي بما يملك في سبيل الشفاء، كما أن الإنسان يضحي بكل شيء في سبيل شفاء ابنه أو أي إنسان عزيز عليه.

"ولقد أدرك المبشّرون هذا الميل الفطري في البشر، فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الإنسانية وسخّروا الطب في سبيل غايات، حسبك دليلًا على نوعها قولهم: حيث تجد بشرًا تجد آلامًا، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب، فهناك فرصة مناسبة للتبشير".

وهكذا اتخذ المبشّرون الطب ستارًا يقتربون تحته من المرضى. لقد قال الطبيب بول هاريسون: "لقد وجدنا في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى"[1].

٣- الأعمال الاجتماعية:

استغل المبشّرون كذلك الحاجات الاجتماعية للمجتمعات المسلمة في أعمال التبشير بينهم، ويدل على ذلك ما جاء في كتاب: "مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين":

"نحن نعني بالعمل الاجتماعي المسيحي تطبيق مبادئ يسوع المسيح في جميع الصلات الإنسانية. إن المسلمين يدّعون أن في الإسلام ما يلبّي كل حاجة اجتماعية في البشر، فعلينا أن نقاوم الإسلام دينيًا بالأسلحة الروحية، واجتماعيًا بالأعمال الاجتماعية. فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للإنجيل، ويساعده ويتمّه. وعلينا أن نبدأ بالصلات اليومية، تلك التي تتصل بالطفل وبالمرأة، ثم نتوسّع في تلك الصلات حتى نبلغ إلى المبادئ الواسعة التي أقرتها عصبة الأمم.

(١) التبشير والاستعمار مرجع سابق ص ٥٩

وأمام الكنيسة اليوم مناسبات ممتازة تتيح للمبشّر المسيحي أن يتصل برجال ونساء في البيئة الإسلامية الراقية، لم يكن بإمكانه من قبل أن يتصل بهم".

ومن أجل ذلك ننصح بالسير في الأعمال الاجتماعية على الأسس التالية: إيجاد بيوت للرجال والنساء وخاصة الطلبة منهم ومنهن، وإيجاد أندية اجتماعية والاعتناء بالتعليم الرياضي وأعمال الترفيه، حشد المتطوعين لمثل هذه الأعمال. على المبشرين أن يتعرفوا على أحوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية، ثم يسعوا إلى الإصلاح سعيًا إلى التأثير على الرأي العام، ومما يجب أن يهتم المبشرون به: إصلاح الأحداث والحيلولة دون الزواج المبكر، والحيلولة دون تشغيل الأطفال، ومحاولة إصلاح الأحوال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل وبالأجور وبالأمور الصحية في المعامل والمصانع، وكذا الاهتمام بجمعيات الرفق بالحيوان[1].

وبذلك استغل المبشرون الحاجات الإنسانية أسوأ استغلال، لتغيير العقيدة أو الانفلات من تكاليف الإسلام، وأقاموا المؤسسات والمنشآت الاجتماعية في ديار المسلمين كالنوادي وبيوت الشباب ودور المسنين ورياض الأطفال وملاجئ الأيتام ومؤسسات البر والإحسان، تحقيقًا لهذا الغرض الدنيء، وهو التأثير على عقيدة هؤلاء الصغار والضعفاء، فإذا تم التمهيد بهذه الوسائل الخفية التي يعمل التبشير تحت ستارها كشر الحقد الصليبي عن أنيابه وأعمل وسائله السافرة مع هؤلاء المستضعفين (التلاميذ – المرضى – ذوي الحاجات) ليغير على عقيدتهم بالطعن في الإسلام، بالمقارنة بينه وبين المسيحية التي قدمت إليهم كل ما يحتاجون إليه من تعليم وطب وبر وإحسان، في حين تخلى عنهم المسلمون وتركوهم نهبًا للجهل والمرض والحاجة". وتأتي مرحلة الطعن في الإسلام عقب ما سبق من تمهيد، إذ يكون ذهن الضحية وقلبه على أتم استعداد لتلقي ما يلقى إليه وتقبله برضا وطمأنينة، خاصة وأن الضحية غالبًا ما يكون مدينًا لهم بالكثير، ويبدأ

(١) التبشير والاستعمار د/ عمر فروخ وزميله ص ١٩١ – ١٩٢.

الطعن في الإسلام بالقرآن الكريم ودعوى أنه من تأليف بشر، ثم يوسعون الميدان بالطعن في النبي ﷺ ثم بالطعن في اللغة العربية والثقافة الإسلامية بصفة عامة[١].

٤- الاشتراك في المجالات العلمية الرسمية:

من وسائل المبشرين أيضًا التغلغل في المجامع العلمية لمحاولة السيطرة عليها أو توجيهها لصالحهم على الأقل كمثل عضوية كل من: جب ومرجليوث ونيكولسون في المجمع اللغوي بمصر، وعضوية كل من: جويدي وجولدتسير في المجمع العلمي بدمشق، وذلك بقصد التأثير على المثقفين والخط الفكري في الدول الإسلامية، وزيادة على ذلك حمل قادة الفكر في بلاد الإسلام على أن ينفذوا مخطط الاستعمار والتبشير[٢].

٥- الكتابة والتأليف في شتى مجالات الدراسات العربية والإسلامية:

لقد تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين وبلغ عدد ما ألَّفوه عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب. فلقد ألَّفوا في التاريخ العربي والإسلامي، وفي علم الكلام، وفي الشريعة، وفي الفلسفة الإسلامية، وفي تاريخ أدب اللغة العربية، وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وفي النحو العربي وفقه اللغة العربية، ولم يتركوا مجالًا من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلا وألَّفوا فيه. ولهم بعض مؤلفات قيمة ذات فائدة علمية للباحثين، ولهم مؤلفات أخرى تزخر بالطعن في الإسلام وتمتلئ بالأكاذيب التي ليس لها في سوق العلم نصيب[٣].

(١) انظر أخطار التبشير في ديار المسلمين محمد عبد الرحمن عوض ص ٢٠.

(٢) انظر أخطار التبشير في ديار المسلمين محمد عبد الرحمن عوض ص ٢٠.

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د/ زقزوق ص ٧٨ - ٧٩.

٦- استغلال وسائل الإعلام في أعمال التبشير:

أدرك المبشِّرون أهمية وسائل الإعلام في التوجيه ودورها في تكوين الرأي العام، ولذلك فقد حرصوا على تملك هذه الوسائل خدمة لأعمال التبشير، كما حرصوا على أن يسيطروا على ما لا يتملكونه منها حتى لا تخرج القيادة الفكرية وصناعة الرأي العام في بلاد الإسلام من أيديهم. فمثلًا، يسيطر المبشرون على وسائل الإعلام في إندونيسيا ولديهم الإذاعات التبشيرية ويملكون الصحف اليومية الكبرى. وعلى المستوى الدولي، توجد أكثر من خمسين محطة إذاعة تبشيرية منها محطة "كويتو" في الإكوادور بأمريكا الجنوبية، ومحطة أخرى في منروفيا في ليبيريا بإفريقيا، وهناك اتحاد إذاعات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ووسط إفريقيا، وتذيع محطاته بخمس عشرة لغة إفريقية عدا الإنجليزية والفرنسية والعربية، وهناك إذاعة حول العالم ومركزها مونت كارلو، ولها فروع في البحر الكاريبي، وهناك محطات تبشيرية في كل من قبرص وسيريلانكا ومانيلا[١].

وبذلك استطاعوا أن يصلوا إلى ملايين المسلمين من خلال هذه الإذاعات وغيرها من وسائل الاتصال، وتمكنوا عن طريقها من أن ينشروا ضلالاتهم وأن يعموا على المسلمين دينهم وأن يبعدوهم عنه خطوة خطوة حتى أصبحت معظم البلاد الإسلامية لا تفترق في كثير أو قليل في السلوك والأخلاق الظاهرة عن الغرب، اللهم إلا في الجد والنشاط فأولئك غير هؤلاء، والله هو المعين لأوليائه على هذا الضلال السائد.[٢]

(١) انظر أخطار التبشير في ديار المسلمين محمد عبد الرحمن عوض ص ٢١ - ٢٢.

(٢) فقه الدعوة والإعلام د/ عمارة نجيب ص ١٨٢

المبحث الثاني

رد الفعل عند المسلمين وجهود الدكتور هيكل في هذا المجال:

العلاقة بين التبشير والاستشراق:

إذا كان البعض من المسلمين ما يزال يفرق بين المستشرقين والمبشِّرين ويرى في الفريق الأول -وهم المستشرقون- يرى فيهم إنصافًا للإسلام وبحثًا علميًّا نزيهًا يقومون به وصولًا إلى الحق بعيدًا عن الهوى والغرض، فإن الواقع يخالف ذلك. لا يوجد بين المستشرقين إلا قلة قليلة منصفة مخلصة أدى ببعضها إخلاصها وإنصافها إلى اعتناق الإسلام، وتمسك بعضهم الآخر بدينه وقام بأبحاثه وصولًا إلى الحقيقة العلمية التي يتغياها من بحثه. فقد كانت الأهداف العلمية مقصد بعض من ظهروا في عصر التنوير في أوربا، فمنهم من قرأ الكتب الدينية وفحصها وأدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية ومؤيدة لما جاء في كتبها من إيمان بالله وكتبه ورسله ودعوة إلى الحق والخير والصلاح، ولكن هؤلاء كانوا قلة.[١]

والغالبية العظمى من المستشرقين ليسوا إلا مبشِّرين يتسترون وراء مسوح وطيالس العلماء. فإذا كانت الحركات التبشيرية تمارس نشاطها الآثم والمشبوه في عدة بلاد من وطننا العربي والإفريقي تريد أن تقيم سدًّا منيعًا بين أبناء هذه البلاد وبين الإسلام، بل إن القائمين على تلك الحركات قد زين لهم شيطانهم أن يمارسوا هذا النشاط في بلادنا وراء لافتات زائفة لمؤسسات علمية وثقافية، فإنه كذلك نشط المستشرقون في التسلل إلى مجتمعاتنا الثقافية ومؤسساتنا العلمية، وعملوا جاهدين على أن ينفثوا سمومهم في أفكار ضحاياهم من البسطاء أو ذوي الآفاق المحدودة.

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د/ زقزوق ص ٨٨ - ٨٩.

وكلا النشاطين للمبشِّرين والمستشرقين كان يمضي إلى غاياته في الطعن على الإسلام والانتقاص من قيمته وتهوين شأنه وصرف الناس عنه أو الحيلولة بينهم وبينه، وفقًا للسياسة التي رسمها الاستعمار بشتى صوره وألوانه. وذلك أن المستعمرين على اختلاف جنسياتهم ونزعاتهم وجدوا في الإسلام قلعة حصينة تقف شامخة راسخة في وجه زحفهم وتقدمهم، وتبينوا أن العقيدة الدينية الإسلامية كانت دائمًا هي الحافز للشعوب المستعمرة على الكفاح في سبيل التحرير والاستقلال.

ومن أجل هذا تضافرت وتكاملت جهود المبشرين والمستشرقين في الوصول إلى أهدافهم الخبيثة للنيل من الإسلام وتفتيت وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم، تنفيسًا عن الهزائم التي لقيها أسلافهم المتعصبون في الحروب الصليبية.(١)

إن عملاء التبشير والاستشراق، وهم عملاء الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، هم الذين دربتهم دعوة التبشير على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة وعلى التنديد والاستخفاف بها. وهم الذين وجههم كتاب الاستشراق إلى أن يصوغوا هذا الإنكار والتنديد والاستخفاف في صورة البحث العلمي وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش في الكتابة أو الإلقاء عن طريق المحاضرة أو الإذاعة. إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي. فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية والغض من شأن اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة والازدراء بها في المجالات الدولية والعالمية.(٢)

وبهذا تتضح العلاقة الوثيقة بين التبشير والاستشراق، بل أكثر من ذلك فإن الاستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي كانت وما تزال تقدم المدد للتنصير

(١) انظر المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام د/ محمد البهي ص ٣.

(٢) المرجع السابق ص ٧.

والاستعمار وتغذي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه. فالاستشراق هو المنجم والمصنع الذي يمد المنصرين والمستعمرين بالمواد التي يسوقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته وهدم عالم أفكاره، وقد جاء هذا الغزو الثقافي ثمرة لإخفاق الغزو العسكري وسقوطه ولتربية جيل ما بعد الاستعمار.(١)

وبذلك يظهر خطأ الذين يحسنون الظن بالمستشرقين ويضعونهم بالجملة في صفوف العلماء المنصفين، وتتضح الحقيقة جلية وهي أن التبشير والاستشراق هما جناحا الغزو الفكري الذي يهدف إلى تغريب المسلمين عن دينهم وتراثهم وحضارتهم، لا يختلفان إلا في الصورة والمظهر دون الحقيقة والمخبر. فالفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة البحث وادعى الطابع العلمي الأكاديمي، بينما بقيت دعوة التبشير في حدود مظاهر عقلية العامة وهي العقلية الشعبية.

كذلك فإن الاستشراق قد استخدم الكتاب والمقال في المجلات العلمية وكراسي التدريس في الجامعة والمناقشة في المؤتمرات العلمية العامة. أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء، كما سلك سبيل العمل الخيري الظاهري في المستشفيات ودور الضيافة للكبار والملاجئ ودور اليتامى واللقطاء. ولم يقصر التبشير في استخدام النشر والطباعة والصحافة في الوصول إلى غايته.(٢)

ولعل الهدف الديني كان الهدف الرئيسي والدافع الأول لظهور الاستشراق. ويستطيع كل باحث في تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية العربية في أوروبا، وقد صاحب -أي الهدف الديني- الاستشراق طوال مراحل تاريخه ولم يستطع أن

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د/ زقزوق ص ١٢.

(٢) المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام د/ محمد البهي ص ٨ – ٩.

يتخلص منه بصفة نهائية. وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من آثار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلًا إلا بدرجة ضئيلة، وكان الهدف الديني للاستشراق يسير منذ البداية في اتجاهات ثلاثة متوازية تعمل جنبًا إلى جنب، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يأتي:

١- محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه وإبرازها، والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية والانتقاص من قيمته والحط من قدر نبيه.... إلخ.

٢- حماية النصارى من خطره. بحجب حقائقه عنهم وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

٣- التبشير وتنصير المسلمين.

وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهرًا الآن في كثير من الكتابات الاستشراقية، فليس معنى هذا أنه قد اختفى تمامًا. إنه ما يزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي. فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى المشتغلين بدراسة الإسلام - وأكثرهم متدينون - أن ينسوا أنهم يدرسون دينًا ينكر عقائد أساسية في النصرانية ويهاجمها ويفندها، مثل عقيدة التثليث وعقيدة الصلب. كما أنه من الصعب عليهم أيضًا أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها. ونحن إذ نسجل ذلك فإننا ننبه في الوقت نفسه إلى أن ذلك ليس حكمًا عامًا على جميع المستشرقين، فهناك فريق منهم قد حاول جاهدًا الالتزام بالحيدة والموضوعية وأنكر على كثير من زملائه نزواتهم التي انحرفت بهم عن النزاهة العلمية، وهناك من أنصف في جانب وتحامل في جانب آخر.[1]

وإزاء هذه الهجمة الشرسة، فلقد كان طبيعيًّا أن ينهض المسلمون منذ العصور الأولى وحتى الآن ليدافعوا عن دينهم ونبيهم وحضارتهم ويواجهوا هذه الحملة الظالمة التي شنها الأعداء من المبشِّرين والمستشرقين. وقد كان لكل عصر وسائله

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية د/ زقزوق ص ٨٦ - ٨٧.

في الدفاع وأساليبه التي تتناسب مع أحوال كل عصر.

جهود الدكتور هيكل في هذا المجال:

ولقد ساهم الدكتور هيكل بجهوده في الرد على هؤلاء من خلال كتابته عن رسول الله ﷺ بطريقة تتناسب مع أسلوب العصر الحاضر تقوم على محاور ثلاثة:

أولًا: توضيح العلاقة بين المسيحية والإسلام.

ثانيًا: بيان موقف الإسلام من المسيحية.

ثالثًا: موقف المستشرقين من الإسلام.

١- بيان افتراءات المفترين وتفنيدها والرد عليها.

٢- استخدام مواقف المعتدلين في الرد على المتحاملين.

وأُلقي الضوء على هذه المحاور الثلاثة:

أولًا: العلاقة بين الإسلام والمسيحية:

لقد واجه الإسلام منذ ظهوره تحديات صعبة من أصحاب الديانات والمذاهب المعاصرة له، إذ كان بمثابة تصحيح لمسار الإنسانية في توجهها إلى الله الحق. وكان عليه أن يواجه هذه التحديات حتى يصحح المسار ويأخذ بيد الإنسانية من الضلال إلى الرشاد ومن الظلمات إلى النور. واجه أولًا الوثنية -التي تتمثل في عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع- وكان موقفه منها صارمًا وصريحًا، فلا مهادنة ولا تعايش ولا جوار. وكان النصر حليف الإسلام في معركته مع الشرك والوثنية، فقضى على عبادة الأصنام القضاء الأخير فلم تقم لها قائمة منذ طهر رسول الله البيت الحرام من هذه المعبودات الصماء البكماء، وبذلك ارتفع الإسلام بالإنسان إلى المكان اللائق به كأشرف مخلوق على ظهر الأرض.

وكان على الإسلام أن يواجه بعد ذلك اليهودية والمسيحية، لا ليمحوهما من

الوجود كما فعل مع الوثنية فهما ديانتان سماويتان، إلا أنه دخل عليهما تحريف كثير ذهب بنورهما السماوي وطمس على معالم الهداية فيهما، حتى قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

جاء الإسلام ليعيد التوحيد إلى صفائه كما جاء به موسى وعيسى والنبيون من قبلهم، فالتوحيد كان دعوة كل الرسل جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.(١) وقال عز من قائل: "واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون".(٢)

ومع انحراف اليهود والنصارى انحرافًا وصل بهم إلى درجة الكفر التي وصفهم الله بها في القرآن: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.(٣)

وقال أيضًا: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤). مع هذا الانحراف في أصل العقيدة فقد فتح الإسلام معهم حوارًا للوصول إلى الحق فقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.(٥)

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٥.

(٢) سورة الزخرف آية: ٤٥.

(٣) سورة التوبة آية: ٣٠.

(٤) سورة المائدة آية: ٧٣.

(٥) سورة آل عمران آية: ٦٤.

لقد كان الإسلام متسامحًا مع أهل الكتاب، فهو يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، وجعل لمن يؤمن منهم برسول الله ﷺ كفلين من رحمته وثوابه. وجعل من يصر على دينه حرًا لا يُكره ولا يُقاتل، وإنما له حريته على ألا يتعرض للمسلمين بإيذاء أو عدوان أو صد عن سبيل الله، وأن يؤدي الجزية. فإن ارتضوا ذلك كانت لهم ذمة وعهد واجب على المسلمين أن يوفوا به.

وتاريخ الإسلام حافل بكثير من الصحائف المشرقة التي سجلت حسن معاملة المسلمين لأهل الذمة مما لا يستطيع أن ينكره مكابر، لأن الإسلام العظيم كلفهم بذلك تكليفًا. ومع هذا فقد كان أهل الكتاب، خاصة اليهود، يناصبون المسلمين العداء وينحازون إلى جانب المشركين من الوثنيين، وقد سجل عليهم القرآن الكريم هذا الموقف المشين، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.[1] ويرصد الدكتور هيكل -رحمه الله- العلاقة بين المسيحية والإسلام، مبينًا أن الإسلام حين انتصر على الشرك والوثنية واجه المسيحية في شبه الجزيرة العربية، ووجه الدعوة إلى أتباعها للإيمان بالله ورسوله ﷺ، وقد ذكر القرآن أن عيسى عليه السلام قد بشر بالنبي الذي سيكون بعده آمرًا أتباعه أن يؤمنوا به ويناصروه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2] ونظرًا لتحريف الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، فقد ذهبت هذه البشارة كما ذهب كل شبه بين المسيحية والإسلام، فظهرت خلافات بين الدينين السماويين وكانت هذه الخلافات موضع جدل بين النصارى وبين رسول الله ﷺ الذي كان يحاجهم بالوحي. وكان أهم نقاط الخلاف هذه أن النصارى ينكرون نبوة محمد ﷺ ورسالته، ويقولون بالتثليث، والإسلام ينكر

(١) سورة النساء آية: ٥١.

(٢) سورة الصف آية: ٦.

ما سوى التوحيد أشد الإنكار. النصارى يؤلهون عيسى ويلتمسون الدليل على صحة دعواهم في أنه عليه السلام تكلم في المهد وأوتي من المعجزات ما لم يؤت غيره من البشر مما هو من عمل الخالق جل شأنه، وكان هذا رأي النصارى على عهد الرسول ﷺ الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إله أو ابن إله، بل وذهبت طائفة منهم إلى تأليه مريم عليها السلام. ولما كان التثليث أساس النصرانية المحرفة، والإسلام دين توحيد في أشد معاني التوحيد صفاءً وقوةً، فقد أنكر أن يكون لله صاحبة أو ولد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.(٢) فلا عجب أن تكون بين رسول الله ﷺ وبين نصارى عهده تلك المجادلة بالتي هي أحسن، وأن ينزل القرآن مؤكدًا حقيقة التوحيد الصافية النقية التي لا تشوبها شائبة.

ومسألة أخرى يختلف فيها الإسلام مع النصرانية، ألا وهي مسألة الصلب والفداء، فالنصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام قدم نفسه قربانًا فقتل وصلب فداءً للبشرية عن خطاياها، والقرآن الكريم صريح في نفي هذا الهراء، فهو يقرر أن المسيح عليه السلام ما قتل وما صلب. قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.(٣)

فالقرآن ينفي الادعاء بأن عيسى عليه السلام قتل أو صلب، وعليه فلا صلب ولا فداء، وإنما كل إنسان محاسب عن عمله ومجزى به. قال تعالى: "أم لم ينبأ بما في

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٠١.

(٣) سورة النساء آية: ١٥٧ – ١٥٨.

صحف موسى وإبراهيم الذي وفى، ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى".[١]

ولا غفران لخطيئة المخطئ إلا بالتوبة، قال تعالى: "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى".[٢]

وبهذا يظهر التناقض الواضح بين الإسلام والمسيحية بخصوص هذه النقطة، مما يجعل اللقاء بينهما مستحيلًا إلا أن يعدل المخطئ عن خطئه حتى يلتقي مع الحق، وهو ما فعله النصارى ممن أسلموا وجنحوا للحق الذي أثبته الله في القرآن الكريم.[٣]

ولكن الذين وقفوا من دين الإسلام موقف العداء نظروا إلى الأمر من الناحية السياسية وفكروا فيما يصيب ملكهم من ضياع إذا تم للدين الجديد النصر والغلبة، ولهذا ناصبوه العداء وجردوا الجيوش لتصد هذا النور الذي أشرق على شبه الجزيرة ليمنعوه من تخطي الحدود. ومن يوم أن وقف الروم موقف التحدي لهذا الدين الجديد اشتبك الفريقان في صراع دارت رحاه، حالف النصر فيه جنود الإسلام قرونًا متطاولة امتدت خلالها دولتهم من الأندلس غربًا إلى الصين والهند شرقًا، وآمن به الكثير من سكان هذه الجهات واستقرت فيها لغة الإسلام وأظلتهم حضارته خلال كل هذه القرون. فلما غير المسلمون ما بأنفسهم غير الله ما بهم، فدارت الدائرة عليهم وطردهم النصارى من الأندلس، وتحركوا لغزوهم بعد ذلك في عقر دارهم في حملات صليبية عسكرية، وشنوا عليهم مع هذه الحرب المادية حربًا فكرية تهدف إلى زعزعة عقيدتهم لصرفهم عنها أو لسلخهم عن تعاليم الإسلام.

وما زال المسلمون حتى الآن يعانون من آثار هذه الحرب السوداء القائمة على الكذب والافتراء.

---

(١) سورة النجم آية: ٣٦ – ٤١.

(٢) سورة طه آية: ٨٢.

(٣) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٢٥ – ٢٨.

ثانيًا: موقف الإسلام من المسيحية:

لقد دعا الإسلام أهل الكتاب إلى الدخول فيه لأنه هو دين الله الحق إلى جميع الخلق، ولكن المبطلين منهم زعموا أنه دين الأميين أي العرب وحدهم، أما هم فإنهم أهل دين سماوي لا يتركونه إلى غيره. ولقد كفل الإسلام لهؤلاء حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل الدولة الإسلامية، وعقد لهم عهدًا وذمة وأمانًا، فحقن دماءهم وصان أموالهم وحفظ حقوقهم وأمنهم على كنائسهم وصلبانهم، بشرط أن يحترموا دين الإسلام كما احترم الإسلام دينهم، وأن يوفوا بشروط عهود الذمة المعقودة بينهم وبين المسلمين. وطالما التزم أهل الكتاب بهذه الشروط، استتب الأمن وساد النظام دولة الإسلام، ونعم بالأمن والسلام كل رعاياها من مسلمين وأهل ذمة، فلقد كان المسلمون أمناء مأمونين لأن نظام الإسلام الذي هو رحمة الله للخلق هو الذي كان يحكمهم.

ولقد أثبتت حوادث التاريخ أن ما حدث به القرآن الكريم عن طوية أهل الكتاب تجاه المسلمين حق لا مرية فيه، فما تمكنوا من المسلمين في أي مكان إلا وساموهم سوء العذاب وأذاقوهم الظلم والخسف، بل وجعلوا ردهم عن الإسلام هو هدفهم الأسمى. ومن هنا فإن معاملة الإسلام لأهل الكتاب والتي يرشد إليها قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾،[1] إنما هي من باب الحزم وليس من باب الشدة أو الظلم، فالرسول ﷺ حذر من ظلم المعاهدين أو انتقاصهم أو تكليفهم بما لا يطيقون، فهو دين الرحمة والرفق حتى بالحيوان الأعجم، فما بالك بالإنسان الذي كرمه الله عز وجل.

(١) سورة التوبة آية: ٢٩.

والإسلام يتسع صدره لمشاركة أهل الكتاب في الدفاع عن الدولة إذا صدقوا وكانوا أمناء في القيام بهذه المهمة ويرفع عنهم الجزية.

هذا بالنسبة للنصارى المعاهدين، يحقن الإسلام دماءهم ويرعى حرمة أموالهم ويكفل لهم حقوق المواطنة الكاملة إذا عاشوا بين المسلمين. وأما بالنسبة لعيسى عليه السلام وأمه مريم البتول، فالإسلام يضعهما في أعلى مراتب التكريم والإكبار. فعيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم، خلقه الله بكلمته من غير أب، ومريم هي العفيفة الطاهرة التي طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين. حملت بعيسى عليه السلام فلم يمسسها بشر، وحملت بعيسى الإنسان الرسول، وأنطقه الله وهو في المهد ببراءة أمه وبأنه عبد الله ونبي من أنبيائه. ولما أراد الأعداء قتله لم يمكنهم الله منه بل رفعه إليه. فعقيدة المسلمين في عيسى وأمه أسمى من عقيدة النصارى أنفسهم، فرغم أنهم يقولون عنه إنه إله أو ابن إله، فإنهم يعتقدون مع ذلك أنه قدر عليه أعداؤه من اليهود فقتلوه وصلبوه. فأي إله هذا الذي يمسك به أعداؤه ليقتلوه ويصلبوه؟ وخروجًا من هذا المأزق يخترعون قصة الفداء والقيامة من بين الأموات. أما عقيدة المسلمين في عيسى عليه السلام فتضعه في المكان الكريم الذي رفعه الله إليه دون غلو، فهو كما قال الله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.[1] ومع أنه بشر رسول، فلم يمكن الله منه أعداءه، فما قتلوه وما صلبوه، وإنما رفعه الله إليه، وسينزل عليه السلام آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويهلك الدجال.

ثالثًا: موقف المسيحيين من الإسلام:

١ - موقف المستشرقين المتعصبين من الإسلام: رغم أن المسلمين يعتقدون أن عيسى عليه السلام رسول من رسل الله الكرام ويؤمنون بنبوته ورسالته، فإن

(١) سورة المائدة آية: ٧٥.

كثيرًا من المسيحيين المتعصبين جعلوا يعرضون بمحمد ﷺ وينعتونه بأوصاف دنيئة يبرأ منها المهذب من الرجال، فما بالك برسول الله؟ يفعلون ذلك شفاءً لما في نفوسهم من حقد وحسد واستفزازًا وحفزًا للشهوات الدنيا ضد محمد ﷺ وضد أتباعه. فكانت الحروب الصليبية التي امتدت إلى مئات السنين استجابة لداعي الفتنة التي أشعل نارها رجال الكنيسة، وسارت الجماهير المغرر بها تحت رايات الصليب لتعيد مهد المسيح وقبره إلى سلطان النصارى.

ويذكر الدكتور هيكل أن الحرب ضد الإسلام قد أخذت في العصر الحديث أبعادًا كثيرة تخطت رجال الكنيسة وتجاوزت المواجهة المسلحة إلى مجالات أخرى، ومنها التبشير باستعمال أدنى الأساليب.(١)

ويتساءل الدكتور هيكل متعجبًا كيف يظل هذا التعصب المسيحي ضد الإسلام تعصبًا أعمى في عصر يزعمون أنه عصر النور والعلم وعصر التسامح وسعة الأفق؟ ويقارن هذا الموقف المشين من جانب النصارى بالموقف الكريم الذي وقفه المسلمون حين نصر الله المسيحية على المجوسية، فقد اغتبطوا لهذا النصر وفرحوا به فرحًا سجله الله في القرآن الكريم فقال تعالى: "غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم".(٢) فقد ساء المسلمين انتصار المجوس وهم عبدة النار على الروم وهم أهل كتاب، واعتبروا هذه الهزيمة هزيمة لأديان السماء وتطلعوا إلى اليوم الذي ينصر الله فيه إخوانهم النصارى على أعدائهم من الفرس، وطمأنهم الله أن ذلك اليوم آت قريبًا. وبعد أن يقارن الدكتور هيكل بين موقف الإسلام من المسيحية، يحدد أسباب الخصومة من جانب المسيحية تجاه الإسلام في الآتي:

(١) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٢٢ – ٢٣.

(٢) سورة الروم آية: ٢ – ٥.

١- جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبي ﷺ:

ومرجع هذا الجهل إلى الكتابات الغربية التي كتبها قساوسة متعصبون أخذوا من الكذب والافتراء ستارًا يحولون به بين الغربيين وبين الإسلام، فشوهوا تعاليمه وصوروا النبي ﷺ كذبًا وبهتانًا أنه كان ساحرًا ممعنًا في فساد الخلق، لص نياق، وكردينالًا لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع دينًا جديدًا لينتقم من زملائه، واستولى القصص الخيالي الخليع على سيرته.(١)

وقد أمعن الكتاب المسيحيون في الافتراء، فألفوا في ذلك القصص والأغنيات التي رددها الشعب المسيحي في هذه المثالب والعيوب التي نعتوا فيها دين الإسلام ورسوله والمسلمين بأحط الصفات. ولم يسلم من هذا الافتراء والتضليل والتزييف حتى أولئك الذين يوصفون بالجد من كتاب المسيحية. ولقد ظل هذا السيل من الأباطيل والأكاذيب على الإسلام مستمرًا لم ينقطع على مدى القرون، بل وما زال مستمرًا حتى عصرنا الحاضر.

وهكذا اطلع أهل الغرب على الإسلام من خلال هذه الكتابات المضللة، فكانت معلوماتهم عنه مجرد خرافات لا أساس لها من الحقيقة. كل ذلك ليصدوهم عنه وليحركوا الغوغاء لاستنقاذ العالم من هذا الداء المبير والشر المستطير، فكانت الحروب الصليبية. ثم ازداد الأمر تفاقمًا حينما تمكن هؤلاء المسيحيون من السيطرة على أقطار الإسلام، فتحول الأمر من مجرد الحيلولة بين أبناء الغرب وبين دخولهم في الإسلام إلى محاولة تنصير المسلمين من أبناء الشرق الإسلامي، فبثوا المبشرين في أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة، محاولين بذلك صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية أو إلى لا شيء.

٢- جمود الغربيين وتعصبهم ضد الإسلام:

ولا ريب أن التعصب كان الثمرة المرة التي أثمرها هذا الجهل بحقائق

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٢٩.

الإسلام، فإذا قام التعصب على أساس من الجهل كان التعصب أعمى يتمكن من النفوس شر تمكن، وتتوارثه الأجيال بعد أن قامت له تماثيل وأوثان في هذه النفوس المظلمة، يحتاج تحطيمها إلى قوة كبرى كقوة الإسلام حين ظهوره.

٣- تحريف المسيحية لتلائم طبيعة الغرب:

فالمسيحية وما تدعو إليه من زهد في الحياة واعتزال للعالم ومن العفو والمغفرة وغير ذلك من المعاني السامية لا تلائم طبيعة الغرب الذي عاش آلاف السنين في ظل تعدد الآلهة وفي ظل حياة كلها الحرب والدمار والأنانية والاعتداء. فإذا اقتضت الظروف التاريخية أن يدين الغرب بالمسيحية، فلا مفر إذن من أن يسبغوا عليها ثوب الكفاح لتلائم حياتهم وطبيعتهم، وبذلك خرجت المسيحية في الغرب عن طبيعتها السمحة وغرقت في لجة التعصب والكفاح الذي لا يعرف الرحمة ولا يعرف التسامح. ويقص التاريخ قصص هذا الكفاح الذي وقع بين آباء الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية، والذي انتهى بالفوز لهذه السلطة منذ القرن التاسع عشر، فحاولت أن تقضي على الحياة الروحية باسم العلم زاعمة أن العلم سيحل من الحياة الإنسانية محل الإيمان من الحياة الروحية. ولقد أدرك الغربيون بعد لأي خطأ هذه النظرية، فتنادوا إلى حياة روحية عجز العلم عن تحقيقها. فلو أن المسيحية مما يلائم غرائز الغربيين لعادوا إلى مسيحيتهم كدين آمنوا به لتحقيق الحياة الروحية المنشودة. ولما كان العكس هو الواقع تمامًا نظرًا لتحريف المسيحية، وجدنا أهل الغرب يخطئون التوجه، فبدلًا من أن يجدوا في الإسلام ضالتهم المنشودة ليعيشوا حياة روحية سامية تتلاءم مع فطرة الإنسان، وجدناهم يلتمسون حياتهم الروحية في أديان الهند، خاصة البوذية والبرهمية، مما أدى إلى اتساع شقة الخلاف بين المسيحية والإسلام.[١]

٤- الاستعمار والدعوة ضد الإسلام:

لقد عمل الاستعمار الغربي على الاستمرار في الحملة التي أثارها أعداء

(١) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٣١ - ٣٣.

الإسلام من المبشرين والمستشرقين المتحاملين ضد الإسلام لتدوم له السيطرة على بلاد المسلمين، وأغرى هؤلاء المفترين بترديد مفترياتهم ليزعزعوا ثقة المسلمين في الإسلام فيتخلوا عنه كدين وكنظام. وربطوا بخبث ودهاء بين واقع المسلمين المتردي وبين اعتناقهم للإسلام ليخلصوا إلى الزعم بأن الشرقيين إذا أرادوا أن يسيروا في ركب التقدم والحضارة فلا سبيل إلى ذلك إلا أن يتخلوا عن أسباب التخلف وأولها دين الإسلام، وأن يأخذوا بأسباب التقدم وأولها مسيحية الغرب التي ارتفعت بمعتنقيها إلى دور القيادة والريادة وأوصلتهم إلى التقدم والرقي في شتى مجالات الحياة. وهكذا عمل الاستعمار على تأييد ما دس على الإسلام وعلى سيرة نبيه وتاريخ المسلمين لأهداف سياسية بعيدة كل البعد عن الحق والإنصاف.

٢- موقف المستشرقين المعتدلين من الإسلام:

الحق أن غير المسلمين من أهل الكتاب عند تناولهم للإسلام كان أكثرهم مجافيًا للحق ومتبعًا للهوى، فصنع من نسج خياله -الذي أملاه عليه تعصب أعمى قام على حقد أسود- مفتريات وأكاذيب وألصقها ظلمًا وزورًا بالإسلام ونبيه وكتابه والمسلمين، صدًا عن سبيل الله وكفرًا به. ومنهم كازانوفا وكارل بروكلمان وإيناس جولد زيهر وهنري لامانس وغيرهم من المتحاملين على الإسلام دينًا ورسولًا وكتابًا وأحكامًا. وكان بعضهم منصفًا حيث "التزم في دراسته للإسلام بالموضوعية والنزاهة العلمية وأنصف الإسلام والمسلمين وقد أدى الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام.[١] وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.[٢]

(١) الاستشراق والخليفة الفكرية للصراع الحضاري د/ زقزوق ص ٩١.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٣ - ١١٤.

وهـؤلاء لهـم مواقـف نبيلـة وكتابـات صادقة تسـاعد المسـلمين في الـرد على ادعاءات المبطلين، ومن هؤلاء:

١- نصر الدين دينيه والذي كان يُدعَى ألفونس إيتان دينيه، ولد في باريس عام ١٨٦١م، وبعد دراسته للإسلام ومقارنتة بالمسيحية أعلن إسلامه عام ١٩٢٧م.

٢- ليوبولـد فايـس الـذى ولـد عـام ١٩٠٠م بمدينة لـوو بالنمسـا، وينتمي لعائلة يهودية لها مكانتها العلمية والاجتماعية، وبعد دراسـته للإسـلام اعتنقه عام ١٩٢٦م، وتسَمَّى باسم محمد أسد.

٣- الفيلسـوف رينيه جينو الذى ولد في فرنسـا عـام ١٨٨٦م، وبعد تردد بين المسـيحية والماسـونية دخل في دين الإسـلام عام ١٩١٢م، وتسَـمَّى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى.

٤- روجيه جارودي الذى أشـهر إسلامه عام ١٩٨٢م، وتسَمَّى باسم: رجاء جارودي، وأصدر كتابه الشـهير "وعود الإسـلام" الذي تسـبب في شـن حرب شـعواء عليـه من أكثر من جهة خاصة، وأنه أعلن في كتابـه هذا أنه لا توجد اليوم أمة تحمل كلمة الله بأمانة وصدق غير أمة الإسلام، ولا يوجد كتاب سماوي يمثل كلمـه الله بحـق دون تحريـف إلا القرآن، ولا أمـل في إنقاذ الغرب ممـا هو فيه وما يعانيه إلا أن يعترف بأنه مدين في حضارته لحضارات أخرى، وإلا أن يغير موقفه المتعنت من الإسلام.

إسهامات الدكتور هيكل في الرد على مطاعن المستشرقين:

يعتقـد الدكتور هيكل أن هـؤلاء المغرضين من أعداء الإسـلام الذين يحملون الإسـلام وزر انحطـاط المسـلمين قـد اسـتغلوا بعـض مـا كتبـه كتاب مسـلمون وأضافـوه إلى دين الله وهو ليس منـه، واعتبروه من صلب هذا الدين بحيث يكفر منكـره ويرمى بالزندقة من يحاول تمحيصـه. ويضرب لذلك مثلًا بما أضافته كتب السيرة إلى حياة النبي ﷺ مما لا يصدقه عقل، فقد اعتمد عليه المستشرقون واتخذوه

تكأتهم في مطاعنهم، واستخدموا في ذلك ما زعموه طريقة علمية، والحق أنه ليس من العلم في شيء، وإنما أملته شهوة التجريح مصوغًا في عبارة لا تخلو من براعة تستهوي إخوانهم في العقيدة، وتوهمهم بأنه الحقيقة العلمية المجردة التي ينتجها المنهج العلمي الصحيح المجرد من الهوى.

وقد تصدى لهذه المطاعن بعض العلماء المسلمين في ظروف مختلفة، محاولين دحض هذه المطاعن.

ويرى الدكتور هيكل أن هذه المواجهة لم تكن لها الفاعلية المرجوة لسببين جوهريين، وهما:

١- عدم اتباع هؤلاء العلماء في هذا التصدي الطريقة العلمية التي يتبعها هؤلاء المغرضون.

٢- ضعف موقف هؤلاء العلماء، إذ اتهموا بالزندقة من المسلمين، مما أضعف موقفهم أمام خصومهم بعد انصراف الشباب عن تأييدهم وعدم الأخذ عنهم، بل على العكس من ذلك فقد يمموا وجوههم نحو الغرب ينهلون من علمه وأدبه.

وتلافيًا لهذا القصور اتبع الدكتور هيكل المنهج الآتي للرد على المستشرقين:

١- اتباع الطريقة العلمية الحديثة في دحض هذه المفتريات التي ألصقها المتعصبون بالإسلام وبسيرة النبي ﷺ.

٢- استخدام بحوث المنصفين من المستشرقين في المواجهة مع المتعصبين منهم.

٣- تحذير المسلمين من الوقوع في حبائل المستشرقين المتعصبين.

فهو يحذر المسلمين من تصديقهم لكل ما يذكره المستشرقون خاصًا بالإسلام وتاريخه، خاصة الشباب الذين يتلقون كل ما يقوله المستشرقون بقبول حسن ويعتبرونه العلم الصحيح المعبر عن الحقيقة الخالصة. ذلك أن بعضهم رغم أنه مخلص في بحثه، فإنه يقع في الخطأ لعدم دقته في إدراك أسرار اللغة العربية تارة،

ولما يشوب نفوس طائفة منهم من الحرص على هدم مقررات دين من الأديان أو على هدم مقررات الأديان جميعًا تارة أخرى.

فإذا كان هذا هو الواقع، فيجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم حين يطالعون ما يصدر عن الغرب من مباحث دينية، وأن يمحصوا كل ما يصوروه على أنه حق. فالكثير منهم يتأثر بمقدار غير قليل بهذا الماضي الذي جعل الخصومة متصلة بين رجال الدين ورجال العلم قرونًا متوالية.[١] علماً بأن ما نشب في أوروبا من صراع بين العلم والدين مما أدى إلى تنحية الدين عن قيادة الدنيا ليس عندنا ما يماثله، لأن دين الإسلام -بفضل الله- هو الدين الحق على صفائه كما أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ بلا تحريف ولا تبديل، إذ حفظ الله كتابه بخلاف الدين عندهم فإنه لا يمت إلى دين الله الذى أوحاه إلى عبده ورسوله عيسى عليه السلام بأدنى صلة، فلأنه دين محرف لم يقوَ في صراعه على تحقيق النصر في معركة الوجود، فكان النصر حليف العلم الذى أدى إلى سيادة المذهب المادي على كل صور الحياة.

وأتناول بعض الأمثلة في تصدي الدكتور هيكل لمطاعن المستشرقين بالعرض والبيان:

١ - الرد على فرية تحريف القرآن الكريم:

وهذه الفرية تدل على الحرص من جانب غلاة المستشرقين على هدم المقررات الدينية، وإسرافهم في ذلك إسرافًا معيبًا حين يزعمون أن القرآن الكريم ليس وثيقة تاريخية لا مجال لريبة فيها، فقد حُرِّف بعد وفاة النبي ﷺ وفي صدر الإسلام، حيث أضيفت إليه أثناء ذلك آيات لأغراض دينية وسياسية.[٢]

وبهذا يحدد الدكتور هيكل مضمون الفرية والدافع من ورائها، ثم يكر عليها مستخدمًا في ذلك بحوث المستشرقين أنفسهم ليكون في ذلك أبلغ الحجة فيقول:

(١) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٤٧.

"وما أورده المستشرقون في ذلك فكثير، نختار منه بعض ما كتبه السير وليم موير مستخلصًا منه الأدلة على دقة القرآن الكريم الذي يتلوه المسلمون اليوم كما تلاه النبي ﷺ بلا أدنى تحريف أو تغيير. تلك الأدلة والقرائن هي:

أ- توافر الأسباب الداعية إلى حفظ القرآن الكريم:

فقد كانت قراءة ما تيسر من الوحي جزءًا جوهريًا من الصلوات اليومية عامة أو خاصة، وكان القيام بهذه التلاوة فرضًا وسنةً يجزى من يؤديهما جزاءً دينيًا صالحًا. ولذلك وعت ذاكرة كثرة المسلمين الأولين القرآن إن لم يكونوا جميعًا. وكان يقدم حفاظ القرآن على غيرهم في كل شأن، كما ساعدت عادات العرب على حفظ القرآن إذ كان اعتمادهم الأول على الذاكرة القوية نظرًا لقلة وسائل حفظ المعلومات.

ب- كتابة القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ:

ومع قوة الذاكرة لدى المسلمين وتوافر الأسباب الداعية إلى حفظ القرآن واستظهاره، فقد تم تحريره كتابة في نسخ سجلت القرآن كله. فقد كان النبي ﷺ يملي القرآن بعد نزوله مباشرة على كتاب وحيه الذين خصصهم لهذا الغرض. كما أنه من المؤكد أن الصحابة قد دونوا أثناء حياته نسخًا شتى لأجزائه المختلفة، إذ كانت الكتابة معروفة بمكة على وجه عام قبل نبوة محمد ﷺ بزمن غير قليل.

ج - الرجوع إلى النبي ﷺ عند الاختلاف:

فقد تم حفظ القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ في الصدور وفي السطور، وكان حتمًا أن يتطابق المصدران تمام التطابق، إذ كان القرآن منظورًا إليه برهبة اليقين بأنه كلام الله رب العالمين. لذلك كان كل خلاف على نص من نصوصه يرجع فيه إلى النبي ﷺ نفسه أثناء حياته، فلما قبض كان يرجع في ذلك إلى النصوص المكتوبة وإلى الحفاظ من أصحاب النبي الأقربين وكتاب وحيه.

د- جمع القرآن الكريم في خلافة أبي بكر وفي خلافة عثمان ﷺ:

بعد موقعة اليمامة واستشهاد كثير من حفاظ القرآن، خشي عمر بن الخطاب أن يموت هؤلاء الحفاظ فيضيع كثير من القرآن. إذ ذاك توجه إلى أبي بكر قائلًا: أخشى أن يستحر القتل بين حفاظ القرآن في مواطن أخرى وأن يضيع لذلك كثير منه، والرأي عندي أن تأمر بجمع القرآن. وأقر أبو بكر هذا الرأي، وكلف بهذه المهمة زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي، فقام بهذه المهمة، وظفرت جهود زيد المتصلة بجمع هذه المادة كلها وترتيبها على النحو الذي هي عليه اليوم، وعلى النحو الذي كان زيد يتلو عليه القرآن في حضرة النبي ﷺ. وظل هذا الكتاب الذي جمعه زيد قائمًا طيلة خلافة عمر على أنه النص الصحيح الصادق. فلما كان عهد عثمان وقع الخلاف بين المسلمين في طريقة التلاوة، وتعصب كل فريق لطريقته، وكاد ينشب الخلاف بينهم. فلما عاد حذيفة من غزوة في أرمينية وشاهد هذا الخلاف قال للخليفة: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في كتاب الله. وعندئذ أمر الخليفة بإحضار النسخة التي جمعها زيد ونسخ منها نسخًا وزعت على أمصار الدولة. وقام بهذا الجمع الثاني زيد بن ثابت نفسه، وعززه بثلاثة من قريش. وبعد إرسال النسخ، أمر بجمع ما عداها من النسخ وأحرقت بأمر الخليفة، ثم ردت النسخة الأصلية إلى حيازة حفصة. وقد بلغت العناية بالمحافظة على دقة المصحف أنه لا يوجد أي خلاف بين النسخ التي لا عداد لها والمنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي الفسيحة.

ومع ظهور الخلافات السياسية بين المسلمين، فإن قرآنًا واحدًا قد ظل دائمًا قرآنهم جميعًا، وهذا الإسلام منهم جميعًا لكتاب واحد على اختلاف العصور حجة قاطعة على أن ما أمامنا اليوم إنما هو النص الذي جمع بأمر الخليفة عثمان. والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل ثلاثة عشر قرنًا كاملة بنص هذا مبلغ صفائه ودقته. فإذا تبين أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو ما جمع في عهد عثمان،

فعلينا أن نبحث في مصحف عثمان هل هو صورة منضبطة لما جمع زيد في الجمع الأول على عهد الصديق. إن كل الدلائل تشير إلى أنه صورة طبق الأصل منه.

فليس هناك ما يلقي بالشك على قصد عثمان من تحريف لتأييد أغراضه. صحيح أن الشيعة ادعت أن عثمان - رضي الله عنه - حذف منه سورة تسمى سورة آل البيت، وهذا زعم باطل لا يسوغه عقل، فلم يكن هناك أي خلاف بين الأمويين والعلويين يستدعي ذلك التحريف. كما أن الأمر آل بعد عثمان إلى علي، أفيقبل العقل وقد وصل العلويون إلى السلطة أن يرضوا عن قرآن مبتور، ومبتور قصدًا للقضاء على أغراض زعيمهم؟ ومع ذلك ظلوا يتلون القرآن الذي يتلوه خصومهم ولم يثيروا أي ظل من الاعتراض عليه.

إذن فمثل هذا الزعم كان ظاهر الفساد يومئذٍ، وإنما أبدعه الشيعة من بعد لأغراضهم.

وبعد ذلك هل كان ما جمعه زيد صورة صادقة لما أوحي إلى محمد ﷺ؟

نعم، لقد كان صورة صادقة للاعتبارات الآتية:

١- تم الجمع برعاية الصديق رضي الله عنه، وأبو بكر كله الإيمان واليقين والصدق والقرب من النبي ﷺ، وهذا خير وقاية لكتاب الله، إذ يستحيل على الصديق أن يهمل أو يتوانى في تنفيذ هذه المهمة الدقيقة.

٢- توافر العدد الكثير من الصحابة الذين يحفظون القرآن أثناء جمعه، ولم يثبت أن واحدًا من الحفاظ قد أبدى ملاحظة على المصحف الذي جمع في عهد الصديق.

٣- توافر عدد كبير من المدونات للقرآن لدى الصحابة إبان جمعه في عهد أبي بكر، ثم تلقوه جميعًا بالقبول، مما يعني بالضرورة اشتماله على كل ما أوحي إلى محمد ﷺ.

٤- محتويات القرآن ونظامه تنطق في قوة بدقة جمعه.

والنتيجة هي أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقًا فحسب، بل كان وكما تدل الوقائع عليه كاملًا، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أي شيء من الوحي، نستطيع كذلك أن نؤكد استنادًا إلى أقوى الأدلة أن كل آية في القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد ﷺ.(١)

وبعد أن يسوق هذه الأدلة والنتيجة على لسان أحد المستشرقين ليرد على الغلاة منهم، يقول: "فإذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين إلى الزعم بأن القرآن حُرِّف، غير آبهين لهذه الأدلة العقلية التي ساقها "موير"، وكثرة المستشرقين التي أخذوها عن التاريخ الإسلامي والعلماء المسلمين، كان ذلك تجنيًا على الإسلام لم يمله غير الحقد على الإسلام وعلى صاحب الرسالة الإسلامية. ومهما يبلغ المتجنّون من البراعة في صياغة تجنيهم، فلن يستطيعوا أن يخدعوا المسلمين، اللهم إلا الشبان الذين يتوهمون أن البحث الحر يقتضيهم أن ينكروا ماضيهم، وأن يفتنوا عن الحق بما يُزين لهم من الأباطيل، وأن يؤمنوا بكل مطعن على هذا الماضي، ولو لم يكن لهذا الطعن ما يسوغه من حقائق العلم والتاريخ".(٢)

وهذا أسلوب في الرد له فاعليته وتأثيره، حيث يلجأ فيه إلى آراء المصنفين والمعتدلين من المستشرقين ليرد على الغلاة والمفترين منهم.

٢- الرد على فرية الصرع وإثبات الوحي إلى محمد رسول الله ﷺ:

وملخص هذه الفرية هو تفسير ما كان يحدث للنبي من ظواهر مادية عند نزول الوحي بأنها أعراض مرضية، مدعين أنها نوبات صرع تنتاب النبي. وعليه، فلا وحي وإنما هي أوهام يتوهمها، وذلك لنفي حدوث الوحي وإنكار رسالة النبي ﷺ. ويستخدم الدكتور هيكل الأسلوب العلمي للرد على هذه الفرية وتفنيدها، فيقول:

إن تصوير ما كان يبدو على محمد ﷺ في ساعات الوحي على أنه نوبة صرع،

(١) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٤٨ – ٥٥.

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ – ٥٦.

تصويـر خاطـئ من الناحيـة العلمية؛ لأن نوبة الصرع لا تـترك عند من تصيبه أي ذكـر لما مر به أثناءها، فلا يتذكر شـيئًا ممـا صنع ولا مما حل به، حيث تتعطل حركة الشـعور والتفكير لديه تعطلًا تامًا. وهذه هي أعراض الصرع كما يثبتها العلم. أما مـا كان يحـدث للنبي، فهو خلاف ذلك تمامًـا، فكانت تتنبه حواسـه المدركة تنبهًا لا عهـد للنـاس بـه، وكان يذكر بدقة غايـة الدقة ما يتلقاه وما يتلـوه بعد ذلك بلا اختلاف، وإنما يظل يتلوه كما أملاه على كتاب وحيه لأول مرة.

ثـم يذكـر الدكتور هيـكل أن الوحي ليس حتـمًا أن يكون على هـذه الصورة، بـل كان كثيرًا ما ينزل الوحي والنبي ﷺ في تمـام يقظته العادية. إذن، فالعلم ينفي أن يكـون مـا يحدث للنبي ﷺ أثنـاء الوحي من قبيل الـصرع، ولذلك لم يقل بهذه الفرية إلا الأقلون من المستشرقين المتعصبين الذين يريدون أن يلقوا بظلال الشك والريبة على حدوث الوحي إلى رسـول الله، وأيّ لهم ذلك، ومقررات العلم تنفي ما يدعون؟ فالصرع يعطل الإدراك وينزل بالإنسـان إلى مرتبة يفقد أثناءها الحس والشـعور، أما الوحي فسـمو روحـي اختص الله بـه أنبياءه ليلقـي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس. وقد يصل العلم إلى إدراك بعض الحقائق ومعرفـة سـننها وأسرارها بعد أجيال وقـرون، وقد يظل بعضها طـيّ عالم الغيب إلى أن يـرث الله الأرض ومـن عليها، ومع هـذا فهي حقائق يقينيـة تهتدي قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها، وتظل قلوب الغافلين والكافرين محجوبة عنها.

ويؤكد الدكتور هيكل -رحمه الله- أن ظاهرة الوحي فوق قواعد العلم وقوانينه، ولـذا فمن المتعذر على العلـماء أن يفسروها بمناهجهم. وكان الأولى بهؤلاء الذين ينفـون ظاهـرة الوحـي متذرعـين في هذا النفـي بأنهـا لا تخضع لقواعـد العلم أن يعلموا أن العلم ما زال حتى الآن قاصرًا عن تفسـير كثير من الظاهرات الروحية والنفسـية، بل إنه مـا يزال قاصرًا عن تفسـير بعض الظواهر الكونيـة القريبة منا.

ومع أن الظواهر الروحية والنفسية هي اليوم موضوع ملاحظة العلماء، فإنها لم

تخضع بعد لسلطان العلم كي يستنبط قوانينها الثابتة. وكثيرًا ما أثبت العلماء أمورًا شاهدوها، ومع ذلك لم يجدوا لها في السنن الكونية التي استنبطها العلم تأويلًا تطمئن إليه قواعده. ولهذا، فإن محاولة تفسير ظواهر الحياة جميعًا على الطريقة العلمية تعتبر محاولة عقيمة، وإسرافًا معيبًا، وغرورًا لا تسمح به قواعد العلم.

ثم يؤكد الدكتور هيكل أن الوحي كان بعض ما شهده المسلمون أثناء حياة رسول الله ﷺ، وكانوا أذكياء، كما كان منهم يهود ونصارى، طال الجدال بينهم وبين رسول الله، ثم شرح الله صدورهم للإسلام، ومع هذا لم ينكروا من أمر الوحي شيئًا. ولقد اتهمه أعداؤه بالسحر وبالجنون، ثم أقروا بعد ذلك بأنه ليس بساحر ولا مجنون، وآمنوا به واتبعوه وجاهدوا تحت رايته. أما وذلك ثابت يقينًا، فليس من العلم في شيء إنكار حدوث الوحي والحط من قدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم. والعلم الحق هو الذي يعترف بأن للعلم حدودًا، وأن ظاهرة الوحي هي فوق هذه الحدود.[١]

ومن المنافي لقواعد العلم أن تُطبق على حالة واحدة دون غيرها من الحالات المشابهة. فإذا تذرع المتعصبون بقواعد العلم لنفي حدوث الوحي إلى محمد بن عبد الله ﷺ، فلماذا لا تُستخدم هذه القواعد لنفي حدوثه لموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام؟

لقد قال الله تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ...﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[٣]

ولا يقال هذا لنفي حدوث الوحي إلى موسى وعيسى عليهما السلام، وإنما القصد أن الوحي إلى محمد ﷺ هو كالوحي إلى هؤلاء وإلى غيرهم من رسل الله الأكرمين. فلو نفي الملحدون حدوث الوحي، فإن الواجب على أهل ديانات

(١) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٥٧ – ٥٩.

(٢) سورة الأحقاف آية: ٩.

(٣) سورة الشورى آية: ٣.

السماء أن يتعاونوا في مواجهة الإلحاد، لا أن يكون بأسهم شديدًا بينهم.

ولقد كان الدكتور هيكل موفقًا في استعمال الطريقة العلمية في نفي فرية الصرع عن رسول الله ﷺ التي يدعيها الغلاة من المستشرقين، حيث واجههم بنفس أسلوبهم ومنهجهم، فكانت حجته قوية وبرهانه ساطعًا، فجزاه الله خيرًا.

٣- المستشرقون وقصة الغرانيق:

وموجز هذه القصة المفتراة أن رسول الله ﷺ لما رأى تجنب قريش إياه وأذاهم لأصحابه، تمنى ألا ينزل عليه قرآن ينفرهم منه. وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يومًا في نادٍ من نوادي القوم حول الكعبة، فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[1]، فقرأ بعدها "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى"، ثم مضى في التلاوة وقرأ السورة كلها، وسجد في آخرها. هنالك سجد القوم جميعًا ولم يتخلف منهم أحد، وأعلنت قريش رضاها عما تلا محمد، وبذلك زال الخلاف بينه وبينهم، وفشا ذلك حتى بلغ المسلمين المهاجرين إلى الحبشة. فخرجوا راجعين إلى أهليهم بمكة، فلما كانوا دون مكة بسَاعةٍ من نهار، لقوا ركبًا من كنانة، فسألوهم، فقالوا: "ذكر آلهتهم بخير"، فتابع الملأ ثم ارتد عنها، فعاد لشتم آلهتهم، فعادوا له بالشر. و إنما ارتد محمد ﷺ عن ذكر آلهة قريش بالخير في الروايات التي أثبتت هذا الخبر، لأن جبريل عارضه بالقرآن، فلما قرأ سورة النجم قال للنبي: "أوجئت بكلمتين هاتين؟"[2]

بعد سرد القصة الغريبة، يعجب الدكتور هيكل كيف يأخذ بعض كُتّاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين بهذه الرواية، رغم أنها ظاهرة التهافت، وينقضها قليل من التمحيص. فأعطوا بذلك فرصة للمستشرقين الذين وقفوا عندها طويلًا ورددوها كثيرًا؟ ويستعرض الدكتور هيكل حجج الذين يرون صدق هذه

(١) سورة النجم آية ١٩ – ٢٠.

(٢) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ١٧٥ – ١٧٦.

القصة، ومنهم المستشرق سير وليم موير.

ومنها:

١- حرص النبي ﷺ على موادعة القوم بعد اشتداد الأذى به وبأصحابه.

٢- لا سبيل لموادعتهم إلا إذا تخلى عن سب آلهتهم وذكرها بخير.

٣- تمت هذه الموادعة حين أضاف النبي إلى القرآن كلمتين يذكر فيهما آلهتهم بخير، فهي الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي.

٤- يرى السير وليم أن رجوع المسلمين المهاجرين إلى الحبشة بعد استقرارهم بها كان بناءً على ما أذيع من خبر صلح تم بين محمد ﷺ وقريش، صلح لا يمكن أن يكون إلا إذا سعى في سبيل تحقيقه من هو في مركز الضعف. وقصة الغرانيق هذه كانت سبيلًا للموادعة والمصالحة من طرف محمد ﷺ لأنه كان في مركز الضعف في نظر هذا المستشرق.

ثم يفند الدكتور هيكل حجج الذين يثبتون هذه القصة، بادئًا بتفنيد حجة المستشرق موير، مبينًا أن عودة المسلمين من الحبشة لم تكن بناءً على صلح تم بين محمد وقريش، وإنما كان لأسباب، منها:

١- إسلام عمر بن الخطاب بعد هجرتهم بقليل ونصرته لدين الإسلام بنفس الحمية التي كان يحارب بها، فأخذ يناضل قريشًا حتى صلى وصلى المسلمون عند الكعبة بعد أن كانوا يستخفون بصلاتهم في شعاب مكة.

٢- نشوب ثورة في بلاد الحبشة حينئذ ضد النجاشي الذي آواهم وأكرم وفادتهم، وكانوا يتمنون أن ينصره الله على خصومه، رغم عدم اشتراكهم في هذه الثورة لأنهم أجانب. فلما ترامت أنباء الهدنة، آثروا العودة على المقام بالحبشة أثناء هذه الفتنة. ثم يعلق قائلاً: "ليس الصلح الذي يشير إليه المستشرق موير هو الذي دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحبشة، وإنما دعاهم إليها هذه الهدنة

التي حدثت على أثر إسلام عمر وحماسته في تأييد دين الله. فتأييد حديث الغرانيق بحجة الصلح تأييد غير ناهض".[١]

وهكذا يتصدى الدكتور هيكل للمستشرقين الذين يأخذون بالضعيف من الروايات والمختلق من الأحاديث التي تؤيد وجهة نظرهم في الطعن على الإسلام ونبيه، شفاءً لحقد في نفوسهم ومرض في قلوبهم. فهذه القصة يقول عنها الإمام ابن كثير رحمه الله: "ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم".[٢]

٤- المستشرقون والجهاد في الإسلام:

يثير المستشرقون الشبهات حول الجهاد في الإسلام، مدعين تارة أنه وسيلة للسلب والنهب، ويضربون الأمثلة لذلك بالسرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ إلى طريق التجارة التي كانت تسلكه قوافل قريش، مدعين أن السلب والنهب كانا من بعض طباع أهل البادية تعليلًا لإرسال هذه السرايا الأولى. ويرد عليهم الدكتور هيكل بأن هذا لا يتفق مع العقل ولا يتناسب مع سياسة المسلمين في هذه الفترة الأولى من مقامهم بالمدينة، لأن أهل المدينة كانوا أهل حضر، ويميلون في طباعهم إلى الاستقرار وحب الهدوء والسكينة، ولأن أهل مكة لم يكونوا يستعجلون استخلاص أموالهم من أيدي قريش، ثم إن القتال لم يكن قد شرع في الإسلام.

وعلى ذلك، فإن الدافع لإرسال هذه السرايا كان إعلام قريش أن مصلحتها تقتضي أن تتفاهم مع المسلمين الذين اضطروا إلى الهجرة من مكة، فيحقق هذا التفاهم حرية المسلمين في الدعوة لدينهم، ويعزز مكانتهم في مواجهة اليهود في

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ١٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج٣ ص ٢٢٩ (تفسير سورة الحج).

يثرب، ويضمن لأهل مكة سلامة تجارتهم إلى الشام.

كما يدعي المستشرقون أن الجهاد في الإسلام كان يهدف إلى إكراه الناس وإجبارهم على أن يكونوا مسلمين، وهذا طبعًا لا يمكن، لأن العقائد لا تزرع بالإكراه. وإلا لما انتشر الإسلام أصلًا، لأن أسباب الإكراه كانت أولًا في يد أعدائه المناوئين له. فدل انتشاره مع ذلك على صدق قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾.(١)

وتفريعًا على رأيهم في الجهاد في الإسلام، فإنهم يثيرون ضجة مفتعلة حول مقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من بين الأسرى يوم بدر، ويتساءلون: أليس في ذلك ما يدل على تعطش هذا الدين الجديد إلى سفك الدماء؟ ولولا تعطشه هذا لما قتل الرجلان.

وهذا تساؤل من يريد أن يثير في النفوس عوامل الشفقة في غير موضعها، ويتخذ من ذلك وسيلة للهجوم على دين الإسلام وعلى نبيه ﷺ.

والحقيقة فإن قتل هذين الرجلين له ما يبرره، فكانا أشبه بمن يطلق عليهم في العصر الحاضر "مجرمي حرب". فالمعلوم أن رسول الله ﷺ قبل افتداء الأسرى يوم بدر أخذًا بمشورة الصديق، ولم يأخذهم بحزم عمر، وهذا وحده كافٍ للقول بأن الإسلام في أساسه ينزع إلى السلم ولا يخرج عنه إلا في حالة الضرورة.

ولا ينسى الدكتور هيكل ﷺ أن يذكر المستشرقين بما يفعله الغربيون الذين يتشحون بوشاح المسيحية من سفك للدماء وإزهاق للأرواح، من أجل السيطرة على الشعوب المقهورة التي تطالب بالحرية وتسعى لتحقيق الاستقلال. ثم يوازن بين قتل رجلين هما من مجرمي الحرب وبين مجازر الحرب الكبرى وما حدث إبان الثورة الفرنسية.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٦.

ثـم يبين الدكتور هيكل أن قتل هذين الرجلين من بين أسرى بدر، والذي كان بسـبب قسوتهم وشدتهم على المسـلمين العزل طوال ثلاثة عشر عامًا، لا يقارن بما حـدث من المجازر الكثيرة التي قامت باسـم المسـيحية. ويذكرهم بمجزرة سـان بارتلمـي التـي دبـرت بليل وقام فيهـا الكاثوليـك بذبح البروتسـتانت في باريس وفي فرنسـا غـدرًا وغيلة، ولم يحدث في الإسـلام مثل هذه المـآسي. فكيف يوصف المسلمون بعد ذلك بأنهم متعطشون للدماء؟

وهكذا أفحم الدكتور هيكل خصوم الإسلام من المستشرقين الذين يدعون أن الإسـلام دين متعطش للدماء، والجهاد فيه لإكراه النـاس على الدخول فيه، وبيَّن أن هذا محض افتراء لا يصح شرعًا ولا عقلًا.

٥- المستشرقون وزواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش:

لقـد كان زواج النبـي ﷺ بأكثـر من أربع نسـوة موضع انتقـاد واعتراض من المسـتشرقين بوجـه عام، كـما كان زواجه مـن زينب بنت جحش بعـد طلاقها من زيد بن حارثة موضع انتقاد بوجه خاص. وقد حاولوا إثارة الشبهات حول النبي ﷺ، مدعين أنه رجل شـهواني يسـيل منظر المرأة لعابه، ولا يكتفي بأربع كما حُدد للمسلمين، وإنما يتعدى هذا الحد فيجمع بين تسع نسوة.

ويجمـح بهـم الخيال فيصـورون النبي ﷺ بصـورة من لا يقنع بالـزواج ممن لا بعولة لهن، وإنما يشـغف حبًا بزينب بنت جحش وهي تحت زيد بن حارثة مولاه، لغير شيء إلا أنه مر ببيت زيد وهو غائب، فاستقبلته زينب، وكانت في ثياب تبدي محاسـنها، فوقع منها في قلبه شيء لجمالها، فقال: سـبحان مقلـب القلوب. ثم كرر هذه العبارة عند انصرافه، فسـمعتها زينب ورأت في عينيه وهج الحب، فأعجبت بنفسها، وأبلغت زيدًا ما سمعت.

فذهب زيد من فوره إلى الرسول ﷺ يذكر له أنه على استعداد لتسريحها، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. ولكن زينب أساءت عشرة زيد، فطلقها. وأمسك

النبي ﷺ عن زواجها، وقلبه في شغل بها، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.[1] عندئذ تزوجها، فأطفأ بزواجها لاذع حبه ومتوهج غرامه.

هكذا يصورون النبي ﷺ، ثم يتساءلون: أي نبي هذا؟ وكيف يبيح لنفسه ما حرمه على غيره؟ وكيف لا يخضع للقانون الذي يدعي أن الله أنزله عليه؟ وكيف يتخذ هذا الحريم الذي يثير في النفس ذكر المترفين من الملوك بدلًا من أن يثير فيها ذكر الأنبياء والمصلحين؟ ثم كيف يبلغ منه الخضوع لسلطان الحب في شأن زينب حتى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها، ثم يتزوجها من بعده، وكان ذلك محرمًا في الجاهلية فأباحه نبي المسلمين إرضاء لهواه واستجابة لداعي حبه؟[2]

يتصور المستشرقون المتعصبون أنهم بذلك قد طعنوا نبيَّ الإسلام ﷺ في مقتل، وأنه لا يستحق أن يكون رسولًا. فإذا أرادوا أن يؤمنوا برسالته، فما عليه إلا أن يسير سيرة الجاهلية، فلا يحل ما حرمته. ولست أدري: إذا سار على نهج الجاهلية، فما هي الرسالة التي أُرسل بها إذن؟

يقول الدكتور هيكل: "يطلق المبشرون المستشرقون لخيالهم العنان ليصور بعضهم زينب ساعة رآها النبي ﷺ وهي نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنه من كل معاني الهوى. ويذكر آخرون أنه حين فتح باب زيد، لعب الهواء بأستار غرفة زينب، وكانت ممددة على فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم ما في نفسه، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلًا".

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٧.

(٢) انظر حياة محمد د. هيكل ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

وأمثال هذه الصور التي أبدعها الخيال تراها في كتابات المستشرقين والمبشرين، واهمين بذلك أنهم هدموا هيكل الإسلام على رأس نبيه وعلى رأس المؤمنين به.

ثم يكر الدكتور هيكل على شبهات المستشرقين الحاقدين، مؤكدًا أن تاريخ رسول الله ﷺ ينفي أن يكون رجلًا يلعب بعقله الهوى حتى ينحدر إلى هذا المستوى المادي الهابط والمتدني. فهو ﷺ قد تزوج من خديجة رضي الله عنها، وهي ثيب وتكبره في العمر، وظل معها ثمانٍ وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها حتى تخطى الخمسين. وكان في شبابه مثالًا للعفاف والطهر، فلم يُعرف عنه تعلق بالنساء أو شغف بهن في عصر كانت تتبرج فيه النساء تبرج الجاهلية، ولم تكن هناك تعاليم تمنع هذا الهوى أو تحرمه.

وليس من طبائع الأشياء أن ينقلب الرجل، بعد أن يتخطى الخمسين، من وقار واتزان إلى نزق ورعونة وطيش، حتى إن فؤاده ليطير هوى بامرأة متزوجة. حاشا لرسول الله ﷺ وهو القائل: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".(١)

ويؤكد الدكتور هيكل أن زواج النبي ﷺ من أمهات المؤمنين لم يدعُ إليه داعي الشهوة، إذ إنهن كلهن كن ثيبات، ولم يتزوج بكرًا سوى عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها. وإذا كان النبي ﷺ قد أحبها، فإن هذا الحب كان بعد الزواج، فقد خطبها إلى أبيها وهي ما تزال في التاسعة من عمرها، وليس مما يرضاه المنطق أو يسيغه العقل أن يكون قد أحبها وهي في هذه السن الصغيرة.

ثم يستعرض الدكتور هيكل مناسبات زواجه من أمهات المؤمنين، فإذا هي مناسبات لا تنزع منزع الشهوة. وإذا كان ﷺ محبًا لأزواجه رفيقًا بهن، فإن ذلك إنما يبين مكانة المرأة في الإسلام. فهي في موضع التكريم والاحترام والشفقة

(١) رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد و الإمام مالك في حسن الخلق ٢ – ٩ (الموطأ) والإمام أحمد في مسنده ج٢.
- مسند الإمام أحمد ص ٢ باقي مسند المكثرين مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

والرحمة، ويبين الطريقة الإسلامية الصحيحة في معاملتهن والإحسان إليهن، بناتٍ وأمهاتٍ وزوجات. فهو السمو بالمرأة إلى مكانة سامية رفعها الإسلام إليها، لا كما يظن أعداء الإسلام من المستشرقين الماديين ومجتمعاتهم الذين جعلوا من المرأة بضاعةً واتخذوا من بيع الهوى حرفةً وصناعة.

حين يصورون تعدد الزوجات في الإسلام أنه إشباع لشهوة أو خضوع لنزوة، ويتوهمون أن زواج النبي ﷺ من أمهات المؤمنين كان للمتاع الجنسي، أو أن حسن العشرة لهن كان شهوةً دنيئةً أو تودداً رخيصًا من رجل متيم بالنساء، فإنما يغفلون عن الحقيقة. لا، إنما هي المودة والرحمة التي جعلها الله آية من آياته، فقال عز من قائل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(١)

وبعد التمحيص التاريخي لهذا الموضوع، يستنبط الدكتور هيكل أن رسول الله ﷺ نصح بالزوجة الواحدة في الحياة العادية، وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضربه في حياة خديجة، فلم يُعدد رغم أن التعدد كان موجودًا وبلا أي حد في المجتمع العربي وفي صدر الإسلام. ثم نزلت آية التعدد لتجعل له حدًّا أقصى مع مراعاة العدل بين الزوجات. وقد كان من الصحابة، حين نزلت الآية، من عنده أكثر من أربع نسوة، فأمره الرسول ﷺ أن يُمسك أربعًا ويفارق سائرهن.

ولست أدري ما هذه الضجة المفتعلة في الغرب ضد تعدد الزوجات في الإسلام، موهمين أن ذلك ظلم للمرأة يجعلها متاعًا شهوانيًا للرجل. فهل هذا أكرم لها وأشرف، أم أن تكون كلاً مباحًا كما هو واقع المرأة في الغرب؟ بل إنهم هناك يستغلون مفاتنها وأنوثتها استغلالًا لا يتناسب وكرامة الإنسان. لقد جعلوا من الجنس صناعة، ومن الدعارة تجارة تُباع فيها الأعراض في سوق الدناءة والعار، ومرغوا كرامة الأنثى وذبحوها ذبح الخراف. ثم بعد ذلك يتباكون على

(١) سورة الروم آية: ٢١.

كرامة المرأة المهدرة في الإسلام لأنها زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة. ويصل بهم الاستخفاف والتبجح أقصى مداه حين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل، فيُباح لها أن تعدد الأزواج كما أُبيح للرجل أن يعدد الزوجات. أي سفه هذا؟

والواقع أن تعدد الزوجات غير ممكن، بل ومستحيل، في ظروف الحياة العادية حين يتكافأ عدد الرجال وعدد النساء في سن الزواج. وعندئذ لن تكون إلا زوجة واحدة لكل رجل. أما في حالة زيادة عدد النساء عن عدد الرجال، عندئذ يمكن التعدد.

وأيها أكرم للمرأة وأطهر للمجتمع: أن تكون المرأة زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة، أم تُترك نهبًا لذئاب البشر؟ علمًا بأن المسلم في حالة التعدد مطالب بمراعاة العدل بين زوجاته، ومطالب برعايتهن وكفالتهن.

ويصل الدكتور هيكل إلى زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، ليفند ما أضفاه المبشرون والمستشرقون من أوهام وخيالات، حتى جعلوا منها قصة غرام وعشق. ليثبت حكم التاريخ الذي جعل من هذا الزواج مفخرة من مفاخر الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، إذ جعل نفسه أول من يضرب المثل في تنفيذ تشريع شرعه الله، ليمحو به تقليدًا من تقاليد الجاهلية خاصًا بالتبني.

وفي رده على مفتريات المتعصبين حول قصة زواج النبي من زينب بنت جحش وضح الحقائق التالية:

١ - قرابة محمد ﷺ من زينب:

فهي بنت عمته، وربيت تحت سمعه وبصره، فكانت بذلك منه بمنزلة أخته الصغرى. ولا يغيب عنه إن كانت ذات مفاتن تهواها نفسه أم لا، وهي ما زالت بكرًا. وأكثر من ذلك، فإن رسول الله ﷺ هو الذي خطبها على زيد بن حارثة الذي تبنَّاه، فكان منه بمنزلة ولده. ومثل هذه الظروف تنفي ما يدَّعيه المفترون من أنه حين رآها بعد أن تزوجت بهر بها، وكأنه لم يرها ولم يعرفها قبل ذلك اليوم.

فهـذه القرابة وهذه الصلـة لا يدعان لتلك القصص الخياليـة التي يروونها أي أساس من الحق، أو أي حظ من الثبوت.

٢- خطبته إياها على زيد وإباؤها هي وأخيها:

يذكـر الدكتـور هيكل أن محمـدًا ﷺ خطب ابنـة عمته زينب عـلى زيد مولاه، فأبى أخوها أن تكون أخته مع شرفها ونسـبها تحت عبد رقيق، واسـتنكفت زينب هذا الوضـع حتى نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.(١) وقـد أراد رسـول الله ﷺ أن يؤسـس الجماعـة الإيمانيـة عـلى غـير نظم الجاهليـة، فـلا تفاخر بأحسـاب ولا علو بأنسـاب، وليس هذا مجـرد آراء وأفكار واعتقادات، وإنما يجب أن يكون واقعًا في حياة المسـلمين. فلتتزوج زينب القرشية الهاشمية من زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبعد تأب وامتناع رضيت زينب ورضي أخوهـا عـن هذا الـزواج، وبنى بها زيد. ويشـاء الله أن تتوتـر العلاقة بين الزوجـين، فاشـتكى زيد إلى رسـول الله ﷺ، فكان ينصحه بالصـبر ويأمره قائلا: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، ولكن زيدًا لم يطق معاشرة زينب فطلقها.

٣- الحكمة من زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش:

شـاء الله أن يبطل عادة التبني في المجتمع المسـلم لما يترتب عليها من أمور تضر بالعلاقـات الاجتماعية، قال عز من قائـل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.(٢) وشـاء

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٦

(٢) سورة الأحزاب آية: ٤ – ٥.

الحق تبارك وتعالى أن يكون التطبيق لهذا التغيير في شخص رسول الله الذي أعتق زيدًا وتبناه حين آثر أن يظل عبدًا عند رسول الله على أن يكون حرًا عند أبيه، وأحبه رسول الله كأشد ما يكون الحب، فأعتقه وزوجه من بنت عمته. فلما وقع الشقاق بين الزوجين وافترقا بالطلاق، صارت بأمر الله سبحانه وتعالى من أزواج النبي لحكمة تشريعية يوضحها قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.(١)

فإذا كانت هذه حقائق التاريخ، فأي مصداقية تبقى لافتراء المبشرين والمستشرقين الذين تحركهم شهوة التبشير المكشوف تارة، والمستتر وراء ستار العلم تارة أخرى؟ والخصومة القديمة بينهم وبين الإسلام جعلت حتى الذين يرتدون طيالس العلماء يتجنون على الحقيقة، ويلتمسون لذلك أضعف الروايات، ظنًا منهم أنهم بذلك يتبعون مناهج العلم، والعلم منهم براء. وشتان بين العلم وبين الافتراء والتزييف.(٢)

وهكذا يفند الدكتور هيكل دعاوى المستشرقين ويدفع افتراءاتهم على رسول الله ﷺ، مستندًا في ذلك إلى حقائق التاريخ القائمة على أساس من حقائق الإسلام الثابتة بالكتاب والسنة. فجزاه الله خير الجزاء.

وإذا كان الاستناد إلى حقائق التاريخ هو المنهاج الحق، فلا يصح أن نتخطاه إلى الافتراضات التي لا أساس لها من الواقع. ومن هنا، فأنا لا أوافق الدكتور هيكل حين يستطرد فيقول: "ولو أن ما ذكروه كان صحيحًا لكان في مقدورنا أن نجبهه بأن العظمة لا تخضع لقانون وبأن موسى وعيسى ويونس عليهم السلام من قبل قد سموا فوق نواميس الطبيعة وسنن الاجتماع، بعضهم بمولده وبعضهم

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٧.

(٢) انظر حياة محمد د/ هيكل ص ٣٢٦ – ٣٣٦.

في حياته، فلم يطعن ذلك في عظمتهم".[١]

إذ كيف نفترض صحة شيء هو في نفس الأمر باطل، ثم نجشم أنفسنا مشقة الرد على هذا الافتراض الباطل، فنقع في محظور كنا في غنى عن الوقوع فيه؟

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(١) المرجع السابق ص ٣٣٦.

الفصل الثالث

ما اختلف فيه الدكتور هيكل مع علماء السيرة والمحدثين ووجه الصواب في ذلك:

لا شك أن كتابة التاريخ الإسلامي عمومًا والسيرة النبوية خصوصًا لا بد وأن تقوم على منهج علمي صحيح حتى لا تتحول الخرافات والأوهام إلى حقائق، ولا تنطمس الحقائق التي تنير للمسلمين طريقهم نحو الخير والسعادة. ذلك أن "التاريخ الإسلامي هو تاريخ دين وعقيدة قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية، لأن العقيدة هي التي أنشأت هذه الكيانات من الدول والمجتمعات بنظمها السياسية والإدارية والتعليمية والاقتصادية وغيرها. ولأجل هذه الصفة في تاريخنا الإسلامي، فلا بد من دراسته وفهمه وفق منهج علمي صحيح منبثق من التصور الإسلامي والعقيدة الصحيحة عن الله والكون والإنسان والحياة".[١]

ولقد وضع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساس هذا المنهج القويم في تلقي الأخبار وفهمها ونقلها. فلقد حارب القرآن الكريم الأسطورة والخرافة وحارب الكذب والوهم، وحذر من نتائج الخطأ والنسيان، وطالب بالبرهان والبينة والشاهد، وشرع في إقامة منهج التثبت والصدق، لأنه أساس تقوم عليه العقيدة الصحيحة والشريعة الصالحة. فقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.[٣] وطالب بإقامة البينة على كل دعوى، فطالب المشركين بإثبات مدعاهم قائلًا: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه لمحمد بن صامل السلمي ص ١٠.

(٢) سورة النجم الآية: ٢٨.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.[١] وحذر القرآن الكريم من خبر الفاسق الذي لا يلتزم بمبدأ الصدق والتثبت، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾.[٢] ودعا العرب إلى التفكر والنظر والتدبر والتماس الشواهد والقرائن ومحاكمة المقولات السابقة والابتعاد عن التقليد الأعمى. وكان يقول لهم: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٣]، ويقول: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.[٤]

وكان يقرر أن أولئك الجاحدين المنكرين إنما يفترون على الله الكذب، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾.[٥]

هذه الآيات وغيرها كثير بل إن القرآن الكريم بمجموعه وجَّه العقل البشري إلى أهمية البحث والنظر وطلب عدم إلقاء الأذن إلى كل قول. وظهرت آثار هذه الدعوة المنهجية في جميع جوانب الحياة الإسلامية حتى اتبع هذا المنهج في كتابة القرآن الكريم وجمعه وتدوينه.

ولقد ظهرت هذه المنهجية في أجلى صورها في الحديث النبوي الشريف بسبب ما دعت إليه الحاجة من رواية السنن وجمعها ونقدها وتصنيفها.[٦]

والبحث العلمي يحتاج إلى منهج يحدد الخطوات التطبيقية التي توصل إلى الهدف منه، وهو الوصول إلى الحقائق العلمية. والمناهج المعروفة في البحث العلمي ترجع بالنظر إلى طريقة البحث إلى نوعين هما:

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٤.

(٢) سورة الحجرات الآية: ٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٤٣.

(٤) سورة البقرة الآية: ١١١.

(٥) سورة المائدة الآية: ١٠٣.

(٦) الفكر المنهجي عند المحدثين د/ همام عبد الرحيم سعيد ص ٢١، ٢٢.

١- منهج الاستدلال والاستنتاج.

٢- المنهج التجريبي.

والاستدلال إما أن يكون بخبر منقول أو بوثيقة مادية أو نتيجة نظر واستنتاج من مجموعة أدلة وقرائن منطوقة كانت أو مفهومة. ومجال استخدام هذا المنهج هو في الغالب الدراسات المتعلقة بالإنسان سواء الدراسات الشرعية أم الأدبية واللغوية أم الدراسات الاجتماعية. أما التجربة فتعتمد على الأمور الحسية المشاهدة، ومجال استخدامها في الغالب هو العلوم التطبيقية.[١]

منهج البحث العلمي الأوروبي الغربي:

من المعلوم أن النهضة العلمية التي تعيشها أوروبا في العصر الحاضر قامت على جهود العلماء الذين انسلخوا عن السلطان الكهنوتي للكنيسة، بعد أن انتصر العلم في صراعه مع هذا الكهنوت القائم على أساس واهٍ من الزيف الذي يلبس بهتانًا وزورًا مسوح الدين، رغم أنه وهم باطل وسراب خادع تكون من ضلالات الفكر الإنساني ولا يمت للدين الحق الذي جاء به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من عند الله بأدنى صلة. ولذلك تشبث الأوروبيون بهذا العلم الذي خلصهم من سلطان الكنيسة الأعوج، وفتنوا بالمنهج العلمي التجريبي وجعلوه طاغوتًا يعبد من دون الله، فقد كان وسيلتهم في تحطيم الكنيسة ودينها. وقد نتج عن هذا النزاع كراهية الأوروبيين للمباحث الدينية لأنها تذكرهم بسلطان الكنيسة، فأسسوا مناهجهم وعلومهم على هذا الأساس من التصور والكراهية، وآمنوا بأن هناك تناقضًا بين العلم والدين وسحبوا هذه النتيجة على كل دين حقًا كان أو باطلًا.[٢] والمنهج العلمي السائد في أوروبا هو المنهج التجريبي، وهو أصلح ما يكون لدراسة العلوم المادية والتطبيقية. بخلاف العلوم الإنسانية، فإنه

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه محمد بن صامل السلمي ص ١١٦.

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه محمد بن صال السلمي ص ١٢١.

لا يصلح لها ولا يمكن الاطمئنان إلى نتائج تجاربه في هذه العلوم. وإلى جانب المنهج التجريبي هناك منهجان آخران هما منهج الاستدلال الاستنباطي، ومنهج دراسة الظواهر عن طريق الاستقراء والملاحظة والإحصاء واسترداد الماضي. فالمنهج الاستنباطي يقوم على القياس المنطقي والتجريد الذهني، وهو ما يعرف بالمنهج الأرسطي اليوناني.

وكيفية البحث عندهم هي أن يعكف الباحث على ما تجمع لديه من الآثار أو الأحداث، فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال، ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع. وهو كما ترى منهج لا يملك (مهما جمع من العدة والوثائق) إلا سبيلًا واحدًا هو سبيل الاستنتاج الفكري بل الغيبي المجرد.[١]

وحتى يؤتي المنهج العلمي نتائج صادقة، فلا بد من توافر شروط أهمها: الموضوعية والتجرد والحيدة. فما هو موقف المنهج الغربي من هذه الشروط؟

أما الموضوعية، فهي تعني عدم خضوع الباحث لمؤثرات ذاتية، فهو يعتمد على الحقائق المجردة. وتطبيق هذا الشرط في المنهج الأوروبي، فإنه نظرًا "لنشأته البعيدة عن الدين ورفضه للأحكام والمبادئ الدينية، فإنه يتطلب من الباحث ليكون موضوعيًا أن يتجرد من المقررات والأحكام الدينية وأن يبحث الموضوع بحثًا عقليًا مجردًا"[٢]

وأما التجرد فإنه يعني الانفصال عن كل المؤثرات النفسية والاجتماعية، وكذلك التصورات السابقة من العقائد والأهواء أو الميول والرغبات، وهو بهذا المعنى مرادف لمرادهم بالموضوعية.[٣]

وأما الحياد، فهو مأخوذ من القاموس السياسي، وهو يعني عدم اشتراك دولة في نزاع مسلح بين دولتين، وذلك بأن تلتزم هذه الدولة المحايدة بعدم مساعدة أي

(١) نفس المرجع ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

مـن الفريقين المتنازعـين ضد الآخر. وكأنه في مجال البحث العلمي يعني ألا ينصر الباحث رأيًا أو مذهبًا ضد الآخر حتى لو تبين الحق.(١)

ولقـد اتبـع الدكتور هيكل في الكتابة عن حياة رسـول الله ﷺ هـذا المنهج الغربي، مفضلًا إياه على المنهج الإسلامي الذي انتهجه كتاب السيرة وأهل الحديث، فنشأ عن هذا أوجه الخلاف بين الدكتور هيكل وبين المشـتغلين بالدراسات الإسلامية. على أنه يجب أن نعلم أن الدكتور هيكل ﷺ في اتباعه للمنهج الغربي في الكتابة عن حياة النبي ﷺ لم يكن مطبقًا إياه تطبيقًا حرفيًا، فهو أولًا وقبل كل شيء كاتب مسلم، ويكتب عن رسول هو به من المؤمنين، ولذلك تعرض للانتقاد من قبل المؤمنين بالمنهج الغربي إيمانًا مطلقًـا والمخلصين له إخلاصًا تامًا، حين اعتبر القـرآن مرجعه الأول باعتباره أصدق مرجـع تناول حياة النبـي العربي. وتعرض للهجوم من هـؤلاء أيضًا حين أماط اللثام عن بعض أغلاط المستشرقين وأخطائهم في حق الإسلام ونبيه ﷺ.

يكتـب الدكتـور هيـكل تحـت عنـوان: أصحـاب الملاحظـات من المشـتغلين بالشـئون الإسـلامية، مبينًا نقاط الخلاف بينه وبين علماء السيرة والحديث فيقول: "بينما يأخذ علينا غلاة المصدقين لما أسرف فيه المسـتشرقون أن نعتمد على المصادر العربيـة ونسـتند إلى ما ورد فيها، إذا ببعض المشـتغلين بالعلوم الدينية الإسـلامية يأخـذون علينـا أننا نرجـع إلى أقوال المسـتشرقين ولا نأخذ بكل ما سـجلته كتب السـيرة ومـا روته كتـب الحديـث متصلًا بسـيرة النبي العـربي ﷺ وأننـا لا ننهج منهج هذه الكتب". وعلى هذا الأسـاس أبدى بعضهم ملاحظات في أكثرها رفق ومجادلـة بالتي هي أحسـن ابتغاء الوصول إلى الحـق، وفي بعضها عنت أو جهل لا يرضى أيهما لنفسه من أوتي حظًا من العلم.

أمـا الذيـن جادلوا في رفـق فتنصرف أكثـر ملاحظاتهم إلى أننـا لم نذكر ما ورد في كتب السـيرة والحديث من المعجزات، بل قلنـا في خاتمة الطبعة الأولى: "فحياة

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه محمد بن صال السلمي ص ١٣٣.

النبي محمد ﷺ إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ، ولقد كان ﷺ حريصًا على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك".

وقلنا عند الكلام عن شق الصدر إن ما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث، أن حياة محمد ﷺ كانت كلها حياة إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق. وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبي العربي ما لا يدخل في معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر في خلق الله، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلًا، غير متفق مع تعيير القرآن للمشركين أنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها".[١]

وبذلك حدد الدكتور هيكل نقاط الخلاف بينه وبين المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية في الآتي:

١ - الرجوع إلى كتب المستشرقين واعتبارها من مصادر البحث في حياة النبي ﷺ.

٢ - عدم الأخذ بكل ما سجلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلًا بحياة النبي محمد ﷺ، خاصة فيما يتصل بالمعجزات الحسية التي وقعت لرسول الله ﷺ.

٣- عدم انتهاج الدكتور هيكل لمنهج كتاب السيرة والمحدثين في كتابة سيرة النبي.

وقد رد الدكتور هيكل على هذه الملاحظات التي أبديت بعد صدور الكتاب في طبعته الأولى، وقد سجل هذه الردود في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب.

وأتناول هذه الملاحظات والردود عليها بالدراسة والتحليل:

أما الملاحظة الأولى التي تمثل نقطة خلاف، فهي رجوع الدكتور هيكل إلى كتب المستشرقين واعتبارها مصدرًا معتمدًا من مصادر البحث في حياة رسول الله ﷺ:

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٦١، ٦٢.

وهـو لا يعتبر هـذا عيبًا في البحث، ولذلك أغفل الـرد عليها. وكيف يتصدى لها وقد أورد في سـجل المراجع لكتابه (حياة محمد) سـتة عشر مرجعًا من كتابات المسـتشرقين باللغـات الأجنبية ومـا ترجم منهـا إلى العربية، بل إنـه قد أوضح في منهجـه في بحثـه أنه رجـع إلى كتابات المسـتشرقين فيقـول: "وكـما عاونتني كتب السـيرة وكتـب التفسـير في الاهتداء إلى غاية مـن تفكيري أطمئن إليهـا، عاونتني كذلك كتب المستشرقين في الاهتداء إلى غاية أطمئن إليها".[١]

والحقيقة أن هذا ناشئ عن الاحتواء الفكري والاستعمار الثقافي لبلاد الإسلام وعقول المسـلمين بعد أن سـقطت بلادهم في وهدة الاسـتعمار السياسي. فمنذ أن انتهت الحروب الصليبية بالفشل من الناحية العسكرية والسياسية لم ينقطع تفكير الغـرب في الانتقام من الإسـلام وأهله بطرق أخـرى، فكانت الطريقة الأولى هي دراسـة الإسلام ونقده، وفي جو هذا التفكير الذي سـاد البيئة المسيحية في الغرب خلال القرون الوسـطى نشـأت فكرة الاسـتيلاء على البلاد الإسلامية عن طريق القـوة والغلبـة حين بـدأ العالم الإسـلامي يتدهور سياسـيًا وعسـكريًا واقتصاديًا وثقافيًا وأخذ الغرب يسطو مرة بعد مرة على بلد بعد بلد في العالم الإسلامي.

ومـا كاد يتم للغرب اسـتيلاؤه عـلى أكثر أقطـار العالم الإسـلامي حتى بدأت الدراسـات الغربيـة عـن الإسـلام وتاريخه تنمـو وتتكاثر بقصد تبرير سياسـاتهم الاسـتعمارية نحـو هـذه الشـعوب. وقد تم لهـم في القـرن الماضي دراسـة التراث الإسلامي من جميع نواحيه الدينية والتاريخية والحضارية.[٢]

والدكتور هيكل كواحد من المثقفين ثقافة غربية ومن الرعيل الأول الذي نهل مـن هذه الثقافة قـد تأثر بها تأثرًا بالغًا، وكانت هذه سـمة المثقفين بهذه الثقافة من الشباب المصريين في مطلع القرن العشرين. فكان من نتيجة ذلك أن بهروا بطريقة

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٣٩.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د/ مصطفى السباعي ص ٢١ – ٢٢.

الغربيين في البحث وخيل إليهم أنها هي الطريقة الصحيحة، وأن ما توصلوا إليه من نتائج باستخدامها إنما هي حقائق لا تقبل النقاش، لأنهم في نظر هؤلاء الشباب علماء يتبعون المنهج العلمي لا يحيدون عنه ويكتبون بطريقة واضحة وأسلوب سهل. يقول الشيخ مصطفى السباعي: "لما بدأ اتصالنا بالحضارة الغربية في أوائل هذا القرن وانتشرت الثقافة الغربية بيننا لم يجد المثقفون من غير علماء الشريعة أمامهم طريقًا ممهدًا للحديث عن تراثنا المبعثر في كتب قديمة غير منظمة تنظيما يتفق وتنظيم الكتب العلمية عند الغربيين إلا كتب المستشرقين الذين أفنوا أعمارهم في دراسة ثقافتنا وتتبع مصادرها في خزائن الكتب العامة عندهم حتى ليظل أحدهم عشرين عامًا في تأليف كتاب عن ناحية من نواحي ثقافتنا يرجع فيه إلى كل ما وصلت إليه يده من مصادر قديمة من كتب علمائنا الأولين. وبهذا الدأب المتواصل عند علمائهم والتفرغ الكامل له والرغبة الاستعمارية الدينية، استطاعوا أن ينظموا الحديث عن ثقافتنا تنظيمًا بهر أبصار مثقفينا واستولى على ألبابهم، وخاصة عندما قارنوا بين أسلوبهم وأسلوب كتبنا العلمية القديمة، فاندفعوا إلى الاقتباس من كتب المستشرقين معجبين بعلمهم وسعة اطلاعهم، ظانين أنهم لا يقولون إلا الحق، وأنهم -فيما خالفوا فيه الحقائق المقررة عندنا- أصح حكمًا وأصوب رأيًا، لأنهم يسيرون وفق منهج علمي دقيق لا يحيدون عنه.

ومن هنا نشأت الثقة ببحوث هؤلاء الغربيين والاعتماد على آرائهم.[1]

والدكتور هيكل يجعل من كتب المستشرقين عدلًا لكتب السيرة وكتب التفسير، للوصول إلى الحق في دراسة حياة النبي ﷺ كما نص هو على ذلك صراحة، بل إنه يطمئن إلى كتبهم أكثر من كتب السيرة وكتب الحديث، تلك التي حدث فيها الوضع والدس، وهذا تجاوز من الدكتور هيكل ما كان يجمل به أن يقع فيه.

وما أروع الرأي الذي يبديه الدكتور عبد العظيم محمود الديب في كيفية التعامل

(١) المرجع السابق ص ٢٣.

مع كتابات المستشرقين فيقول: "فإذا ثبت أن أعمال هؤلاء المستشرقين لا يصح أن تُسمى علمًا ولا يمكن أن تُسمى بحثًا، ولا قيمة لها في ميزان المنهج العلمي، ولا ثقل لها في كفته. إذا ثبت هذا، فأي جدوى لمناقشتها أو تصويبها؟ وكفى ما كان. بل نحن نتطلع إلى إسقاط هذه الأعمال من قوائم المصادر والمراجع للأبحاث العلمية الجادة والأطروحات بالدراسات العليا. فكما نرفض منهجيًا أن يعتمد الباحث على المصادر الثانوية ونطالبه بالرجوع إلى المصادر والمراجع الأصلية، فكذلك ينبغي أن نرفض اعتماد هذه الأعمال الاستشراقية مصادر ومراجع يتكئ الباحث على الحقائق التي يأخذها منها ويبني عليها نتائجه، وبديهي أننا لا نقول بعدم قراءة أعمال المستشرقين، فلم يدر في خلدنا هذا. فليقرأها من شاء، ولكن نضعها موضعها فلا نتخذها مرجعًا ومصدرًا إذا ثبت ألا ثقة بما تنتهي إليه من نتائج أو تصدره من أحكام. لقد غبرنا زمنًا وقضينا عمرًا وأعمال المستشرقين مثل جبل المغناطيس تجذبنا إليها جذبًا وتأسرنا أسرًا وتجعلنا ندور في فلكها".[1]

الملاحظة الثانية: وهي عدم الأخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث فيما يتصل بحياة النبي ﷺ:

وفي معرض الرد على هذه الملاحظة، والتي تعتبر أشد نقاط الخلاف بين الدكتور هيكل وعلماء السيرة والحديث، فإنه يؤكد أن هذه الكتب ليست من الدقة العلمية بحيث يعتبرها الباحث مصادر وثيقة يأخذ عنها كل ما أوردته بدون نقد أو تحميص. وإنما يجب أن نخضعها لمقاييس النقد العلمي الذي يميز الطيب والخبيث، والغث والسمين. فهو يقول: "لكني رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشيء في بيان الأسباب التي دعت المفكرين من أئمة المسلمين فيما مضى، وتدعوهم اليوم كما تدعو كل باحث مدقق، إلى عدم الأخذ جزافًا بكل ما ورد في كتب السيرة وفي كتب الحديث، والتقيد بقواعد النقد العلمي تقيدًا يعصم من

(١) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي د / عبد العظيم الديب ص ٣٣، ٣٤.

الزلل ما استطاع الإنسان أن يعصم نفسه منه".[١]

ثم أخذ يعدد أسباب ذلك فيقول: "وأول هذه الأسباب ما بين هذه الكتب من خلاف في رواية الأمور المنسوبة إلى النبي العربي -ﷺ- منذ مولده إلى وفاته. فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات، ومن كثير غيرها من الأنباء، كان يزيد وينقص دون مسوغ، إلا اختلاف الأزمان التي وضعت فيها هذه الكتب".

فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها، وما ورد من الخوارق في الكتب القديمة أقل بعدًا عن مقتضى العقل مما ورد في كتب المتأخرين. وهذه سيرة ابن هشام، أقدم السير المعروفة اليوم، تغفل كثيرًا مما ذكره أبو الفداء في تاريخه. وكذلك الحال في كتب الحديث واختلافها. فبعضها يروي قصة من القصص، وبعضها يغفلها، وبعضها يضعفها.

فالسبب الأول: هو الخلاف بين هذه الكتب في رواية الأمور المنسوبة لرسول الله ﷺ منذ مولده وحتى وفاته.

والسبب الثاني: هو تأخر التدوين لهذه الكتب مما أدى إلى اختلاف الروايات ووضع الأحاديث. ويعبر عن هذا السبب فيقول: "وسبب آخر يوجب التمحيص لما ورد في كتب السلف ونقده نقدًا دقيقًا على الطريقة العلمية، وهو أن أقدمها كُتبت بعد وفاة النبي -ﷺ- بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية، كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب، فما بالك بالمتأخر مما كتب في أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سببًا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه، ودونوا ما اعتقدوه صحيحًا منه، من جهد وعنت أدى إليهما حرص هؤلاء الجامعين على الدقة والتمحيص حرصًا لا يتطرق إليه ريب. وكثير من هذه الأحاديث التي

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٤.

صحت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء، وانتهى بهم الأمر إلى نفي الكثير منها، كما كان الشأن في مسألة الغرانيق. فإذا كان ذلك شأن الحديث وقد جهد فيه جامعوه الأولون ما جهدوا، فما بالك بما ورد في المتأخر من كتب السيرة، وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمي في تمحيصه؟"[١]

ثم هو يحدد السبب الثالث: هو أثر النزاعات السياسية في اختلاف الروايات ووضع الأحاديث، مما يحتم عدم الأخذ من كتب السيرة وكتب الحديث قبل تمحيصها تمحيصًا علميًا دقيقًا. ويزيد هذا السبب إيضاحًا فيقول: "والواقع أن المنازعات السياسية التي حدثت بعد الصدر الأول من الإسلام أدت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييدًا لها، فلم يكن الحديث قد دُوِّن إلى عهد متأخر من عصر الأمويين. وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه، ثم لم يُجمع إلا في عهد المأمون، بعد أن أصبح الحديث الصحيح في مقابل الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، على حد قول الدار قطني".

ومع ما أبداه جامعوا الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه، فقد جرح بعض العلماء كثيرًا من الأحاديث التي أثبتها جامعوها على أنها صحيحة[٢].

ثم يعلل الدكتور هيكل سبب هذه الظاهرة ويحدد الوسيلة المثلى للتغلب عليها فيقول: "ذلك أن الجامعين قد جعلوا مقياس السند والثقة بالرواية أساسهم في قبول الحديث أو رفضه، وهو مقياس له قيمته، ولكنه وحده غير كاف. وعندنا أن خير مقياس يقاس به الحديث، وتقاس به سائر الأنباء التي ذكرت عن النبي، ما روي عنه عليه السلام أنه قال: "إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فمني، وما خالفه فليس عني." وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى وما زال المفكرون منهم يأخذون به

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٤، ٦٦.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٦، ٦٧.

إلى يومنا الحاضر. وهذا المقياس الذي جاء في حديث النبي يتفق مع قواعد النقد العلمي الحديث أدق اتفاق.[١]

إذن فالأسباب التي من أجلها لم يأخذ الدكتور هيكل بما ورد في كتب السيرة وفي كتب الحديث خاصًا بحياة رسول الله ﷺ دون بحث وتمحيص هي:

١- الاختلاف بين هذه الكتب.

٢- تأخر التدوين إلى عصور الاختلاف والاضطراب.

٣- المنازعات السياسية التي حدثت بين المسلمين.

تعقيب على ردود الدكتور هيكل:

ولي تعقيب على رد الدكتور هيكل على الملاحظات التي أبداها المشتغلون بالدراسات الإسلامية على منهج الدكتور هيكل في كتابته عن حياة النبي ﷺ أوجزه في النقاط التالية:

١- يخطئ الدكتور هيكل عندما يقرن بين كتب التاريخ وكتب الحديث من حيث الدقة العلمية، ذلك أن كتب الحديث تفوق ما عداها من كتب العلوم الأخرى دقة، فلا يضاهيها أو يدانيها مؤلفات أخرى، وذلك نظرًا لأهمية الحديث ومكانته من الدين الإسلامي الحنيف.

٢- إذا كان هناك خلاف بين كتب السيرة التي كُتبت عن حياة محمد ﷺ، فإن هذا الخلاف لا يصل إلى حد التعارض أو التناقض الذي يسقطها ويهدر قيمتها العلمية. كيف يتأتى ذلك والمرجع لها جميعًا هو القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ؟ ومعلوم أن المسلمين منذ صحابة النبي الكرام قد عنوا عناية فائقة بأحاديث رسول الله ﷺ وسنته وأيامه ومغازيه. وقبل أن تُدون الأحاديث تدوينًا عامًا في آخر القرن الأول الهجري، كانت مقيدة في الحوافظ ومدونة في الصدور عند جمهرة

(١) المرجع السابق ص ٦٧.

الصحابة والتابعين، وكان القارئون والكاتبُون منهم يدونون منها ما استطاعوا منذ عهد النبي ﷺ حتى عهد التدوين، ومن ذلك ما يتعلق بسيرة النبي ومغازيه.

وقد شغلت السيرة النبوية حيزًا غير قليل من الأحاديث، والذين ألَّفوا في الحديث لم تخلُ كتبهم غالبًا من ذكر ما يتعلق بحياة النبي ومغازيه وخصائصه ومناقبه ومناقب صحابته. وقد استمر هذا المنهج حتى بعد انفصال السيرة عن الحديث في التأليف وجعلها علمًا مستقلًا".[١]

فالواجب إذن الاعتماد على كتب السيرة الصحيحة التي هي في الحقيقة جزء من السنة الثابتة، ولا يجوز إهدارها لمجرد الخلاف فيما بينها. وفي حالة وجود خلاف جوهري، فإن المنهج الحق هو كما عبر عنه الشيخ محمد أبو شهبة: "سأعنى أيضًا بذكر الأحاديث المتصلة بالموضوعات التي سأعرض لها ولن أذكر منها إلا ما هو صالح للاحتجاج به من حديث صحيح أو حسن أو مقبول، ولن أذكر شيئًا من الأحاديث الموضوعة أو الإسرائيليات المكذوبة أو الروايات الشديدة الضعف إذ في الأحاديث الثابتة ما يغني عنها. ومما ينبغي أن يُعلم أن كتب السيرة والموالد فيها الصحيح والضعيف بل والمكذوب المختلق. فلا نلتفت إلى شيء من ذلك مما قد نجده في بعض كتب التفسير والحديث والتاريخ والسير ونحوها.

إن اعتمادي بعد القرآن والأحاديث الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد على كتب التاريخ والسير قديمها وحديثها بعد البحث والتمحيص والتحقيق والموازنة بين الروايات والأخذ بما يصلح للاحتجاج به منها وترك ما عداه، ولن آخذ برواية راوٍ أو قول قائل يصادم عقلًا أو يخالف نقلًا متواترًا أو صحيحًا أو يمس عصمة النبي ﷺ إلا إذا كان للرواية مخرج محتمل معقول أو تأويل قريب مقبول من غير تكلف ولا تَمَحُّل".[٢]

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة د/ محمد بن محمد أبو شهبة ج ١ ص ٢٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٣، ١٤.

ثم يبين الشيخ أبو شهبة أساس الموازنة بين الروايات المختلفة ومعيار القبول والرفض فيقول: "وفي مقدمة كتب السيرة كتاب شيخ كتاب السيرة وإمام أهل المغازي: محمد بن إسحاق، إلا اذا عارض روايته ما هو أصح منها كرواية صاحبي الصحيحين، فإني أرجح ما في الصحيح".[١]

وهكذا يظهر أن كتاب السيرة لهم منهاج عدل، وأنهم ليسوا مجرد نقلة، وإنما يحققون ويوازنون حتى لا تشوب سيرة النبي ﷺ شائبة.

ثم إن محور الاختلاف بين كتاب السيرة في نظر الدكتور هيكل إنما يدور حول المعجزات والخوارق التي ينظر إليها الدكتور هيكل نظر ريبة، ويعتبر وجودها في كتب السيرة وكتب الحديث دليلًا على الوضع والتحريف لأنها تخرج عن سنن الله في الكون وعن مفهوم العقل، وتنسب إلى النبي ﷺ -الذي لم يخرج عن طور الإنسانية العادية- أشياء تتعارض مع ما يقرره القرآن من أنه بشر يوحى إليه. يقول الدكتور هيكل موضحًا هذا ومحللًا له: "وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحديث -حديث شق صدر النبي- والشك فيه أن حياة النبي محمد كانت كلها إنسانية سامية وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبق من أصحاب الخوارق. وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر في خلق الله، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلًا".[٢] وهذا الرأي وذاك التعليل محل نظر، ذلك أن رسول الله ﷺ بشر ولكنه مع ذلك نبي ورسول والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا شك أن مقام النبوة والرسالة له من الخصوصيات ما ليس للبشر العادي، فهو ﷺ مثلًا يرى من خلفه كما يرى من أمامه، ويصبر عن الطعام والشراب أيامًا متواصلة.

(١) المرجع السابق ص ١٤.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ١٢٩.

إذن فـالله تبـارك وتعالى قد أعطـى نبيه من القدرات ما هـو فوق قدرات البشر العادي. وعلى هذا فالإنسانية في حياة الرسل لا تنفي مواهب النبوة ولا عطاءات الرسـالة، فإذا كان الرسـول بشرًا فإنه مطالب ببرهان على صدقه في البلاغ عن الله ولا بـد في هـذا البرهـان أن يكون معجزًا لا يسـتطيعه بشر، ومن هنـا فلا مفر من قبول المعجزة في حياة النبي ولا فرق في ذلك بين أن تكون معجزة عقلية أو معجزة حسـية لأنها أولًا وأخيرًا خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تأييدًا له في دعـواه حتـى يوقن المدعوون أنه صادق في بلاغه عن الله عز وجل. والموقف الحق والـذي أعتقـده من المعجزات في حيـاة النبي ﷺ هو ما يعبر عنـه فضيلة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة والذي ينتقد فيه موقف الدكتور هيكل ومن وافقه فيقول: "الذي أومن به أن القرآن هو المعجزة العظمى للنبي ﷺ والآية العقلية الباقية على وجه الدهر، وأنه آية الآيات ومعجزة المعجزات. ولكني أومن أيضًا أن النبي ﷺ أوتي من المعجزات الحسـية مثل ما أوتي النبيون السـابقون بل وأعظم منها. وهذه المعجزات الحسـية بعضها ثابت بالقرآن الكريم نصًا كالإسراء وانشقاق القمر، أو بالإشـارة إليه كالمعـراج، وبعضها ثابت بالأحاديث المتواتـرة، والكثير منها ثابت بالأحاديث الصحيحة المروية في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن والمسانيد.

ولا يطعـن في كونهـا معجـزات أن النبـي ﷺ لم يتحـد النـاس بها كـما تحداهم بالقـرآن الكريـم لأن فريقًـا مـن العلـماء لا يشـترط في المعجـزة أن تكـون مقترنة بالتحـدي. ثـم إن بعضهـا وإن لم يقع التحدي بـه صراحة، لكنه في قـوة المتحدى بـه. ففـي الصحيحـين وغيرهما عن عدة مـن الصحابة أن المشركـين من أهل مكة سـألوا رسـول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما... والأقدمـون من المؤلفين في السـير والتاريخ ذكروا الكثير من المعجزات الحسـية، وإن اختلفوا في ذكرها قلة وكثرة. وابن إسـحاق –شـيخ كتاب السير وعمدتهم– ذكـر منهـا جملة مع قرب عـصره من عصر النبـوة، وقد لقي الكثيريـن ممن أخذوا العلم والحديث عن الصحابة العدول وروي عنهم. وقد ابتدع هذه البدعة السيئة

-وهي الاكتفاء بالقرآن كمعجزة- المستشرقون، ثم سرت عدوى هذه البدعة إلى كتابنا المعاصرين كالدكتور محمد حسين هيكل ﷺ في كتابه "حياة محمد"، وكذلك صنع المستشرق الفرنسي الذي أسلم "إتيين دينيه" وزميله السيد سليمان إبراهيم الجزائري في كتابيهما "حياة محمد"، وقليلًا ما تجد أحدًا من المؤلفين المتأخرين في السيرة النبوية يذكر شيئًا من المعجزات الحسية".[١] ثم يعلل الشيخ أبو شهبة رأيه في المعجزات الحسية تعليلًا إيمانيًا فيقول: "فالشيء ما دام من الممكنات العقلية ثم أخبر بوقوعه الرواة الموثوق بهم عدالة وضبطًا وأمانة، فلا يجوز أن ننكره استنادًا إلى استبعاده في العادة، وهل المعجزات إلا أمور خارقة للعادة؟ وليس من البحث العلمي السليم إنكار المرويات جملة، وإنما الطريقة العلمية الصحيحة نقدها من ناحية السند والمتن. فإن لم نجد فيها مطعنًا قبلناها، وإلا تركناها. فإذا لم نتبع هذه الطريقة صار الإنكار هوى وشهوة".[٢] أو جهالة وضلالة.

ثم إن الدكتور هيكل يرى أن المعجزات وكأنها اختيار من النبي أو الرسول يستعملها حين يشاء ويتركها إذا أراد، فهو يقول: "إن حياة محمد -ﷺ- كانت كلها إنسانية وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق".[٣]

وهذا أيضًا محل نظر، فالرسل الكرام إنما يجري الله سبحانه وتعالى المعجزات على أيديهم بإرادته ومشيئته وحده لا بإرادة ومشيئة الرسول. فهي ليست من أفعال المرسلين وإنما هي من أفعال المولى عز وجل أجراها على أيديهم صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين تصديقًا لهم.

وللأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي -أطال الله في عمره- رأي أبداه كتعليل لموقف الدكتور هيكل من المعجزات الحسية، فهو يعتبر هذا الموقف مجرد إغفال

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة د/ محمد أبو شهبة ج ١ ص ٢١ - ٢٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣.

(٣) حياة محمد د/ هيكل ص ١٢٩.

لذكرهـا وليس إنـكارًا لوقوعها، وأن الـذي دفع الدكتور هيـكل إلى هذا الموقف حرصه على هداية الناس كل الناس وولعه بذلك.

هـذا الولـع بهداية الإنسـانية جمعـاء عن طريـق السـيرة النبويـة أولًا، وباتباع الطريقة العلمية التي تقتنع بها العقول كافة، مسـلمة وغير مسـلمة، ثانيًا هو الذي دعـا الدكتور هيكل أن يخاطب العقل وحده في كتابته فلا يلجأ إلى ما يتجرأ العقل الأوروبي المتحـرر على إنكاره. لذلك أغفـل حديث الخوارق والمعجزات في كتابه وجعـل القرآن وحده معجزة الرسـول التـي يجب أن تكون موضـع الإقناع دون غيرها مما كان موضعًا لنقد الناقدين. ولكل وجهة هو موليها، غير أني أحرص على أن أبين أن هناك فرقًا واضحًا وبعيدًا بين من ينكر الخوارق مؤكدًا أنها لم تحدث وبين مـن يهملها فقط ليقنع قومًا لا يؤمنون بالإسـلام إقناعًا عقليًـا يعتمد على الدليل.

الفـرق واضح وصريـح ويدعو إلى تكراره في هذا الموقـف، لأن بعض الناقدين قـد غفلـوا عن منحى الدكتور هيـكل في اتجاهه إلى البشرية عامـة بكتابه، وواجهوه بالاعـتراض الصارخ أن أغفل حادثة انشـقاق القمر وما ينحـو منحاها وكأنه ينكر وقوعهـا. وهذا ما لم يفعله الكاتب صراحـة أو تلميحًا، ولكنه عبر عن هدفه بأجلى بيـان حـين أكد أنه يكتب للإنسـانية جمعـاء، وفي بني الإنسـان من يريـدون الإقناع العقلي وحده وهم أكثر المثقفين في العالم وذوو التأثير القوي في ملايين الناس فلنأت بيوتهـم مـن أبوابها. وهـذا كلام من الوضـوح بحيث يجب أن ينهـي الحجاج، وهو مـع وضوحه ما يزال موضع الاحتكاك لدى الناس. يسرهم أن يتناولوا آثار هيكل الإسلامية بالملام فيغمضون أعينهم عن الروائع ويحاولون تجويف الهنات. (١)

وهـو رأي لـه وجاهته لـو كان الكتاب مؤلفًا بلغـة غير العربية فيكـون خطابًا مبـاشرًا مـع العقـل الأوروبي حتى نـأتي بيوت القوم مـن أبوابها. أمـا وأنه مؤلف باللغة العربية فهو خطاب للعقل العربي المسلم أولًا ثم لغيره إن وصل إليه آخرًا.

(١) النهضة الإسلامية في سيرة أعلامها المعاصرين د/ محمد رجب البيومي ج ٣ ص ١٢٢.

ثم ما هو العقل الأوروبي الذي يحاول الدكتور هيكل إقناعه علميًا؟ هل هو العقل الملحد الذي ارتكس في حمأة المادة وأنكر الأديان وما يمت لها بأي صلة؟

أم هو العقل الذي سقط في براثن اللاهوت والكهنوت فاعتقد بالأقانيم الثلاثة واطمأن إلى هدهدة صكوك الغفران؟

وكم من هذه العقول اقتنع بدعوة الدكتور هيكل ودخل الإسلام؟

حقيقة أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ويجب إبلاغها إلى الناس كافة، ولكن هل نبلغها كما وصلت إلينا أم نغفل منها ما يتعارض وتفكير هؤلاء المبلغين؟

إن الله تبارك وتعالى علمنا في القرآن الكريم أن الهداية منه وحده، وما على الرسول إلا البلاغ.

قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.[2]

فما علينا والأمر كذلك إلا أن نبلغ رسالة الإسلام كاملة وتامة إلى الناس جميعًا على أنها الحق الذي لا مرية فيه. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.[3]

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.[4]

ثم إن موقف الدكتور هيكل من المعجزات الحسية ليس مجرد إغفال لذكرها،

---

(١) سورة النحل: الآية: ٣٧.

(٢) سورة القصص: الآية: ٥٦.

(٣) سورة الكهف: الآية: ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية: ١١٩.

وإنما هو موقف فكري منها يصل إلى حد الإنكار. فهو مثلًا، عند الحديث عن طفولة الرسول وهو مسترضع في بادية بني سعد، يكتب عن قصة شق الصدر فيقول:

"في هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة، تقع الرواية التي يقصونها من أنه كان مع أخيه من سنه في بادية أهله خلف بيوتهم إذ عاد أخوه الطفل السعدي يعدو ويقول لأبيه وأمه: ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا صدره، فهما يسوطانه".(١)

ويقول بشأن هذه المعجزة: "ويروي ابن إسحاق في هذه الواقعة حديثًا عن النبي بعد بعثه، وكذلك يرويها الطبري، ولكنه يحيطها بالريبة".(٢)

ثم يعلق قائلًا: "لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند".(٣)

ويقول: "ولا يرضى المستشرق سير وليم موير أن يشير إلى قصة الرجلين في ثيابهما البيضاء، ويذكر أنه إن كانت حليمة وزوجها قد نبها لشيء أصاب الطفل فلعله نوبة عصبية أصابته".(٤)

ويقول: "ويرى دير منجم أن هذه القصة لا تستند إلى شيء غير ما يفهم من ظاهر الآيات: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، وأن ما يشير القرآن إليه إنما هو عمل روحي بحت والغاية منه تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصًا ويؤديها مخلصًا تمام الإخلاص محتملًا عبء الرسالة المضني".(٥)

(١) حياة محمد د/ هيكل ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٥) حياة محمد د/ هيكل ص ١٢٨.

ولهوى في نفسه يحرف الدكتور هيكل اسم السورة من "الشرح" إلى "الانشراح".[١]

وهكذا يسير الدكتور هيكل وراء المستشرقين لينكر ما ثبت في صحيح السنة لشق صدره ﷺ وهو مسترضع في بادية بني سعد.[٢] وبعد ذلك كله يحدد موقفه صريحًا وبلا موارية فيقول: "وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحديث (شق صدره ﷺ) أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق.

وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل".[٣]

فهو إنكار وإنكار مسبب له من الأسباب ما يقتنع به المستشرقون والمفكرون من المسلمين الذين شاركوهم وساروا خلفهم حتى سوغوا للدكتور هيكل أن يجمعهم ويحشرهم معهم في قبيل واحد على غير رابطة تجمعهم إلا اتباعهم للمنهج الأوروبي الذي ينكر سنة النبي ﷺ ولا يقتنع بمعجزاته الحسية رغم ثبوتها بالقرآن الكريم وبالصحيح من السنة المطهرة. الخلاف إذن بين كتب السيرة ليس خلافًا جوهريًا يقتضي طرحها وعدم اعتبارها أو الأخذ عنها فيما يتصل بحياة النبي ﷺ، فمراجعها ومصادرها الأولى إنما هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فهي إذن مصدر أصيل لا يجوز إهداره، وما ورد فيها من اختلاف يجب عرضه، لا على العقل وإنما على الثابت من الروايات الصحيحة سندًا ومتنًا، وبذلك نسلم من الشطط والزلل الذي يؤدي إما إلى إثبات ما هو غير صحيح، وإما إلى نفي ما هو ثابت وصحيح، وكلا الأمرين مجافٍ للحقيقة وبعيد عن الصواب.

---

(١) انظر هامش ص ١٢٨ من المرجع السابق.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة ج ١ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة.

(٣) حياة محمد د / هيكل ص ١٢٨.

كثرة الروايات المختلقة والأحاديث الموضوعة بسبب تأخر التدوين:

وهـذه حجة يرى الدكتور هيكل أنها كافيـة لعدم الاعتماد على المرويات إلا إذا أخضعـت للبحث والتمحيص، وهو في ذلـك لم يأت بجديد، فاختلاق الروايات ووضـع الأحاديـث ليـس بالأمـر الخفـي أو المجهول، وليسـت هـذه الحقيقة من اكتشـافاتنا الحديثـة، وإنما عُرف الوضع والكذب وافتضـح سره منذ حدوثه، وما كنا ندري من أمره شيئًا لولا ما كتبه علماؤنا الأوائل وأثبتوه.

وإذا كان الدكتور هيكل يرى ضرورة عرض هذه المرويات على مقياس صحيح لتمييز الخبيث من الطيب ولتبيان الصحيح من السقيم، فإن هذا هو ما فعله سلفنا الصالـح رضـوان الله عليهم، فلقد علموا كـما علمهم القـرآن أن طريق التيقن أو العلم في الإسلام أحد أمور ثلاثة:

١- إما خبر صادق يتيقن السامع صدق خبره، كأخبار الله في كتبه وأخبار المرسلين.

٢- وإمـا التجربـة والمشـاهدة بعـد التأكـد من سـلامة التجربة فيـما يقع تحت التجربة والاختبار.

٣- وإما حكم العقل فيما ليس فيه خبر صحيح ولا تجربة مشاهدة.

ولكن ضع تنوين النصب كالمعتاد، لماذا أزلته؟

أعتذر عن ذلك. سأعيد النص مع إضافة تنوين النصب بشكل صحيح.

ومـن إعجـاز القرآن أنه وضع هـذه القواعد الثلاثـة لتحقيق العلـم أو التيقن في هـذه الآيـة الكريمـة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.(١)

ومن تمام الإعجاز في هذه الآية أنها جاءت مرتبة هكذا: الخبر الصادق (السمع) ثم التجربة (البصر) ثم المحاكمة العقلية (الفؤاد)، على أنها هي العناصر الثلاثة التي

(١) سورة الاسراء الآية: ٣٦.

ينشأ عنها كل علم ولن تجد في الحياة علمًا ينشأ إلا عن عنصر من هذه العناصر".[١]

بهذا علم الصحابة ﷺ أن المصدر الأول للعلم الحق هو التلقي عن المعصوم ﷺ وتمثل هذا التلقي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. وإذا كان النبي ﷺ قد اتخذ كتابًا للوحي يكتبون القرآن فإنه لم يفعل مثل ذلك في السنة، فلم يأمر بكتابتها وتدوينها، بل على العكس من ذلك حيث نهى ﷺ عن كتابة شيء غير القرآن.

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج".[٢]

وهذا النهي النبوي كان وراءه جملة من الأسباب نجملها على الوجه التالي:

أولًا: مخافة اختلاط شيء بالقرآن الكريم لأن القرآن كان جديدًا عليهم ولم يتعودوا بعد على أسلوبه، فلو سمح لهم بكتابة شيء غير القرآن معه فلربما أدى ذلك إلى أن يدخل في القرآن ما ليس منه. **ثانيًا**: أراد النبي ﷺ أن تتوجه همة المسلمين في المقام الأول إلى القرآن الكريم. **ثالثًا**: قلة أدوات الكتابة وقلة عدد الكاتبين في ذلك الزمان.

رابعًا: لكي لا يركن المسلمون إلى الكتابة ويتركوا الحفظ، ومن هنا طلب منهم النبي ﷺ عدم كتابة الحديث وأن يعتمدوا على ذاكرتهم فيستودعوها الحديث الشريف في تلك المرحلة المبكرة. ثم جاءت حقبة زمنية في حياة الرسول ﷺ جدت فيها عوامل أدت إلى زوال تلك الأسباب.

فلما زالت هذه الأسباب جميعًا أذن النبي ﷺ بعد ذلك في كتابة الحديث لمن أراد من المسلمين. وقد تمثل هذا الإذن النبوي في مجموعة من الأدلة، نوجز بعضها فيما يلي:

١ – لما فتح الله تعالى مكة للمسلمين خطب النبي ﷺ، فقام رجل من أهل اليمن

(١) السنة ومكانتها في التشريع د / مصطفى السباعي ص ٣٥

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب التثبت في الحديث كتاب كتابة العلم.

اسمه أبو شاة وقال: يا رسول الله اكتبوا لي. فقال النبي ﷺ: اكتبوا لأبي فلان، يقصد أبا شاة. وعند البخاري زيادة عن الوليد بن مسلم قال: قلت للأوزاعي ما قوله: اكتبوا؟ قال: هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ[١]، فدل ذلك على صريح إذنه بالكتابة.

٢- روى الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق".[٢]

٣- روى الخطيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: "كان رجل يشهد حديث النبي ﷺ فلا يحفظه، فيسألني فأحدثه، فشكا قلة حفظه إلى رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: استعن على حفظك بيمينك".[٣] وهناك أدلة كثيرة تدل على إذنه بالكتابة ﷺ.

وقد تعددت آراء العلماء حول العلاقة بين أحاديث الإذن وحديث النهي، وأقوى الآراء في ذلك وأرجحها أن أحاديث الإذن ناسخة لحديث النهي، وعلى ذلك فإن آخر الأمرين منه ﷺ هو الإذن بالكتابة.

وتلقف الصحابة الكرام هذا الإذن النبوي الكريم بالكتابة، فشرع كثير منهم في كتابة الحديث الشريف[٤]، وأسفر ذلك الجهد من الصحابة الكاتبين عن صحف ومدونات خاصة لحديث رسول الله، فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى زاد اهتمام

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٦٢.

(٣) سنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الرخصة فيه.

(٤) انظر تيسير اللطيف الخبير في علوم حديث البشير النذير د/ مروان شاهين ٦٩ , ٧١.

الصحابة بسنة النبي وأقبلوا عليها حفظًا وكتابة ورواية وتعليمًا، استجابة لأمر النبي ﷺ، فليبلغ الشاهد الغائب.(١)

وقد تمثل هذا الاهتمام في مظاهر متعددة، أهمها:

أولًا: التشدد في أمر الرواية.

ثانيًا: حفظ السنة في الصدور.

ثالثًا: المسارعة إلى تدوينها تدوينًا خاصًا صيانة لها من النسيان.

رابعًا: نشرها وتعليمها للأجيال اللاحقة، فجلس كثير من الصحابة للحديث عن رسول الله ﷺ.

خامسًا: تكوين المدارس العلمية في البلاد المفتوحة، وكانت تدرس كل ما يتعلق بالقرآن الكريم وكل ما يتعلق بالنبي ﷺ، ومن ذلك حديث رسول الله ﷺ.(٢)

وهذا يدل على أن السنة كانت موضع عناية الصحابة في حياة رسول الله ﷺ، ومن بعده موضع عناية التابعين إلى أن بدأ تدوينها تدوينًا عامًا في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري.

- **ظاهرة الوضع في الحديث ودور العلماء في مناهضتها:**

خلال هذه المسيرة المباركة لدعوة الإسلام حدث ما لا بد منه ووقع الخلاف بين المسلمين، وكان أول الأمر خلافًا سياسيًا، فاختلفت آراؤهم حول من له الحق في خلافة رسول الله والقيام بقيادة المسلمين حفظًا لمصالحهم الدينية والدنيوية. انعكس أثر هذا الخلاف بوضوح على حياة المسلمين كلها بعد اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة أربعين من الهجرة، فكانت هذه السنة "هي الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوصها من الكذب والوضع وبين التزيد فيها واتخاذها وسيلة

(١) رواه البخاري كتاب العلم باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب.

(٢) انظر تيسير اللطيف الخبير في علوم حديث البشير النذير د/ مروان شاهين ٨٠, ٨٤.

لخدمة الأغراض السياسية والانقسامات الداخلية بعد أن اتخذ الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما شكلًا حربيًا سالت فيه دماء وأزهقت فيه أرواح، وبعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف متعددة. وهكذا كانت الأحداث السياسية سببًا في انقسام المسلمين إلى شيع وأحزاب، ومع الأسف فإن هذا الانقسام اتخذ شكلًا دينيًا كان له أبلغ الأثر في قيام الأحزاب الدينية في الإسلام. فلقد حاول كل حزب أن يؤيد موقفه بالقرآن والسنة، وطبيعي ألا يكونا مع كل حزب يؤيدانه في كل ما يدعي، فعمل بعض الأحزاب على أن يتأولوا القرآن على غير حقيقته وأن يحملوا نصوص السنة ما لا تحتمله، وأن يضع بعضهم على لسان الرسول أحاديث تؤيد دعواهم بعد أن عز عليهم مثل ذلك في القرآن لحفظه وتوفر المسلمين على روايته وتلاوته. ومن هنا كان وضع الحديث واختلاط الصحيح منه بالموضوع".[1]

وكان وراء هذه الظاهرة أسباب كثيرة، منها الخلافات السياسية والزندقة والعصبية والشعوبية والخلافات الفقهية والكلامية، وكذلك الجهل بالدين مع الرغبة في الخير، هي دوافع أدت إلى ظهور الوضع في الحديث واستفحاله حتى غدا الحديث الصحيح في الموضوع كشعرة بيضاء في جلد الثور الأسود. ولكن هل أثر الوضع في حديث رسول الله ﷺ بحيث يشك المسلم في صحة ما هو منسوب إلى الرسول ﷺ في الكتب الصحاح كما يدعي ذلك المستشرقون وأعداء الإسلام ومن يتبعهم من المسلمين ممن ليس لهم بضاعة من علوم السنة؟ مما لا ريب فيه أن الفتنة ذات أثر سلبي ولكنها في الوقت نفسه كانت دافعًا لاستكمال منهجية الحديث رواية ودراية. ولعل بروز الفتنة في ذلك العصر المبكر والصحابة متوافرون كان غاية الفائدة بالنسبة للسنة. وكم ستكون المشكلة كبيرة لو أن هذه الفتنة وقعت بعد انتهاء عصر الصحابة رضي الله عنهم. إن حدوث الفتن أفاد السنة فائدة كبيرة ويمكن أن نقارن هذا الأثر الإيجابي بأثر اللحن على اللغة العربية؛ إذ عندما ظهر اللحن وفشا واختلط العرب بالعجم ظهرت الحاجة إلى تقعيد النحو وضبطه

(١) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ص ٧٥.

وتدوين شواهده، فكان اللحن مفسدة من جهة أثره على الفطرة اللغوية السليمة، ولكنه كان حافزًا لحفظ اللغة وتأسيس مناهجها.

كذلك كان الحال بالنسبة للحديث، فقد ظهرت الفتن والصحابة أحياء والرواية قريبة من مصدرها الأصلي، وخطوط الاتصال بين الصحابة والنبي ﷺ قائمة ومفتوحة، وكل هذا ساعد على استقرار المنهج. لقد خاب ظن المستشرقين المتكئين على الفتنة باعتبارها مصدر تشكيك بالسنة، وكان الأجدر أن يعلموا أن الحديث قد أخذ من المغانم أكثر مما دفع من المغارم.(١)

فلقد هب العلماء للذود عن سنة النبي ﷺ، وبذلوا في ذلك جهدًا كبيرًا وفقهم الله به إلى قواعد غاية في الدقة واصطنعوا لذلك علومًا كانت بتوفيق الله سببًا في نقاء السنة الشريفة مما أصاب وجهها الوضاء من كدمات الوضاعين وآثار الكذابين. ومن العلوم التي ابتكرها العلماء لتنقية السنة علمان رئيسان: أحدهما علم يدرس النص النبوي الكريم ويفهمه ويستخرج ما فيه من كنوز ويستنبط منه الأحكام والعقائد، ويعرف عند علماء الحديث بعلم الحديث رواية. وثانيهما علم يهتم بهذا النص الشريف ليس من حيث فهمه وإنما من حيث توثيقه وإثبات صدق نسبته إلى رسول الله حتى يثبت لدينا حقًا أنه قد قاله فيجب العمل به، وهو ما يعرف عند علماء الحديث بعلم الحديث دراية أو علم أصول الحديث أو علم مصطلح الحديث، ويعرفه العلماء فيقولون: "هو علم يعرف به أحوال سند الحديث ومتنه من حيث القبول أو الرد"، أو: "هو علم يعرف به أحوال الراوي والمروي من حيث القبول والرد".

فهذا العلم يهتم بوضع القواعد التي في ضوئها تتم دراسة أحوال الرواة من حيث توفر صفات القبول فيهم أو عدم توفرها. كما يهتم أيضًا بدراسة المتن إذ إن النص النبوي الكريم له خصائص يختلف بها عن كلام سائر البشر، وهذه

(١) الفكر المنهجي عند المحدثين د/ همام سعيد ص ٥٦_٥٨ باختصار.

الخصائص لابد أن تتميز بدراسة دقيقة وقواعد منضبطة حتى لا يُضاف إلى كلام رسول الله ﷺ ما ليس منه. ومن هنا كان اهتمام هذا العلم الرائع بدراسة أحوال السند والمتن معًا.

هذا شيء دقيق وعظيم؛ فهم لم يوجهوا همهم إلى دراسة السند فقط، فقد يصح السند ولا يصح المتن، والعكس أيضًا صحيح، وإنما كان اهتمامهم بدراسة السند والمتن معًا".[١]

فإذا كان علم الحديث رواية ينصب اهتمامه على كيفية نقل النص الشريف وفهمه ودراسته، فإن علم الحديث دراية ينصب اهتمامه على فهم وتتبع وبحث ومعرفة التراجم والطبقات وأحوال الرواة، وخبرة بالمتون والألفاظ، وأنواع الترجيح، وإدراك عميق للعلل الخفية، ورؤية واسعة للحركة الحديثية عبر العصور وعلى اختلاف الأقطار. ولهذا العلم جوانب متعددة، أهمها:

١- علم الجرح والتعديل.

٢- علم العلل.

٣- علم نقد المتن.. إلخ.[٢]

على أن أصول هذا العلم كانت معروفة ومطبقة منذ العصور الأولى حين بدأ الوضع في الحديث وفشا الكذب على رسول الله ﷺ. فكانوا لا يقبلون قول قائلٍ إلا بإسناد معروف متصل إلى رسول الله ﷺ.

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يأتيه من يحدثه، فلا يلتفت لحديثه تطبيقًا لقاعدة "إن من لا يعرف حاله لا يقبل حديثه".

فعن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث ويقول: قال

(١) تيسير اللطيف الخبير في علوم البشير النذير د/ مروان شاهين ج ١ ص٤ , ٥ باختصار.

(٢) الفكر المنهجي عند المحدثين د/ همام سعيد ص ٨٠.

رسول الله ﷺ. فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه. فقال: يا ابن عباس، مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلًا يقول قال رسول الله ﷺ، ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا بما نعرف.

هذا النص يدل بجلاء على تشمير الصحابة لتحذير الناس من الوقوع في أحابيل الكذب. وقد أعلن التابعي الكبير محمد بن سيرين عن أثر الفتنة على البحث والنقد فقال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم".[١] رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

فإذا ما سُمي الرجال السند، وُضعوا تحت اختبار دقيق ليعرف حال كل منهم من العدالة والضبط من أول السند إلى آخره. فيسأل عن كل راوٍ: "من هو؟ هل هو عدل في دينه؟ وأمانته؟ هل هو متقن لخبره؟ مَن من العلماء يشهد له بالقبول والاحتجاج؟" وهكذا تدور أسئلة حول كل راوٍ من هؤلاء الرواة.

ومن خلال البحث والتقصي ومراجعة كتب الرجال، يتبين لنا أن أفراد السند ثقات مرضيون في دينهم، فيكون الخبر صحيحًا في الإسناد. أو قد يكون أحد الرواة لم تتحقق فيه شروط العدالة والضبط، فيكون الخبر غير صحيح.[٢]

وهذا دور علم الجرح والتعديل، وهذه مرحلة من النقد (نقد السند) لا تنتهي عندها عملية النقد للحديث، وهي مرحلة مهمة جدًا في نقد الرواية اهتم بها العلماء باعتبارها المرحلة الأولى. فجعلوها قاعدتهم الأولى في نقد الحديث، وبها: أزاحوا من طريق السنة آلافًا، بل عشرات الألوف من الأحاديث المكذوبة[٣] على

(١) الفكر المنهجي عند المحدثين د/ همام سعيد ص٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣.

(٣) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ص٢٧٦.

رسـول الله ﷺ. فإذا ثبت تعديل الراوي بثبوت العدالة والضبط والإتقان، انتقل إلى مرحلة أخرى..

مـن مراحل نقـد الحديث، فإذا انتهى علم الجـرح والتعديل بالحكم على مالك بـن أنس مثلًا بأنه ثقة، فإن علم العلل يبـدأ من حيث انتهى علم الجرح والتعديل فيتنـاول بالبحـث روايات مالك رواية رواية ويبحث عـن كيفية الرواية وأحوالها وموافقاتهـا ومخالفاتهـا. وهـذا البحـث التفصيلي يتفرع ويتسـع فيصبـح مالك في حديـث ما غيره في حديث آخر. وهذا النوع مـن النقد أُلفت فيه كتب كثيرة وبرع فيه علماء أجلاء.

لا أقـول بـأن المنهج العلمي الحديث وافقهم أو سـاواهم، بل سـاروا هم أمام المنهـج العلمي وسـبقوه، وهيهـات أن تدرك مناهـج البحث الحديثة شـأوهم في ذلـك. لقـد تنبه علـماء الحديـث إلى أن الثقـة الموصـوف بالعدالة قـد يخطئ ويهم ويقلب المتون والأسـانيد، وقد ينسـى، وقد يختصر فيخـل أو يطيل فيغير ويبدل، وهـو في هـذه الأحوال ثقة لا يتعمد الخطـأ ولا يقصد إلا الخير ولا ينزل عن رتبته لاشتهاره بعموم الضبط والإتقان والعدالة.

وبهذا نخلص إلى أن علم العلل هو علم متابعة الثقات ورواياتهم. وهذا العلم يكشف عن أمر كان يجهله أكثر الناس، والمستشرقون وأعداء السنة أكثر جهلًا به، وهو أن علماءنا لم يعبؤوا كثيرًا بحديث المجروحين والمتروكين والكذابين لأن أمر هؤلاء يسـير عليهم. يقول الحاكم النيسـابوري في كتابه (معرفـة علوم الحديث): "فإن حديث المجروحين سـاقط واه، والكشـف عن هذا الضرب سـهل يستطيعه طالب العلم في أيامه الأولى من الطلب، وإنما الدقة والجهد والفهم في تتبع الثقات.

فالحديـث قد يسـتوفي جميع العناصر الشـكلية للصحة، فيتوهـم الناظر إليه أنه صحيـح، ولكنه إذا عرضه عـلى المختص الخبير يرده ولا يقبلـه لوجود علة فيه لا تظهر على الشاشة المرئية ولا تقع تحت الظروف الشكلية المعروفة، وإنما يدركها من

كان الحديث عنده كالماء والهواء، يملأ وجدانه ويشغل جنانه ويمارسه في أحيانه كلها. وهذا النوع من الدراية، لو درى به الخلق، لعرفوا عظم علوم الحديث والجهد الذي بذله علماؤنا، لا سيما أصحاب الكتب المشهورة كالشافعي ومالك وأحمد والبخاري ومسلم، رضي الله عنهم أجمعين. ونخلص من هذا كله إلى أن علم العلل نوع من النقد الموضوعي العميق الذي يحتاج إلى معرفة واسعة ويتناول أنواعًا من الفقه النقدي، بعضها تاريخي وبعضها اجتماعي وبعضها نفسي وبعضها عقيدي وبعضها فقهي. وقد صنفت كتب عديدة في علل الحديث".[١]

وبهذا نرى أن السلف الصالح من أهل الحديث لم يكتفوا بنقد السند في تمحيصهم لحديث رسول الله ﷺ، وإنما اصطنعوا لذلك طرقًا أخرى. فما صح سنده محصوه من جهة متنه تمحيصًا دقيقًا، ومن هنا فليس فيما ذهب إليه الدكتور هيكل من أن الجامعين للحديث قد جعلوا مقياس السند والثقة بالرواية أساسهم في قبول الحديث ورفضه وهو مقياس له قيمته ولكنه وحده غير كاف.[٢] فهم في الحقيقة لم يكتفوا به، وإنما جعلوه أول مراحل النقد، والدليل على ذلك أننا نجدهم رضوان الله عليهم قد قسموا العلامات التي تدل على الوضع في الحديث إلى قسمين:

(أ) علامات في السند. (ب) علامات في المتن.

. فعلامات الوضع في السند كثيرة، من أهمها:

١- أن يكون راويه كذابًا معروفًا بالكذب ولا يرويه ثقة غيره.

٢- أن يعترف واضعه بالوضع.

٣- أن يروي الراوي عن شيخ لم يثبت لقياه له، أو ولد بعد وفاته، أو لم يدخل المكان الذي ادعى سماعه فيه.

---

(١) الفكر المنهجي عند المحدثين د/ همام سعيد ص١٠٠_١٠٥ بتصرف واختصار.

(٢) حياة محمد د/ هيكل ص ٦٧.

٤- قد يستفاد الوضع من حال الراوي وبواعثه النفسية.

. أما علامات الوضع في المتن فهي كثيرة، و أهمها:

١- ركاكة اللفظ.

٢- فساد المعنى: بأن يكون الحديث مخالفًا لبدهيات العقول بحيث لا يمكن تأويله، أو أن يكون مخالفًا للقواعد العامة في الأخلاق أو داعيًا إلى شهوة ومفسدة، أو مخالفًا للحس والمشاهدة، أو مخالفًا لقواعد الطب المتفق عليها، أو يكون مخالفًا لقطعيات التاريخ أو سنة الله في الكون والإنسان. قال ابن الجوزي: "ما أحسن قول القائل: كل حديث رأيته تخالفه العقول وتناقضه الأصول وتباينه النقول، فاعلم أنه موضوع". وقال الرازي في المحصول: "كل خبر أوهم باطلًا ولم يقبل التأويل فمكذوب، أو نقص منه ما يزيل الوهم".

٣- مخالفته لصريح القرآن بحيث لا يقبل التأويل، أو مخالفته لصريح السنة المتواترة، أو يكون مخالفًا للقواعد العامة المأخوذة من القرآن والسنة، أو أن يكون مخالفًا للإجماع.

٤- مخالفته لحقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي ﷺ.

٥- موافقه الحديث لمذهب الراوي وهو متعصب مغالٍ في تعصبه.

٦- أن يتضمن الحديث أمرًا من شأنه أن تتوافر الدواعي على نقله لأنه وقع بمشهد عظيم، ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد.

٧- اشتمال الحديث على إفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير، أو المبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقير.

وبهذا نرى أنهم لم يقتصروا على نقد السند فقط، وإنما كان اهتمامهم شاملًا للسند وللمتن معًا. ورأينا كيف أنهم جعلوا لأمارات الوضع في المتن أكثر من أمارات الوضع في السند، ولم يكتفوا بهذا بل جعلوا للذوق الفني - لأصحاب

هـذا الفن الذيـن مَنَّ الله عليهم بنور البصيرة – مجـالًا في نقد الأحاديث وردها أو قبولها، فكثيرًا ما ردوا أحاديث لمجرد سـماعهم لها لأن ملكتهم الفنية لم تستسـغها ولم تقبلهـا. ومـن هذا كثـيرًا ما يقولون: هـذا حديث عليه ظلمـة ومتنه مظلم، أو ينكـره القلـب أو لا تطمئـن إليه النفـس. وليس لهذا بعجيب، فقد قـال الربيع بن خيثـم: "إن من الحديـث حديثًا له ضوء كضوء النهار تعرفـه به، وإن من الحديث حديثًـا لـه ظلمة كظلمة الليـل تعرفه بها". ويقـول ابن الجـوزي: "الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم وينفر منه قلبه في الغالب".(١)

ولقد رد العلماء المتخصصون في علوم السـنة على شـبه المسـتشرقين وأشباههم الذين يظنون أن علماء السلف قد قصروا تمحيص السنة على نقد السند دون المتن، فقالـوا: "زعم المسـتشرقون وتلامذتهم والمتأثرون بهـم أن علماء الحديث برعوا في نقد السـند ومعرفة الرجال، وكان التصحيح والتضعيف عندهم يدور مع السند، فإذا صح السند صح الحديث ولا عبرة بالمتن، وإن جرى نقد المتن فهو قليل إذا ما قيس بنقد السند. ولقد صدق بعض المفكرين المسلمين هذه المقولة فشن حملة على متون الأحاديث التي لم يقبلها عقله، وكأنه يقوم بواجب لم يستطع علماؤنا السابقون أن يـؤدوه. وقد اسـتغل آخرون هـذه المقولة للنيل من السـنة النبويـة ومناهجها. والـرد على ذلـك: أن هذا الزعم باطـل وتدحضه الأدلة الكثيرة التـي نذكر منها:

١ – أن نقـد المتـن أمر مقرر في قواعـد الحديث، وقد بدأ قبـل الجرح والتعديل وظهور الإسـناد. ونجد هذا في المناقشـات الطويلة التي كانت تقوم بين الصحابة ﷺ، فعائشـة ﷺ اعترضـت على عـدد من الروايات لا لضعـف الرواة، ولكن لأن هـذه الروايات لم تنسـجم مع المبـادئ العامة والبديهيات الشرعيـة والعقلية. وقـد صنـف الزركـشي كتابًا في اسـتدراكات عائشـة عـلى الصحابـة، وجميع هذه الاستدراكات نقد للمتن. وكذلك فعل عمر ومعاوية وغيرهما رضي الله عن الجميع.

(١) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ص ٩٧, ١٠٢ باختصار وتصرف.

٢- أن نشأة المذاهب الفقهية والاختلافات بين هذه المذاهب مبني في معظمه على نقد المتن، فالشافعي يختلف مع غيره في كثير من الأحيان، لا في ثبوت النص وإنما في فهمه.

٣- كذلك الحال في نشأة المذاهب السياسية والعقدية والكلامية، فمعظم الاختلاف مبني على فهم النصوص، ومتون الحديث تشكل قسمًا كبيرًا من هذه النصوص.

٤- لقد نشأ علم كامل هو علم اختلاف الحديث أو مختلف الحديث أو مشكل الحديث، وموضوع هذا العلم هو البحث في المتون.

٥- لقد أولى علم العلل متن الحديث عناية خاصة، حتى كان موضوع هذا العلم الحديث الذي ظاهر إسناده الصحة.

٦- إن الأحاديث الموضوعة يستدل على وضعها من المتن قبل الاستدلال من السند، لأن أكثر الكذابين كانوا يسرقون الأسانيد بمعنى إنهم كانوا يركبون الإسناد الجيد على المتن الموضوع، أو يلقنون الثقة في مراحل اختلاطه فيروي الموضوعات بأسانيده الصحيحة. وقد عمد بعض الكذابين إلى كتب شيوخهم الثقات فأدخلوا عليها أحاديث مكذوبة وكتبوها بين السطور إلى غير ذلك من الوسائل الخبيثة، ولكن العلماء كشفوا هذا كله وسجلوه في كتب الموضوعات.

٧- إن السند الصحيح هو إحدى الدلالات على الصحة، وليس هو الدليل الوحيد عليها.

٨- إن النقد عند علماء الحديث يمكن أن نطلق عليه نقد المروي بغض النظر عن كون الموضوع الواقع عليه النقد سندًا أو متنًا، والسند والمتن جميعًا عند الناقد جملة واحدة قد يدخل الخطأ والوهم على أي جزء منها، فقد يخطئ في ذكر الاسم، وقد يخطئ في عبارة التحمل، وقد يخطئ في الرفع أو الوقف أو الإرسال، وقد يخطئ في عبارة المتن.

٩- إن نظرة في الكتب الستة المتداولة تعطينا الدليل الأكيد على العناية بالمتون ونقدها، فالبخاري يختار الرواية من بين مئات الروايات، وقد ثبت بعد جمع الروايات أن اختياراته مدروسة وقائمة على البحث والتتبع. وقد ظهر الاتجاه نحو نقد المتن على يد الإمام الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم".[١]

موقف علماء السنة من النقد الداخلي للحديث (نقد المتن):

إن العلماء رحمهم الله لم يستعملوا مقاييس نقد المتن إلا في النطاق الذي لا بد منه، فلم يردوا حديثًا إلا بعد تعذر التأويل بحيث يتحقق فيه على وجه التأكيد فقد شرط من شروط الصحة ووجود علامة من علامات الوضع. وقد جعلوا عمدتهم الأولى نقد السند وبه أزاحوا من طريق السنة آلافًا بل عشرات الألوف من الأحاديث المكذوبة، ثم نقدوا المتن في الحدود التي ذكرناها على نطاق ضيق إذ كانوا متثبتين لا يلقون الكلام على عواهنه، ولا يجازفون في دين الله بالعاطفة والهوى، وبذلك سلموا مما وقع فيه مؤلف (فجر الإسلام) الأستاذ أحمد أمين، من أخطاء شنيعة حين أراد أن يستعمل تلك المقاييس بدون تثبت وحيطة وحسن توجيه فحكم بوضع أحاديث لا غبار عليها.

وعذر العلماء واضح فيما فعلوه. ذلك أنهم يبحثون في أحاديث تُنسب إلى النبي ﷺ، وللنبي ظروف خاصة به تجعل مقاييس النقد في حديثه أدق وأصعب من مقاييس النقد في أحاديث الناس لأن رسول الله يتلقى الوحي من الله، أوتي جوامع الكلم وأعطي سلطة التشريع وأحاط من أسرار الغيب بما لم يُحط به إنسان عادي، فلا مانع يمنع عقلًا من أن يقول حديثًا يعلو عن أفهام الناس في عصره، فيكون أشبه بالتعريف الفلسفي لعصور تبلغ فيه الفلسفة مداها، ولا مانع عقلًا من أن يضع للناس أحكامًا للمعاملات بألفاظ موجزة هي أشبه ما تكون بألفاظ القوانين. فلا يصح أن يُستبعد منه مثل تلك الأقوال القانونية بحجة أنها أشبه ما

(١) الفكر المنهجي عند المحدثين د/ همام سعيد ص ١٠٦-١٠٩.

تكون بمتون الفقه. ومثل ذلك ما أخبر به من خواص بعض النباتات أو الثمار فقد يكـون ذلك من إعجـاز النبوة لتعطي الناس في كل عصر دليـلًا على صدقها، فإذا لم يكتشـف الناس في عصر سر ما أخبر به الرسـول لا يكون ذلك دليلًا على كذب الحديث ووضعه. ومن هنا ضيق علماؤنا دائرة نقد المتن بمقدار ما وسعوا في دائرة نقـد السـند لأن الذيـن ينقدون حالهم في السـند رجال يجري عليهـم من القوانين مـا يجـري على الناس جميعًا. أما المتن فإنه كلام يُنسـب إلى مـن هو فوق البشرية في علومه ومعارفه واستعداده ﷺ".[1]

وإذا كان هـذا موقف العلماء الـذي يوجبه العلم ويقتضيـه الإيمان، فإن أعداء الله ورسـوله من المسـتشرقين لم يقفوا من كلام رسـول الله هذا الموقف، بل نقدوا أحاديثـه على وفق مـا يعرفون من أصول النقد العام لأخبار الناس العاديين، ذلك لأنهـم ينظـرون إلى الرسـول كرجـل عـادي لم يتصـل بالوحي ولم يطلعـه الله على مغيبـات ولم يميزه عن بني الإنسـان بأنـواع المعارف والكرامات. فـإذا رُوي عنه حديـث ينبـئ عن معجزة علمية لم تكن معروفة في عصره قالوا: هذا موضوع لأنه لا يتفـق مـع علوم الناس ومعارفهم في عـصره. وإذا رُوي لهم حديث عليه صبغة القانون قالوا: إن هذا موضوع لأنه يمثل الفقه الإسـلامي بعد نضوجه ولا يمثله في سذاجته وبساطته في عصر النبي والصحابة. وإذا رويت لهم بشارة من الرسول أو إخبار عن أمر يقع للمسلمين في المستقبل قالوا: إن ظروف النبي لم تكن تسمح له أن يقول هذا القول.

وهكـذا وقفـوا مـن رسـولنا عليه الصـلاة والسـلام موقـف المنكر لرسـالته، المتشـكك في صدق ما بلغ به عن الله، والمماري في سـمو روحه التي اتصلت بالملأ الأعلى ففاض منها النور والحكمة والمعرفة. ولم يكتفوا بذلك بل حملوا على علمائنا لأنهـم لم يقفوا منـه هذا الموقف. وعلماؤنا معذورون إن لم يتجهوا مع المسـتشرقين

(١) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ص٢٧٦_٢٧٧.

في هذا الاتجاه الخاطئ لأنهم يؤمنون بمحمد بن عبد الله رسولًا كريمًا أرسله الله للناس أجمعين بشرع محكم وسعادة شاملة للناس في دنياهم وآخرتهم.[١]

المقياس الصحيح للحديث في نظر الدكتور هيكل:

وللخروج من أزمة الأحاديث الموضوعة والمكذوبة على رسول الله ﷺ، ولتمحيص السنة وتنقيتها من الزيف، ينهج الدكتور هيكل نهجًا جانبه فيه الصواب بعد أن رفض نهج أهل الاختصاص والخبرة من علماء السنة المسلمين، وسار وراء طنطنة المستشرقين الذين لا يهمهم إلا هدم السنة. فإذا بهم ينصبون من أنفسهم هداة مصلحين يريدون تنقية حديث رسول هم به كافرون ليصلحوا دينًا هم ألد أعدائه وهم له كارهون، وهذا أمر لا يصدقه عاقل مهما بدا هؤلاء في ثوب العلماء المحايدين أو المنصفين. يقول الدكتور هيكل معبرًا عن هذا المنهج: "وعندنا أن خير مقياس يقاس به الحديث وتقاس به سائر الأنباء التي ذكرت عن النبي ما روي عنه عليه السلام أنه قال: إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فمني وما خالفه فليس عني".[٢] وهذا حديث موضوع بشهادة العلماء الأثبات.[٣]

- كتاب الأم للإمام الشافعي: منقطع وما يرويه أحد يثبت حديثه في شيء صغر ولا كبر.

- معالم السنن شرح سنن أبي داود للخطابي: باطل لا أصل له.

- تعليقات الدارقطني على المجروحين لابن حبان: ليس لهذا الحديث أصل والزنادقة وضعت هذا الحديث.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ٢٧٧, ٢٧٨.

(٢) حياة محمد الدكتور هيكل ص ٦٧.

(٣) الفوائد المجموعة للأحاديث الموضوعة للإمام الشوكاني: موضوع.

يقـول نقاد الحديـث وصيارفتـه الذين هم أعلـم بالحديث وصناعتـه: إن هذا الحديـث افتراء وكذب على رسـول الله ﷺ، بل إنه يحمل الدليـل على كذبه وزيفه بين طياته، فقد عرضنا هذا الحديث على كتاب الله تعالى فوجدناه مكذوبًا، لأن الله تعـالى لم يطلـب منا أن نعرض كلام رسـول الله ﷺ على القـرآن الكريم، بل طلب منا أن نطيع الرسول ﷺ في كل ما أمرنا به ونهانا عنه، من غير عرض على القرآن، فقال سـبحانه: "وما آتاكم الرسـول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا". إذن فالقرآن الكريم يرد هذا الحديث ويدحضه.(١)

ثـم إن هـذا المقياس ليس مسـتوعبًا ولا مضطردًا، فإنه يحـصر الأمر في الموافقة والمخالفـة فقـط، فـإذا ورد في السـنة أمـر ليـس مخالفًـا ولا موافقًـا لمـا في القـرآن الكريـم فكيـف يـوزن هذا الحديـث؟ إنه بالطبع خـارج عن نطاق هـذا المقياس. ثـم إن الدكتـور هيـكل –عفا الله عنه– يتهم سـلف هذه الأمـة بالتقصير والعجز عن اسـتخدام هـذا المقياس، وبالتالي فهم مقصرون في حق السـنة إذ لم ينقوها من الأكاذيب ولم يمحصوا سيرة النبي من الخرافات. يقول الدكتور هيكل مستعرضًا مسيرة الوضع والدس على رسول الله وموقف العلماء من سلف الأمة:

"وكذلـك كانـت الأحاديـث تُلفق لأغـراض سياسـية ولأهـواء عاجلة. وقد كثـرت هـذه الأحاديـث الموضوعة كثرة راعت المسـلمين لمنافاة الكثـير منها لما في كتـاب الله. ولم تنجح المحاولات التي بُذلـت لوقفها في زمن الأمويين، فلما كانت الدولـة العباسـية وجاء المأمون بعد قرابـة قرنين من وفاة النبـي، كان قد أُذيع من هـذه الأحاديث الموضوعـة عشرات الألـوف ومئاتها، وكان بينها مـن التضارب وفيها من التهافت ما لا يخطر على بال. إذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولى كتّاب السـيرة كتابتها. فقد عاش الواقدي وابن هشام والمدائني وكتبوا كتبهم أيام المأمـون، ومـا كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعـوا الخليفة في آرائـه مخافة ما يحل بهم،

(١) تيسير اللطيف الخبير في علوم حديث البشير النذير د/ مروان شاهين ج ١ ص ٤٠،٤١.

لذلك لم يطبقوا بما يجب من الدقة هذا المقياس الذي روي عن النبي عليه السلام من وجوب عرض ما يُروى عنه على القرآن، فما وافق القرآن فمن الرسول وما خالفه فليس عنه. ولو أن هذا المقياس طُبق بما يجب من دقة لتغير بعض ما كتب هؤلاء الأعلام، فالنقد العلمي على الطريقة الحديثة لا يختلف عن هذا المقياس في شيء. لكن أحوال هذا العصر اقتضت هؤلاء الأعلام أن يطبقوا هذا المقياس على طائفة مما كتبوا ثم لا يطبقونه على طائفة أخرى. وقد ورث المتأخرون عن السلف هذه الطريقة في كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم، ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبي العربي في جملتها وفي تفصيلها دون استثناء لأي نبأ روي فيها لا يتفق مع ما ورد في القرآن الكريم، فما لم يكن مما تجري به سنة الكون ولم يرد ذكره في كتاب الله لم يثبتوه، وما كان مما تجري به سنة الكون محصوه ثم أثبتوا منه ما يثبت لديهم بالدليل اليقيني، وتركوا ما لم يقم الدليل عليه. وقد أخذ بهذا الرأي جماعة من كبار الأئمة من سلف المسلمين، و تابعهم عليه أئمة يومنا هذا".[1]

وبهذا يتحامل الدكتور هيكل على سلف هذه الأمة من العلماء الأماجد الذين حفظوا سنة رسول الله ﷺ حين يصفهم بالجبن والخضوع للخليفة خضوعًا مذلًا جعلهم في نظره يتخلون عن المنهج العلمي في التدوين. فهو يقول كما في العبارة السابقة: "وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة في آرائه مخافة ما يحل بهم". أي آراء كانت للخليفة في السيرة والحديث؟

فهو بهذا يجرحهم ويشكك في عدالتهم وأمانتهم العلمية رغم وصفه إياهم بالأعلام. يقول: "لكن أحوال العصر اقتضت هؤلاء الأعلام أن يطبقوا هذا المقياس على طائفة مما كتبوا ثم لا يطبقونه على طائفة أخرى". فما هي الطائفة التي طبق هؤلاء الأعلام عليها هذا المقياس عند كتابتها فكانت صحيحة؟ وما هي الطائفة التي لم يطبقوه عليها فكانت خطأ؟

(١) حياة محمد هيكل ص ٦٨، ٦٩.

وأي أعـلام هـؤلاء الذيـن يخضعـون لغير الحـق في كتابـة حديث رسـول الله وسيرته ﷺ؟ وكيف يكون عالمًا ذلك الذي يخضع لهوى الخليفة أو يخضع لأحوال العـصر؟ إن هـذا لا يليق من الدكتور هيكل في حق هؤلاء الأعلام بحق من علماء الحديث وكتّاب السـيرة رضي الله عنهم. ثم يسـتكمل الدكتور هيـكل ميزانه الدقيق لقياس مـا روي عن رسـول الله ﷺ، فبعد العرض على القرآن ننظر فـما وافق القرآن فهو مـن رسـول الله حقًا وما خالفه فهو كـذب على رسـول الله. وإن لم يكن له ذكر في القرآن ننظر، فإن لم يوافق العادة بأن كان مما لم تجر به سنة الكون يُرد ولا يُثبت لأنه ليس من الحق في شيء، وإن كان مما يوافق العادة بأن كان مما تجري به سـنة الكون محصناه، فما ثبت لدينا بالدليل اليقيني أثبتناه على أنه حق وطرحنا ما لم يقم الدليل عليه. وبهذا تكتمل الدائرة السوداء حول السنة المطهرة لتنسفها من أساسها فهي:

أولًا: لا استقلال لها حيث يجب عرضها على القرآن الكريم.

ثانيًـا: يجب أن تخضع لحكم العادة وسـلطان الواقع، فـإن خالفته تُرد لأن هذا قرينة الوضع والكذب.

ثالثًا: يجب أن تخضع لسـلطان العقل ليحكم لها أو عليها بعد موافقتها للعادة، فما قبله العقل فهو حق ومالم يقبله فهو رد لأن هذا أيضًا قرينة الكذب والافتراء.

وفي الحقيقة هذا خلل معيب في منهج الدكتور هيكل في دراسته لحياه النبي ﷺ وفي تعامله مع سنته الشريفة وسيرته العطرة.

ولست أدري أين الأعلام من علماء السلف الذين طبقوا هذا المنهج في التعامل مع السـنة؟ ومن هم المفكـرون الذين تابعوهم حتى عصرنـا الحاضر؟ هل يقصد المسـتشرقين الذين جعـل كتاباتهم مرجعًـا مهمًا في حين يغفل كتـب الحديث التي دخلهـا الوضـع والكـذب على حد زعمه؟ أم يقصد الأسـتاذ أحمـد أمين صاحب كتـاب (فجر الإسـلام) الذي أورده في سـجل مراجعه لبحثـه في حياة محمد ﷺ؟ ومعلوم أن المسـتشرقين يحرصون على هدم السـنة من أساسـها ليهدموا الإسـلام

نفسه، وهذا الشيء طبيعي تجاه دين هم به كافرون وعليه حاقدون. وأما موقف الأستاذ أحمد أمين من السنة في كتابه "فجر الإسلام"، فيلخصه الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله فيقول: "وقد تحدث الأستاذ في كتابه (فجر الإسلام) عن الحديث، فمزج السم بالدسم وخلط الحق بالباطل، وها أنا أذكر هنا خلاصة ما رأيت تحريفًا للحقائق الإسلامية وانحرافًا عن جادة الصواب وتحاملًا على فريق من كبار الصحابة والتابعين".

خلاصة فصل (الحديث) في فجر الإسلام:

أفرد الأستاذ أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) فصلاً خاصًّا بالحديث استغرق نحو عشرين صحيفة، حاول فيه أن يؤرخ للسنة وتدوينها، فبين معنى السنة وقيمتها في الشرع، ثم ذكر أن الحديث لم يُدوَّن في عهد الرسول ﷺ، بل كان بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم فقط، وأن الصحابة كانوا فريقين بعد وفاة الرسول، فمنهم من كان يكره التحديث عنه بكثرة، وكان يطلب من الراوي دليلًا على صحة ما يروي، ومنهم من كان يكثر من الرواية. ونشأ عن عدم تدوين الحديث في كتاب خاص، واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة، كثرة الوضع والكذب على الرسول. واستظهر أن الكذب عليه بدأ في عهده وقبل وفاته، وأشار إلى أن دخول الشعوب في الإسلام كان له أثر كبير في الوضع، الذي بلغ من الكثرة أن اختار الإمام البخاري صحيحه من ستمائة ألف حديث كانت شائعة في عصره، ثم ذكر أهم الأمور التي حملت على الوضع، فذكر منها تغالي الناس في إعراضهم عن العلم إلا ما اتصل بالكتاب والسنة اتصالًا وثيقًا. وانتهى من ذلك إلى بيان جهود العلماء في مكافحة الوضع وذكر ما يؤخذ عليهم من أنهم لم يعنوا بنقد المتن عشر ما عنوا بنقد السند، ثم تكلم عن أكثر الصحابة حديثًا، فذكر أبا هريرة وقال عنه إنه لم يكن يكتب بل كان يحدث من ذاكرته، وأنه كان يحدث بما لم يسمعه هو مباشرة من النبي ﷺ، وأن بعض الصحابة شكّوا في حديثه وبالغوا في نقده. ثم ختم الفصل بالأدوار التاريخية التي مر بها تدوين السنة حتى عصر البخاري ومسلم وغيرهما

من أصحاب الكتب الستة.[١]

والأستاذ أحمد أمين المسلم خريج القضاء الشرعي يؤيد وجهة نظر المستشرقين في نظرتهم إلى السنة، ويرى أن العلماء لم يعنوا بنقد المتن عشر ما عنوا بنقد السند، وأن ذلك مما يؤخذ عليهم، ثم يتبنى وجهة نظرهم في الاحتكام إلى العقل في نقد السنة، وقد نقل عنه الدكتور هيكل وجهة النظر هذه عند وضعه الميزان الخاص به ليزن حديث رسول الله ﷺ وليمحصه في ضوئه.

يقول الدكتور الشيخ مصطفى السباعي في نقده لوجهة النظر هذه: "أما أتباع المستشرقين من المسلمين كمؤلف كتاب (فجر الإسلام) فمن المؤسف أنهم انساقوا في ذلك الاتجاه، ولم يفطنوا إلى خطأ تلك الطريقة وخطورتها والدس في الدعوة إليها، فأخذوا ينعون على علمائنا تقصيرهم في نقد المتن، غير مستمسكين من الحجج إلا بما أتى به المستشرقون.

وها أنا لم أعثر فيما كتبه أحمد أمين في هذا الموضوع على رأي طريف لم يأخذه عن المستشرقين، ثم أخذ هو وأمثاله يضرب على وتيرة تحكيم العقل في نقد الأحاديث ولا أدري أي عقل يريدون أن يحكموه ويعطوه من السلطة أكثر مما أعطاه علماؤنا في قواعدهم الدقيقة؟ ليس عندنا عقل واحد نقيس به الأمور بل العقول متفاوتة والمقاييس مختلفة والمواهب متباينة، فما لا يعقله فلان ولا يفهمه قد يراه آخر معقولًا ومفهومًا".

"وكلٌّ يدعي وصلًا بليلى ولـيلى لا تقر لهم بذاكا"

كما أن ما يَخْفى على الناس في بعض العصور حِكْمته وسرُّ تشريعه قد يتجلى لهم في آخر معقول الحكمة واضح المعنى حين تتقدم العلوم وتنكشف أسرار الحياة. ففتح الباب في نقد المتن بناءً على حكم العقل الذي لا نعرف له ضابطًا، والسير في

(١) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ٢٣٦, ٢٣٧.

ذلك بخطى واسعة على حسب رأي الناقد وهواه، أو اشتباهه الناشئ في الغالب عن قلة الاطلاع أو قِصَر النظر أو غفلة عن حقائق أخرى.

إن فتح الباب على مصراعيه لمثل هؤلاء الناقدين يؤدي إلى فوضى لا يعلم إلا الله منتهاها، وإلى أن تكون السنة الصحيحة غير مستقرة البنيان ولا ثابتة الدعائم، ففلان ينفي هذا الحديث وفلان يثبته وفلان يتوقف فيه، كل ذلك لأن عقولهم كانت مختلفة في الحكم والرأي والثقافة والعمق. فكيف يجوز هذا؟ ثم أليس لنا أكبر عبرة فيما وقع فيه مؤلف (فجر الإسلام) من أخطاء بشعة حين أراد أن يسير في هذا الاتجاه فكذّب ما لا مجال لتكذيبه، وحكم بوضع ما قامت الأدلة والشواهد على صحته؟[1]

والدكتور هيكل يتبنى وجهة النظر هذه ويدعو إليها، فهو يقول:

"وما كان مما تجري به سنة الكون محصوه ثم أثبتوا منه ما ثبت لديهم بالدليل اليقيني وتركوا ما لم يقم الدليل عليه". وليس يقصد طبعًا إلا الدليل العقلي القائم على الاقتناع الذاتي لأن هذا القول وارد فيما لم يُذكر في القرآن الكريم الذي جعله المقياس الأول لصحة الحديث، فإن وافقه فصحيح وإن خالفه فمكذوب وموضوع. وفي هذا _ أي تحكيم العقل في النص _ من الخطورة ما بيَّنه المرحوم الدكتور الشيخ / مصطفى السباعي فيما سبق ذكره.

وبهذا نرى أن الدكتور هيكل ﷺ قد انساق على غير بصيرة إلى هذه الهوة السحيقة، فكان خطأ منهجيًا ترتبت عليه أخطاء حين جنح إلى إنكار ما نُسب إلى النبي ﷺ من المعجزات الحسية مثلًا، بناء على هذا المقياس الذي ارتآه مقياسًا دقيقًا لتمحيص الروايات، حيث إنها خارجة عن العادة ولا يسيغها العقل رغم ثبوت هذه المعجزات للنبي ﷺ في أصح كتب الحديث، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ص ٢٧٨ , ٢٧٩

الباب الثاني

منهج الدكتور / محمد حسين هيكل في الكتابة

عن

الخلفاء الراشدين الثلاثة عليهم السلام

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: منهجه في الكتابة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الفصل الثاني: منهجه في الكتابة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الفصل الثالث: منهجه في الكتابة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تمهيد

أهمية دراسة تاريخ الدولة الإسلامية:

يرى الدكتور هيكل أن التأريخ لعهد الصديق ﷺ هو مبدأ التاريخ للدولة الإسلامية التي امتدت شرقًا وغربًا، وشملت أجناسًا كثيرة كالعرب والعجم والقبط والبربر وغيرها من أجناس الأرض التي أذن الله لشمس الإسلام أن تبزغ في سمائها، فكانت مصدر هداية للحائرين، ووجهت الحضارة الإنسانية وجهة سديدة ما يزال العالم متأثرًا بها إلى اليوم.

ومن هنا كانت أهمية التأريخ لهذا الخليفة ﷺ عند التأريخ لدولة الإسلام التي كانت أثرًا لتعاليم النبي ﷺ، وثمرة من ثمار سنته المباركة. وإذا كانت دراسة حياة النبي ﷺ تهدي الإنسانية إلى الحضارة التي تنشدها، فإن لدراسة تاريخ الدولة الإسلامية والأطوار التي مرت بها من الآثار الجليلة التي تنفع المسلمين، ومنها:

١- تزيد من تقديرنا للأسوة بالنبي ﷺ، حيث نرى أثر هذا التأسي في الواقع المعاش حضارةً ورقيًّا وعزةً وانتصارًا، فنعلم بحق أن هذه التعاليم قابلة للتطبيق في دنيا الناس، فليست مجرد سبحات فكر أو تهويمات خيال. وفي هذا ما يأخذ بيد المسلمين إلى التطبيق العملي لتعاليم الرسول ﷺ في واقع حياتهم.

٢- تتيح لنا دراسة تاريخ الدولة الإسلامية المعرفة الصحيحة لماضينا العريق، وهذه المعرفة هي التي تطوع لنا تصور آفاق المستقبل وتوجه جهودنا إلى الغاية الجديرة بالإنسانية والتي حققها آباؤنا في الماضي، فإذا سرنا على دربهم كان التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

٣- دراسة تاريخ أمتنا الإسلامية تطلعنا على البهاء والجلال والكمال الذي كسا وجه الحياة في المجتمع الإسلامي إبان العصور الزاهرة، وذلك أثناء عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين من بعده.

٤- د راسة تاريخ أمتنا الإسلامية في عصورها الزاهرة تدفعنا إلى التفكير في أسباب الاختلاف بين الماضي والحاضر للوقوف على أسباب تأخرنا في الحاضر عن الماضي، فنعمل جاهدين على تدارك أسباب هذا التأخر ليعود لنا عزنا ومجدنا كما كنا حين عشنا في ظلال القرآن وفي فيء سنة خير الأنام ﷺ.

وحين أراد الدكتور هيكل التأريخ للدولة الإسلامية، أرخ لها من خلال دراسته وتأريخه لحياة الذين أسسوها وساهموا في بنائها، وابتدأ بسيرة الصديق رضي الله عنه ، لأنه هو الذي بدأ حركة الفتوح الإسلامية فمهد بذلك لبناء الدولة الإسلامية، وهو قبل ذلك كان صفي رسول الله ﷺ وأكثر أصحابه اتصالًا به، وكان لذلك أكثرهم تتبعًا لتعاليمه وامتثالًا لها، وهو بعد رجل رقيق الخلق رضي النفس وينتسب إليه الكثير من المسلمين المنتشرين في أنحاء الأرض، وهو الذي قاتل المرتدين حتى أرجعهم إلى دين الله عقب وفاة النبي ﷺ.[1]

ولهذا كان الصديق رضي الله عنه حريًّا بالدراسة، وكان عهده أولى أن يُفتتح به تاريخ الدولة الإسلامية. ويقوم المنهج الذي اتبعه الدكتور هيكل في دراسته لتاريخ الدولة الإسلامية (تاريخ الخلفاء) على الأسس الآتية:

١- اتباع الطريقة العلمية في البحث.

٢- تحليل الحوادث التاريخية تحليلًا علميًّا سليمًا يردها إلى أسبابها ودوافعها.

٣- استخدام العقل والمنطق في هذا التحليل الذي يعترف بالضعف البشري ويأخذه في الحسبان.

---

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١١.

٤- ومؤدَّى الاعتراف بالضعف البشري الذي لا يسلم منه إلا من اصطفاهم الله بالنبوة والرسالة، أنه من خلال دراسته لحياة الخلفاء يخضعهم لقانون هذا الضعف في تفسير بعض القرارات والتصرفات أثناء تصريفهم لشؤون الحكم، فهم بعد بشر يقعد بهم النزوع المادي دون بلوغ غاية الكمال الروحي.

يقول الدكتور هيكل مبينًا هذه الأسس: "وتاريخ الدولة الإسلامية جدير بأن يُدوَّن على طريقة من البحث العلمي الوثيق الذي لا يعرف التعصب ولا يرضاه، والذي يرمي إلى تحليل الحوادث وردها إلى أسبابها تحليلًا يقره العقل ويتفق لذلك وما ركب في الطبيعة الإنسانية من نزوع روحي إلى الكمال ومن تشبث مع ذلك بأهداب هذه الحياة الدنيا تدعونا إليه أهواؤنا وشهواتنا فتحول بيننا وبين إدراك الغاية التي نبغي من هذا الكمال".[١]

وقد اتبع الدكتور / هيكل هذا المنهج في دراسة حياة وعهد الصديق ﷺ.

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٢٠.

"الفصل الأول"

(منهجه في الكتابة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول المبحث الثاني

منهجه في الكتابة منهجه في الكتابة

عن عن

الصديق مع رسول الله ﷺ الصديق بعد رسول الله ﷺ

"المبحث الأول"

منهج الدكتور هيكل
في الكتابة عن الصديق مع النبي ﷺ

يستعرض الكاتب خلال هذه الفترة من حياة الصديق رضي الله عنه نشأته الأولى، فلا يجد فيما وصل إليه من الروايات ما يعين على تعرف شخصيته في الصغر؛ فما يُروى عن طفولته وصباه لا غناء فيه، وما يُروى عن أمه وأبيه لا يعدو ذكر اسميهما. وإنما يعنى المؤرخون من أمره بذكر قبيلته ومكانتها من قريش، شأنهم في ذلك كشأنهم في غيره مما يتصل بتاريخ العرب، إذ يرون في نسبتهم إلى قبيلة من القبائل ما يفسر بعض طباعهم وأخلاقهم. أما اسمه، فهو عبد الله بن أبي قحافة، وأبو قحافة كنية أبيه، وأما اسمه، فهو عثمان بن عامر، واسم أمه سلمى بنت صخر بن عامر، وكنيتها أم الخير. روي أنه كان يدعى قبل الإسلام عبد الكعبة، فلما أسلم دعاه رسول الله ﷺ عبد الله، وكنيته أبو بكر، ولقبه الصديق رضي الله عنه. وأبو بكر رضي الله عنهم من قبيلة تيم بن كعب، فهو يلتقي بنسبه مع النبي ﷺ ويرتفع إلى عدنان. وكان لكل قبيلة تقيم بمكة اختصاص، فكانت الديات والمغارم لتيم بن مرة. وقد آل أمر الديات في الجاهلية إلى أبي بكر حين اشتد ساعده، فتولى الزعامة في قبيلته، فإذا احتمل شيئًا منها صدقوه، وأمضوا حمالة من نهض معه.[1]

ولقد حبا الله أبا بكر عديدًا من الصفات الكريمة حببت فيه قومه وأعلت مكانته بينهم، حتى وصل إلى مكانة الزعامة في قبيلته وهو في شبابه. وكان رضي الله عنه

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٢٨.

يحترف التجارة، فكان يبيع الثياب، فوفق في تجارته كل التوفيق. وقد اجتنب في مرحلة الشباب كل صفات الجاهلية، إذ تزوج في صدر شبابه من قتيلة بنت عبد العزى، فابتعد بذلك عن الفحش والخنا، كما امتاز بالرزانة، ورقة الطبع، وحسن الرأي، ورجاحة العقل. وقد كان لذلك لا يشارك قومه في كثير من عقائدهم وعاداتهم الجاهلية، فلم يشرب خمرًا، ولم يغلبه الهوى، ولا تملكه الشهوة، كما كان أعلم قريش بأنسابها. وكان يعيش في حي التجار النابهين بمكة، ولذلك ارتبط بمحمد بن عبد الله زوج خديجة بنت خويلد بروابط الألفة والمودة.

علاقة أبي بكر بمحمد بن عبد الله قبل البعثة وأثرها في إسلامه:

توطدت العلاقة بين الرجلين، فكانا صديقين، وذلك بسبب التقارب في السن وفي الطباع والخلق، والاشتراك في العمل، ولعلاقة الجوار، إذ كانا يعيشان في حي واحد، مما كان له أعظم الأثر في الاستجابة للرسول ﷺ حين دعاه إلى الإسلام. فكان ﷺ أول من أسلم من الرجال، إذ ما كاد رسول الله يدعوه حتى لبى داعي الله من غير تردد، وآمن بالله ورسوله وشهد شهادة الحق. وكأنما فجرت هذه الدعوة ينابيع القوة الروحية التي أودعها الله قلب أبي بكر ﷺ ، فظهرت عظمة الصديق التي تجلت في مظاهر أهمها:

١- إيمان عميق بالله ورسوله وعقيدة راسخة لا تتزحزح.

٢- حب عميق لله ولرسوله ﷺ دونه كل حب وفداء دونه كل فداء، وتضحية متواصلة في سبيل الله ورسوله.

٣- تمسكه بالاقتداء برسول الله ﷺ والتأسي به أسوة جعله لا يحيد عن سنته قيد شعرة.

٤- ملازمة دائمة للرسول ﷺ لم تنقطع أبدًا حتى لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى.

ويقف الدكتور هيكل أمام مظاهر القوة الروحية ليجلي لنا بعض جوانب العظمة في شخصية أبي بكر ﷺ ، وأهم المواقف التي وقف أمامها الدكتور هيكل بالتحليل ما يأتي:

١- مبادرته ودخوله في الإسلام من غير تردد:

يسجل الدكتور هيكل مبادرة الصديق ﷺ في قبول دعوة الإسلام بالإعجاب بهذا الموقف الجريء، ويلتمس له الأسباب في أنه من أولي الحكمة والمنطق الذين يرون في عبادة الأصنام حمقًا وبُعدًا عن الصواب والحق، وفي أنه كان صديقًا لمحمد ﷺ ويعلم تمام العلم مدى صدقه الذي صار مضرب المثل في قريش كلها، فاستمع للدعوة بقلب متفتح وعقل متنور، فوجد أن ما يدعوه إليه محمد ﷺ لا يتناقض مع موجب العقل، فإذا كان من يحدثه بذلك الصادق الأمين، فما أجدره أن يلبي مسرعًا ومن غير تردد. ولعظمة هذا الموقف، يذكره له الرسول ﷺ فيقول: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة وتردد إلا ما كان من أبي بكر". ومع هذا فإن تقديرنا لأبي بكر لا يتأثر، إذ إنه أقدم في جرأة جاوزت المألوف والمعهود عند الناس، خاصة إذا كان ممن يحترف التجارة مهنة ويرى أن العائد المادي أكبر أهدافه وأعظم أمانيه".[١]

٢- جرأته في الدعوة إلى الإسلام:

لم تقف جرأة الصديق ﷺ عند قبول الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ، رغم أن هذا القبول في حد ذاته يمثل عقبة كؤودًا في طريق تجارته التي يزاولها في مجتمع يناصب رسول الله ﷺ ومن اتبعه العداء. وإنما تسامى إيمان أبي بكر إلى أعلى من هذا الأفق، فأخذ يدعو الناس إلى الدين الذي آمن به. "وقيام أبي بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب. فلعل تاجرًا مثله يقتنع بصدق محمد ﷺ، قد كان يقنع بتصديقه سرًّا ولا يظهر الناس على شيء من أمره حتى تظل تجارته متصلة.

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٠.

ولعل محمدًا ﷺ كان يقنع منه بذلك ويحمده له. فأما أن يظهر أبو بكر إسلامه وأن يدعو الناس إلى الإيمان بالله ورسوله، وأن يصل من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق الرسول ﷺ ومتابعته على ذلك، فذلك ما لا عهد للناس به إلا فيمن سمت أنفسهم إلى حيث يقدرون الحق لذاته ويرتفعون به فوق منافع الحياة، ويرون في تأييده والدعوة إليه ما يصغر من شأن الدنيا وعرضها وإن عظم. لقد كان ذلك شأن أبي بكر في صحبته محمدًا ﷺ منذ أسلم وإلى أن اختار الله محمدًا ﷺ، وإلى أن توفي أبو بكر من بعده".[١] وقد أثمرت هذه الدعوة إلى الله من جانب أبي بكر أعظم الثمرات، فقد هدى الله بسببها كثيرًا من أكابر الصحابة إلى الإسلام، منهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وغيرهم كثير رضوان الله عليهم أجمعين.

٣- إنفاقه الكثير من ماله لحماية الضعفاء من المسلمين:

وهذه نقطة وقف أمامها الدكتور هيكل بالتحليل، فأوضح أن أبا بكر ﷺ لم يقف في تأييده لدعوة الإسلام عند مجرد دعوة الناس إليه وإقناع أصدقائه وأحبائه بالدخول فيه، ولم يكفه أن يبذل للمستضعفين ممن آمن من رضا نفسه ووداعة خلقه ما يعزيهم عما يصيبهم من أذى وتعذيب. بل كان ينفق من ماله ويخص بالنفقة أولئك الضعفاء والأرقاء ممن هداهم الله إلى الإسلام، فأذاقهم سادتهم أشد أنواع العذاب وابتلوهم بألوان البأساء. ولقد ضحى أبو بكر في سبيل الله وتحرير المستضعفين من المسلمين بربحه الوافر وثرائه العريض عن طيب خاطر، ولم يضن بشيء حتى إنه لم يبق له من أربعين ألف درهم كانت مدخرة عنده يوم أسلم غير خمسة آلاف درهم يوم هاجر مع النبي ﷺ. أنفقها كلها ومعها ربح تجارته لمدة عشر سنين".[٢]

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٠.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٢.

٤- موقفه من حديث الإسراء:

وهـو من المواقف التي تجلت فيها عظمـة القوة الإيمانية في قلب أبي بكر ﷺ ، ذلك الإيمان الذي لا يقف أمامه عقبة من شك أو ارتياب، بل هو إيمان عميق بالله ورسـوله تجلى في ذلك الموقف الجليل من مواقف الدعوة، والذي اهتز أمامه إيمان كثير من المسـلمين، بل ووصل الاهتزاز ببعضهم إلى درجة الردة عن الإسلام من وقع هذا النبأ حين تحدث به رسـول الله ﷺ إلى أهل مكة مخبرًا إياهم أنه أُسري به ليـلًا من المسـجد الحرام بمكة إلى المسـجد الأقصى بالشـام وعـاد إلى مكة في نفس الليلة. وعندئذ سـخر المشركون وحسـبوها فرصة للإيقاع بين محمد ﷺ وصاحبه أبي بكـر، ولكن خاب ظنهم وارتد سـهمهم إلى نحورهم وتحطمت أوهامهم على صخـرة إيـمان أبي بكـر. فقال لهم: إنكم تكذبـون عليه، فقالوا له: إنـه عند الكعبة يحدث الناس بذلك، فقال بلسـان المؤمن: إن كان قال فقد صدق، إني لأصدقه في أبعد من هذا، إني أصدقه في خبر السماء يأتيه في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه. وأسرع أبو بكر إلى المسـجد الحرام، فإذا برسـول الله ﷺ يصف بيت المقدس، والناس حوله يسمعون بين مصدق ومكذب، وكلما ذكر الرسول وصفًا مـن الأوصـاف قال لـه أبو بكر: صدقـت. وكان أبو بكر على علم بصفة المسـجد الأقصى، إذ كان قد ذهب إليه ورآه، فلما أتم النبي ﷺ وصف المسجد الأقصى قال أبو بكر: صدقت يا رسول الله. ومن يومئذ لقب الرسول أبا بكر بالصديق".[١]

يقـف الدكتور هيكل أمـام هذا الموقف من مواقف الصديـق ﷺ حللًا ومبينًا أثره في الدعوة الإسلامية، ويتساءل: "ترى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره في حديث الرسول ﷺ عن الإسراء، فماذا عساه أن يحدث من أثر هذه الريبة في حياة الديـن الناشـئ؟ وهل ذكـرت كيف ثبتت إجابـة أبي بكر عقائـد الكثيرين وكيف حفظـت للإسـلام يومئذ مكانته؟ إن كنت قد سـألت وقـدرت وذكرت فلا ريب

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٣.

أنـك لم تـتردد بعد ذلك في الحكـم بأن الإيمان الصادق أقوى سـلطانًا في الحياة من قـوى البطش والبـأس جميعًا، وأن كلمة أبي بكر هذه كانت من آثار عناية الله بدينه الحـق، وأنهـا نصرتـه وأيدته أكثر ممـا أيدته قوة حمـزة وعمر من قبـل، وهي لذلك حقيقة بأن تجعل لأبي بكر في تاريخ الإسـلام المكانة التي جعلها له الرسـول حين قال: لو كنت متخذًا من العباد خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا".[1]

هكـذا يحلل الدكتور هيكل رحمـه الله هذا الموقف العظيم مـن مواقف أبي بكر ﷺ ، تحليـلًا دقيقًـا، مبينًـا آثـاره عـلى مسـيرة الدعوة الإسـلامية، ومسـتدلًا على عظمته، وتقدير رسول الله ﷺ له بأن لقبه على إثره بالصديق.

ومع كل هذا الإعجاب بموقفه من حديث الإسراء من جانب الدكتور هيكل، إلا أنه لم يقتدِ به الاقتداء الكامل الذي يتناسب مع هذا الإعجاب وهذا التقدير في هذا الموقف. صحيح إن الدكتور هيكل لم ينكر معجزة الإسراء لأنها ثابتة بالقرآن الكريم وبصحيح السنة، وهو بفضل من الله مسلم يؤمن بالقرآن، ولكنه يلجأ إلى فهم العقل حتى يسـوغ وقوع هذا الحدث، فينحاز إلى جانب الذين يرونه بالروح أو أنـه كان رؤيـا منامية، وذلك خروجًا من مأزق التعـارض مع قوانين المادة التي جعلها الله نواميس تحكم حركة الكون والحياة.

ولقـد كان للدكتـور هيـكل في موقـف الصديق مـا يجنبه هذا الزلـل ويقيه شر العثـار في قوانين المـادة. إذ كيف نحتكم إلى العقل ليضع لنـا حدود القدرة الإلهية للإلـه القـادر الفعال لما يريـد؟ مع أن صريح العقل يقـرر أن الإله الحق قادر قدرة مطلقة وإرادته نافذة متى شـاء وكيف شـاء، ولا يصح أن يخضع هذا الإله للسنن التـي خلقهـا. ثـم إن أبـا بكر في تبريـره لموقفه من حديـث الإسراء لجـأ إلى العقل والمنطـق، إذ أوضح أن الإيمان بالوحي أبعد من التصديق بمعجزة الإسراء، وهذا

(١) المرجـع السـابق ص ٣٤ أخرجـه البخاري كتاب قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلًا، ومسـلم فـي صحيحـه كتاب فضائل الصحابة ﷺ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا.

حـق. والدكتور هيـكل يدرك هذه الحقيقة ويوضحها فيقـول: "وكلمة أبي بكر في الإسراء تدل على إدراك تام للوحي والرسالة لا يُؤتاها كثيرون".(١)

إنه الإيمان الحق الذي يسمو بالإنسان إلى درجة فوق المألوف والمعهود والمفهوم وهو يسمو فوق درجة العلم، والإيمان بالمعجزات يدخل في نطاق الإيمان بالغيب الذي لا سـبيل إلى تفسـيره بقوانين العلم المادي مهما أُوتي منه الإنسـان حظًّا، فهو قليـل كما قـال لنا ربنـا ذلك في القـرآن الكريـم ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾.(٢) وكـم يريحنـا ويريح الدكتور هيكل معنـا أن نكون مع المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٣)، حتى نكون ممن تأسّى بالصديق رضي الله عنه.

٥- جهود الصديق واتصالاته لدفع أذى قريش عن المسلمين:

واصـل الرسـول ﷺ جهـوده في الدعـوة إلى الله عـز وجل لا يصـده إعراض المعرضين ولا إيذاء المعاندين، وجعل ﷺ يأخذ بأسباب نجاح دعوته. فلما استيأس من استجابة أهل مكة، وجه جهوده إلى دعوة الوفود التي تأتي من القبائل إلى مكة في موسم الحج، فكان يعرض نفسه عليهم لعله يجد من يؤمن به وينصره. كل هذا وإيذاء المشركين للرسـول ولمن آمن معه لم تخف حدته، بل زادت وطأته. وفي هذه الفـترة العصيبـة من حياة الدعوة، يتسـاءل الدكتور هيكل عـن دور أبي بكر رضي الله عنه.

وأثناء هذه الفترة "أخذ أبو بكر نفسـه بالتفكير في أمر المسـلمين المقيمين بمكة وفي تنظيم الوسـائل للسـهر عـلى طمأنينتهم".(٤) يقـف الدكتور هيـكل أمام هذا

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٤.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٣) سورة البقرة الآية: ٣ – ٥.

(٤) الصديق أبو بكر د / هيكل ص ٣٥.

العمل الجليل موقف السياسي الذي لا يتصور رجلًا مثل أبي بكر يقف مكتوف الأيدي فلا يكون له دور في الدفاع عن المسلمين والتخفيف من معاناتهم، ويطلق الدكتور هيكل لنفسه العنان ليتصور الصديق وهو ينظم جهود المسلمين ممن لهم وزن كحمزة وعمر وعثمان للتصدي لهذه الهجمة الشرسة ضد المؤمنين، بل إنه ليتصوره ﷺ وهو يستخدم اتصالاته ونفوذه لدى غير المسلمين ممن أقاموا على دين آبائهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقريش أن تناوئ من لا يقرها على عقيدتها في الأصنام وعبادتها، وذلك للتخفيف من عنف هذه الحملة المسعورة ضد المسلمين. وهذه الجهود التي بذلها والاتصالات التي قام بها للدفاع عن المسلمين ودفع الأذى عن المستضعفين جعلته أكثر قربًا من رسول الله ﷺ.[1]

٦- دور الصديق ﷺ في الهجرة:

وهذا من المواقف الإيمانية الجليلة لأبي بكر ﷺ ، فلم يكد يفهم أن رسول الله ﷺ قد عزم الله له على الهجرة إلى يثرب حتى أعد العدة وأخذ الأهبة منتظرًا أمر رسول الله ﷺ بالتحرك. فلما كان الثلث الأخير من الليلة التي أذن الله فيها لرسوله بالهجرة، خرج رسول الله ﷺ من بيته إلى دار أبي بكر، فإذا هو يقظ ينتظره. وخرج الرجلان من خوخة في ظهر الدار، وانطلقا جنوبًا إلى غار ثور فاختبئا فيه. ولما بلغ الذين يطاردون رسول الله ﷺ وصاحبه جبل ثور، وتسلقه أحدهم إلى الغار، تصبب الصديق عرقًا حين سمع تناديهم، وأمسك أنفاسه وبقي مكانه لا حراك به، واقترب من رسول الله ﷺ وألصق نفسه به وسلم لله أمره بعد أن طمأنه رسول الله.

يقف الدكتور هيكل أمام هذا الموقف الفريد ويتساءل عن سبب فزع الصديق حين اقترب المطاردون من الغار.

أفكان هذا الفزع بسبب حبه للحياة وحرصه عليها؟ فهو يخشى على نفسه أن يصيبه مكروه؟ أم أنه كان يفكر في رسول الله ﷺ ويود لو يفتديه بنفسه إن

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٥.

استطاع؟ وبالطبع لم يكن أبو بكر يفكر فيما قد يصيبه، وإنما كان يفكر في رسول الله ﷺ وفي مصير الدين الذي يدعو إليه لو ظفر به الأعداء وقتلوه.

بل لعله لم يفكر في شيء بذاته في تلك اللحظة، كالأم التي تخشى الخطر على وليدها فهي ترتجف وتفزع لمجرد تصور الخطر ثم لا يسعفها عقلها برأي أو تفكير، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها في وجهه تريد أن تصده أو تموت دونه. أم أن أبا بكر كان أشد من هذه الأم هلعًا وأكثر منها استهانة بالخطر إذا أقبل، لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل ما تحسه نفوسنا أو يدور بخواطرنا... نعم، إنه لكذلك!

ثم يتسامى الدكتور هيكل في تصوير هذه الصورةإلى حيث لا يمكن تصورها فيقول: أتصور أبا بكر في مجلسه مع رسول الله ﷺإلى جانبه وأتصور الخطر محدقا بهما فلا يسعفني خيالي بمثال يبزر كل ما في هذه الصورة الفذة من حياة لا نظير لها في كل صور الحياة. ثم ينتهي من سبحات فكره وتصورات خيالهإلى محاولة المقارنة بين هذا الموقف المهيب من التضحية والفداء من جانب الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ وبين ما يدعيه الأدعياء من حب لا نصيب له من الصدق ومن فداء لاحظ له من التضحية، وإنما هو حب مصطنع وفداء أجوف فيقول: " قص التاريخ علينا نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم أو ملك وفي عصرنا اليوم زعماء يقدسهم الناس فهم أحب إليهم من أنفسهم. لكن موقف أبي بكر الصديق في الغار يختلف عن ذلك كل الاختلاف وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة وأكثرهم في التصوير براعة فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصديق برسول الله ﷺ الذي اصطفاه الله فأوحي إليه بدينه الحق؟ وأين لذلك افتداء الناس ملوكهم وزعماءهم مما جال بخاطر الصديق في هذه اللحظة التي خشي فيها الخطر على حياة الرسول، ثم كان أشد خشية ألا يدفع الخطر دافع؟ هذا مقام من السمو لا سبيل للرقيإلى تصويره ولذلك أمسك كتاب السيرة عن

الحديث فيه أو كادوا.[١]

هـا هو النص بعد التدقيق مع مراعاة الفواصـل بين الجمل، والتفريق بين الياء والألف المقصورة بشكل أدق، وتنوين النصب كما طلبت:

ثم يتسامى الدكتور هيكل في تصوير هذه الصورة إلى حيث لا يمكن تصورها فيقول: أتصور أبا بكر في مجلسه مع رسول الله ﷺ إلى جانبه، وأتصور الخطر محدقًا بهـما، فلا يسـعفني خيالي بمثال يبزر كل ما في هـذه الصورة الفذة من حياة لا نظير لها في كل صور الحياة.

ثم ينتهي من سبحات فكره وتصورات خياله إلى محاولة المقارنة بين هذا الموقف المهيب من التضحية والفداء من جانب الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، وبين ما يدعيه الأدعياء من حب لا نصيب له من الصدق ومن فداء لا حظ له من التضحية، وإنما هو حب مصطنع وفداء أجوف، فيقول: "قص التاريخ علينا نبأ أشـخاص وهبوا أنفسـهم فداء زعيـم أو ملك، وفي عصرنا اليوم زعماء يقدسـهم الناس فهم أحب إليهـم مـن أنفسـهم. لكن موقف أبي بكـر الصديق في الغار يختلـف عن ذلك كل الاختلاف، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة وأكثرهم في التصوير براعة. فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصديق برسول الله ﷺ الـذي اصطفاه الله فأوحى إليه بدينه الحق؟ وأين لذلك افتداء الناس ملوكهم وزعماءهـم ممـا جال بخاطـر الصديق في هـذه اللحظة التي خـشي فيها الخطر على حياة الرسـول، ثم كان أشـد خشـية ألا يدفع الخطر دافع؟ هذا مقام من السمو لا سبيل للرقي إلى تصويره ولذلك أمسك كتاب السيرة عن الحديث فيه أو كادوا.[٢]

ولروعة هذا الموقف وقوة أثره في الدعوة إلى الله سـجله الله سـبحانه وتعالى في سجل التكريم والخلود، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

(١)

(٢) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٧ – ٣٨.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.(١)

تلك كانت بعض مواقف الصديق ﷺ التي وقف أمامها الدكتور هيكل محللًا، ومبينًا ما تنطوي عليه من مظاهر القوة الروحية التي منحها الله أبا بكر لنتعلم منها بعد أن نقف على مواطن العظمة في شخصية الصديق وهو في صحبة النبي ﷺ. وإذا كان أبو بكر رضوان الله عليه قد حباه الله من القوة الروحية ما ظهرت آثاره في مواقفه من النبي ﷺ مما سبق بيانه، فإن هذه القوة كانت النبع الثرثار لقوة خلقية تجلت آثارها في مواقفه من الناس لينًا ورحمة وشفقة بالضعفاء والبائسين، وشدة وحزمًا على الطغاة والظالمين، حتى كانت أخلاقه ﷺ تجسيدًا صحيحًا لمنهج المؤمنين الذي حدده القرآن في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.(٢)

وصدق الله حين وصف رسوله والمؤمنين به فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.(٣)

وأهم عناصر القوة الخلقية في شخصية أبي بكر: الرحمة، اللين، الصدق، المودة، الألفة، المشاركة الوجدانية، حب الحق والتمسك به والتضحية من أجله، التفاني في فعل الخير، الحزم الأكيد، والعزم الشديد في مواجهة المحن والشدائد.

(١) سورة التوبة الآية: ٤٠

(٢) سورة المائدة الآية: ٥٤.

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٩.

ولقد تجلت هذه العناصر في مواقف رصدها الدكتور هيكل في كتابته عن الصديق ﷺ وهو في صحبة النبي ﷺ، ومن هذه المواقف:

١ موقفه من المستضعفين وفداؤه إياهم:

وإذا كان شراء الأرقاء الذين أسلموا واستنقاذهم من العذاب نابعًا من أنهم أخوة له في الإيمان، فإن ذلك يدل على رحمته بالمظلومين وشفقته بالمستضعفين، رحمة وشفقة نابعتين من قلب مؤمن أصدق الإيمان جعله يشعر بآلام إخوانه ويشاركهم ما هم فيه من شدة بؤس، مشاركة دفعته ليبذل من ماله ليضع حدًا لهذا العذاب الذي يصلونه من غير ذنب اقترفوه أو جرم فعلوه إلا أن أسلموا لله وآمنوا برسول الله ﷺ.

٢ موقفه من أسرى المشركين يوم بدر:

لما أراد الله للحق ظهورًا وللإسلام عزةً وانتصارًا هيأ الأسباب وقدر أن يلتقى الجمعان عند بدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، جمع المؤمنين بقيادة رسول الله ﷺ وجمع المشركين يقودهم الشيطان. وبعد أن أخذ الرسول بالأسباب لجأ إلى الله عز وجل يدعوه ويستنصره، وأبو بكر ﷺ بجواره في العريش الذي يقود منه المعركة، يطمئن رسول الله وهو ممتلئ ثقة بأن الله ناصر دينه ومؤيد رسوله. ويقول للرسول الذي استغرق في الدعاء والمناجاة حتى يسقط عنه رداؤه فيرده أبو بكر إلى منكبي الرسول قائلًا: يا نبي الله بعض مناشدتك لربك إن الله منجز لك ما وعد. وفعلًا تنجلي المعركة عن نصر مؤزر للمسلمين يسجله القرآن ممتنًا على المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[1] فقتل من المشركين سبعون وأسر منهم سبعون. وقد استشار النبي أصحابه ماذا يصنع بالأسرى؟ فكان لأبي بكر رأي جنح فيه إلى الرحمة والشفقة بهؤلاء الذين وقعوا في الأسر، وأشار على رسول الله ﷺ بقبول الفداء منهم وإطلاق سراحهم.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٢٣.

ويقف الدكتور هيكل أمام هذا الموقف من مواقف الصديق بالتحليل والتفسير، فيقول: "كان الصديق ﷺ، مع جلال إيمانه وعظيم تمسكه بهذا الإيمان وشدته فيه شدة لا تهن ولا تتردد، بعيدًا عن الغلظة، قريبًا إلى اللين، عفوًا عند المقدرة، محسنًا متى تم لإيمانه النصر. وبذلك جمع في قلبه بين مبدأين من أسمى المبادئ الإنسانية، هما حب الحق والرحمة. ففي سبيل الحق كان يستهين بكل شيء، وبالحياة قبل كل شيء، فإذا علت كلمة الحق غلب فيه جانب الرحمة".(١)

ويعلل الدكتور هيكل هذا الموقف من مواقف أبي بكر ﷺ بما فُطر عليه من طيب القلب، والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل. وبأنه، ﷺ، كان يدرك بنافذ بصيرته أن الغلب في النهاية لسلطان الرحمة، وأن الناس في النهاية ينزلون على حكم صاحبها ويؤمنون بعقيدته إذا رأوا رحمة سامية مبرأة من الضعف ومنزهة عن الهوى، مصداقًا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.(٢)

٣ غضبة الصديق لله على فنحاص اليهودي:

وهو من المواقف الجليلة التي وقف أمامها الدكتور/ هيكل بالتحليل ليلقي الأضواء على جانب من العظمة الخلقية في شخصية الصديق ﷺ، فهو مع رفقه ورحمته وتسامحه وحلمه ولين جانبه، يتملكه الغضب وتعتريه الثورة إذا ما تعرض دين الله الإسلام للاستهزاء أو الانتقاص أو العدوان. كما حدث من جانب فنحاص حين اجتمع حوله طائفة من اليهود، وكان حبرًا من أحبارهم، وذلك ليكيد للمسلمين ويسخر من دينهم.

دخل عليهم أبو بكر ﷺ وهم على هذا الحال، فقال مخاطبًا فنحاص: "اتق الله وأسلم، فوَالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٤١، ٤٢.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل".

فقال فنحاص، وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم: "والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني. ولو كان غنيًا ما استقرض أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا".

يشير اللئيم بعبارته هذه إلى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾.(١)

فلما رأى أبو بكر الرجل يستهزئ بالله وبرسوله وبالقرآن، لم يملك نفسه، فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: "والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله".

ثم يتساءل الدكتور هيكل متعجبًا: أليس عجبًا أن تكون في أبي بكر كل هذه الحدة وهو من هو لين طبع ورقة خلق ووداعة نفس، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين من عمره؟

ثم يجيب: لم يكن شيء يثير ثائرة أبي بكر أو يهيج غضبه إلا ما اتصل بعقيدته وإيمانه بالله ورسوله. فهذا الإيمان قد ملك على أبي بكر نفسه ومشاعره في كل أطوار حياته منذ أن اتبع الرسول ﷺ، حتى إنك تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية. أما ما عداها فقد كان ضعيف الأثر عنده، فكان قلبه وعقله وروحه ومشاعره خالصة لله ورسوله.

وكان الإيمان الذي بلغ به من مراتبه عليا قد ارتقى به إلى درجة الصديقين رضي الله عنه وأرضاه".(٢)

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٤٥.

(٢) انظر الصديق أبو بكر ص ٣٩، ٤٠.

٤ ثبات الصديق ﷺ حين مات رسول الله ﷺ:

وموقف أبي بكر من هذا الحادث الأليم من المواقف العظيمة التي تدل على قوة نفسية هائلة، أساسها اتزان انفعالي نابع من إيمان راسخ بالله سبحانه وتعالى، وبأن رسول الله ﷺ بشر تجري عليه سنة الله في الأحياء، فهو لا محالة ميت.

ألم يخاطبه الله في القرآن قائلًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.(١)

ألم يقل الله له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.(٢)

إذن فموت رسول الله ﷺ حقيقة مؤكدة وثابتة في القرآن الكريم. ورغم وضوح هذه الحقيقة وتأكيدها، فإن شدة وقع المصيبة على نفوس المسلمين أفقدتهم صوابهم وهزت اتزانهم هزًا عنيفًا، فأذهلتهم عن تذكر هذه الحقيقة. حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ قام في الناس خطيبًا ينفي الخبر، ويهدد ويتوعد المنافقين الذين اخترعوه وروجوا له، ويؤكد أن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام إلى ربه، وسيعود ليقطع أيدي وأرجل أقوام زعموا أنه قد مات.

وكان أبو بكر ﷺ حين مات الرسول ﷺ قد ذهب إلى داره بالسنح من ضواحي المدينة بعد أن اطمأن على رسول الله، إذ قد شعر ﷺ في صبيحة اليوم الذي مات فيه بشيء من العافية. فخرج إلى المسجد وتحدث إلى المسلمين ودعا لأسامة بن زيد بالخير وأمره بالمسير إلى الروم.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة الزمر الآية: ٣٠، ٣١.

فلما انتشر الخبر بين الناس بموت رسول الله ﷺ، ذهب في إثر الصديق من أبلغه الخبر، فكر راجعًا، فبصر بالمسلمين وعمر يخطب فيهم، فلم يقف وإنما عمد إلى بيت عائشة حيث مات الرسول، فكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول: "ما أطيبك حيًا وما أطيبك ميتًا".

ثم خرج إلى الناس فقام فيهم خطيبًا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد، أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت". ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.[1]

فلما سمع عمر هذه الآية، خر إلى الأرض ما تحملُه رجلاه، إذ أيقن أن رسول الله ﷺ قد مات.

يقف الدكتور هيكل أمام هذا المشهد الرهيب ليلقي الضوء على ما تحلى به الصديق رضي الله عنه من قوة نفسية تسترعي النظر، وما وهبه الله من اتزان عاطفي، فلا يذهل ولا يأخذه الدهش أمام أصعب المواقف، ولو كان موت رسول الله الذي أحبه حبًا فوق كل تصور.

ويؤكد الدكتور هيكل أنه لو جاز لإنسان أن يجزع ويدهش أمام المصيبة بموت رسول الله ﷺ، لكان أبو بكر. فهو صفي النبي وخليله، ومن آثره على نفسه في كل موقف، وهو الذي أجهش بالبكاء حين قال النبي ﷺ: "إن عبدًا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله". وهو الذي قال حين سمع هذه الكلمة والعبرة تخنقه: "نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا".[2]

فلما مات رسول الله ﷺ وأيقن الصديق بموته، لم تذهله هذه الحقيقة رغم

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري ص ٧ كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

شـدتها ومرارتها، ولكنه صمد بقوة إيمانه وطمأنينة نفسـه ليقوي من عزيمة الأمة أمام هذا الخطب الجلل.

ويسـتنتج الدكتـور هيكل من تحليله لهذا الموقـف أن الصديق ﷺ قد وهبه الله قوة نفسـية كانت عدته في مواجهة الحقائق التي لا يقوى على مواجهتها الأشـداء. وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادتها جلالًا ومهابة، وهي بعد النظر واستشراف آفاق المستقبل.

وهاتـان الصفتـان تثـيران العجب من رجـل كله الرفـق والرقـة، وكله الحب لرسـول الله ﷺ. وقد كانت هذه القوة سـند أبي بكر في هذه الساعة العصيبة حين مات رسـول الله ﷺ، كما كانت سـنده في كل الساعات الحرجة والمواقف العصيبة التي مرت به وبالمسلمين من بعده.[١]

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ٤٩ ٥٠.

"المبحث الثاني"

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن الصديق

بعد

رسول الله ﷺ

من المعلوم أن فترة الصحبة لرسول الله ﷺ من حياة الصديق كانت فترة الإعداد والتربية على يدي رسول الله ﷺ. وقد استمرت هذه الفترة أكثر من ثلاث وعشرين سنة، منذ بعث الرسول وحتى لحق بالرفيق الأعلى.

ولقد كانت شخصية أبي بكر، بحكم تكوينه وبتأثير التربية النبوية، شخصية فذة بما حباه الله من مواهب وما أفاضت عليه هذه التربية من سمو وجلال.

ولقد رأينا خلال المبحث الأول ما تمتع به رضي الله عنه من قوة إيمانية لا حدود لها، نبعت منها كل فضائله وتشبعت منها سائر جوانب القوة فيه من نفسية وخلقية، والتي ظهرت آثارها الطيبة في المواقف الحرجة من حياة الدعوة الإسلامية.

وتاريخ الصديق بعد موت رسول الله ﷺ ما هو إلا مواقف ظهرت فيها جوانب العظمة والقوة من شخصية أبي بكر. وهو لذلك تاريخ جدير بالدراسة والتمحيص حتى يستفيد منه المسلمون في حياتهم المعاصرة، فما هو إلا تاريخ الإيمان مجسدًا يثري الحياة، ويتحدى المصاعب، ويقف صاحبه بقدميه على الأرض ويرنو بقلبه وروحه إلى السماء.

ويرى الدكتور هيكل: "أن عصر الصديق ﷺ له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام، فهو على اتصاله بعهد الرسول قبله وبعهد عمر بعده، فإنه يمتاز بطابع يشخصه. فعهد الرسول ﷺ كان عهد وحي من عند الله، أكمل الله به للناس دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام دينًا، وعهد عمر كان عهد تنظيم للحكم الذي استقرت قواعده، وللدولة الإسلامية التي تفتحت أبوابها، أما عهد أبي بكر فكان فترة الانتقال العصيبة الدقيقة التي تربط بين هذين العهدين، وتتميز مع ذلك عن كل منهما".[1]

ولذلك يرى الدكتور هيكل أن عهد الصديق جدير بالدراسة والبحث، ولا يعجبه منهج الذين يتخطونه سريعًا ولا يقفون عنده بالقدر الذي يليق به باعتباره أنه هو الذي أعاد للإسلام سيادته على شبه الجزيرة العربية بعد القضاء على فتنة الردة، وبالتالي أعاد إلى بلاد العرب وحدتها السياسية بعد أن كادت تعود مرة أخرى إلى النظام القبلي، وباعتباره أنه هو المؤسس للدولة الإسلامية.

وبالرغم من قصر المدة التي قضاها أبو بكر في الخلافة، فإن الله بارك فيها وأنجز خلالها من الأعمال العظيمة ما يحتاج إلى أضعافها، ولكنها بركة الإيمان والإخلاص.

لقد اتبع الدكتور هيكل في كتابته عن الصديق ﷺ في عهد خلافته نفس المنهج الذي اتبعه في الكتابة عنه خلال فترة الصحبة، وهو المنهج القائم على التحليل العلمي والمنطقي للأحداث بحيث يردها إلى أسبابها. وكان هذا المنهج أكثر وضوحًا في كتابته عن الصديق إبان فترة خلافته لعدة أسباب، أهمها:

١ – أن عصر الصديق لم ينل من العناية ما يليق به، ولم يُبذل في تمحيصه من الجهد ما يستحقه.

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١٣.

٢- الاضطراب الذي يشوب الكتابات الأولى عن هذا العصر.

٣- عدم الدقة العلمية التي قد تشوب هذه المراجع القديمة لاشتمالها على أشياء لا تثبت أمام النقد التاريخي، كما أنها قد تثبت أحيانًا روايات هي أدنى إلى الخرافة منها إلى أحداث التاريخ. وقد تتواتر الروايات لحوادث وقعت في هذا العصر، مما يجعل الإنسان يقف في موقف الحيرة.

٤ ظلم المراجع القديمة للصديق ﷺ إذ لم تتحدث عنه كما تحدثت عن القواد العسكريين في عصره، في حين أن ما ينسب لهم من المفاخر هو شريكهم فيه، بل له الحظ الأوفر من هذه المفاخر.

والدكتور هيكل يلتمس العذر للمؤرخين القدماء لعصر الصديق فيما وقعوا فيه من الاضطراب، فقد كان عهده ﷺ عهد جهاد متصل شغل كل أبناء الأمة بحيث لم يفرغ منهم أحد لتدوين هذه الأحداث المتلاحقة، فتناقلوا أخبارها برواية بعضهم عن بعض، ثم لا يروونها بالدقة التي يروون بها ما حدث في عهد الرسول ﷺ. ولذلك كان لا بد لمن يؤرخ لعهد الصديق من اتباع الآتي:

١- تقليب الروايات.

٢- الموازنة بين الروايات المختلفة.

٣- اقتناص الحقيقة التاريخية من خلال هذا التقليب وعن طريق هذه الموازنة.

وهذا هو ما اتبعه الدكتور هيكل في تأريخه لعهد الصديق إبان خلافته.

أولًا: سقيفة بني ساعدة ومبايعة الصديق بالخلافة:[١]

حين علم المسلمون بموت رسول الله ﷺ، فكر الذين لم تذهلهم هذه المصيبة في مصير الأمور بعده. فقد آل أمر المدينة إلى الرسول بعد أن استقر بها، وبعد أن مكن الله للإسلام فيها. امتد سلطان الرسول ﷺ على سائر العرب بعد أن دانوا بالإسلام، وارتضى أهل الكتاب دفع الجزية.

لقد هيأ الله الأسباب لبقاء سلطان المسلمين في المدينة، ولتأمين وحدتهم وعدم تفرقهم بعد موت نبيهم. فوقاهم الله شر الاختلاف حول من يخلف رسول الله ﷺ في أهله ودينه، فحفظ على المسلمين روح الألفة والوئام بين قلوب المهاجرين والأنصار حين ارتضوا من يخلفه في أمر دنياهم من ارتضاه رسول الله لأمر دينهم. وبهذا اللطف الإلهي زالت كل منافسة كادت تدب بين المسلمين حين اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لمدارسة الأمر، ومعهم سعد بن عبادة ﷺ زعيم الخزرج ليكون صاحب الرأي فيهم.

بعد أن سمع منهم، رد عليهم مبينًا فضل الأنصار، ثم قال: "فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم". عند ذلك ردوا عليه قائلين: "لن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا".

لم ينته المجتمعون عند هذا الرأي حتى قال قائلهم: "فإن أبت مهاجرة قريش وقالوا: نحن أولى بهذا الأمر منكم"، هنالك قالت طائفة منهم: "فإنا نقول منا أمير ومنكم أمير".

بينما يتداول الأنصار الرأي فيما بينهم، كان عمر يفكر في أمر المسلمين، فأتى أبا عبيدة بن الجراح وقال له: "ابسط يدك فلأبايعك، فأنت أمين هذه الأمة على لسان

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٥٢ ٦١.

رسـول الله ﷺ". فرد عليه أبو عبيدة قائلًا: "ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسـلمت، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟"

وهـم في هذا الحديث إذ جاءهـم نبأ اجتماع الأنصار في السـقيفة، فأسرعوا إلى أبي بكر، وخف الثلاثة مسرعين إلى الأنصار وهم مجتمعون، ولم يبايعوا سعدًا، ولم يقطعوا في ولاية الأمر برأي. فلما اطمأن بهم المجلس، أراد عمر أن يتكلم، فلما هم بالكلام قال له أبو بكر: "رويدًا حتى أتكلم ثم أنطق بما أحببت".

وكأن أبـا بكـر ﷺ أدرك بحسـه السـياسي أن الموقف يحتاج إلى سياسـة وحسـن مدخل وحسـم. فتحدث أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وذكر رسـول الله ﷺ ومـا جاء به من رسـالة التوحيـد وموقف العرب منه، كما ذكـر موقف المهاجرين الأولين وما تحملوا في سـبيل الله، وقرابتهم لرسول الله ﷺ، ولذلك فهم أحق الناس بخلافـة الرسـول ﷺ. ولم ينـسَ أبو بكر ﷺ ، وهو السـياسي الأريب، أن يذكر دور الأنصار وأثرهم، فهم الوزراء لا يُفتاتون بمشورة، ولا تقضي الأمور دونهم.

ثم تراد الفريقان القول، كل يدلي بحجته ويؤيد وجهة نظره في حرية تامة وأدب جم، وأبو بكر يرد على حجج الأنصار، ويساعده في ذلك عمر كلما اقتضى الأمر. فلما احتد النقاش بين الفريقين، تدخل أبو عبيدة وقال موجهًا حديثه إلى الأنصار: "يا معشر الأنصار، كنتم أول من ناصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير".

كان لهـذه الكلمـة الطيبة الصادقة، الصـادرة من أمين الأمـة، أثرها العظيم في نفوس الأنصار. فقال بشـير بن سـعد على إثرها: "وإنا والله، وإن كنا أولي فضيلة في جهـاد المشركـين وسـابقة في هذا الدين، ما أردنـا به إلا رضا ربنـا وطاعة نبينا، والكـدح لأنفسـنا. فما ينبغي أن نسـتطيل على النـاس بذلك ولا نبتغـي من الدنيا عرضًـا، فـإن الله ولي النعمـة علينـا، ألا إن محمـدًا ﷺ من قريـش، وقومه أحق به وأولى، وايـم الله لا يـراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبـدًا. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم".

وعلى أثر هذه الكلمة المباركة من زعيم من زعماء الخزرج، أخذ أبو بكر بيدي عمر وأبي عبيدة، إذ كان يتوسطهما في المجلس، ودعا الأنصار إلى الجماعة وحذرهم من الفرقة، ثم أردف: "هذا عمر وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا". هنالك كثر اللغط وخيف الاختلاف، فتدارك عمر الموقف ونادى بصوته الجهوري: "ابسط يدك يا أبا بكر". فبسط الصديق يده، فبايعه عمر وهو يقول: "ألَمْ يأمر النبي أن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفة الله، فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعًا".

وبايع أبو عبيدة وهو يقول: "إنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، أفضل دين المسلمين. فمن ذا ينبغي أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك؟"

عندئذٍ أسرع بشير بن سعد ﷺ فبايع أبا بكر، وتتابع الأنصار على بيعته، فبايعوه جميعًا إلا سعد بن عبادة ﷺ أجمعين، وبذلك انتهى هذا الاجتماع ببيعة أبي بكر خليفة للمسلمين.

يقف الدكتور/ هيكل أمام اجتماع السقيفة موقف السياسي المعاصر ليصور لنا وقائع ما دار فيه بأسلوب العصر ولغته، حتى نقدره القدر الذي يتناسب وأهميته، وحتى ندرك ما يتحلى به الصديق ﷺن ذكاء وبعد نظر وحسن تقدير للأمور.

ولقد وفق الدكتور هيكل (رحمه الله) في تحليله لشخصية أبي بكر من خلال تحليل هذا الموقف من مواقفه ﷺ ، كما استطاع أن يبرز قدرات أبي بكر ومواهبه التي آتاه الله إياها في المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن وصولًا إلى الإقناع بالبرهان، والتي استطاع بها أن ينتهي هذا الاجتماع إلى تلك النهاية التي حفظ الله بها على المسلمين وحدتهم، وكان لها آثار طيبة منها:

١- الوقاية من الفتنة التي كادت تهدد وحدة المسلمين.

٢- التمهيد للقضاء على حركة الردة التي كانت تهدد دين الإسلام.

٣- التمهيد لنجاح سياسة الرسول ﷺ لتوصيل دعوة الإسلام إلى كل الناس في شتى الأقطار والأمصار مما أدى إلى قيام الدولة الإسلامية الكبرى.

ومن خلال تحليل الدكتور هيكل لشخصية الصديق من خلال تحليل موقفه في السقيفة برزت بعض صفاته العظيمة منها:

١- حسن السياسة والأناة وبعد النظر والبصر بعواقب الأمور.

٢- سرعة البديهة وقوة الحجة والقدرة على الإقناع.

٣- حسن التصرف وتقدير الأمور.

٤- سرعة المبادأة واغتنام الفرصة لإحقاق الحق.

٥- التمسك بالحق مع العدل والإنصاف.

ولكن الدكتور هيكل في تقديره للموقف العام لاجتماع السقيفة قد تأثر بظروف السياسة المعاصرة والتي تقوم على كثير من الدهاء والحيلة وعدم الوضوح بغرض الوصول إلى الأهداف السياسية وكسب الخصوم ولو على حساب المبادئ، وما ذاك إلا لأنه يطبق منهجه في الاعتراف بالضعف البشري الذي يحول بين البشر وبين السمو الروحي على الصحابة الأماجد رضي الله عنهم. وحقًا إن الصحابة بشر ولكن ليسوا ككل البشر، وإذا جاز أن يقع بعضهم تحت تأثير هذا الضعف البشري فإنه يستحيل أن يقعوا كلهم تحت تأثيره، ومن هنا يستحيل على أمة محمد ﷺ (والصحابة من باب أولى) أن تجتمع على ضلالة. هذه واحدة، وأما الثانية فإنه إذا جاز تصور وقوعهم تحت تأثير الضعف البشري في أمور الدنيا فإنهم يستحيل في حقهم أن يقعوا تحت تأثيره في أمور الدين.

ومن مظاهر تأثر الدكتور هيكل بالاعتبارات السياسية المعاصرة ما يأتي:

١- تحليله لموقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين. يقول الدكتور هيكل: "لقد كان الأنصار من أهل المدينة يجدون على المهاجرين أنهم آووهم ونصروهم أول

مـا جـاءوا إليهم ضيوفًا مع الرسـول ﷺ، فلما اطمأنوا أرادوا أن يسـتأثروا بالأمر دونهـم، وكانـت هذه روحهم في عهـد النبي فكان من الطبيعـي أن تظهر واضحة حين وفاته".[١]

وفي هـذا كثير من التجني على هؤلاء الأنصـار الذين زكى علام الغيوب حتى دخيلـة نفوسـهم فقال: "والذين تبـوؤا الدار والإيمان من قبلهـم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".[٢]

وأما ما يوحي ظاهره بوجود مثل هذه المنافسة مثل ما حدث عند توزيع غنائم حنين فقد كان لالتباس في الأمر حين فهموا أن العطاء على قدر الإيمان، وأن قيمة العطاء تبين منزلة المعطي. فلما وضح لهم الرسـول ﷺ الحقيقة بقوله: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشـاه والبعير وترجعون أنتم برسـول الله إلى رحالكم؟ وعند ذلك بكوا وقالوا رضينا برسـول الله ﷺ قسـمًا وحظًا. فيسـتحيل بعـد ذلـك أن يتصور الإنسـان أن تطرف الدنيـا عيونهم أو يكون لها سـيطرة على قلوبهـم بحيث يجـدون على إخوانهـم الذين آثروهـم على أنفسـهم وأحبوهم من صميم قلوبهم بشهادة القرآن الكريم.

٢- تحليله للعلاقة بين الأوس والخزرج يتصور الدكتور هيكل أن المسافة التي كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية قد ألقت بظلالها الباهتة على اجتماع سـقيفة بني سـاعدة رغم أن الله تبارك وتعالى جمع بينهم بالإسـلام وأذهب عنهم عـداوة الجاهليـة وأوضارها، وامتن عليهم بهذه النعمة فقـال: "واعتصموا بحبل الله جميعًـا ولا تفرقـوا واذكروا نعمـة الله عليكم إذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شـفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٥١.

(٢) سورة الحشر الآية رقم: ٩.

الله لكم آياته لعلكم تهتدون".[١]

وعلى هذا فإن ما ذهب إليه الدكتور هيكل في تحليله لاجتماع السقيفة من بقاء آثار هذه الخصومة حتى كان لها أثر في بيعة الأوس للصديق حتى تنأى بالخلافة عن منافسيهم من الخزرج غير صحيح. وكيف يكون هذا التحليل صحيحًا مع أن أول من بايع أبا بكر من الأنصار كان بشير بن سعد وهو من زعماء الخزرج. إن ما ذهب إليه الدكتور هيكل يلقي بظلال من الحقد والحسد على علاقة الأوس والخزرج، حتى لكأن قبيلة الأوس سارعت إلى مبايعة أبي بكر نكاية في منافسيهم من قبيلة الخزرج حتى لا يكون لهم عليهم من الفضل ما لا يدركونه لأن المنافسة بينهم شديدة، وبحيث لو ولي الخزرج الخلافة لم يجعلوا للأوس منها نصيبًا أبدًا.[٢]

إن هذا التحليل قد يصدق على الناس إلا أصحاب رسول الله ﷺ، فيصعب بل يستحيل تحليل أي أمر متصل بهم في غير نطاق الإيمان الخالص الذي لا تشوبه شائبة بعد أن زكاهم الله ورسوله. فإذا أردنا أن نكون علميين في التحليل والبحث فيجب علينا ألا نغفل البعد الإيماني عند هؤلاء الصفوة الذين باعوا أموالهم ووهبوا أرواحهم فداءً لهذا الدين. ولو كان ما ذهب إليه الدكتور هيكل من أن نفوس الأنصار كانت تحمل حسدًا أو موجودة على إخوانهم المهاجرين صحيحًا لما انتهى اجتماع السقيفة بمثل ما انتهى به من سلام واتفاق رأي على بيعة أبي بكر. والدكتور هيكل نفسه يؤكد هذه الحقيقة فتساءل قائلًا: أرأيت لو أن الأنصار أصروا على أن يستبدوا بالأمر من دون الناس استجابة لدعوة سعد بن عبادة ولم ترض قريش أن يكون لغيرها الأمر، فأي مسرح للثورة كانت تصبح مدينة رسول الله ﷺ ولاية ثورة جائحة مسلحة وجيش أسامة في أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار، وكلهم مدجج بسلاحه قد لبس درعه واتخذ للقتال عدته؟.[٣]

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

(٢) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٥٤ ٦٠.

(٣) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٥٥.

وهو تساؤل صحيح يوضح عظمة نفوس هؤلاء الذين ضمهم اجتماع السقيفة من مهاجرين وأنصار ويدل على مدى الحب الذي يربط بينهم مهاجرين وأنصار وأوس وخزرج. فإذا دل اجتماع السقيفة على ما يتمتع به الصديق من حسن تصرف رجل الدولة ولباقة السياسي المحنك ومن بعد نظر يساعده على دقة تقدير النتائج وتوجيه الجهد إلى الهدف المطلوب، فما أحراه أن يدل على حسن وعمق إيمان الذين خاطبهم أبو بكر بمنطق الإيمان وبمنظور الحق، فاستجابوا لمقتضى الإيمان وسلموا بقوة الحق لأن الإيمان كان ميزانهم الذين يزنون به الأمور، وكان الوصول للحق هدفهم الأسمى الذي من أجله يجتمعون ومن أجل الوصول إليه يتشاورون. ولأن الدكتور هيكل كان يقيس هؤلاء الرجال بمقياس الضعف البشري الذي يقاس به غيرهم من الناس فقد بخسهم كثيرًا من حقهم من حيث لا يدري.

٣ تحليله للبيعة العامة:

ما كان اليوم التالي لاجتماع السقيفة التي تم فيها البيعة الخاصة لأبي بكر بالخلافة، جلس الصديق رضي الله عنه في المسجد للبيعة العامة، وتكلم عمر واعتذر للناس عما قاله بالأمس من أن محمدًا لم يمت، وأنهى إلى الناس ما تم بالسقيفة بالأمس من بيعة لأبي بكر، وطلب منهم أن يقوموا ليبايعوه بيعة عامة. وبعد أن بايع الناس أبا بكر، خطب في الناس خطبة بين فيها سياسته العامة في الحكم والمبادئ التي سيسير عليها في قيامه بأعباء الخلافة.

الحقيقة أن هذه الخطوط العامة لسياسة الصديق كانت ترجمة صادقة لمبادئ الإسلام فلم تكن اختراعًا من بنات أفكاره، كما لم تكن امتدادًا للحكم العربي قبل الإسلام كما يعتقد الدكتور هيكل.

وفي موقف الناس من البيعة العامة يورد الدكتور هيكل ثلاث روايات:

١ – الرواية الأولى: رواية اليعقوبي: المشهور أن طائفة من كبار المهاجرين

تخلفـوا عـن البيعة العامة، وأن علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب من بني هاشم كانا من المتخلفين.

٢- الروايـة الثانيـة: وهـي لليعقوبي وغيره من المؤرخين، تـروي أن جماعة من المهاجريـن والأنصار رفضـوا البيعة لأبي بكر واجتمعوا مـع علي بن أبي طالب في دار فاطمة بنت رسول الله ﷺ يدعون إلى مبايعته.

٣- الروايـة الثالثـة: ينكر بعض المؤرخين هذا المشـهور من تخلف بني هاشـم أو غيرهـم مـن المهاجرين إنـكارًا صريحًا، ويذكـرون أن أبا بكر بويـع بإجماع وأن الروايات في تخلف علي عن البيعة قد وضعت من بعد ذلك لغايات سياسية.[١]

هكذا يورد الدكتور هيكل هذه الروايات في شأن البيعة العامة لأبي بكر، متبعًا كل روايـة بأدلـة أصحابها، ويورد الرواية الثالثة التي تؤكد أن بيعة الصديق كانت بإجمـاع لم يتوقعه أحـد بصيغة التمريض. ثـم لم يتبع المنهج الذي اختطه للدراسـة وهو التمحيص والموازنة بين الروايات للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإنما اكتفى بإيراد الروايات رغم أن أدنى بحث ونظر ينفي رواية اليعقوبي التي تلصق بهؤلاء الصفوة من صحابة رسـول الله ﷺ نقيصة المناورات بل المؤامرات السياسية حين تدعي أن أبا بكر حين ضاق ذرعًا بتخلف علي والعباس عن بيعته شاور عمر وأبا عبيدة والمغيرة بن شـعبة في أمر علي والعباس والمتخلفين، فأشـاروا عليه أن يلقي العبـاس بـن عبد المطلـب وأن يجعل له في الأمـر نصيبًا يكون لـه ولعقبه من بعده فيقـع الخلاف بذلك بين العباس وابن أخيه علي بن أبي طالب. وتمضي الرواية بأن أبا بكر فعل ما أشـاروا به إلا أن العباس رفض هذا العرض. فقد أخذها اليعقوبي من مصادر مشـبوهة يكتنفهـا الكذب والوضع والتشـيع المتعصب عن أبي مخنف لـوط بـن يحيى الشـيعي، وهكذا نجـد الدكتور هيـكل رحمه الله ينقل عن الشـيعة والمسـتشرقين ويعـرض عن المصادر الأمينة من السـنة الصحيحـة بحجة الكذب

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٦٣، ٦٦.

والوضع. وهكذا تنزل هذه الرواية الكاذبة بهؤلاء الأعلام وفي مقدمتهم أبو بكر إلى درك المؤامرة على آل بيت النبي بإيقاع الفتنة والخلاف بين أهل هذا البيت الطاهر، وتجزم الرواية الآثمة بأن أبا بكر رضي أن يتدنى إلى هذا الدرك السحيق من الخسة والتآمر لإيقاع الشقاق بين العباس عم النبي وبين علي بن أبي طالب ابن عم النبي وختنه على ابنته فاطمة وابن أخي العباس بن عبد المطلب، وهذا ما لا يليق بأبي بكر ولا يتفق مع إيمانه.

وهكذا ترى أن التحليل الإيماني ليؤكد صدق الرواية التى ترى أن بيعة العامة لأبي بكر كانت بإجماع ولم يتخلف عنها أحد، ولم يثبت التاريخ أن أحدًا خرج على أبي بكر أو عارضه أو نازعه الخلافة حتى لحق بربه ﷺ.

ثانيًا: موقف أبي بكر ﷺ من حركة المتنبئين والمرتدين:

وهو من المواقف الجليلة التي وقف أمامها الدكتور هيكل بالدراسة والتحليل ليلقي الأضواء على بعض جوانب العظمة في شخصية الصديق ﷺ. فلم يكد ينتشر خبر موت رسول الله ﷺ حتى انتقضت الجزيرة العربية على نظام الإسلام، وحسب الناس أن الإسلام قد انتهى كنظام بموت من أوحى الله إليه بهذا الدين. وأصبح أبو بكر والمؤمنون في موقف عصيب وخطب جلل، لولا ما آتاه الله من شجاعة ورباطة جأش نابعين من معين الإيمان الذي لا ينضب.

انتفضت الجزيرة عن بكرة أبيها ولم يثبت على الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف والقبائل المقيمة بين هذه المدن الثلاث. أما سائر العرب فقد اضطرب أمرهم وكان للعامل الجغرافي أثر واضح في هذه الحركة، فهذه المدن الثلاث قد تغلغل الإيمان في قلوب أهلها لطول معايشتهم للإسلام، وكذا القبائل الواقعة بينها بخلاف من نأى بهم المقام وبعدت ديارهم عن مهبط الوحي، فلم يتشربوا روح الإسلام ولم يتغلغل الإيمان في أعماق قلوبهم إذ كانوا حديثي عهد به. حيث لم ينتشر الإسلام في هذه الأصقاع النائية إلا بعد فتح مكة، فطبيعي ألا يتأصل

الدين في نفوس هؤلاء ما تأصل في نفوس أهل مكة والمدينة والطائف، وفي نفوس العرب المقيمين على مقربة منها.

أيضًا كان وراء حركة الردة العوامل الأجنبية التي أثارت روح الفتنة وحركت رياح الردة، إذ كان شمال شبه الجزيرة متصلًا بالشام الخاضع للإمبراطورية الرومانية، بينما كان الجنوب متصلًا بالفرس وقريبًا من الحبشة. وطبيعي أن يحرك هؤلاء الأجانب العرب من سكان هذه الجهات ضد الإسلام بشتى الأساليب. إلا أنه يجب أن يُعلم أن حركة الردة في مجملها تمثلت في رفض دفع الزكاة كبرياء وأنفة على زعم أنها صنو الأتاوة وأن فيها ذلًا وخضوعًا للحاكم، كما تمثلت في اتباع من ادعوا النبوة. فقد اتبعهم أقوامهم عصبية وطمعًا في أن يكون لهم المكانة بين العرب مثل ما صار لقريش.

فقد سمع كثير من بني أسد لطليحة بن خويلد الأسدي حين ادعى النبوة رغم أنه لم تظهر على يديه معجزات أو خوارق تؤيد هذا الزعم سوى تنبؤه لقومه بموقع الماء في يوم كانوا يسيرون فيه وكاد الظمأ يقتلهم، وسمع كثير من بني حنيفة لمسيلمة حين ادعى أنه أشرك في الأمر مع محمد فصار لبني حنيفة نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم لا يعدلون كما افترى ذلك الكذاب. وسمع أهل اليمن للأسود العنسي ذي الخمار حين ادعى النبوة وظهر أمره باليمن وطرد منها عمال رسول الله ﷺ.

ولم تكن دعوى النبوة من هؤلاء المتنبئين سلبًا لنبوة محمد بن عبد الله ﷺ أو طعنًا في رسالته، وإنما كانت دعواهم أنه نبي وأنهم أنبياء مثله بعثوا في أقوامهم كما بعث هو في قومه، وأنهم يريدون لأقوامهم الهداية كما يريد هو لقومه الهدى.

ويبدي الدكتور هيكل عدة ملاحظات على حركة المتنبئين هي:

١- أن فتنة الأسود العنسي باليمن واشتداد عودها شجعت أهل اليمامة وشجعت بني أسد على القيام بفتنتهم إثر وفاة النبي ﷺ.

٢- أن الاضطـراب الديني في ذلك العهد هو الذي أدى إلى نجاح هذه الحركة في أول أمرهـا، فلم يكـن مرجع هذا النجاح إلى تعصب النـاس لدين من الأديان بل كان مرجعه إلى عدم استقرار العقيدة في النفوس، وهذا هو ما سهل على الذين ادعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم وأن يخدعوهم بألوان من المظاهر الكاذبة ويزعمون أنها آيات صدقهم.

٣- أن رسول الله ﷺ قُبض وبوادر الفتنة تجري نذرها في جو شبه الجزيرة، بل ويوشـك قسـم كبير منها أن يضطرب أشـد الاضطراب. وأن البلاد التي أعلنت العصيـان عـلى ديـن محمـد ﷺ وسـلطانه كانـت أكثر بلاد شـبه الجزيـرة حضارة وأضخمهـا ثـروة، وهذا ما جعل أبا بكر يطيل التفكير في تدبير سياسـتها ليعيدها إلى حظيرة الإسلام.[١]

وهـذه الملاحظة الأخـيرة تعني أن العامل المادي (حضـارة وثروة المناطق التي أعلنـت العصيـان) كان المحرك الأسـاسي في تفكير أبي بكر لإرجـاع المرتدين إلى حظيرة الإسلام، وهذا محل نظر حيث إنه رأي غير سديد.

مواجهة أبي بكر لهذه الفتنة:

لقـد تصـدى أبو بكر رضي الله عنه لهذه الفتنة وواجهها بما تسـتحقه من حزم وحسـم، ولكنـه خـلال هذه المواجهة لم يتخل عن سياسـة رسـول الله ﷺ الرامية إلى تأمين تخـوم الدولة الإسـلامية على حدود الـروم. لذلك كان أول قرار اتخـذه بعد توليه الخلافـة أن قـال: ليتـم بعث أسـامة. واتخاذ أبي بكر لهـذا القرار لم يكن ناشـئًا عن تكتيك عسكري أو خداع سياسي، وإنما كان مرجعه إلى اعتقاد إيماني بوجوب اتباع الرسـول ﷺ في كل ما فعل أو أمر بفعله، إذ من المعلوم أن الرسـول ﷺ هو الذي أمر بإنفاذ بعث أسامة وعقد له اللواء وشرح له الخطة في تنفيذ المهمة التي كلفه بها، ولكن ظروف مرض النبي ﷺ وموته حالت دون خروج جيش أسامة إلى مهمته.

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص٨٣ ٨٥.

وكان ﷺ دائم السؤال والمتابعة لهذا الأمر خلال مرضه الذي مات فيه وجيش أسامة معسكر بالجرف. فلما علم أسامة بموت الرسول عاد إلى المدينة بجيشه، فلما دفن الرسول وتمت البيعة لأبي بكر اتخذ قراره بإتمام بعث أسامة رغم اشتداد المعارضة له، فقال ردًا على الذين رأوا في ذلك خطرًا على المدينة: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفتني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته. وحين راجعوه في ذلك مرة أخرى ثار ثائره وقال: لو تخطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ، ولما طلبوا منه تأمير من هو أسن من أسامة قال مغضبًا وآخذًا بلحية عمر الذي كلمه في ذلك: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟.[١]

يقف الدكتور هيكل أمام قرار أبي بكر بإنفاذ بعث أسامة في هذا الظرف العصيب رغم معارضة المسلمين لدقة الظروف التي تحيط بدولة الإسلام وعاصمتها مدينة رسول الله ﷺ، وفي وقفته هذا يستخلص المبدأ الأول والأساس في سياسة الصديق رضي الله عنه وهو اتباع النبي ﷺ. ولقد عبر أبو بكر في خطبته عن التزامه بهذا المبدأ قائلًا: إنما أنا متبع ولست بمبتدع، ولن أدع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته. ثم يعلق الدكتور هيكل قائلًا: هذه سياسة الخليفة الأول، ولأبي بكر أكثر من غيره من كل إنسان أن يتخذها سياسته، فقد صحب رسول الله ﷺ منذ بُعِثَ وإلى أن اختار جوار ربه، ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيمانًا لا يكبو ولا يتزعزع، وكان لاتصاله القلبي والروحي برسول الله يعرف من أمره ما لا يعرفه غيره.[٢]

وقبل أن يتحرك الجيش خرج أبو بكر إليهم ووعظهم وأوصاهم وصية جامعة تبين سياسة الحرب في الإسلام، فما الحرب إلا وسيلة لإزالة العقبات من طريق

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٨٣، ٨٥.

(٢) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٩٠.

الدعـوة، وبعـد ذلك فمن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر. وأكـدت هذه الوصية على أن السلام هو هدف الإسلام حتى وهو يقاتل، فقد نهى عن قتل من لا يقاتل من النسـاء والصغار ومن هم كبر سـنهم ومن لا يتعرض للمسلمين كالرهبان في الأديرة وغير ذلك من نقاط العظمة في المنهج الإسلامي للصراع.

فلما آن للخليفة أن يودع الجيش أوصى أسـامة بالمسـلمين خـيرًا، وأن ينفذ أمر رسول الله ﷺ بخصوص مهمته، ثم قال له إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن لعمر أن يرجع مع أبي بكر ﷺ. وتحرك الجيش بقيادة أسـامة وأدى المهمة المكلف بها على خير وجه، وعاد جيش أسامة إلى مدينة رسول الله ﷺ ظافرًا منتصرًا.

ويعلق الدكتور هيكل على الانتصار الذي أحرزه جيش أسـامة ثم الانسحاب بأن السياسة التي جرى عليها رسول الله ﷺ والتي كانت ماثلة في نفوس المسلمين جميعًا كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم، ويرجع هذه السياسـة إلى الخـوف من هذه القوة (قوة الروم) التي تحسـب لها كل الشـعوب ألف حسـاب. وهذا مما يجافي الحق، إذ إنه لو كان الخوف هو الذي يملي على المسلمين قراراتهم في السياسة والحرب لما اتخذ رسول الله ﷺ قرار بعث أسامة ولما نفذه خليفته أبو بكر ﷺ. أما انسـحاب الجيش بعد إتمام مهمته فذلك ليس خوفًا ولكنه وقوف بالمهمة عنـد الحد المطلوب، فهي الإرادة الحرة للمسـلمين تحكمها مقتضيات الأحوال في حدود أوامر الإسـلام، وليس للخوف من قوة الأعداء فيها أدنى تأثير. ولقد كان لبعث أسـامة ونجاحه في أداء المهام المكلف بها أثر عظيم في نفوس المسـلمين وفي نفوس العرب وفي نفوس الروم، مما بين أثر اتباع النبي ﷺ والاقتداء به من النصر والعزة.

خطة أبي بكر ﷺ للقضاء على الردة:

اتبع أبو بكر ﷺ لإنجاز هذه المهمة الصعبة خطة تدل على ذكاء المؤمن وعظمة تفكير المسـلم، فالمؤمن كما وصفه رسـول الله ﷺ كَيِّسٌ فَطِنٌ وليس متواكلًا يترك

الأمـور على عواهنها كما يفتري الجهال بحجة التسـليم بالقضـاء والرضا بالقدر. إن المؤمـن يأخذ بالأسـباب كـما أمره ربه بذلك في القـرآن الكريم حين قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾.[1]

وتتخلص هذه الخطة فيما يأتي:

١ـ إعداد العدة وأخذ الأهبة لقتال المرتدين وأشياعهم بتكوين الجيوش وإسناد قيادتها إلى عباقرة الحرب من المسلمين:

حيـث وزع أبو بكر جنود المسـلمين عـلى أحد عشر لواء وجعـل على كل لواء أميرًا، وبعد تكوين القوة الأساسية لكل جيش أمر القواد أن يستنفروا من يمرون بهم من المسـلمين وأصحاب النجدة. ولقـد كان أبو بكر ﷺ ذا فكر ثاقب ورأي صائب في توزيع هذه الألوية وفي اختيار قوادها بما يتناسب وصعوبة المهمة الموكلة إلى كل منها تبعًا لقوة الأعداء ومدى إلحاحهم في الردة.

لذا وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد في بني أسد، فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة زعيم بني تميم بالبطاح.

وجعل عكرمة بن أبي جهل على اللواء الثاني ووجهه لقتال مسيلمة في بني حنيفة.

وجعـل شرحبيـل بن حسـنة عـلى اللـواء الثالث وأمـره بمعاونـة عكرمة على مسيلمة، فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة مددا لعمرو بن العاص.

وعقـد أبو بكـر اللواء الرابع للمهاجر بن أبي أمية المخزومي وأمره بقتال جنود الأسـود العنسي باليمن وبقتال عمرو بن معد يكرب الزبيدي وقيس بن مكشوح المـرادي ورجالهـما. فإذا فرغ منهم قصد إلى كندة وحضرموت لقتال الأشـعث بن قيس والمرتدين معه.

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٠.

أما اللواء الخامس فوجهه إلى تهامة باليمن وجعل عليه سويد بن مقرن الأوسي. وعقد إمارة اللواء السادس للعلاء بن الحضرمي لقتال الحطم بن ضبيعة والمرتدين معه بالبحرين.

ووجه حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير على رأس اللواء السابع ووجهه لقتال ذي التاج لقيط بن مالك في عمان.

وكانت وجهة اللواء الثامن بقيادة عرفجة بن هرثمة إلى مهرة.

ووجه إلى شمال الجزيرة ثلاثة ألوية: على أحدها عمرو بن العاص لقتال قضاعة، وعلى الثاني معن بن حاجز السلمي لقتال بني سليم ومن معهم من هوازن، وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام.[1]

٢ـ الهجوم السلمي على المرتدين إعذارًا لهم وتمهيدًا للهجوم العسكري:

وهو ما يطلق عليه في المصطلح الحديث "الحرب النفسية" التي تهدف إلى تحطيم الروح المعنوية للأعداء. ولم تكن الحرب النفسية التي شنها الصديق ﷺ على أعداء الله ورسوله من قبيل حرب الشائعات التي لا أساس لها من الصحة، وإنما كانت من قبيل تبيين الحقائق وتوضيح الشبهات التي يتخذها المرتدون مبررات لردتهم، كالزعم مثلا بأنه لو كان محمد ﷺ رسولًا حقًا لما مات. كما قصد أبو بكر بهذه الحرب المعنوية إلى الإنذار بعد الإعذار، فقد قصد إلى إظهار قوة المسلمين ردًا على زعم هؤلاء المرتدين بأن المسلمين أصبحوا لا حول لهم ولا قوة وأن زمام الأمر قد أفلت من أيديهم.

وتنفيذًا لهذا الهدف من خطة الصديق للقضاء على الردة أعلن كتابًا إلى أهل شبه الجزيرة العربية عمومًا، بدأه بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثة محمد ﷺ بالحق من عنده بشيرًا ونذيرًا، وأشار إلى وفاة النبي ﷺ بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل هامش ص ١٠٥ ١٠٦.

ويبين أبو بكر للناس أن الله تبارك وتعالى قد ذكر موت النبي لأهل الإسلام.

فقال تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون". وقال تعالى: "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون". وقال للمؤمنين: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين".

وبعد أن بيَّن أبو بكر في كتابه هذه الحقائق أوصى بتقوى الله والاعتصام بدينه، ثم أعلن الإنذار الشديد لكل من ارتد عن الإسلام فقال: وإني قد أنفذت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدًا أو لا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله. فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحًا قبل منه وأعانه، ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولا يبقي على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن آمن فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله.[1]

وبهذا الأسلوب من الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار أعلن أبو بكر الحرب النفسية على المرتدين ومن شايعهم حتى يراجعوا أنفسهم ويمحص المترددون موقفهم، فقد ترك لهم الفرصة للتفكير لأنه قد انساق وراء دعاة الفتنة كثيرون مخافة ما يصيبهم إذا هم أقاموا على إسلامهم. فإذا رأوا أنفسهم بين قوتين، مالت نفوسهم إلى إسلامها أو أمسكوا على الأقل عن نصرة المرتدين.

وفعلًا قد تحقق لأبي بكر من هجومه السلمي هذا حظ عظيم من التوفيق، فقد ثبت الذين كانوا يتأرجحون بين الإسلام والردة على إسلامهم، وتضعضع عزم كثيرين عن المقاومة بعد أن اتضحت أمامهم الحقائق التي كان يخفيها عنهم زعماء الفتنة.

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١١٠.

٣ تكليف قادة الجند بتنفيذ ما جاء في هذا البيان بكل حزم:

ذلـك أن الصديـق ﷺ لم يكن يقصد بإذاعة بيانـه هذا مجرد مداورة أو مناورة، وإنما كان جادًا كل الجد في كل كلمة من كلمات كتابه، فلم يكد يعلن كتابه إلى الناس حتى كتب كتابًا إلى أمراء الجند عهد إليهم فيه بقتال من رجع عن الإسلام بعد أن يعذروا إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوا أمسك عنهم، وإن أبوا شنوا الغارة عليهم ولا ينظروهم، وقاتلوهم حيث كانوا وليقتلوهم بالسلاح والنيران.(١)

يقـف الدكتور هيـكل أمام هذه الصـورة القوية من الحزم والشـدة من جانب أبي بكـر اللـين الجانب السـمح في أخلاقه فيقول: "قد يحسـبها البعـض عجبًا من أبي بكـر مـع ما عُرف عنـه من لين الطبـع ودماثة الخلق، ولكن ذلـك ليس عجيبًا البتة، فالطبائع الرقيقة تأبى العنف ولا تميل إلى الشدة في مألوف ما بين الناس من تجارب الحياة. فأما ما اتصل الأمر بشيء يؤمن به أصحاب هذه الطبائع فلن تُقاس بشدتهم شدة ولا بقوتهم قوة. وقد كان موقف أبي بكر من المرتدين نابعًا من إيمانه العميق بالله ورسوله إيمانًا لا يعتريه التردد ولا يقبل المساومة".

"فمن حدثته نفسه بالخروج عليه فلا شأن لأبي بكر معه إلا أن يقاتله حتى يرده إلى الحـق أو يقتله وهو يقاتلـه ولو كان الصديق وحده، ولو لم يبق في القرى غيره. كذلـك كان الأمـر مع مانعي الزكاة، فأحـر به أن يكون في أمر مـن تمت ردتهم أو حدثتهم أنفسهم أن يؤمنوا برسول غير محمد رسول الله ﷺ".(٢)

٤ شن الحرب بلا هوادة على من أصر على الردة:

ولقـد تنـاول الدكتور هيكل هذه النقطـة في كتابه (الصديق أبـو بكر) بالشرح والتفصيـل في فصول متعاقبة من أول الفصل السـابع وحتى نهاية الفصل العاشر مـن هـذا الكتـاب، وتتبع خلالها سـير المعـارك إلى أن شـاء الله بانتهاء هـذه الفتنة

(١) السابق ص ١١٠، ١١١.

(٢) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١١٠ ١١١.

والقضاء على حركة الردة بفضل الله الذي منَّ على الأمة بأبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ، فتم على يديه وتحت إمرته هذا العمل العظيم الذي حفظ على الإسلام هيبته وقضى على المتنبئين ومن شايعهم وعلى المرتدين ومن آزرهم.

ولقد كان للدكتور هيكل رحمه الله وهو يتابع هذا العمل العظيم وقفات أحب أن ألقي الضوء على بعضها توضيحًا لمنهجه في الكتابة عن الصديق ﷺ ودراسة لمنهجه هذا.

الأول: محاولة تبرئة المتنبئين مما نسب إليهم من أقوال: مستندًا في ذلك إلى تحليل العقل، فالدكتور هيكل يستبعد أن تكون نسبة هذه النصوص صحيحة إلى هؤلاء النفر الذين نصبوا من أنفسهم أنبياء واتبعهم على ذلك خلق كثير، فهذه الأقوال من السخف بحيث يتعذر على الإنسان أن يتصور كيف يرضى متنبئ إذاعتها باسمه، وكيف يقبل الناس عليه أو يتبعونه حين يرونه ينسب هذا الهذر إلى الوحي ويدعي أنه من كلام رب العالمين، ويستشهد على صحة ما ذهب إليه بأن ما نسب إلى طليحة على أنه مما أوحي إليه إذا قرأته فإنك سترتاب في أن يدعيه رجل تجتمع حوله العرب، ثم يكون له من بعد مواقف في الإسلام ما يزال يحفظها له التاريخ.[1]

والوقفة هنا مع الدكتور هيكل في مدى صحة نسبة هذه الأقوال إلى مدعي النبوة، فقد صحت هذه النسبة إليهم بدليل رواية جميع كتب السيرة لهذه الأقوال المضحكة ونسبتها إلى هؤلاء الأدعياء الكذابين.

وأيضًا يستخدم الدكتور هيكل منطق العقل السليم مع هؤلاء الأدعياء الذين تلوثت عقولهم وفسد مزاجهم وأضلهم الله على علم، فباعوا دينهم بالدنيا واستهووا عقول العامة طمعًا في الرئاسة والجاه وتحقيقًا لعصبية قبلية، واستخدموا سلاح الكذب والافتراء والإدعاء وصولًا لهذا الغرض الدنيء. فكذبوا على الله وافتروا على رسول الله، فهل بعد هذا الضلال نستخدم حكم العقل لنبرئهم من

(١) انظر المرجع السابق ص ١١٣، ١١٥.

نسبة هذه الأقوال التي لا تتفق مع مكانتهم وما وصلوا إليه من زعامة ورئاسة. إننا بهذا المنطق كأننا نضع أساسًا من الحق والصدق لدعوى هؤلاء وكأنهم كانوا يستندون إلى حق يؤازرهم فيه منطق العقل السليم. وكان الأولى بالدكتور هيكل أن يتركهم تحيط بهم الريبة من كل جانب ويلفهم السخف كما كان واقعهم. وكان الأحرى به أن يعجب كل العجب ممن أوتي عقلًا ذكيًا فاستخدمه استخدامًا سيئًا ليصل إلى هدف دنيء، ولو كان سبيله إلى ذلك كلام ساقط وهراء محض يستهوي به عقول الهمج والرعاع الذين تجمعهم عصبية جاهلية ويقودهم جهل مطبق.

الثاني: موقفه من قتل خالد لمالك بن نويره:

يذكر الدكتور هيكل أن جنود خالد بن الوليد جاؤوا بمالك بن نويرة أسيرًا مع نفر من بني يربوع، وأن خالدًا أمر بقتله ولم يتبع معه ما يقضي به الدين من معاملة من تاب وأناب إن أعلن توبته ورجوعه، بل عجل خالد بقتله. ولذلك أثار هذا الحدث ثائرة أهل المدينة زمنًا، بل امتد هذا الأثر حتى ولي عمر الخلافة فكان من أسباب عزله عن القيادة والإمارة.

ثم يورد الدكتور هيكل الروايات التي رويت في سبب هذا القتل، ومن المعلوم أن أوامر أبي بكر إلى قادة الجند كما سبق في البيان الذي أذاعه في الكتاب الذي وجهه إلى قادة الجند كانت صريحة في الإعذار إلى هؤلاء، فمن تاب وأناب وكف وعمل عملًا صالحًا قُبِلَ منه، ومن أصر أخذه بما يستحقه من شدة ونكال. وهذه الأوامر لم تكن نابعة من اجتهاد شخصي لأبي بكر بقدر ما هي أوامر الله عز وجل، والتزم قادة الجند بتطبيقها وطبقها خالد بن الوليد عندما استمهله عدي الطائي ثلاثة أيام ليستنقذ طيئًا من وهدة الردة وجريمة حرب المسلمين، وفعلًا ثبتت طيء إلى رشدها وراجعت إسلامها، فكف عنها خالد ﷺ. وكذلك قبل أبو بكر التوبة من قرة بن هبيرة فعفا عنه وحقن دمه وغيره كثير.

وهذا لا يدع مجالًا لريبة في أن خالدًا ما قتل مالكًا إلا عن بينة، إذا كان قد قتله

عمـدًا، أما إذا تأول فقتلـه خطأ فهذا ما يُعتذر عنه. فإذا تـزوج خالد امرأة مالك، فأي إثم في ذلك يؤاخذه به مؤاخذ؟

مـا أجدرنـا أن نوصد باب الشـك والريبة الـذي يفتحه أعداء الإسـلام حول رجالات الإسـلام ومنهـم خالد ﷺ حين يفترون أن خالدًا شـغف بامرأة مالك حين رآها فقتله وهو على الإسلام ليخلو له الجو فيتزوجها هو.

إن أدنى تفكير يبرئ ساحة سيف الله خالد من هذه التهمة النكراء. ولماذا نسيء الظـن بـه رغم أن أبـا بكر بما عُرِفَ عنه مـن اتباع للنبي ﷺ قد برأ سـاحته بعد أن اسـتدعاه وحقـق معه وودى مالكًا، وليـس لنا أن نعقب على قضـاء أبي بكر وهو المشـهور بأنه لم يكن مجاملًا في أمور الدين أحدًا على حسـاب الحق ولو كان سـيف الله المسلول.

إن الدكتور هيكل عند معالجته لهذه القضية الشـائكة يومئ بطرف خفي إلى أن أبا بكر لشدة إعجابه بخالد وانتصاراته لم يعجبه موقف المتحاملين عليه والثائرين بـه بسـبب قتله مالكًا ونـزوه على امرأته، ولـو كان وزيره عمر بـن الخطاب الذي طالب بعزله والقصاص منه إذ رد عليه في حزم: "لا يا عمر، ما كنت لأشيم سيفًا سله الله على الكافرين".

ثم يصدر الدكتور هيكل حكمًا عامًا على أبي بكر ﷺ لا أدري ما سنده فيه رغم أنه رجل القانون فيذكر أن أبا بكر لم يكن يقيد من عماله،[1] فكيف يكون هذا مبدأ في سياسـة أبي بكر رغـم أنه مصادم لتشريع الله ومضاد لفعل رسـول الله ﷺ؟ إن الحق الذي لا ريب فيه ألا أحد في الإسلام فوق المساءلة إن أخطأ أو فوق العقوبة إن أسـاء، بل إن أبا بكر نفسـه انطلاقًا من تعاليم الإسـلام وروحه قال في خطبته للأمة بعد البيعة: "وإن أسـأت فقوموني". فـلا يتصور بعد ذلك أن يخالف تعاليم الإسلام أو أن يتناقض مع نفسه لحساب خالد بن الوليد.

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١٣٧.

والدكتور هيكل يرى أن الاختلاف بين عمر وأبي بكر في أمر خالد كان اختلافًا في السياسة التي يجب أن تُتبع في هذا الموقف، فأما عمر فكان يرى أن خالدًا عدا على امرئ مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها، ولا عذر له في ذلك حتى ولو تأول في أمر مالك فأخطأ، فإن ما فعله خالد مع ليلى كاف لإقامة الحد عليه ولا يعفيه من ذلك أنه سيف الله المسلول. وأما أبو بكر فكان يرى أن الموقف أخطر من أن يقام فيه وزن لمثل هذه الأمور، وما قتل رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ والخطر محيط بالدولة كلها والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها، وهذا القائد الذي يتهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يدفع بها البلاء ويتقى بها الخطر. وما الدخول بامرأة قبل أن يتم طهرها إذا وقع من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه. فلتكن سياسة أبي بكر حين استدعاه أن يكتفي بتعنيفه، وأن يأمره في الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة، فإما نصر يثبت أنه رجل الملمات وأنه جدير بالتقدير، وإما أن تكون اليمامة جحيمًا يبتلعه ويلقى فيه جزاء ما فعل بأم تميم وزوجها.[1]

وقد نصر الله المسلمين في اليمامة بقيادة خالد بن الوليد على مسيلمة وأشياعه، وتزوج أيضًا في أعقاب هذه الغزوة بنتًا بكرًا. ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه بأشد مما عنفه على ما فعل مع ليلى.

ولم يكن هذا التعنيف إلا سياسة من أبي بكر أراد بها تسكين ثائرة من ثار على خالد، كما يفسره الدكتور هيكل، وكأن الصحابة ﷺ يمكن أن يخضعوا لقانون الضعف البشري حتى ينزلوا إلى هذا المستوى من الإسفاف السياسي الذي لا يقبل من الناس الأسوياء، فكيف يتأتى أن يكون من الصحابة الأتقياء؟

ثم يعقب الدكتور هيكل على هذا الموقف برمته فيقول: "وإن أعجب فليس عجبي للكتاب والمؤرخين الذين حاولوا أن يسيئوا بهذا الحادث إلى تاريخ خالد

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١٣٧ – ١٤٠.

بأعظم من عجبي لأمثالهم ممن حاولوا أن يبرئوه أو يلتمسوا له الأعذار".[١]

والخلاصة في هذا الموقف أن خالدًا ﷺ بريء من قتل مالك ظلمًا، كما أن زواجه من ليلى لا يوجب حدًا، وليس هذا استنتاجًا من مجريات الأحداث أو استنباطًا فكريًا من بين السطور، وإنما لأن أبا بكر ﷺ هو الذي قضى بذلك بعد استدعاء خالد والتحقيق معه في ملابسات الموقف برمته. وأعتقد اعتقادًا جازمًا أن أبا بكر ﷺ قد أصدر حكمه هذا ديانة وقضاء لا سياسة ودهاء، فهو أمام الحق أقوى وأحزم حتى من عمر، ومواقفه تدل على ذلك، وإيمانه الذي يرجح إيمان الأمة بما فيهم عمر، يحتم عليه ألا يرائي أو يداهن أو يجامل أو يحابي على حساب الحق أحدًا أبدًا كائنًا من كان.

ثالثًا: التمهيد للفتح وتكوين الدولة الإسلامية:

وهذا من الأعمال التي وقف الدكتور هيكل أمامها طويلًا بالدراسة والتحليل، كما وقف قبله المؤرخون وكتاب سيرة أبي بكر ﷺ. ومما لا شك فيه أنه من المواقف العظيمة التي تفيد دراستها من يريد بعث دولة الإسلام الكبرى إلى الوجود مرة أخرى، بعد أن أصبح المسلمون في غياب هذه الدولة مجرد جماعات تائهة في محيط البشرية المتلاطم الأمواج، تكاد تبتلعها هذه الأمواج العاتية أو مجرد كيانات هزيلة تدور في فلك النظام العالمي يوجهها كيف شاء، ولا حول لها ولا وزن ولا قوة.

والدكتور هيكل عند معالجته لهذا العمل من أعمال أبي بكر انطلق منطلقًا خطيرًا متأثرًا بظروف عصره، حيث كانت تصطرع في الميدان السياسي فكرتان تمثل كل منهما تيارًا سياسيًا له أنصاره ومؤيدوه:

الفكرة الأولى: فكرة الجامعة الإسلامية: وتقوم على مبدأ الأخوة الذي يجمع بين المسلمين في كل بقاع الأرض ويربط بينهم ويجعلهم أمة واحدة مهما بعدت الديار أو اختلفت الجنسيات. وعليه، فلا غضاضة أن يكون إمام المسلمين عربيًا

(١) المرجع السابق ص ١٤١.

أم تركيًا طالما يرفع لواء الإسلام ويدافع عن حرمات المسلمين.

الفكرة الثانية: فكرة الجامعة المصرية: وتقوم على أساس النظرة القومية الضيقة والتي تنادي بأن مصر للمصريين، فهم أمة من دون الناس، وعليه فلا يقبل أي سيادة عليها لغير أهلها لأن ذلك يعتبر انتقاصًا من حريتها وعدوانًا على كرامتها حتى ولو كان ذلك الغير خليفة المسلمين.

ويمثل هذا التيار أولئك العائدون من بعثات تعليمية من بلاد الغرب متأثرين في ذلك بالفكرة القومية التي سادت أوروبا في أعقاب الثورة الفرنسية بما غرسته هذه الثورة في النفوس من تعاليم الديمقراطية وما نشرته من الدعوة إلى الحرية التي أيقظت الشعور القومي وروح التمرد في الشعوب حتى أصبح التغني بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية المحببة التي تردد على ألسنة الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية وارتفعت قيمة التضحية بالجهد والمال وبالروح في سبيل مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الناس وكأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبي جديد.[١]

ولقد كان الدكتور هيكل واحدًا من هؤلاء الذين يؤيدون الجماعة القومية المصرية التي تقوم على الجنس لا على الدين، وتنادي بقصر الاهتمام على المصالح المصرية ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية.[٢]

أقول لقد تأثر الدكتور هيكل عند دراسته للفتوحات الإسلامية في عهد الصديق رضي الله عنه بهذه الفكرة القومية التي آمن بها، ولذلك تجده يغوص في أعماق التاريخ القريب والبعيد ليثبت صلة الدم ووحدة الجنس بين عرب الشمال المقيمين بالشام والعراق وبين عرب الجنوب المقيمين في شبه جزيرة العرب ليصل من خلال هذه الوحدة إلى استنتاج خطير يدعي فيه أن الفتوحات الإسلامية في

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد محمد حسين ج ١ ص ٥١.

(٢) المرجع السابق.

العراق والشام إنما كانت حربًا تحريرية للجنس العربي في هذه البلاد من الاستعمار الفارسي، والروماني على يد أبناء عمومتهم من عرب الجنوب.

وكأن الدكتور هيكل رحمه الله قد أضناه البحث عن سبب مشروع لهذه الحرب فلم يجد لها مبررًا مشروعًا سوى أن تكون حربًا تحريرية لينأى بها عن نطاق الحروب العدوانية التوسعية، وهو في هذا قد كلف نفسه عنتًا وركب مركبًا صعبًا ولم يأت بشيء. فإذا كان تحرير الجنس العربي ينهض سببًا لفتح العراق العربي والشام، فما هو إذن السبب لما تلا ذلك من فتوحات إسلامية في بلاد العجم وغيرها؟

وأتوقف مع الدكتور هيكل عند معالجته للفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر عند عدة نقاط:

النقطة الأولى: إن المسلمين لم ينطلقوا إلى الفتح باسم العروبة، وإنما باسم الله ليبلغوا رسالة الحق والخير والهدى والنور الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ. فهي بهذا رسالة تهدف إلى تحرير الإنسانية من أغلال الكفر والشرك والضلال والبغي، والأخذ بيدها إلى حيث البر والخير والتقوى في رحاب التوحيد الخالص لله رب العالمين. فمن الخطأ الفاحش أن نقصرها على تحرير شعب أو نخصها بهداية جنس، كيف والله تعالى يقول: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".[١]

وانطلاقًا من هذا التخصيص والتضييق يطلق الدكتور هيكل اسم الدعوة العربية على الدعوة الإسلامية، فهو يقول بصدد تقديره للموقف السياسي في العراق ومدى ملاءمته لبدء حركة الفتح الإسلامي للعراق: "أي مرعى أخصب من هذا المرعى لبث الدعوة العربية ولتأمين شبه الجزيرة العربية من دسائس الفرس ومن عدوانهم، فهؤلاء العرب وإن استقروا بأرض العراق يستجيبون لا ريب لكل دعوة عربية، ومعاملة الدهاقين لهم تعدهم للثورة بهم".[٢]

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٢) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١٩٨.

وتمشيًا مع هذه النزعة العربية، يضيق الدكتور هيكل ما كان واسعًا من حسن معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة إذا لم يتعرضوا للمسلمين بسوء فيحصر أوامر أبي بكر إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء، لا يقتلون منهم أحدًا، ولا يأخذون منهم أسرى، ولا يسيئون إليهم في أمر يتصل بهم، فهم عرب مثلهم، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين مقدم العرب، ويجب أن يعمهم العدل على أيدي بني عمومتهم.[١]

ورغم أن الدكتور هيكل يقول: ذلك واجب على المسلمين يأمرهم الله به، فهل هذا الأمر كان قاصرًا على الجنس العربي وحده أم ينطبق على كل الناس؟

النقطة الثانية: من عوامل نجاح حركة الفتوح وجود العرب في العراق والشام:

وانطلاقًا من اعتبار الفتوحات الإسلامية تحريرًا للجنس العربي في الشمال كما هو تقدير الدكتور هيكل، فإنه يعتبر وجود الجنس العربي واستقراره في العراق والشام كان مقدمة لنجاح الفتح الإسلامي. فبجانب اعتناق عرب الشمال للنصرانية واحتفاظهم بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية وعدم انسياحهم في الشعوب الأخرى، كل هذا جعلهم يستشعرون دائمًا رباط الأخوة بينهم وبين عرب الجنوب لدرجة دفعتهم في كثير من الأحيان إلى الانضمام لجيوش المسلمين ومشاركتهم إياهم في حرب حلفائهم من الروم والفرس انتصارًا لعروبتهم وحمية لبني جنسهم.

والدكتور هيكل قد جانبه الصواب في هذا الاعتقاد، فقد كان العرب في العراق والشام أقوى شكيمة وأشد مراسًا في حرب المسلمين حتى من الفرس والروم، وكثيرًا ما انتفضوا وثاروا على حكم المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلًا مثل انتفاض عرب الحيرة وثورتهم بالمسلمين عندما علموا بغياب خالد بن الوليد حين توجه إلى دومة الجندل.

---

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٢٠٣

ومن المعلوم أن الإسـلام هدم كل عصبية للجنس أو للدم أو للأرض، وحرر الولاء من إسار هذه العصبية البغيضة وجعله كله لله ولرسوله وللمؤمنين.

النقطـة الثالثة: يرى الدكتـور هيكل أن من دوافع الفتح شـغل العرب بحرب خارج الحدود:

إذ يعتبر الدكتور هيكل أن توجه أبي بكر ﷺ إلى سياسة الفتح بعد أن قضى على حركـة الردة في جزيرة العـرب، من قبيل المناورة التي يهدف من ورائها إلى شـغل العرب بحرب خارج الحدود، حتى لا يعودوا إلى الثورة أو الانتقاض مرة أخرى.

يقول الدكتور هيكل موضحًا رأيه هذا: "لكن أبا بكر كان أحصف من أن يستنيم لهذا النصر فينسى به ما تنطوي عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضطرم الثورة كرة أخرى، أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة فتنسى بذلك حفائظها وأحقادها وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب، فجدير لها أن تسـمع لدعوة الدين الجديد كما سـمعها العرب في شـبه الجزيرة".[1]

وكأنه بذلك يحاول أن يصل إلى خطرات النفس من أبي بكر ويتتبع مسار التفكير في عقله وقلبه وهو تتنازعه عواطف الإيمان ومقتضيات السياسة، فهو يتردد بينهما هـل يقتـدي بالرسـول ﷺ فيكون أكـبر همّه تأمين التخـوم العربية في الشـمال من جنود قيصر، أم يترك هذه القدوة فيغامر بحرب قيصر ثم ينحاز إلى السياسـة على حسـاب الإيـمان؟ إنه إن يفعـل ذلك يصرف أذهـان العرب في شـبه الجزيرة كلها عـن ثاراتهم ويجعل لهم من الفخار ما ينسـيهم ضغنهم على يثـرب وأهلها ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله في الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف.[2]

هكذا يسـتبيح الدكتور هيكل لنفسـه أن يدخل إلى أعماق أبي بكر ليصور حتى الانفعالات النفسـية التـي تكون الخلفيـة الفكرية وراء اتخاذ قـرار الفتح. والأمر

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ١٩٤.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٩٢ ١٩٣.

أيسر من ذلك بكثير ولا يقتضي هذا العناء ولا هذا الخلط، لأنه ليس قرارًا من بنات أفكار أبي بكر حتى نبحث عن دوافعه في أغوار نفسه، وإنما هو تكليف رباني وأمر إلهي أن يبلغ الرسول وأمته من بعده رسالة الله إلى العالمين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.(٢) أما أن نجعل قرار الفتح من أبي بكر مجرد مناورة سياسية أراد بها أن ينسي العرب ثاراتهم وأن يحقق لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على يثرب وأهلها ثم أخيرًا وذرًا للرماد في العيون: "ويمهد بذلك الطريق لانتشار كلمة الله"، فهو قلب للأوضاع وطمس للحقائق، إذ الهدف الذي من أجله كانت حركة الفتح إنما هو تبليغ دعوة الله إلى الناس فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وما كان الفتح لتحقيق فخار أو للفت أنظار أو لتكوين إمبراطورية هدفًا من أهداف أبي بكر ولا الخلفاء الراشدين من بعده رضوان الله عليهم أجمعين.

هذا وللدكتور عبد المتعال الصعيدي رأي جدير بالتقدير يدلل على خطأ الدكتور هيكل فيما ذهب إليه من أن أبا بكر ﷺ أراد بحركة الفتح أن يوجه أنظار العرب إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية لتنسى بالحروب التي تشنها وراء هذه الحدود حفائظها وتنسى بها أحقادها، فيقول: "وهذا رأي ظاهر الضعف ولا أدل على ضعفه من أن أبا بكر ﷺ نهى خالدًا أن يستعين في حربه بالعراق بمن سبقت منه ردة حتى يرى فيه رأيه، وهؤلاء هم أرباب الحفيظة فيما ذكر الأستاذ هيكل، ولو صح رأيه لكان أولى بأبي بكر أن يأمر خالدًا بأخذهم معه ليشغلهم بالحرب خارج حدود بلاد العرب عن الفتنة فيها".(٣)

(١) سورة المائدة الآية: ٦٧

(٢) سورة آل عمران آية: ١٠٤

(٣) انظر السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، عبد المتعال الصعيدي ص ٩٥، ٩٦.

النقطة الرابعة: النظرة إلى الفتوح الإسلامية بمنظار السياسية المجرد عن البعد الروحي:

حيث يرى الدكتور هيكل أن بدء الصديق بفتح العراق كان انتهازًا لفرصة ساعدته عليها الظروف التي تمر بها دولة الفرس وأغراه بها ما يتمتع به العراق من نضرة وجمال. وهو بهذا كأنه ينظر إلى الفتوحات الإسلامية نظرة السياسي الذي يقيس الأمور بمقياس الربح والخسارة ويخضعها لمنطق الفرص واستغلال الظروف، وفي هذا ما فيه من تجريد الفتوحات الإسلامية من العنصر الروحي الذي هو أساسها وعمودها الفقري فهي أولًا وقبل كل شيء تبليغ لدعوة الإسلام.

صحيح أن الظروف المواتية تساعد على تنفيذ المهام وتؤدي إلى نجاح المسعى وتحقيق الأهداف بأقل تضحية، ولكن ذلك لا يعني أن الظروف هي التي تحدد الأهداف أو تصنع المبادئ، وإلا لتغيرت المبادئ والأهداف كلما تغيرت الظروف والأحوال وهذا غير صحيح.

ولقد أعلن رسول الله ﷺ مبدأ عالمية دعوة الإسلام وطبقه في حياته رغم أن الظروف السياسية والعسكرية لم تكن مواتية، فقد أرسل ﷺ بالكتب إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام. وبهذا الفعل من رسول الله ﷺ علمنا أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية أو غيرها ليس لها وزن أو اعتبار في تبليغ دعوة الله. وهذا ما كان يهدف إليه أبو بكر حين اتخذ قرار بدء الفتوحات الإسلامية، أن تصل دعوة الإسلام إلى حيث أراد الله، ولم يكن مقصده انتهاز فرصة أو توسيع رقعة أو تحرير شعب.

النقطة الخامسة: التركيز على العامل المادي كأحد أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية:

يعول الدكتور هيكل كثيرًا على العامل المادي كأحد أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية وانتصار المسلمين فيها وكأنها حرب استعمارية على غرار ما يقع في عالم

اليـوم. وفي هـذا مجافاة للحقيقـة حيث يصور جند الإسـلام وكأنهم مـن المرتزقة الذين لا هم لهم إلا ما يجنونه من ربح وما يحققونه من غنيمة يبيعون أنفسـهم من أجلهـا في ميادين الصراع. إنه يؤكد على ذلك عنـد تقديره لعوامل النصر "ها هي ذي جيوشهم بالعراق يسايرها النصر حيث سارت ويفيء النصر عليها من المغانم ما جعل قبائل العرب أشـد على الحرب إقبالًا. ولم يكن يرسـل للخليفة من الفيء إلا خُمْسُـه، أمـا الأخمـاس الأربعة فكانت توزع بـين الجند في ميادين القتال وكان لأهـل الجنـد في مختلف القبائل من حـظ رجالهم نصيب يغري مـن تخلف على أن يخف إلى الميدان ليكون له ولأهله مثله".[١]

ومـع أن الدكتـور هيـكل يؤكد أهمية الأثـر الروحي النابع من حب المسـلمين للاستشـهاد في سـبيل الله في تحقيق النصر إلا أنه يعود فيؤكـد أهمية العنصر المادي قائـلًا: "إن إغـراء الفيء لم يكن بالأمر الذي يسـتهان به فهـو في فطرة البدوي منذ خلقه الله ولن يزال في فطرته أبد الدهر، وقد رأيت خالد بن الوليد حين وقف بعد غـزاة أليس بالعراق يقول لجنده: لو لم يكن في العراق إلا هذا الثراء الضخم وهذا الفيء الذي يعد في بلاد العرب حلمًا لكفى مغريًا بالحرب".[٢]

وهكذا يجعل الدكتور هيكل من الأسلاب والمغانم سببًا كافيًا لحرب العراق وما هي في الحقيقة بحرب، وإنما هي فتح ودعوة إلى الله، فإذا غنم المسلمون أثناء أدائهم لرسالتهم ما شاء الله أن يغنموا فإن ذلك ليس هو الدافع وإنما هو من نتائج الفتح وثمرة من ثمراته، وهناك فرق كبير بين الأسـباب والدوافع وبين الآثار والنتائج.

وبأدنـى نظر في وصية أبي بكر لجيوش المسـلمين وهو يودعها حين تحركت إلى الشام يظهر الهدف الروحي من الفتح الإسلامي. يقول أبو بكر: "ألا إنه لا دين لمن لا إيمان له، ولا أجر لمن لا حسبة له، ولا عمل لمن لا نية له. ألا وإن في كتاب الله من

(١) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩.

الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به هذه التجارة التي دل الله عليها ونجى بها من الخزي وألحق بها من الكرامة في الدنيا والآخرة".[١]

يشير بذلك إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.[٢]

فهل بعد هذا البيان من الله والتنفيذ من خليفة رسول الله يمكن أن تكون المكاسب المادية من أسلاب وغنائم إحدى دوافع حركة الفتح أو إحدى عوامل النصر فيه؟ اللهم لا.

النقطة السادسة: تصوير العلاقة بين عمر وخالد على أساس الصراع من أجل الجاه والشهرة:

إن الدكتور هيكل، حين تعرض بالكتابة لفتح الشام، ذكر الموقف الحرج الذي تعرضت له القوات الإسلامية في مواجهة قوات الروم، وتأخر النصر رغم كثرة عددهم ووافر عدتهم، مما جعل الخليفة يأمر خالدًا أن يفصل بنصف قواته من العراق بعد أن يستخلف المثنى بن حارثة على جند المسلمين بالعراق. وكان هذا التكليف بعد دراسة للموقف واعتقاد أبي بكر بأن السبب في هذه الأزمة لقوات المسلمين على جبهة الشام مرجعه إلى غيبة القائد الجسور الذي يصنع الله النصر على يديه، فقال قولته المشهورة: "والله لأنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

ومن هذا يتضح أن أبا بكر، ﷺ، قد اختار خالدًا لمهمة لا يصلح لها غيره. وشرف للقائد العبقري أن يُنتدب للمهام الصعبة. وعلى ذلك، فما افترضه الدكتور هيكل من برم خالد بهذا التكليف وضيقه من هذا القرار لأنه كان يرجو أن يظل

(١) المرجع السابق ص ٢٤٦.

(٢) سورة الصف الآية من: ١٠ حتى ١٣.

عـلى العراق حتـى يفتح المدائـن عاصمة الفـرس ويتربع على عـرش كسرى. هو افتراض لا يقوم عليه دليل.

ثـم يسترسـل الدكتور هيـكل في افتراضاته، فيصـور خالدًا وهو يـرى في هذا التكليـف كيد عمر بن الخطاب له، إذ حسـده أن يكون فتـح العراق على يديه، بل لعلـه ظـن أن عمر طمع في أن يجيء إلى العراق مكانه. ثم يسـير الدكتور هيكل في سلسـلة اسـتنتاجاته المبنية على الظن، فيقـول: "ولقد توقع أبو بكـر أن تدور هذه الخواطر بنفس خالد فيكون لها أثر في تصرفه، ولذلك طمأنه على عمله في العراق بعد أن يمن الله عليه بالنصر في الشام".

فكأن الدكتور هيكل يصور هذا القرار في صورة مباراة بين عمر وخالد: فعمر يريـد مـن ورائه إبعاد خالد عن العراق ليخلو له الجو، ويبعده عن فتح المدائن، ثم الإلقاء به إلى موقف حرج بالشـام ليكسر من كبريائه بعد نصره المتصل في حروب الـردة وبلوغه قمة النصر في العراق. وخالد يريد أن يحقق النصر في الشـام ليكون له من الفخار ما يلجم ابن الخطاب فلا يقول مثل الذي قاله في أعقاب مقتل مالك بن نويرة وفي أعقاب غزوة اليمامة.

وهـذا التصوير للعلاقـة بين الرجلين لا يليـق، وما كان يجـوز للدكتور هيكل أن يتبـع الظـن ويركـن إلى حديـث النفس ليصور هـؤلاء الأبرار الذيـن مكّن الله للإسـلام على أيديهم بصورة نهازي الفرص ومحترفي السياسة الذين لا همَّ لهم إلا الإيقاع بخصومهم للتخلص منهم ليكون لهم العز والسلطان والشهرة والجاه بعد أن يخلو الجو لهم.

رابعًا: جمع القرآن الكريم:

والمقصود به كتابة القرآن الكريم في كتاب له دفتان، مرتَّبًا ترتيبًا متتابعًا، بعد أن كان مكتوبًا على العظام والرقاع والأكتاف واللِّخاف وعلى العسـب وغيرها، منذ أن أملاه رسـول الله، ﷺ، على كُتَّاب وحيه. وبذلك حُفظ كتاب الله بصورة مرتبة

ومنظمة خشية أن يضيع شيء مما هو مكتوب عليه بعض آيات القرآن الكريم.

يقف الدكتور هيكل أمام هذا العمل العظيم من أعمال أبي بكر، ﷺ، موضحًا أهميته ومتتبعًا مراحله باعتباره أهم أعمال الصديق، حيث ترتب عليه من الآثار في حياة الإسلام والمسلمين ما هو أخلد ذكرًا وأعظم ذخرًا، إذ به حُفظ كتاب الله، تبارك وتعالى، من الزيادة أو النقصان أو التحريف. وبذلك تحقق وعد الله بحفظ كتابه، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

وترجع بداية هذا العمل الجليل إلى عمر بن الخطاب، ﷺ، وزير الصديق ومساعده الأمين، فقد بدأ يفكر في مصير القرآن بعد موقعة اليمامة التي استشهد فيها كثير من قراء القرآن وحُفَّاظه. فخشي أن يضيع منه شيء إذا بقي مكتوبًا في أصناف متعددة تُجمع على صورة غير منتظمة، وعندئذ فلا مرجع لترتيبه وجمعه إلا صدور الحُفَّاظ الذين يُستشهدون في ميادين الجهاد.

وبعد طول تفكير في هذا الأمر، "ذهب ابن الخطاب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد فقال له: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني لأرى أن تجمع القرآن"[2].

فرد عليه أبو بكر: "كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله، ﷺ؟" فأخذ عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لمثل الذي شرح له صدر عمر. فأرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت، ﷺ، وكلفه بجمع القرآن. فراجعهما بمثل ما راجع أبو بكر عمر بن الخطاب: "كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله، ﷺ؟" فقال له أبو بكر: "هو والله خير". وما زال يراجعه حتى شرح الله صدره لمثل الذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

---

(١) سورة الحجر الآية: ٩

(٢) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص٢٨٢

ونظـرًا لثقل هذه المسـئولية قال زيد: "فو الله لـو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرني به من جمع القرآن".

وحـين أسـند أبو بكـر، ﷺ ، هـذه المهمة الصعبـة إلى زيد لم يكـن مجاملًا ولا محابيًا، وإنما كان في قراره هذا مستندًا إلى مبررات تؤيد دقة هذا الاختيار، وقد بينها الخليفة في أمر التكليف، وأهمها:

١. أنه شـاب، فيستطيع أن ينهض بتبعات هذا الأمر من العمل الشاق والجهد المتواصل الذي لا يتحمله إلا ذوو العزم الشديد، ثم هو إلى هذا لن يتعصب لرأيه، وإنما سيسمع للكبار ويطيع في الحق.

٢. أنه يتحلى بنعمة العقل الرشيد الذي لا يضل ولا يزيغ.

٣. أنـه أمـين وغير متهم، ولذلك فهـو أهل للقيام بهذه المهمـة على وجه الدقة والأمانة.

٤. أنه من أهل الاختصاص في هذا الشـأن ولديه خبرة علمية لا تتوافر لغيره، فهـو من كتّاب الوحي لرسـول الله، ﷺ، ويمتاز على غيره مـن كتّاب الوحي بأنه شهد العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله، ﷺ، في العام الذي توفي فيه، فكان على دراية تامة بالقراءة الصحيحة والثابتة للقرآن الكريم إلى يوم القيامة.

ولقد كان زيد بن ثابت، ﷺ ، على مسـتوى هذه المسـؤولية وعند حسـن ظن خليفة رسـول الله، ﷺ، به، فنهض بهذا العبء الجسيم، يعاونه في ذلك كل من له عطاء في هذا المضمار من الصحابة الأطهار، رضوان الله عليهم.

ويقف الدكتور هيكل أمام الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن وقفة التقدير والاحترام، ويصفها بأنها هي الطريقة العلمية كما نعرفها في هذا العصر. فقد اتبع، ﷺ ، طريقة الموازنة والمقابلة بين المكتوب في السطور والمحفوظ في الصدور، فكان لا يكتـب شـيئًا إلا إذا وجد مكتوبًا وكان محفوظًا، وشـهد اثنان بصحة نسـبته إلى

رسول الله، ﷺ، أخذًا وسماعًا. ثم هو لا يوازن من فراغ، وإنما بالإضافة إلى حفظه البالغ الدقة والتثبت، فقد كان، رضي الله عنه، رغم حداثة سنه، من أكابر الحفاظ، رضي الله عنهم.

ويستعرض الدكتور هيكل هذا العمل باستفاضة ليبين مدى الدقة التي جُمع بها القرآن الكريم في عهد الصديق، رضي الله عنه، ليدفع شبه المستشرقين الذين يهدفون إلى التشكيك في دقة القرآن الكريم.

وبعد إتمام هذه المهمة الجليلة وجمع القرآن الكريم في صحف أصبحت هذه الصحف هي المرجع الرسمي للقرآن الكريم وحفظت هذه النسخة عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين. وكان هذا المصحف هو الإمام للجمع الثاني للقرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين، وبذلك كان مرجعًا ثابتًا وأمينًا مجمعًا على صحته ودقته من الصحابة الأماجد رضوان الله عليهم.

ويقف الدكتور هيكل أمام هذا العمل العظيم مرددًا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "رحمة الله على أبي بكر، كان أعظم الناس أجرًا في المصاحف"، ثم يسأل نفسه: أي أعمال الصديق أعظم؟ قضاؤه على الردة والمرتدين في بلاد العرب أم فتحه العراق والشام وتمهيده بذلك لقيام دولة الإسلام العظيمة والتي حملت عبء الحضارة الإنسانية قرونًا متعاقبة أم جمعه القرآن كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ؟ ثم أجاب: فجمع القرآن أعظم أعمال أبي بكر لا ريب وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين".[1]

والدكتور هيكل رحمه الله قد وفق إلى الحق إذ اعتبر جمع القرآن أعظم أعمال أبي بكر، فبه حفظ الله دستور الأمة من التحريف وبذلك حفظ الإسلام بحفظ مصدره الأول، وطالما بقي المصدر صحيحًا سليمًا كان الرجوع إليه في أي زمان وفي أي مكان ممكنًا لإعادة الحق إلى نصابه ولإقامة الدين على قواعده الراسخة.

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٠١.

وما على الذين يريدون ذلك حقًا إلا أن يرجعوا إلى القرآن الذي كان به صلاح الأمة في ماضيها فيصلحون به حاضر المسلمين ومستقبلهم.

خامسًا: حكومة أبي بكر رضي الله عنه :

يكتب الدكتور هيكل فصلًا تحت هذا العنوان يستعرض فيه مفهوم الحكم في الإسلام من خلال فهم أبي بكر وتطبيقه لهذا الفهم في الواقع العملي لإدارة شؤون الحكم.

ويتضح مفهوم أبي بكر للحكم في أنه خليفة لرسول الله ﷺ. وقد عبر عن ذلك حينما خاطبه رجل بعد مبايعته قائلًا: يا خليفة الله، فلم يدعه أبو بكر يمضي في حديثه، بل قال له: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ. والفرق كبير بين العبارتين يظهر أثره في التطبيق العملي، فالذي يرى نفسه خليفة الله يعتبر نفسه فوق مساءلة البشر لأنه يستمد سلطة الحكم من الله.

ورد أبي بكر على ذلك الرجل يدل على أنه ليس من هذا الصنف من الحكام الذين يرون الحكم حقًا مقدسًا مستمدًا من الله، وإنما يرى نفسه خليفة لرسول الله ﷺ في قيادة المسلمين وفي سياسة أمورهم في حدود ما أمر الله سبحانه وتعالى. وهو خليفة لرسول الله في هذا الأمر باختيار المسلمين له وبرضاهم به، فهو لم يبعثه الله خليفة على المسلمين كما بعث محمدًا ﷺ رسولًا إليهم، وإنما اختاره المسلمون وانتدبوه للقيام بهذه المهمة فيهم. ولذلك فهو يستمد سلطته في الحكم من رضا المسلمين، وبقاؤه في هذا المنصب رهن باستمرار رضاهم عنه، ومن هنا فهو يرى نفسه مسؤولًا أمام الأمة ولها الحق في تقويمه إذا هو أساء، ويرى طاعتهم له مشروطة بطاعته لله، فأبو بكر رضي الله عنه يرى أنه خليفة رسول الله في سياسة

الدنيا فقط وفي القيام على شؤون الأمة، وهو ليس معصومًا، ولذلك وجب على الأمة أن تراقبه في عمله، فإن أحسن أطاعته وأعانته، وإن أساء قوَّمته بما يتناسب مع الإساءة حتى يصل إلى خلعه وعزله. وواجب عليه مشاورتهم فيما يعرض من الأمور مما ليس له سابقة أو تفصيل في كتاب الله أو في سنة رسول

الله، ﷺ، ولا يستبد بالأمر. فالله، سبحانه وتعالى، أمر رسوله أن يشاور أصحابه في الأمر وهو يوحى إليه، فكيف بغيره ممن ليس بمعصوم ولا ينزل عليه وحي؟

ويعد استعراض الدكتور هيكل للأحوال السياسية خلال عهد الصديق، رضي الله عنه، محددًا أهم ملامح حكومة الصديق فيما يأتي:

١- هو خليفة لرسول الله، ﷺ، في قيادة المسلمين وسياسة شؤونهم العامة.

٢- تم اختياره بمعرفة الأمة، فهو يستمد سلطته عليهم من رضاهم به ومبايعتهم له.

٣- كان حكمه مقيدًا بإرادة الأمة في حدود ما أمر الله به ورسوله، وفي حدود ما نهى الله ورسوله عنه.

٤- الحكم الإسلامي أساسه الشورى.

٥- الأمة تراقب الخليفة، وهو مسؤول أمامهم عن تنفيذ السياسة العامة للدولة.

٦- يرى الدكتور هيكل أن الحكم في عهد الصديق قد تأثر بظروف الحرب التي كانت ناشبة طيلة عهده، رضي الله عنه، فالحكومة في العهد البكري أدنى إلى الحكومة العسكرية منها إلى الحكومة المدنية. وهذا محل نظر، إذ إن الحكومة العسكرية تدير شؤون البلاد بأسلوب أدنى إلى حالة الطوارئ أو الظروف الاستثنائية، وفيها تُقيد الحريات وتهدر بعض الحقوق. ولم يحدث شيء من ذلك في عهد الصديق حتى يبدي الدكتور هيكل هذه السمة من سمات حكومة أبي بكر، رضي الله عنه. وإذا كانت ظروف الحرب قد جعلت أبا بكر يفكر في الاستخلاف من بعده، فإنه في ذلك لم يصادر حق الأمة، وإنما مارست دورها كاملًا وبحرية تامة.

٧- ٧. تطورت الحكومة في عهد الصديق لتواجه الظروف المستجدة. فرغم تأسي أبي بكر برسول الله، ﷺ، فإنه لم يجمد جمود المقلدين. وهذا حق، إذ ليس معنى التأسي الجمود، لأن الإسلام وضع قواعد عامة لنظام الحكم تتسع لصور

شتى عند التطبيق بشرط تحقق هذه الأصول التي أرساها، والقواعد التي وضعها. وبذلك فتح التأسي برسول الله، ﷺ، الباب أمام أبي بكر والمسلمين من بعده للاجتهاد في سياسة أمور المسلمين لمواجهة كل الظروف التي لم تحدث على عهد رسول الله، ﷺ.

سادسًا: حرص أبي بكر على مصالح الأمة حتى بعد موته:

ورغم أن الموت هو قدر الله على كل حي فإن أبا بكر يأبى إلا أن يكون عظيمًا حتى بعد موته، وهذا من فضل الله عليه وعلى أمة الإسلام، فخيرات العظماء تعود دائمًا على أممهم وشعوبهم.

ولقد وقف الدكتور هيكل يستجلي هذه العظمة في الفصل الأخير من كتابه "الصديق أبو بكر" لنقف على أسبابها لنتعلم منها ونتأسى بها إذا أردنا أن نكون حكامًا صالحين مثل هؤلاء السلف الصالح الذين سعدت الأمة بقيادتهم. والعظمة في موت الصديق ﷺ أنه حين حم ومرض لم ينس حق الأمة عليه ولم ينشغل بنفسه، وإنما فكر في مستقبلها الذي يكتنفه الغموض فجيوش المسلمين ما تزال في مواجهة عنيفة مع جيوش الفرس والروم.

لم ينشغل أبو بكر بمرضه عن التفكير في الوضع العسكري الذي تواجهه قوات المسلمين، وكذلك التفكير في الجبهة الداخلية وكيف يؤمنها فيجعلها في مأمن من الصراع والانقسام. ولقد فكر أبو بكر، ﷺ، في هذا الأمر أثناء مرضه، وطال فيه تفكيره حتى ألهمه الله الصواب وعزم له على الرشاد، فلم يتردد، ورأى ألا سبيل إلى ملافاة ما يخشاه من اختلاف المسلمين على ولاية الأمر من بعده إلا أن يحسمه باستخلاف من يقوم بالأمر من بعده، بعد مشاورة المسلمين وجمع كلمتهم على من يستخلفه.

وكان هذا أمرًا بالغ الصعوبة لأنه ليس له سابقة، فرسول الله، ﷺ، لم يستخلف على المسلمين أحدًا من بعده، وذلك لحكمة تشريعية، حتى لا يظن الخليفة أنه خليفة لله على لسان رسول الله، ﷺ، وحتى لا يكون الاستخلاف من أسس

الحكم في الإسلام لو فعله الرسول، ﷺ. أما أن يستخلف أبو بكر، فهذا يعطي اتساعًا لنطاق تطبيق المبادئ العامة للحكم الإسلامي دون أن يترتب عليه أي أضرار تشريعية، إذ إن استخلاف أبي بكر لن يعطي للخليفة أكثر مما كان لأبي بكر. ولأن هذا الاستخلاف لا يعني مصادرة لحق الأمة في اختيار الخليفة، بل إنه يتم برأيها ومشورتها، غاية ما هنالك أن هذه الإجراءات تتم في حياة أبي بكر بدلًا من أن تتم بعد وفاته.

ولذلك نرى أن أبا بكر، رضي الله عنه، حين عزم على استخلاف عمر بن الخطاب لم يستبد بهذا الأمر ولم يخن الأمانة، فقد رشح خير من يقوم بأعباء الخلافة. فهو لم يكن مجاملًا وإنما أصاب في اختياره. فلما اختاره أخذ يستشير الناس فرادى ومجتمعين، وبدأ باستشارة أهل الرأي والشورى من صحابة رسول الله، ﷺ، سرًا، فقد شاور عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وأسيد بن حضير، وغيرهم من وجوه المهاجرين والأنصار. فكان رأيهم فيه أنه نعم الرجل لولا شدة فيه وغلظة. ولكن أبا بكر طمأن من رأى فيه هذا الرأي، ورد على طلحة بن عبيد الله ومن كان معه من المعارضين حين قالوا له: ماذا أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا؟ بقوله في صراحة ووضوح: "أقول اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك".

وعندما صارح أبو بكر عبد الرحمن بن عوف بمخاوفه من المعارضين، طمأنه ابن عوف بقوله: "يا خليفة رسول الله، إنما الناس في أمرك بين رجلين: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك، وصاحبك كما تحب. ولا نعلمك أردت إلا الخير، ولم تزل صالحًا مصلحًا".

فلما اطمأن إلى رضا الناس باستخلاف عمر، دعا عثمان بن عفان وكتب كتابًا باستخلافه وختمه. وبعد ذلك أشرف على الناس من حجرة في داره وخاطب من بالمسجد وأعلمهم باستخلافه لعمر، فقالوا: سمعنا وأطعنا. فلما أعلن الناس

رضاهم بما فعل وبايعوه على ذلك، أوصى عمر بالإسلام وبالمسلمين خيرًا.

يقف الدكتور هيكل موقف المتأمل في سيرة أبي بكر وهو موشك أن يودع الدنيا ويقبل على الآخرة ليرصد مظاهر العظمة في نقاط أهمها:

١- تسليمه لقضاء الله فيه واطمئنانه إلى أنه أدى الأمانة ولم يقصر في حق الإسلام والمسلمين فكان مغتبطًا بلقاء ربه ورفض إحضار طبيب كيما يطب له ويداويه.

٢- إحساسه بالرضا حين استخلف عمر بن الخطاب على المسلمين بعد مشاورة أولي الرأي من المسلمين وأخذه البيعة له، وبذلك وقى المسلمين شر الفتنة والاختلاف من بعده وهم أحوج شيء إلى الوحدة والائتلاف في هذا الظرف العصيب والذي تواجه فيه قوات المسلمين جحافل الكفر في بلاد الفرس والروم.

٣- محاسبته لنفسه حسابًا عسيرًا حتى إنه لم تطب نفسه بما أخذ من بيت مال المسلمين نظير تفرغه لشؤون الحكم فيهم والسهر على مصالحهم، حتى إنه أمر قائلًا: "ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لم أصب من هذا المال شيئًا، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم". واستخلص عمر ثمن هذه الأرض ورده إلى بيت مال المسلمين تنفيذًا لأمر أبي بكر وجعل يقول: "يرحم الله أبا بكر لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالًا".[1]

٤- حرصه الشديد على أموال المسلمين حتى إنه أوصى ﷺ أن يكفن في ثوبين له كان يلبسهما، وقال: إن الحي أحوج للجديد من الميت.

٥- تمسكه الشديد حتى وهو في أحرج اللحظات بالتمثل بكتاب الله عز وجل. فحين حضرته الوفاة وأخذ يعالج سكرات الموت تمثلت عائشة بقول حاتم:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

(١) انظر الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٢٧

نظر إليها الصديق كالغضبان ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين ولكن ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.(١) وكان آخر ما تكلم به في الدنيا (رب توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين). وبعد تجهيزه والصلاة عليه، حُمل على السرير الذي حُمل عليه رسول الله ﷺ إلى المسجد ليدفن كما أوصى إلى جوار رسول الله ﷺ في بيت عائشة.

أورد الدكتور هيكل كلمات التأبين التي ألقيت في موت الصديق رضي الله عنه تعبيرًا عن مشاعر الحزن العميق لموت الصديق وذكرًا لمآثره.

وهي ولا شك مشاعر صادقة عبر عنها أصحابها بكلمات هي آية في البلاغة والإيجاز. ويسوق الدكتور هيكل كلمة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر التي قالت فيها: "نضر الله يا أبت وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلًا بإدبارك عنها، وللآخرة معزًا بإقبالك عليها. ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله، ﷺ، رزءك، وأكبر الأحداث بعده فقدك، فإن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض، وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك، ومستعينة كثرة الاستغفار لك، فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك".(٢)

وهي بهذه الكلمات تعبر عن شدة وقع المصيبة على نفسها، ولكنها تهون إذا قارنتها بمصابها في رسول الله، ﷺ، وتتسلح بسلاح الصبر كما أمر الله، وتستنجز وعد الله للصابرين. فهل بعد هذا يسيغ العقل ما ذكره الدكتور هيكل: (وفدح الخطب أم المؤمنين عائشة، فأقامت النوح على أبيها، وشاركتها أخته أم فروة وزوجتاه أسماء بنت عميس وحبيبة ابنة خارجة، ومن اجتمع إليهن من نساء

(١) سورة ق الآية: ١٩.

(٢) الصديق أبو بكر د/ هيكل ص ٣٣١.

المدينـة)؟[1] لأن إقامـة النـوح لا يتصـور من امـرأة هـي زوج النبـي، ﷺ، وابنة الصديق، وهي من هي فقهًا وورعًا وتقوى.

وإذا كان الإسلام لا يكبت العواطف، فلا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، فإنه قد حرم ما سوى ذلك من الصياح أو لطم خد أو شق جيب أو نياحة، وشدد النكـير عـلى ذلك. ومعروف أن هـذا لا يخفى على أزواج النبـي، أمهات المؤمنين، فكيف تقع فيه عائشـة، رضي الله عنها؟ وإذا لم تصبر أزواج النبي، فمن من نسـاء المسلمين تصبر؟

إن هـذا تطبيـق لمفهـوم الضعف البـشري عند الدكتـور هيـكل، ولكنه في غير موضعـه. والواجـب أن نتسـامى في تصورنـا للصحابـة وأزواج النبـي عـن هذا المسـتوى الذي يوقع في معصية الله، لأنهم أسـمى من أن يخضعوا لعواطفهم أكثر من خضوعهم لأمر الله رب العالمين.

(١) المرجع السابق ص ٣٣٢.

"الفصل الثاني"

منهج الدكتور محمد حسين هيكل

في الكتابة عن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وفيه ثلاثة مباحث:

"المبحث الأول"

منهجه في الكتابة عن عمر

منذ نشأته وحتى إسلامه

"المبحث الثاني"

منهجه في الكتابة عن عمر مع رسول الله ﷺ

ومع أبي بكر الصديق رضي الله عنهما

"المبحث الثالث"

منهجه في الكتابة عن عمر أميرًا للمؤمنين

ودوره في بناء الدولة الإسلامية

ملامح المنهج في الكتابة عن عمر بن الخطاب:

١- اتبع الدكتور هيكل في كتابته عن عمر بن الخطاب ﷺ الطريقة التحليلية تلك التي لا تعتمد على مجرد سرد الأحداث، ولكن تعتمد على التمحيص والتحليل والتفسير لهذه الأحداث بغرض الوصول إلى الحق فيها حتى يمكن الاستفادة من دراسة التاريخ الإسلامي.

٢- وحتى يحقق الدكتور هيكل هذا الهدف، اتبع المنهج الآتي:

٣- تمحيص الأخبار الواردة عن عمر ﷺ.

٤- إغفال ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد التاريخي.

٥- إثبات الحوادث التي تواترت عن عمر رغم أن العقل لا يتصور حدوثها إلا في شيء من العسر.

٦- تفسير ما يمكن تفسيره من هذه الحوادث على ضوء البحث العلمي.

١- ولقد واجهت الدكتور هيكل عقبات عند مراجعة الكتابات الأولى التي تناولت سيرة عمر ﷺ ، ومن هذه العقبات:

٢- المبالغات التي أُلصقت بسيرة عمر ﷺ.

٣- اختلاف الروايات التاريخية للحادثة الواحدة.

٤- اختلاف الكتابات التاريخية من كاتب لآخر من ناحية التفصيل والإجمال.

٥- وللتغلب على هذه العقبات، اتبع الدكتور هيكل الخطة الآتية:

٦- بذل الجهد في البحث والإخلاص فيه، حيث إن توافر المادة التاريخية يساعد الباحث على سد كل نقص بمزيد من البحث والإخلاص فيه.

٧- الاستعانة بالكتب التي وُضعت في لغات غير العربية التي تلقي الضوء على تاريخ الفتح الإسلامي وتكوين الدولة الإسلامية.

٨- الاستعانة ببحوث المؤرخين المعاصرين في الشرق والغرب التي تناولت ما أوردته كتب الذين سبقوهم بالتمحيص والتجديد وإبرازه في صورة تتفق ومألوف هذا العصر في التفكير والتقدير.

تلك كانت أبرز ملامح منهج الدكتور هيكل في كتابته عن عمر ﷺ على سبيل الإيجاز، وأتناولها بشيء من التحليل والدراسة في المباحث التالية:

المبحث الأول:

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عمر بن الخطاب منذ نشأته وحتى إسلامه:

يحاول هيكل وهو يكتب عن هذه الفترة من حياة عمر ﷺ أن يرسم صورة لطفولة وشباب هذا الفتى الذي صار علمًا من أعلام الإسلام واحتل مكانة عالية من التقدير والإعجاب في قلوب الملايين من المؤمنين منذ أن أسلم إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. هذه المكانة السامية التي لا يستطيع أن يصل إليها أحد غيره، وذلك بما ساق الله من الخير على يديه للإسلام والمسلمين وبما بذله من جهد في سبيل بناء صرح دولة الإسلام.

طفولة عمر وصباه:

يقرر الدكتور هيكل أن هذه المرحلة من حياة عمر لا يتوفر عنها معلومات فيما كتب الأولون تساعدنا على رسم صورة واضحة لطفولته وصباه أكثر من غيره ممن عاصروه. فهو من قبيلة عدي بن كعب وهي قبيلة عدنانية من قريش انتهى إليها الشرف كما انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن. على أن عديًا لم تبلغ من المكانة في مكة قبل الإسلام مثل ما بلغه بنو هاشم وبنو أمية، حيث لم يكن لها من المناصب الدينية أو الزمنية كما لم يكن لها من الثراء والمنعة ما لهم، ومع ذلك كانت

تنافس بني عبد شمس الشرف وتحاول أن تبلغ مكانتهم، وقد حفز هذا التنافس أجداد عمر فكانوا ذوي دراية وعلم وحكمة، وقد ارتفع بهم علمهم وقدمتهم حكمتهم إلى مكان السفارة والحكم في المنافرات.(١)

والخطاب والد عمر هو الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، وأمه هي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ورغم أن الخطاب كان شريفًا في قومه إلا أنه لم يكن ذا مال ولا خدم، وكان فظًا غليظًا كما كان رجلًا ذكيًا موفور الاحترام في قومه، وكان مقدامًا شجاعًا يخوض المعارك على رأس قومه بني عدي في جرأة وثبات. وكان يتزوج النساء ليكثر ولده، فقد كانت كثرة الأولاد يومئذ مما تفاخر به العرب.

وأم عمر من بني مخزوم، وجده المغيرة كان سيدًا من سادات قريش وبطلًا من أبطالها، وكانت له إمارة الجند التي كانت لسيد بني مخزوم، وكان لذلك يُلقب بلقب: صاحب الأعنة. وكانت أم عمر ابنة عم لخالد بن الوليد، وعلى ذلك فأخوال عمر بنو مخزوم الأبطال المغاوير.

مولده ونشأته:

لا يستطيع الدكتور هيكل أن يحدد تاريخ ميلاد عمر على سبيل الجزم، فإن هذا مما اختلف في تحديده نظرًا لاختلافهم في تحديد سنه يوم وفاته، وإن كان الدكتور هيكل ممن يرجحون أنه مات ﷺ حول الستين.

ولقد نشأ عمر في طفولته وصباه نشأة أمثاله من أطفال قريش، وإن كان امتاز على غيره من أترابه بأنه كان ممن تعلموا القراءة والكتابة، وهؤلاء كانوا قليلين جدًا. ولما شب عن الطوق، جعل يرعى الإبل لأبيه الخطاب بضواحي مكة. ولما خطا من الصبا إلى الشباب، وضحت صفاته الجسدية التي بز بها أقرانه فقد كان طوالًا جسمانيًا فاق أقرانه في ميدان الرياضة، خاصة الفروسية والمصارعة. ومع

(١) انظر الفاروق عمر / هيكل ص ٣٤ – ٣٥.

قوته البدنية، فقد كان ذواقة للشعر، يحب سماعه وروايته، وكانت له دراية واسعة بأنساب العرب تعلمها عن أبيه.

وكان عمر في شبابه مثل معظم الشباب القرشيين محبًا للشراب متوافرًا عليه، كما كان له غرام بالغانيات مما جعل الذين يترجمون له يجمعون على أنه كان صاحب خمر ونساء.

وحين اكتمل لعمر شبابه، تاقت نفسه للزواج، وكان ميالًا لكثرة الزوجات طلبًا للولد، فتزوج في حياته من تسع نسوة ولدن له اثني عشر ولدًا".[١]

ولقد ورث عن أبيه الخطاب شدة وغلظة كانت بعض طبعه في شبابه ثم لزمته طول حياته. ورغم اشتغاله بالتجارة فقد ظل متوسط الغنى طيلة حياته، وقد أفادته رحلاته التجارية إلى بلاد فارس والروم قسطًا كبيرًا من الثقافة والعلم فاق ما أفادته من المال والربح، وبذلك تأهل لأن يقوم بأعمال السفارة التي تحتاج إلى مثل هذه المؤهلات. ولذلك كان أكثر اعتدادًا بنفسه، حيث إنه كان من طلاب الحكمة وراغبي المعرفة، وهؤلاء بحكم ثقافتهم لا يذلون كما يذل أصحاب المال والثروات الذين يرون ذلك سببًا من أسباب زيادة الربح واتساع الغنى الذي يبذلون في سبيل تحقيقه كل شيء. ونظرًا لأن عمر بن الخطاب كان من طلاب المعرفة وراغبي الحكمة، فقد كان دائم التفكير في شؤون قومه أملًا في الوصول إلى ما يصلحهم. وكان اعتزازه بنفسه يجعله يتعصب لرأيه تعصبًا يجعله لا يقبل جدلًا فيما اقتنع به، بل يدافع عنه بعنف ويناضل عن رأيه بيد البطش، وإن كان ذلك لم يمنعه من تقليب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه.

ولقد كان ميدان الدين أوسع الميادين لاختلاف الآراء في مكة، حيث جمعت بلاد العرب بين أديان شتى، فاليهودية والنصرانية تجاوران عبادة الأصنام. وتحاول النصرانية أن تحل محل الوثنية بجهود مبشريها، وكان من أثر ذلك أن تحول بعض

(١) انظر الفاروق د/ هيكل ج ١ ص ٣٩.

أفـراد من العرب من الوثنية التـي تصادم منطق العقل والحكمة إلى النصرانية لأنها أكثر سموًا في تصور الإله من الوثنية التي هي عبادة لأحجار لا تضر ولا تنفع. فما موقف عمر تجاه هذه القضية؟ هل استجاب لدعوات المبشرين فصبأ مع الصابئين؟

يجيب الدكتور هيكل بالنفي، ويقول معللًا ثبات عمر على عبادة الأصنام التي تتعـارض مع مقتضى الحكمـة: "كلا، بل كان عمر حربًا على هؤلاء أهول الحرب، وكان يـرى في خروجهم عـلى دين قومهـم تقويضًا لركن الجماعـة العربية، ويرى لذلك محاربتهم والقضاء عليهم حتى لا يسـتفحل أمرهـم. ولعله لم يكن متعصبًا في هـذا الـرأي للأصنام وعبادتها تعصبه لقومه حرصًا على نظامهم وعلى ما يكفله النظام من إمساك كيانهم وشد أزرهم إزاء غيرهم من الأمم".[1]

ومعنى هذا أن الدكتور هيكل يعتقد أن تمسك عمر بعبادة الأوثان لم يكن لرأيه في هـذه العبادة لأنهـا تتعارض مع مقتـضى العقل والحكمة التـي يتمتع بهما عمر، وإنما كان حرصًا منه على النظام السائد في مجتمع مكة والذي يحفظ كيانه ويشد من أزره في مواجهـة غـيره من المجتمعات. ولقد لجأ الدكتـور هيكل إلى هذا التحليل والتفسير حتى لا يتعارض تصرف ابن الخطاب إزاء هذه القضية مع ما أثبته له من عقل وحكمة وثقافة وعلم.

والواقع أن سـلوك الإنسـان لا يخضـع دائمًا لما يتمتع به مـن عقل وحكمة لأن دوافع السلوك الإنساني كثيرة ومتعددة. ففي تكوينه البدني والروحي والأخلاقي مـا يدفعه لسـلوك معـين. ففيه الغرائز والشـهوات، وفيـه الميول والأهـواء، وفيه السـمو الروحـي بجانب السـقوط إلى أحط الـدركات، خاصـة إذا كان في مجتمع جاهلي لا يحكمه دسـتور ولا قانون سـوى ما اصطلح عليه القوم. فلماذا لا يكون تمسك عمر بن الخطاب بالوثنية بعيدًا عن دائرة العقل والحكمة وخاضعًا لما تتيحه عبادة الأصنام من اتباع للشـهوات بلا حـدود وانطلاق في الحياة بلا قيود؟ أليس

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٤١.

كما ذكر الدكتور هيكل أنه كان صاحب خمر ونساء؟ ثم ما هو موقع عمر على الخريطة السياسية في مكة وأين هو النظام الذي يحفظ كيان المجتمع ويشد من أزره إزاء غيره من الأمم؟ هل كان عمر زعيمًا سياسيًا أو مصلحًا اجتماعيًا حتى يكون له هذا الفكر؟ إنه لم يزل بعد يعيش فورة الشباب التي لا هم لها إلا الإشباع المادي والمبالغة فيه.

إن الأقرب إلى الصواب أن تمسك الوثنيين ومنهم عمر بوثنيتهم نابع مما تتيحه لهم هذه الوثنية من إشباع لغريزة التدين في الإنسان بعيدًا عن التكاليف الدينية، فالوثنية دين لا تكاليف فيه ولا منهاج له ولا دستور، والإنسان في ظل الوثنية يفعل ما يراه محققًا لأغراضه ملبيا لشهواته الدنيا في المتاع المادي الذي يأسر الإنسان. فإذا تمسك ابن الخطاب بالوثنية في مقابلة النصرانية باعتبارها ديانة وافدة تهدد النظام الاجتماعي العربي والذي يعتبر الوثنية إحدى دعائم هذا النظام العربي، فلماذا تمسك عمر بالوثنية زمنًا في مواجهة دعوة الإسلام وهي غير وافدة؟

معارضة عمر لدعوة الإسلام:

حين جهر رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله تعرض عليه الصلاة والسلام للإيذاء هو ومن آمن به، فقد أخذ الوثنيون المتعصبون للأصنام من أهل مكة يعذبون المستضعفين ممن أسلموا ليردوهم إلى عبادة الأصنام، وكان عمر بن الخطاب من أشد هؤلاء خصومة للدعوة ومحاربة لها وسعيًا لفتنة الذين اتبعوها. ويرى الدكتور هيكل أن هذه المعارضة العنيفة والحرب المعلنة من جانب عمر لم تكن ناشئة عن جهل، فقد كان من أحكم أهل مكة وأكثرهم علمًا، وإنما كانت حرصًا على نظام مكة ودرءًا للفساد عنها "فقد رأى في متابعة محمد ﷺ تقويضًا لنظام مكة وإثارةً للفساد فيها، ومكة ونظامها وطمأنينة أهلها أحب إليه من محمد ودعوته التي فرقت كلمة قريش وهونت مكانة البلد الحرام".[1]

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٤٣.

ولقد فكر عمر في حل لهذه المشكلة التي تهدد مكة ونظامها حلًا جذريًّا يقضي على أسبابها من جذورها، وذلك بالتخلص ممن تسبب فيها، فعزم على قتل الرسول إذ كان يرى أن وقوف قريش عند حد المناوأة له ولأصحابه مما يذهب بريح مكة ويجعل قريشًا مضغة في أفواه العرب جميعًا بل وربما أدى هذا الأسلوب في المواجهة إلى اشتعال حرب أهلية في مكة، فبالقضاء على أساس الفتنة يكون السلام ويتحقق الوئام بين أهل مكة، وبذلك تستعيد قريش مكانتها بين قبائل العرب جميعًا باعتبارها سادنة لعبادة الأصنام. والأقرب إلى الصواب أن معارضة عمر للإسلام ليس مرجعها هذا الهدف الاجتماعي والسياسي بقدر ما هو الرغبة في استمرار الحياة في ظل النظام الوثني الذي يرخي العنان لإشباع الغرائز والمتاع بالشهوات إلى أبعد مدى.

وحين يكتب الدكتور هيكل سيرة عمر حين عزم على قتل الرسول يلجأ إلى أسلوب تجسيد الأفكار واستبطان حديث النفس ليصور لنا خواطر عمر حين فكر في قتل محمد موضحًا العقبات التي تحول دون تنفيذ هذا العزم، فمحمد من بني هاشم وهم ولا شك مانعوه، ومن بين الذين آمنوا به رهط لهم مكانتهم في قبائلهم التي تمنعهم ولن تسلمهم لمكانتهم فيهم. ورغم كل هذا فقد استقر عزمه على قتل محمد حرصًا على وحدة قريش ومكانتها وحفاظًا على مكة ووحدتها وإرضاءً لآلهة العرب، فإن أصابه في سبيل ذلك مكروه احتمله في سبيل الأهل والدين والوطن.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

وحين يكتب الدكتور هيكل سيرة عمر حين عزم على قتل الرسول يلجأ إلى أسلوب تجسيد الأفكار واستبطان حديث النفس ليصور لنا خواطر عمر حين فكر في قتل محمد موضحًا العقبات التي تحول دون تنفيذ هذا العزم، فمحمد من بني هاشم وهم ولا شك مانعوه، ومن بين الذين آمنوا به رهط لهم مكانتهم في قبائلهم التي تمنعهم ولن تسلمهم لمكانتهم فيهم. ورغم كل هذا فقد استقر عزمه

عـلى قتل محمـد حرصًا على وحـدة قريش ومكانتهـا وحفاظًا على مكـة ووحدتها وإرضـاءً لآلهة العرب، فإن أصابه في سـبيل ذلك مكروه احتمله في سـبيل الأهل والدين والوطن. في حين كان يفكر عمر في التخلص من محمد ودعوته وعزم على ذلك مستهينًا بما يصادفه من عقبات، إذ بيد المقادير الحانية تأخذ به من الضلالة إلى الهدى ومن الوثنية إلى الإسـلام، وكأن القـدر كتب في لوحه الأزلي أن يكون عمر حقًـا مـن أولي الحكمة والنهي، فيعلو فيه نداء العقـل على صوت النزق والطيش، وأن يسير على مقتضى الحكمة بدلًا من أن يستنيم لداعي العصبية والجهالة، وبدلًا مـن أن يقتـل محمـدًا ﷺ ليطفئ الجـذوة التي تنير ظلـمات الحيـاة، إذا به يصير من أتباعـه الذين حملوا شـعلة الإيمان إلى العالمـين ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.[1]

يقـف الدكتور هيكل مشـدوهًا مبهورًا أمام هذا التحـول العظيم في حياة عمر الـذي يبدو وكأنـه انقلاب مفاجئ حدث بلا مقدمات. والواقع أن العقل لا يحيل وقـوع مثل هذه التحـولات التي تبدو مفاجئـة، لأنها في الحقيقة لها أسـبابها وربما تكون خفية، ولكن خفاءها لا ينفيها.

الروايات في أسباب إسلام عمر ونقدها:

يسـتعرض الدكتور هيكل الروايات في سـبب إسـلام عمر، فيذكر أن أشهرها أنـه قد ضـاق ذرعًا بمحمد ودعوته ولاحـق المؤمنين به إيذاءً وتعذيبًا. فلما اشـتد إيـذاء المشركين للمؤمنين بمحمد، أشـار عليهـم الرسـول أن يتفرقوا في الأرض فرارًا إلى الله بدينهم، ونصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فخرجوا مهاجرين إليها. فلما رآهم عمر مرتحلين، رقّ لهم وشـعر بالوحشـة لفراقهم، وفكر في الوسيلة التي تنقذهم مما هم فيه وتعيد إلى مكة السكينة وإلى أهلها الوحدة والهدوء والاستقرار. ولم تكن هذه الوسيلة في نظره إلا القضاء على أساس

(١) سورة الجمعة الآية: ٤.

الفتنة بقتل محمد، وعزم على تنفيذ هذا الحل، فغدا يومًا متوشحًا سيفه يريد محمدًا ورهطًا من أصحابه ذكر له أنهم اجتمعوا بدار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا.

ولقيه في طريقه نعيم بن عبد الله، فسأله عن وجهته، فأخبره أنه يريد محمدًا ليخلص قريشًا مما نزل بها بشؤم دعوته. عند ذلك ذكره بمغبة هذا الفعل، فلن يترك بنو عبد مناف قاتل محمد يمشي على الأرض، ودله على ما هو أجدى من ذلك، حيث صبأت أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو. على ذلك توجه إلى دار فاطمة هائجًا من هول ما سمع، واعترفت أخته بأنها وزوجها قد تابعا محمدًا بعد أن شجّها وهي تدافع عن زوجها حين همّ بالبطش به، فاعترضته لتنال من أخيها ضربة شجّتها. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم، تحركت فيه عاطفة الأخوة وندم على ما صنع، وطلب إلى أخته أن تعطيه الصحيفة فقرأ فيها ما هو مكتوب من سورة طه. بعد ذلك توجه إلى رسول الله ﷺ بدار الأرقم ليعلن إسلامه.

وهناك روايات أخرى، منها ما روي عن عمر أنه ذهب إلى البيت الحرام ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فاختبأ تحت ثياب الكعبة حتى لا يزعج رسول الله، واستمع إلى الرسول ﷺ يقرأ في الصلاة بسورة الحاقة، فأخذ القرآن بمجامع قلبه، فرّق له وبكى ودخل الإسلام. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، انصرف قاصدًا بيته، تبعه عمر ليعلن إسلامه لله رب العالمين.

ويعلق الدكتور هيكل على هاتين الروايتين وغيرهما بأنها جميعًا "إنما تصور اليوم الذي ترك فيه عمر دين آبائه وأجداده وأشهد رسول الله على إيمانه بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، لكنها جميعًا لا تصور التحول النفسي الذي أدى بعمر إلى أن يسلم".[1]

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٤٨.

الدافع النفسي لإسلام عمر وأثره في تمحيص الروايات التاريخية:

يتساءل الدكتور هيكل: هل كان إسلام عمر حدثًا مفاجئًا ليس له مقدمات؟ أم سبقه إعمال فكر أدى إلى اقتناعه بالإسلام؟ وهو في محاولة للإجابة عن هذا التساؤل يستعرض صفات عمر النفسية، وأبرزها ما يأتي:

١- الإيمان بالقوة في كل مظاهرها.

٢- رقة القلب ودقة الحس رغم شدته وقوته.

٣- أنه رجل عمل، وقيمة الأفكار عنده إنما تنبع من أثرها في الحياة.

٤- أنه رجل نظام.

وهذه الصفات مجتمعة تفسر لنا الدافع وراء إسلام عمر رضي الله عنه.

فحين رأى المسلمين يتحملون الأذى في سبيل دينهم ورآهم لا يثيرون في الأرض فسادًا، عاد يفكر في أمرهم وفي موقفه منهم. فهؤلاء القوم أوذوا في سبيل عقيدتهم فما استكانوا وما ضعفوا، فلما اشتد بهم الأذى آثروا التضحية بوطنهم على التضحية بعقيدتهم فركبوا البحر مهاجرين فرارًا إلى الله بدينهم. وبذلك أدرك أن دين الإسلام ليس مجرد فكرة نظرية بل هو قوة دافعة عظيمة الأثر في الحياة. وحين يتبع عمر هذا الأسلوب في التفكير والتقدير، فليس بمستغرب منه، فإن لديه من الثقافة والعلم ما يمكنه من النظر في الإسلام نظر الناقد البصير بعدما كان ينظر إليه نظر المتعصب الحاقد. وكيف يتعصب أو يحقد وليست هناك منافسة أو عداوة بين بني عدي رهط عمر وبين بني عبد مناف رهط النبي ﷺ.

وبعد هذا التصوير للدافع النفسي وراء إسلام عمر، وهو يؤكد أنه أسلم عن بينة واقتناع بعد إعمال فكر ونظر، متأثرًا بقوة إيمان النبي والمؤمنين معه، إيمانًا هانت أمامه كل قوى البطش والظلم والأذى، وبعد أن رأى أثر هذه العقيدة في النفوس وفي الحياة، وبعد أن تحركت فيه رقة القلب وحبه للعدل، "ذهب يستتر

بثياب الكعبة ليرى محمدًا ﷺ وليسمع ما يتلو في صلواته من قرآن ربه، ولهذا حرص على أن يتلو سورة طه في الصحيفة التي كانت عند أخته. ولقد نظر في هذا كله وأطال فيه الفكر فاهتدى، فأيد الله به دينه ونصر به رسوله ﷺ".[١]

وبعد تصوير الدكتور هيكل للدافع النفسي لإسلام عمر، يستخدمه في ترجيح الروايات الواردة في إسلامه. وبناء على هذا التصوير يرى أن الرواية المشهورة في إسلام عمر، وهي أنه ذهب ليقتل محمدًا وهو في أصحابه عند الصفا لولا أن هداه الله حين قرأ الصحيفة التي كان خباب يقرؤها أخت عمر وزوجها، رواية مرجوحة ولا تثبت للنقد إذ ليس من المعقول أن يقصد عمر إلى قتل محمد بالسيف وهو بين أربعين من أصحابه فيهم حمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهما من أبطال مكة. والراجح ما ورد في الرواية الثانية على لسان عمر نفسه، وهو ما أيده ابن حنبل في مسنده.

إعلان عمر لإسلامه وتحمله الأذى في سبيل الله:

لما شرح الله صدر عمر بن الخطاب للإسلام وأسلم لم يكتم إسلامه، بل أذاعه وأشاعه بين القوم وهو في هذا منطقي مع نفسه، فلقد حارب الإسلام قبل اقتناعه به أشد الحرب، فلما دخل الإسلام قلبه ناصره بنفس الحمية والقوة بل بأشد منها، فأظهر إسلامه متحديًا صناديد قريش الذين آذوه أشد الإيذاء وثاروا به حتى كادوا يقتلونه، لولا أن أجاره العاص بن وائل السهمي. وفي ظل هذا الجوار ازداد عمر جرأة في إسلامه تحديًا لقريش ودفعًا لأذاها عن المسلمين، وبذلك برزت شخصية عمر وكان له من المواقف ما لم يكن لغيره من الذين سبقوه إلى الإسلام.

الأثر الإيجابي لإسلام عمر رضي الله عنه :

لما أسلم عمر سأل رسول الله عليه وسلم: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ص ٥١.

متـم أو حييتم. فقال عمر: ففيم الاختفاء، والذي بعثك بالحق لتخرجن. فما لبث النبـي ﷺ أن خرج في صفين، أحدهما فيه عمـر والآخر فيه حمزة، وبذلك انتقلت الدعوة إلى طور جديد تحولت فيه إلى الإيجابية والمبادأة، وعمل عمر جاهدًا ليكون للمسلمين ما لغيرهم من حق في بيت الله والصلاة لله حوله.

وتحول المسلمون بذلك إلى موقف النضال ليكون لهم من الحقوق ما لغيرهم من قريش، وليكون لهم من حرية الدعوة إلى دينهم مالا سـبيل لقريش أو لغير قريش أن تقف دونه. وكان لهذه الإيجابية أثرها في اعتناق الكثيرين للإسـلام بعد أن كان يمنعهـم الخوف من الإيـذاء عن إعلان إسـلامهم. فلما رأت قريـش هذا الإقبال على محمد ودعوته، تعاهدت قبائلها على مقاطعة بني هاشـم وبني المطلب مقاطعة تامة، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة احترامًا لهذا العهد. وبذلك عادت الهجمة ضد الإسـلام والمسلمين أشـد ضراوة مما كانت، وأصابت عمر بن الخطـاب، فثبت لها ولم يزده ذلك إلا تمسـكًا بالإسـلام وتفانيًـا في نصرته. وبذلك صدقت فراسـة النبـي ﷺ حين تطلع إلى أن يعز الله الإسـلام بأحب الرجلين إليه عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب، فكان ذلك الحظ من نصيب ابن الخطاب.

يقول عبد الله بن مسـعود في شـأن عمر: كان إسلامه فتحًا. وكان يقول: مازلنا أعزة منذ أسـلم عمر. وكان صهيب بن سـنان يقول: لما أسلم عمر أظهر الإسلام ودعـا إليه علانية وجلسـنا حـول البيت حلقًا وطفنـا بالبيـت وانتصفنا ممن غلظ ورددنا عليه بعض ما يأتي به".[١]

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٥٣.

"المبحث الثاني"

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عمر بن الخطاب

مع

رسول الله ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنهما

عمر في صحبة النبي ﷺ في مكة:

حين تناول الدكتور هيكل هذه الفترة من حياة عمر منذ إسلامه وحتى هجرته أوضح أن الظروف التي مرت بها الدعوة إبان هذه الفترة كانت من أدق الظروف، فهي تمثل مرحلة الانتقال من المقاومة السلبية إلى مرحلة الانطلاق والعمل الإيجابي. ومن المعروف أن عمر ربما لا تظهر كل مواهبه المتوثبة في مثل هذه الظروف، ولكن بلا شك كما يرى الدكتور هيكل كان لعمر دوره في هذه الفترة الهامة من حياة الدعوة، إذ لا يعقل أن يقف عمر موقف المتفرج حيال هذه الصعاب بما عرف عنه من صراحة وشدة بأس وقوة شكيمة. وتمثل هذا الدور في الآتي:

١- شجاعته في احتمال الأذى مع المسلمين بصبر جميل لا ينفد وعزيمة صارمة لا تلين.

٢- مساهمته في دفع الأذى عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين.

٣- اتباع النظام في المجابهة والدعوة إلى الله حد من ظهور بأس عمر وشدته.

ولما أراد الله لدينه نصرًا وعزة، فتح له قلوب جماعة من أهل يثرب حين دعاهم الرسول إلى الإسلام، وهم في مكة يحجون البيت الحرام. وعادوا في العام التالي أكثر عددًا وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية على أن يمنعوه مما يمنعون منه

نساءهم وأبناءهم. عندئذ أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يلحقوا بالأنصار في يثرب على أن يخرجوا متفرقين حتى لا تثور بهم قريش.

وكان عمر رضي الله عنه هؤلاء المهاجرين. وتجري الرواية بأن عمر عندما عزم الهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهمًا ومضى إلى الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المناطس، من أراد أن تثكله أمه أو يُيتم ولده أو تُرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي.

ويرى الدكتور هيكل أن هذه الرواية مرجوحة، وأن الراجح أن عمر هاجر إلى المدينة سرًا كما هاجر غيره من المسلمين، وذلك لما يأتي:

١- أن الرواية التي تذهب إلى أن عمر هاجر جهرًا متحديًا قريشًا لا يثبتها ابن هشام ولا ابن سعد ولا الطبري، وإنما الثابت عند ابن هشام وابن سعد أن رسول الله ﷺ أذن للناس في الهجرة على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا تثور بهم قريش. قال عمر بن الخطاب: فكنت قد اتعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل، وكنا إنما نخرج سرًا، فقلنا أيكم ما تخلف عن الموعد فلينطلق صاحباه، فخرجت أنا وعياش بن أبي ربيعة واحتبس هشام بن العاص فُتن فيمن فُتن".[١]

٢- أن عمر رضي الله عنه رجل نظام، فهو يتبع الجماعة ويحمل غيره على اتباعها، وقد كان المسلمون يخرجون جميعًا في هجرتهم سرًا، فلا عجب أن يجاريهم عمر في ذلك حرصًا منه على نظامهم، وحتى لا يشعر الذين يخرجون سرًا بأنهم دون عمر في قوة إيمانه بالله ورسوله".[٢]

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٥٧.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٥٨.

عمر في صحبة النبي ﷺ بالمدينة:

حين هاجر النبي ﷺ بصحبة الصديق رضي الله عنه من مكة إلى يثرب كان عمر فيمن استقبله عند وصوله إلى قباء، وسار في ركبه إلى المدينة وشارك مع المسلمين في بناء بيت رسول الله ﷺ. وكانت الهجرة بدء عهد جديد وسياسة جديدة في حياة الإسلام والمسلمين، فقد أصبح للإسلام دولة بعد أن اكتمل للمسلمين مقومات بناء الدولة من أرض وشعب وقيادة ونظام، فعلا بذلك صوت المسلمين وقويت كلمتهم. وأراد رسول الله ﷺ أن يزيد المسلمين رفعة ويقوي رابطتهم، فآخى بين المهاجرين والأنصار، فكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وذلك على المشهور المتواتر من الروايات.

وكان من أثر هذه القوة أن وادع سكان المدينة من المشركين واليهود رسول الله ﷺ، وعقدوا معه عهدًا يقرر ويصون حرية العقيدة وحرية الرأي، ويحفظ حرمة المدينة وحرمة الأموال والدماء، وينبذ الجريمة، ويقرر التعاون بين سكان المدينة في دفع المعتدين عليها.

وفي هذا الجو الجديد، تفتحت أمام مواهب عمر بن الخطاب ميادين كثيرة لم تكن مفتوحة أمامه بمكة. ويرصد الدكتور هيكل مساهمات عمر في حياة المسلمين العامة بعد الهجرة في نقاط أهمها:

١ - اهتمامه بما يعرض للمسلمين من مشكلات ومن أمور تقتضي إعمال الفكر:

ويظهر ذلك حين اجتمع الرسول والمسلمون يتشاورون في اختيار وسيلة يعلمون المسلمين بها بدخول وقت الصلاة لما في المبادرة بالصلاة أول الوقت من فضيلة، وحتى يجتمع المسلمون لشهود الجماعة التي تزيد في الأجر أضعافًا كثيرة. وانفض المجلس دون الاهتداء إلى حل سليم، ونام عمر مشغولًا بهذا الأمر فرأى في المنام الأذان للصلاة، فذهب إلى الرسول ﷺ يخبره بما رأى.

فهـذا يدل على مدى اهتمام عمر بأمور المسـلمين، اهتمامًا ملـك عليه جوارحه يقظـة ومنامًا. ومن ذلك اجتهاده في أسرى بدر من المشركين، حين استشـار النبي أصحابه بشـأنهم، فكان رأي عمر الشـدة كل الشـدة والبأس غاية البأس. قال: يا رسـول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة يوطئ الله بها للإسـلام ويذل بهم الشرك. ولكن رسـول الله ﷺ جنـح لـرأي أبي بكر وقبـل الفداء، فنزل القـرآن الكريم بقـول الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.[1] "وكان عمر محُدثًا فيما أبدى من رأي في هؤلاء الأسرى".[2]

ومن ذلك اهتمامه بما تحدثه الخمر من آثار سـيئة في الفرد والجماعة فدعا ربه أن يبين للمسلمين في الخمر بيانا شافيا فكان تحريم الله لها.

ومن ذلك اهتمامه بما تحدثه الخمر من آثار سيئة في الفرد والجماعة، فدعا ربه أن يبين للمسلمين في الخمر بيانًا شافيًا، فكان تحريم الله لها.

ومـن ذلـك اهتمامه بمشـكلة دخول الفتيـان والصغار على الآبـاء والأمهات، وربـما أدى ذلـك إلى اطلاع هؤلاء الصغار على أمور لا يجوز لهم أن يطلعوا عليها، حفاظًا على حسـن نشـأتهم وتربيتهم تربية سـليمة، فنزل الوحي ينظم هذا الأمر، قـال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾.[3]

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٧، ٦٨.

(٢) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٦١.

(٣) سورة النور الآية: ٥٨.

ونظـرًا لمـا يتمتـع به عمر مـن رأي صائب حـرص النبي ﷺ على اسـتبقائه إلى جواره، فلم يرسله على رأس سرية أو مهمة خارج المدينة.

٢- صراحته في قول الحق بين يدي رسول الله ﷺ حرصًا منه على دين الإسلام:

فلقـد كان عمـر رضي الله عنه ثلًا فذًا في التعبـير عن رأيه والدفاع عنه بين يدي رسـول الله ﷺ، ولقـد كان مبعـث ذلك حرصه على دين الإسـلام وعلى كرامة المسـلمين ومكانـة رسـول الله ﷺ. ويـضرب الدكتور هيـكل الأمثلة التـي توضح ذلك في مواقف متعددة، منها:

أ- موقفه من عبد الله بن أُبَيّ رأس المنافقين:

فحين تطاول هذا اللعين على رسـول الله وعلى المسـلمين من المهاجرين قائلًا: "أمـا والله لئـن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منهـا الأذل". وبلغت هذه المقولة رسول الله ﷺ وعنده عمر، هاج عمر بن الخطاب وقال: "يا رسول الله مر به عباد بن بشر فليقتله". ولكن رسول الله ﷺ أبى وقال: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه".

ولمـا مات ابـن أُبَيّ وهمّ النبـي بالصلاة عليـه، وقف عمر يذكـره بكيد الرجل للإسـلام، ولكن الرسول ﷺ صلى عليه ومشى معه حتى فرغ منه، وينزل الوحي يؤيد رأي عمـر بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.(١)

ب- موقفه عند صلح الحديبية:

فعندمـا خـرج رسـول الله ﷺ في العام السـادس من الهجرة قاصـدًا مكة زائرًا للبيت الحرام، وقفت له قريش وأقسمت ألا يدخلها عليهم عنوة، فنزل رسول الله ﷺ الحديبية بأصحابه، وبعث بعثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش ليعلمهم أن رسـول

(١) سورة التوبة الآية: ٨٤.

الله ﷺ لم يـأت غازيًـا وإنما جـاء معظمًا لبيت الله. وعاد عثمان من سـفارته لقريش يذكر أنها تأبى على المسلمين أن يدخلوا مكة هذا العام ولكنها لا تأبى المفاوضة.

واتصـل الحديث بـين الفريقـين للوصول إلى بنـود الصلح. ولقـد ضاق عمر صـدرًا بما كان يعرضـه المشركون من شروط كان يقبلها رسـول الله ﷺ حتى لقد وثب عمر فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسـول الله؟ قال أبو بكر: بلى، قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال أبو بكر: بلى، قال عمر: أو ليسوا بالمشركين؟ قال أبو بكـر: بلى، قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: الزم غرزك يا عمر فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

وبعد هذا الحوار لم تهدأ ثورة عمر، وإنما ذهب مغضبًا إلى رسول الله ﷺ وأعاد الحوار مع الرسـول قائلًا: يا رسـول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال رسـول الله ﷺ: أنا عبد الله ورسـوله لن أخالف أمره ولن يضيعني. وسكت عمر لهذا الجواب، وكان يقول من بعد: ما زلت أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرًا.(١)

وبمثـل هذه الصراحـة والوضوح في إبداء الرأي وصـولًا للحق حاز عمر ثقة رسول الله ﷺ، فكان وزيره هو والصديق رضي الله عنهما.

٣- اهتمام عمر رضي الله عنه بشئون النبي ﷺ:

إلى جانب اهتمام الفاروق رضي الله عنه بشؤون المسلمين العامة، فقد اهتم أيضًا بشؤون النبي الخاصة لأن شؤونه ﷺ الخاصة هي من باب الشؤون العامة للمسلمين، فهو قدوتهم وأسـوتهم وهو مرشـدهم وهاديهم إلى الخير والرشـاد في الدنيا والآخرة، ومن هنا كان اهتمام عمر بها.

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٦٥.

ويضرب الدكتور هيكل أمثلة من هذا الاهتمام منها:

أ- موقفه من حجاب نساء النبي أمهات المؤمنين:

فقد كان عمر ﷺ شديد الغيرة خاصة على أمهات المؤمنين، وقد كلم رسول الله ﷺ في هذا الشأن فقال له: "يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو احتجبن". بل وطلب منه ذلك صراحة فقال لرسول الله ﷺ: "احجب نساءك". ولكنه لم يفعل حتى أنزل الله آيات الحجاب وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾.(١)

وهكذا يبذل عمر فكره ورأيه ونصحه حفاظًا على كرامة البيت النبوي.

ب- موقف عمر حين توترت العلاقة بين رسول الله ﷺ وأزواجه:

والحياة الزوجية لا تخلو من المنغصات حتى ولو كانت حياة النبي مع أمهات المؤمنين، هذه سنة الله في الخلق. وقد بلغ التوتر في العلاقة بين النبي وأزواجه إلى حد أنه اعتزلهن ﷺ. فلما علم عمر بالأمر أسرع إلى رسول الله في مشربته وغلامه على رأس الدرج، فاستأذن عمر عليه فأذن له، فجعل عمر يكلم رسول الله ﷺ ويسري عنه ويقول: "يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك". ثم أخذ يكلم النبي ويخفف عنه حتى ذهب الغضب عن وجهه وضحك ﷺ.

ويُروى أن عمر دخل على نساء النبي حين اعتزلهن وقال لهن: "إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن". وأجابته إحداهن قائلة: "يا عمر أما في رسول الله

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٢، ٣٣.

ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت".[١]

وبهذا يتضح أن عمر ﷺ كان دائم العناية بشؤون رسول الله ﷺ، فحياته تشريع وهو الأسوة والقدوة للمسلمين جميعًا. ومن هنا كان اهتمام عمر بشؤون النبي اهتمامًا يعكس مدى حبه لرسول الله وحرصه على دين الإسلام أن يكون تامًا وكاملًا وعزيزًا.

عمر ﷺ في صحبة الصديق:

حين تناول الدكتور هيكل هذه الحقبة من حياة عمر، والتي تبدأ بموت النبي ومبايعة الصديق خليفة لرسول الله، وحتى وفاة الصديق ﷺ ، والتي تشمل مدة خلافة أبي بكر، بيّن دور عمر في حياة المسلمين خلال هذه الفترة مساعدًا ووزيرًا للصديق في أدق المراحل التي مرت بها دولة الإسلام، ألا وهي مرحلة تثبيت دعائم الدولة الإسلامية في جزيرة العرب ومحاربة المرتدين ثم الانطلاق بالدعوة الإسلامية إلى ممالك الفرس والروم. وطبيعي أن ذكر هذه المواقف في التأريخ للصديق يغني عن إعادتها هنا، ولكن لا مانع من ذكرها هنا على وجه الإجمال لما سبق تفصيله، حيث إن هذا هو منهج الدكتور هيكل، فهو لا يحيل إلى ما سبق، وإنما يذكره كأنما يقوله لأول مرة، فلأجارِه في منهجه، وأهم هذه المواقف:

١ - اهتمام عمر بأمر المسلمين بعد موت رسول الله:

فقد أيقن أنه لا بد للمسلمين من راعٍ يرعى شؤونهم ويدبر مصالحهم. وبهذا فإن عمر قد أدرك أن مهمة النبي كانت مهمة دينية ودنيوية، فأما الجانب الديني فهو الرسالة والنبوة، وقد خُتمت به ﷺ، وأما المهمة الدنيوية فهي سياسة المسلمين ورعاية مصالحهم وتطبيق شرع الله، وهذا هو واجب حكام المسلمين يقومون به. ومن هنا فلا صحة لما يقال من أن مهمة النبي كانت دينية فقط وهي تبليغ رسالة الله، وإلا لكان مقتضى ذلك أن يكون للمسلمين من يرعى شؤونهم حال حياة

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٦٨

النبي، وهو ما لم يحدث، فدل ذلك على أنه كان للرسول مهمة دنيوية، وهي التي يتولاها من بعده الخلفاء.

وهكذا فكر عمر فيمن يسوس المسلمين بعد موت رسول الله، وقال لأبي عبيدة: "ابسط يدك أبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ".

٢- دور عمر في حسم الموقف في سقيفة بني ساعدة:

أيضًا كان لعمر دور حاسم في اجتماع السقيفة وحسمه ببيعة أبي بكر، فقد أخذ المهاجرون والأنصار كل يدلي بحججه ليؤيد حقه في خلافة رسول الله، وكاد ينشب الخلاف بينهم. وفي الوقت المناسب قطع عمر دابر الجدال، لما رأى الناس قد اختلفوا لم يدع فرصة للخلاف أن تنبت شجرته، إذ قام فنادى بصوته الجهوري: "ابسط يدك يا أبا بكر". وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول: "ألم يأمر النبي أن تصلي أنت بالمسلمين؟ فأنت خليفة رسول الله، فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعًا".(١)

وبهذا الحسم من عمر وفق الله المجتمعين وهداهم إلى الحق وجمعهم على أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ.

٣- اتجاهه السياسي:

والاتجاه السياسي هو الإطار العام الذي يحكم ولي الأمر عند اتخاذ القرارات الخاصة بتسيير أمور الدولة وشؤونها العامة.

وقد كان الاتجاه السياسي لأبي بكر رضي الله عنه بعد بيعته خليفة هو الالتزام الصارم بسنة رسول الله ﷺ بألا يدع أمرًا كان رسول الله ﷺ يصنعه وألا يصنع أمرًا كان يدعه رسول الله. أما عمر فكان يرى واجبًا على السياسي أن يقيم وزنًا لكل ما حوله من الأحداث، فبعد أن انقطع الوحي بموت الرسول ﷺ وجب على

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٧٤.

خليفته أن يكون السياسي الذي يدبر الأمور بثاقب فكره وحسن بصره بالأمور بعد أن لم يبقَ لغير البصر بالأمور تدبير أو سلطان، وهذا اختلاف جوهري بين الرجلين في سياسة الدولة، ولكن هذا الاختلاف لم يكن ليجني على تقدير أحدهما لصاحبه ومحبته إياه واحترامه له.[١]

وقد ظهر أثر هذا الاختلاف في الاتجاه السياسي بين أبي بكر وعمر في مراجعة كل منهما صاحبه في مواجهة المواقف الصعبة التي ألّمت بالمسلمين في خلافة أبي بكر. فإذا اتضح الصواب وظهر الحق أذعن الرجلان له وانتهى الخلاف ولم يبقَ إلا الأخذ بالصواب من الخليفة، وإلا السمع والطاعة من وزيره عمر. فمثلًا كان أول قرار اتخذه أبو بكر بعد بيعته إتمام بعث أسامة الذي أمر به رسول الله وجعل لواءه وقيادته لأسامة بن زيد ﵄ لغزو الروم. وحين أصدر أبو بكر قراره بإتمام بعث أسامة، لم يجعل للظروف المحيطة أي تأثير على تنفيذه مهما كان الحال ومهما اشتدت الخطوب، ولم يقبل أي مساومة لأن رسول الله ﷺ هو الذي أمر به، وحال دون تنفيذه في حياته ﷺ ظروف مرضه الذي توفي فيه، ولم يقبل حتى تغيير القائد محتجًا: "استعمله رسول الله وتأمرني أن أنزعه؟".

أما عمر بن الخطاب فكان يرى غير هذا الرأي، بل أخذ على عاتقه إبلاغ رأي المعارضين لهذا القرار من المسلمين. ولكن أبا بكر لم يقبل أي اقتراح ونفذ الأمر كما أمر به رسول الله ﷺ، فما كان من عمر إلا أن سمع وأطاع من غير شقاق ولا اعتراض، وسار تحت قيادة أسامة إلى أن استأذن أبو بكر قائد الجيش في أن يترك له عمر، فأذن له.

كما ظهر أثر هذا الخلاف حين عزم الله لأبي بكر على قتال من منعوا الزكاة، وقال قولته المشهورة: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه". وكان من رأي عمر أن يوادع

(١) المرجع السابق ص ٧٥.

هؤلاء والاستعانة بهم في قتال المرتدين، وراجع عمر أبا بكر في ذلك، فأدلى أبو بكر بحجته، فما كان من عمر إلا أن سمع وأطاع، وسار إلى جانب الصديق يؤازره في القضاء على هذه الفتنة.

وظهر أثر هذا الاختلاف عندما فكر عمر في جمع القرآن، بعد أن استحر القتل في حفاظ القرآن في حروب الردة، خاصة في حرب اليمامة. فلما عرض عمر الفكرة على أبي بكر، سأل متعجبًا: "كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟" فما زال عمر به حتى شرح الله صدر أبي بكر لما شرح له صدر عمر، واستجاب أبو بكر لاقتراح عمر بعد أن علم أنه خير.

ومن المواقف التي ظهر فيها أثر هذا الاختلاف في الاتجاه السياسي، موقف الرجلين من خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقد كان عمر يرى أن خالدًا ارتكب ما يوجب عزله ومحاكمته، في حين أن أبا بكر كان يرى خلاف هذا الرأي، فإن خالدًا سيف سله الله على الكافرين كما قال ذلك الرسول ﷺ، "ومثل هذا السيف يجب ألا يغمد حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وبقي خالد أميرًا وقائدًا طول عهد الصديق. فلما تولى عمر الأمر من بعده عزله عن القيادة وعن عمله كله. والدكتور هيكل يعزو هذا الخلاف في أمر خالد بن الوليد بين أبي بكر وعمر إلى اختلاف الطبائع بين الرجلين وإلى اتجاه كل منهما في سياسة الدولة.[1]

٤ - التحول في الاتجاه السياسي لعمر وأثره في استخلافه:

يرى الدكتور هيكل أن تغيرًا طرأ على الاتجاه السياسي لدى عمر بن الخطاب، وظهر هذا التغير في موقفه من غزو الشام. إذ من المعروف أن عمر كان رجل مشورة وحسن سياسة أكثر منه رجل مواقع وغزوات، وكان قد خالف رأي أبي بكر أول الأمر في قتال من منعوا الزكاة كما ودَّ ألا يتم بعث أسامة نظرًا لحرج الموقف. فلما رأى أن سياسة الجهاد والحزم تؤدي إلى الرفعة والنصر، آمن بها وأيَّد أبا بكر فيها بكل

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٨٠.

قوته، ويعتبر الدكتور هيكل هذا تغيرًا في الاتجاه السياسي لدى عمر بن الخطاب.

وقد ظهر أثر هذا التغير عندما عزم أبو بكر على متابعة الجهاد وفتح الشام واستشار أهل الرأي في ذلك، وطلب منهم الرأي. رد عمر بالموافقة على هذا العزم وأثنى على أبي بكر سبقه إليه، فقد وفق الله به إلى سبل الرشاد، ثم قدَّم إليه رأيه في خطة هذا الغزو. وحين رأى تقاعس الحاضرين عن إجابة أبي بكر حين دعاهم للتجهز للغزو، صاح فيهم عمر: "مالكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم". وهزت هذه الصيحة مشاعر الحاضرين، فرضوا بالجهاد.

ويعلل الدكتور هيكل سبب هذا التغير بأن عمر كان رجلًا عمليًّا لا يقيم وزنًا للفكرة من حيث هي فكرة، بل من حيث ما تترك من أثر في واقع الحياة. فهو قد كان لسياسة أبي بكر في القتال مباعدًا، فلما رأى نجاح هذه السياسة في القضاء على المرتدين وفتح العراق، عندئذ انقلب عمر يؤيدها بكل قوته، كما أسلم فانقلب يؤيد الإسلام بكل قوته. وقد كان لهذا الاتجاه الجديد في تفكير عمر أثره من بعد في استخلاف أبي بكر إياه وفي نجاح سياسة الفتح التي بدأها أبو بكر.[١]

وهذا التفريع والاستنتاج من الدكتور هيكل محل نظر، ذلك أن عمر لم يكن مباعدًا لسياسة أبي بكر في القتال، إذ كيف يتأتى ذلك وهو وزيره ومساعده الأول في القيام بأمر المسلمين؟ وإنما هو مناقشة الرأي وترتيب الأولويات فقط وليست المباعدة والمعارضة، حتى تظهر الآثار الحسنة للقتال في التمكين والنصر وفتح العراق فيؤمن بها عمر. لأن آثار الجهاد معروفة، وجنى المسلمون ثمارها تحت قيادة رسول الله ﷺ، وذكرها الله في القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٨٤.

(٢) سورة الصف الآية: ١٣.

وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.[1]

إذن فالجهاد في سبيل الله لم يكن فكرة مجردة حتى طبقها أبو بكر في واقع المسلمين حينما حارب المرتدين وفتح العراق، وإنما هو مبدأ ثابت قامت عليه دولة الإسلام من يوم بدر، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٥- الاتجاه الفكري لعمر بن الخطاب من الناحية الاجتماعية:

يرى الدكتور هيكل رحمه الله أن تفكير عمر من الناحية الاجتماعية كان يخالف تفكير أبي بكر في عدة أمور جوهرية، مخالفة تبلغ في بعض الأحيان حد المناقضة. ومن ذلك أن أبا بكر كان شديد الحرص على المساواة بين المسلمين جميعًا في العطاء، لا يفرق بين عربي وعجمي ولا بين السابقين إلى الإسلام واللاحقين بهم، وفي المشورة وإبداء الرأي. وحين قيل له أن يفضل السابقين إلى الإسلام في العطاء على قدر منازلهم، كان جوابه: "إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغ". وحين أراد غزو الشام دعا أهل مكة يشاورهم في ذلك ويستمدهم إليه كما فعل مع أهل المدينة، لأنه كان يرى أن أمر المسلمين شورى بينهم جميعًا، لا يستبد به أهل السابقة في الإسلام. أما عمر فكان يميل بتفكيره إلى نظام الطبقات، إذ كان يؤثر السابقين إلى الإسلام ويؤثر أهل البيت على هؤلاء السابقين. وهو قد عبر عن رأيه هذا حين شاور أبو بكر أهل مكة في غزو الشام، فقد عارضه في ذلك معارضة أساسها الحرص على أن يكون للمهاجرين والأنصار، وهم السابقون إلى الإسلام، أولوية الرأي والسلطان على سائر المسلمين.

ويعلق الدكتور هيكل على هذا التفضيل من عمر للسابقين وتفضيل أهل بدر وتفضيل آل البيت بأن ذلك لم يكن مصدره الهوى، وإنما الاقتناع بما لهؤلاء من منزلة قد سمت بهم وما لهم من أثر في الإسلام ليس لغيرهم. ويلاحظ أن هذا

(١) سورة التوبة الآية: ١٤، ١٥.

التفضيل لم يكن له أي أثر في معاملته لهؤلاء جميعًا وفي عدله بينهم في خلافة أبي بكر وفي خلافته من بعده، ذلك أنه كان مفطورًا على العدل وكمل في نفسه معناه وتجسمت في بصيرته صورته.(١)

وهذا رأي يحتاج إلى مناقشة وتمحيص، وسأتناوله إن شاء الله عند الكلام عن سياسة عمر ابن الخطاب في العطاء، وأثرها في الناحية الاجتماعية.

١ - استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

كان آخر الأعمال الجليلة والقرارات العظيمة التي ختم بها أبو بكر حياته المباركة قراره باستخلاف عمر على المسلمين من بعده. ففي أخريات حياته وحين اشتد به المرض وشعر بأنه مشرف على الموت قرر استخلاف عمر من بعده، ولم يتخذ قراره بذلك مستبدًا به من دون المسلمين أو متأثرًا بهوى يكنه لابن الخطاب، وإنما استشار أصحاب رسول الله ﷺ فيه، فوفقوه على هذا الاستخلاف بحرية تامة وإحساس بالمسؤولية، حتى إن من كانت له ملحوظة على عمر أبداها صراحة وبلا مواربة أو مداهنة. وهكذا كان أصحاب النبي الذين رباهم كما أراد الله على الحرية التامة والشجاعة الكاملة، حتى إنهم كانوا ليراجعون رسول الله ﷺ ويدلون بالرأي فيما لم ينزل به وحي من عند الله، وكان دائمًا ما يوجه إليهم الخطاب في مناسبات كثيرة قائلًا: "أشيروا علي أيها الناس".

ولقد كانت هذه الملاحظات تنصب على ما بعمر من شدة وغلظة هي بعض طبعه وبضعة من خلقه، ولكن أبا بكر وهو الذي يفهم عمر على حقيقته طمأنهم وبيَّن لهم السبب في شدة عمر بأنه يراني رفيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه. وأوضح لهم من خلال ممارسته للعمل معه أنه وجده على عكس ما يظنون، فقد كان إذا غضب أبو بكر على الرجل أراه الرضا عنه وإذا لان له أراه الشدة عليه. فاستطاع أبو بكر أن يطمئن أصحاب هذه المخاوف وأن يزيل أثرها من نفوسهم.

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٨٥.

وبعد موافقة أصحاب الرأي والمشورة ورضاهم بهذا الاستخلاف، أراد أبو بكر أن يجمع المسلمين على هذا الرضا، فأشرف على المسلمين بالمسجد من حجرة داره فقال يخاطبهم جميعًا: "أترضون بمن استخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد في الرأي ولا وليت ذا قرابة، وأني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا". فأجاب الناس: "سمعنا وأطعنا". عند ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم ما أنت به أعلم، واجتهدت لهم رأيًا، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم".

وسمع الناس دعاءه، فازدادت كثرتهم اطمئنانًا لما صنع".[1]

وقد قبل عمر هذا الاستخلاف، واستمع إلى نصح الصديق ووصيته إياه بالأمة خيرًا وبمتابعة حركة الفتح الإسلامي في العراق والشام، حتى تبلغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة.

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص٨٨.

"المبحث الثالث"

(منهجه في الكتابة عن عمر ﷺ أميرًا للمؤمنين ودوره في بناء دولة الإسلام)

تناول الدكتور هيكل هذه الحقبة من حياة عمر بن الخطاب ﷺ بإسهاب يتناسب مع طول هذه الفترة التي تربو على عشر سنين، ويتناسب أيضًا مع الأحداث الجسام والأمور العظام التي حدثت خلالها. فقد انفسحت رقعة الدولة الإسلامية إبان هذه الفترة وانتقل الناس من البداوة إلى حضارة عظيمة بسطت نظامها وتفيأ الناس ظلالها في رحاب سماحة الإسلام التي وسعتهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم، فنعموا في رحابه بحرية العقيدة والرأي والفكر. فالإسلام يقرر ألا إكراه في الدين وألا حظر على رأي طالما احترم الإنسان دين ورأي الآخرين. وبذلك طبقت نظم الإسلام تطبيقًا عمليًا في الحياة، فظهرت آثارها سموًا روحيًا وتقدمًا اقتصاديًا وتماسكًا اجتماعيًا حفظ للإنسان كرامته وعزته.

وقد ركز الدكتور هيكل عند كتابته عن عمر أميرًا للمؤمنين على جانبين هامين مبرزًا دور عمر بن الخطاب فيهما وأثره في بناء الدولة الإسلامية العظيمة هما:

أولًا: الجانب العسكري واجتياح المسلمين لممالك الفرس والروم.

ثانيًا: الجانب المدني بشتى جوانبه الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فبعد أن أسلم أبو بكر روحه إلى بارئها في مساء يوم الاثنين الموافق للحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، تم تجهيزه وصلى عليه ودفن إلى جوار رسول الله ﷺ، وفرغ من ذلك بعد منتصف الليل، وبدأ عمر يواجه المسؤولية الجسيمة التي ألقاها القدر على عاتقه في هذه المرحلة الدقيقة من

حياة الأمة الإسلامية. فنهض بها بتوفيق من الله سبحانه وتعالى وأدى الأمانة على خير وجه، فتابع حركة الفتح ومهد لإقامة حضارة الإسلام العظيم. وأتناول إسهامات الفاروق في موضعين هما الجانب العسكري والجانب المدني.

أولًا: الجانب العسكري والسياسة العمرية فيه:

كان الموقف الحربي هو أدق المواقف وأحرجها يوم تولى عمر إمارة المؤمنين، فالمسلمون يواجهون في وقت واحد جيوش الفرس والروم على جبهات القتال في العراق والشام. وقد بلغت دقة الموقف أن أوصى أبو بكر عمر فقال: "اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وجنده، ولهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم".(١)

إلى هذا الحد بلغ اهتمام الصديق رضي الله عنه بالموقف العسكري للمسلمين على جبهات القتال حتى وهو في آخر يوم من أيام دنياه.

ولذلك بات الفاروق باقي الليل مفكرًا في هذا الموقف الدقيق وكيف يواجهه، فلما أصبح خرج إلى الناس بالمسجد فأقبلوا على بيعته. فلما حانت صلاة الظهر وازدحم الناس صعد عمر المنبر وخطبهم، فحمد الله وصلى على رسول الله وأثنى على أبي بكر خيرًا، ثم قال: "أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ﷺ ما تقلدت أمركم". ثم دعا الله: "اللهم إني غليظ فليني، اللهم إني ضعيف فقوني، اللهم إني بخيل فسخني". ثم قال: "إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٩٠.

إليهم، ولئن أساؤوا لأنكلن بهم".[١]

وأقف وقفات سريعة مع الدكتور هيكل عند تناوله للموقف الحربي إبان خلافة عمر توضح منهجه عند تناوله لهذا الجانب من حياة عمر ضي الله عنه:

١ - سياسة عمر في حشد القوات الإسلامية:

اتبع عمر ﷺ سياسة جديدة تضمن حشد أكبر عدد ممكن من قوات المسلمين لمواجهة الموقف العسكري على جبهتي الفرس والروم، وأهم ملامح هذه السياسة:

أ- أمره برد سبايا أهل الردة: فقد أمر ﷺ برد هؤلاء السبايا إلى عشائرهم تأليفًا لهم معللًا هذا الأمر بقوله: "إني كرهت أن يصير السبي سنة في العرب".

ب- الاستعانة بالتائبين من أهل الردة والسماح لهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين، وهي سياسة جديدة أخذ بها عمر لمواجهة الموقف الحربي، فقد اتسعت خطوط المواجهة مع العدو، وأصبح المسلمون يواجهون في وقت واحد حشود الفرس والروم. ويتساءل الدكتور هيكل عن الدوافع التي حدت بعمر لينتهج هذه السياسة فيقول:

"أفيريد عمر بهذا الأمر أن يخالف أبا بكر وأن يجري على غير سنته؟ أم أنه رأى الناس تقاعسوا حين ندبهم للذهاب مع المثنى، فأراد أن يستميل العرب من مختلف القبائل إليه ليمد المثنى بهم".[٢]

والحق أن السياسة الجديدة اقتضتها ظروف الحرب، فإذا كان الحال في عهد الصديق قد اقتضى الأخذ بسياسة رآها الصديق مناسبة، فإن الظروف التي استجدت في عهد عمر كان المناسب لها سياسة أخرى ارتآها الفاروق، فإن ذلك لا يفسر على أنه خروج على سياسة الصديق. هذا وإن كان أبو بكر رأى عدم

(١) المرجع السابق ص ٩١.

(٢) المرجع السابق ص ٩٢.

الاستعانة بمن ارتد فإن هذه سياسة مؤقتة حتى يرى فيهم رأيه بعد التأكد من صدق مراجعتهم للإسلام حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم، فإذا اقتنع عمر بصدق توبتهم وسمح لهم بالانخراط في جنود المسلمين فلا لوم عليه. وقد أثبتت الحوادث صدق رأي عمر، فقد أبلى هؤلاء من البلاء الحسن في سبيل الله حتى يغسلوا ما سبق من زلاتهم حين ساروا خلف المتنبئين وسفكوا دماء المسلمين. والقرارات التي يتخذها القادة إنما تهدف إلى تنفيذ سياسة محددة وصولًا إلى هدف معين، وسياسة الصديق وسياسة الفاروق في هذا الصدد واحدة وهي متابعة الدعوة إلى الله وإزالة العقبات أمام النور الإلهي حتى يصل إلى العالمين. ولهذا أوصى أبو بكر عمر بمتابعة الفتح، أما كيف يتم ذلك فهذا مما يخضع لظروف كل عصر ويتخذ الفاروق ومن بعده من القرارات ما يناسب ظروف كل موقف، وهذا ما فعله عمر.

٢- سياسة عمر بن الخطاب في اختيار قادة الجند:

يرى الدكتور هيكل أن سياسة عمر ﷺ في اختيار قادة الجيوش كانت نابعة من منظور طبقي، إذ كان عمر يرى أن السابقين طبقة تسمو على غيرها وهم لذلك أولى بالقيادة، فهم أهل لها بفضل سبقهم إلى الإسلام. كما كان يرى أن أهل الحجاز أحق بهذه القيادة، وكان يستنكف أن يولي رجلًا من أهل الوبر على رجل من أهل المدر. ويستشهد الدكتور هيكل على انتهاج عمر لهذه السياسة الطبقية في تعيين القادة بتأميره أبا عبيد الثقفي على المثنى بن حارثة الشيباني، حيث كان أول الناس انتدابًا لحرب الفرس.

وحين أمد المثنى بجيش عليه جرير بن عبد الله البجلي في أعقاب غزوة الجسر، فلما قال له المثنى: "إنما أنت مدد لي"، رد عليه جرير بقوله: "أنت أمير وأنا أمير". فشكاه المثنى إلى أمير المؤمنين، فرد عليه عمر بقوله: "إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ".

ويذكر الدكتور هيكل أن عمر ﷺ كان يستنكف أن يولي رجلًا من أهل الوبر

على رجل من أهل المدر، ويستشهد على هذه السياسة بغضب الخليفة من عتبة بن غزوان حين قدم إلى المدينة بعد استدعائه له ليسأله عن أحوال الجند، واستخلف عتبة على الجند مجاشع بن مسعود والمغيرة بن شعبة على الصلاة، فقال له عمر مستنكرًا: "تستعمل رجلًا من أهل الوبر على أهل المدر؟" وبرغم انتصار مجاشع بالفرات فقد أسند عمر إمارة الجند إلى المغيرة.

ويعلق الدكتور هيكل على هذا القرار العمري فيقول معللًا له: "حتى لا يكون لبدوي إمارة على قرشي أو على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ".[١]

ويقارن الدكتور هيكل بين ما فعله عمر وبين ما كان سيفعله الصديق فيقول: "لو أن أبا بكر عاش لما أمر أحدًا غيره -أي المثنى- لكن عمر أمر أبا عبيد لأنه كان أول الناس انتدابًا ولأنه كان ثقفيًا من أهل الحجاز وكان المثنى من بكر بن وائل". ثم يعقب على هذا القرار مبينًا الدافع الأساسي لاتخاذه فيقول: "وتأمير أبي عبيد على المثنى من الخطوات الأولى التي أقربها أمير المؤمنين نظام الطبقات بين المسلمين. وقد يلتمس لعمر من العذر عن هذه الخطوة أن أبا عبيد تقدم حين أحجم غيره فكان أول الناس انتدابًا، لكن الواقع أنها كانت خطوة تتفق وتفكير عمر".[٢]

ويؤكد الدكتور هيكل وجهة نظره هذه مستشهدًا بتأمير سعد بن أبي وقاص على المثنى وجرير في حرب العراق، ذلك لأن سعدًا كان من السابقين الأولين إلى الإسلام.

وبعيدًا عن المقارنات، فإن أمير المؤمنين باعتباره مسؤولًا عن قيادة الدولة خاصة في حالات الحرب، يكون لديه من الاعتبارات التي لها الأولوية عند اختيار قادة الجيوش، ربما لا يعرفها غيره ولا يطلع عليها أحد من مساعديه. وهذا مجال لا مكان فيه لمحاباة أو مجاملة أو عصبية. فإذا كان الأمير هو عمر بن الخطاب، فإنه لا يرد حتى على الخاطر أن يكون في قراراته بتعيين القادة والأمراء متأثرًا

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ١٩٩.

(٢) نظر المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١.

بأي اعتبار غير الكفاءة المطلوبة لهذا المنصب الخطير. فإذا توافرت هذه الكفاءة في أشخاص عديدين، فإننا لا يجوز لنا أن نصادر حرية ولي الأمر في اختيار أحدهم بالذات. فلأمير المؤمنين أن يضع من الشروط بعد الكفاءة ما يراه مناسبًا، فإذا وضع أمير المؤمنين شرط السبق إلى الإسلام، فأي عيب في هذا؟ أو وضع شرط الصحبة لرسول الله، فأي طبقية يصنعها هذا الشرط؟

وإذا كان الدكتور هيكل يستشهد بتأمير سعد بن أبي وقاص على المثنى وجرير في حرب العراق معللًا ذلك بأن سعدًا من السابقين الأولين، فإن الدكتور هيكل نفسه قد بين أن تأمير سعد بن أبي وقاص على قوات المسلمين في جبهة العراق إنما كان بمشورة أهل الرأي من المسلمين. حين جمعهم للمشورة في أمر الحرب في العراق واستقر الرأي على أن يظل عمر بالمدينة ويؤمر رجلًا غيره على جند المسلمين، فقالوا له: "قد وجدنا الرجل"، قال: "فمن؟" قالوا: "الأسد في براثنه سعد بن مالك". ووافقهم عمر، وبعث إلى سعد، فقدم عليه من نجد، فأمره على حرب العراق، ثم أوصاه وصية صادقة حذره فيها من الغرور لقرابته من رسول الله ﷺ ولصحبته له، مذكرًا إياه أن الناس شريفهم وضعيفهم في دين الله سواء، وأنهم يتفاضلون عند الله بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، وأن الأحساب والأنساب ليس لها وزن عند الله، وأن الكرامة عند الله للمتقين الطائعين له سبحانه وتعالى".[١]

على أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بما حباه الله من مواهب القيادة العسكرية كان أهلًا لما أسند إليه من مهام القيادة لجند المسلمين بالعراق. وبعد أن يستعرض الدكتور هيكل أهم هذه المواهب يعلق قائلًا: "فارس هذه صفاته لا عجب أن يكون الأسد في براثنه وأن يتفق الناس رأيًا واحدًا على تأميره في الجيش الذاهب للعراق ليواجه موقفًا من أدق المواقف التي واجهت المسلمين".[٢]

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ١٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٣.

وبهذا يتضح أن قرار عمر بإسناد القيادة إلى سعد بن أبي وقاص لا يدل على أن عمر بهذا القرار كان يدعم طبقية بين المسلمين، وأنه تم باختيار المسلمين لسعد ليتولى القيادة بدل عمر الذي عزم على أن يقود الجيش بنفسه.

٣- سياسة عمر بن الخطاب في متابعة شؤون الحرب على جبهات القتال:

يوضح الدكتور هيكل سياسة عمر بن الخطاب ﷺ في متابعة شؤون الحرب مبينًا أن عمر كان حريصًا كل الحرص على أن يقف على مجريات الأمور على كل الجبهات، وكان يطلب إلى القادة أن يوافوه بكل المعلومات حتى لكأنه حاضر معهم. وبناء على هذه المعلومات كان يصدر أوامره وهو في المدينة إلى قوات المسلمين بالتحرك أو الثبات، ويحدد لهم المواقع والتوقيتات التي يتحركون فيها بكل دقة. يقول عمر في كتابه إلى سعد بن أبي وقاص على جبهة العراق: "اكتب إليَّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوكم، واجعلني بكتبك إليَّ كأني أنظر إليكم، واجعلني من أمركم على الجلية".

ثم يعلق الدكتور هيكل قائلًا: "وكان عمر فيما يصدره من أوامر لا تفوته كبيرة ولا صغيرة، فلم يكن يكفيه أن يشجع القواد والجنود وأن يهز قلوبهم وأن يذكر لهم مفاخرهم ومفاخر أقوامهم، ثم لم يكن يكفيه أن يحذرهم بأس العدو وخداعه، بل كان يرسم لهم الخطط ويذكر لهم موعد الانتقال من مكان إلى مكان وكأنما كان على علم بهذه الأرض وتقويمها".[1]

ويوضح الدكتور هيكل حرص أمير المؤمنين على الروح المعنوية للجند عامة، وأنه كان مدركًا لما لها من أهمية في إحراز النصر، ومبينًا مدى أهمية هذه الروح بالنسبة للقادة على وجه الخصوص. فهو يكتب إلى سعد ردًا على كتابه وبصدد الاستعداد لحرب القادسية: "قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينفض الله لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم

(١) انظر المرجع السابق ص ١٤٤ - ١٤٥.

حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله، وإنه قد ألقي في روعي أنكم ستهزمونهم فلا تشكن في ذلك".[١]

وبذلك يتضح أن عمر ﷺ كان يتتبع أنباء الجند في جبهات القتال تتبعًا جعله على حد تعبير الدكتور هيكل وكأنه القائد الذي يسير على رأس الجيش ويجهز للمعركة، فهو يوجه ويشرف على كل حركة من حركاته.

لم يكن عمر يهدف من وراء هذه السياسة في المشاركة والمتابعة أن يهيمن على الأمور وأن يجمع السلطة كلها في يده، كما يلمح بذلك الدكتور هيكل عند تعليقه على عزل خالد بن الوليد قائلًا: "ذلك أن عمر كان يحرص على تركيز السلطة كلها في يديه، وذلك قوله أول ولايته: والله لا يحضرني من أمركم شيء فيليه أحد دوني ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لأنكلن بهم". وإنما كان ذلك حرصًا منه على أداء ما حمله الله من أمانة تجاه المسلمين، فهو يعتبر نفسه مسؤولًا مسؤولية كاملة تجاه المسلمين، ولا تسقط عنه هذه المسؤولية بمجرد حسن الاختيار للقادة والولاة، وإنما هو ما زال مسؤولًا عن متابعتهم ومحاسبتهم، والإحسان إلى محسنهم، والتنكيل بمن أساء منهم. ثم هو بعد ذلك يعايش الجند في جبهات القتال ويتحسس أخبار المعارك، فكان يخرج إلى ظاهر المدينة يسأل القادمين إليها لعل فيهم من يحمل البريد إليه حتى يطمئن على سير المعارك ﷺ جزاء ما بذل من جهد.

٤- سياسة عمر في إقامة المسالح للقوات الإسلامية:

يبين الدكتور هيكل أن عمر ﷺ قد اتبع سياسة جديدة اقتضتها الظروف الجديدة بعد فتح العراق. فقد كان عمر يخشى تمرد الفرس من أهل العراق وتمرد عرب العراق أنفسهم وانتقاضهم على سلطان المدينة إذا لم تتمركز في العراق قوات إسلامية ترابط فيه لسرعة مواجهة هذه الظروف. ولا غرابة في حدوث مثل هذا

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج١ ص ١٤٥.

التمـرد، فالفرس حتمًا سـتحركهم إرادة الانتقام ومحاولة الأخـذ بالثأر من هؤلاء الذين قوضوا أركان ملكهم وأزالوا دولتهم.

كما أن عرب العراق كانوا قد ألفوا سلطان الحيرة وسلطان المدائن، وألفوا حياة الرفاهيـة والنعمـة، كما ألفوا لونًا من الحياة لا يتفق مع تعاليم الإسـلام. وهذا كله يجعلهم أقرب إلى التمرد والانتقاض منهم إلى الطاعة والولاء لسلطان المدينة.

لذلك فكر عمر ﷺ في اسـتبقاء قوات إسـلامية ردعًا لهذه الهواجس التي قد تـراود هذه النفـوس الضعيفة والموتـورة، وأيضًـا دفعًا لحركة الفتـح التي تقتضي وجـود مراكـز تجميـع الجنود المسـلمين قريبـة من جبهـات القتال، تكـون قواعد انطـلاق لهـذه القوات إلى ميادين القتال من مسـافات قريبـة تضمن سرعة الحركة وقلة الجهد المطلوب لنقل هذه القوات.

وتنفيذًا لهذه السياسة التي تقتضي استقرار المسلمين بالعراق وقيامهم على الأمر فيـه من غـير ظلم لأهله ومن غير انتقـاص لحقوقهم، فقد أمر عمر بعد المشـاورة ببنـاء مدن جديدة تكون للفاتحين خاصة بهم لا يشـاركهم أحد من المحكومين في مساكنها بل يستأثرون بها.

ويجتمع جندهم فيها ثم يكون هذا الجند على أهبة للقتال في كل وقت "[1]

وقد تم تنفيذ هذه السياسـة دون أن تثير الجند، حيث إن جو المدن في العراق لم يكن يناسب الجنود من أبناء الصحراء، فقد اعتلت صحتهم وساءت حالتهم إبان إقامتهم في المدن لوخومة البلاد.

ولقد كان لعمر الفضل في اختيار المواقع المناسـبة لإقامة هذه المدن الجديدة، إذ كتب إلى سـعد بن أبي وقاص كتابًا بهذا الخصوص قال فيه: "إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث رائدًا يرتاد منزلًا بريًّا بحريًّا ليس بيني وبينكم

(١) الفاروق عمر د. هيكل ج ١ ص ٢, ٢.

فيه بحر ولا جسر". ويعلق الدكتور هيكل على هذه العبارة من كتاب أمير المؤمنين تعليقًا يوضح معناها ومراميها فيقول: "إنما أراد عمر بهذا الكتاب أن يحقق غرضين: أولهما أن يكون المكان الذي يختاره لمقام هؤلاء الجنود جافًا كالبادية تجري مع ذلك فيه المياه الصالحة. والثاني ألا يحول بحر أو جسر دون إرسال المدد إلى الجنود المقيمين بهذا المكان إذا احتاجوا يومًا إليه، وكان حذر عمر يجعله يرى البحر مركبًا ذا خطر، ويرى لذلك ألا يفصل بينه وبين جنده ما يعرض المدد الذي يبعثه إليه لأي خطر".[١]

وبناء على التوجيه من أمير المؤمنين اختار سعد المكان الذي أقيمت عليه مدينة الكوفة على نمط إسلامي، حيث بني المسجد في أعلى مكان من الموقع وبنيت له ظلة وترك حوله فضاء قدر مرمى السهم من أوسط المسجد، خصص ليكون سوقًا للبيع والشراء. وأقام الجند منازلهم حول فناء المسجد وكانت أول الأمر من الخيام، ثم استأذنوا أمير المؤمنين في إقامة منازلهم بالقصب، فأذن لهم. وقد شب حريق في هذه المساكن فأتى عليها، عند ذلك استأذنوا عمر في البناء بالطوب اللبن فأذن لهم. وهكذا قامت منازل الكوفة وأقام الناس بها وجعلت تنازع الحيرة مكانتها حتى نزعتها منها وجعلت عاصمة اللخميين أدنى إلى قرية تقوم إلى جانب هذا البلد الذي صار في سنوات عاصمة ذات شأن في التاريخ الإسلامي. وتنفيذًا للسياسة ذاتها بنيت مدينة البصرة التي صارت من بعد ثغر العراق على الخليج الفارسي.

وقد أثبتت الحوادث بعد نظر أمير المؤمنين بإقامة هذه المسالح لتكون بمثابة قواعد متقدمة لجنود المسلمين. فقد ثار أهل الشام بالمسلمين وكاتبوا هرقل وعاهدوه على الثورة وأمدهم بالقوات، فتحركت حملة بحرية من الإسكندرية إلى أنطاكيا. فلما وصلت قوات هرقل فتحت المدينة لهم أبوابها وثارت بالمسلمين. وعندئذ تأزم الموقف بالشام حيث وجد أبو عبيدة نفسه محصورًا في حمص، يحيط به الثائرون ويسير أعداؤه إليه مقبلين من ناحية البحر ومن ناحية البادية. فكتب

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣.

إلى أمير المؤمنين يستمده لمواجهة الموقف الخطير، فأصدر عمر أوامره إلى القوات المرابطة بالمسالح بالتحرك لإخماد الثورة ولصد هجمات المعتدين. بل إن عمر نفسه فصل من المدينة على رأس جيش قاصدًا حمص.

ودوت هذه الأنباء في العراق وفي الشام، وبلغت أبا عبيدة فاطمأن قلبه، وبلغت قبائل الجزيرة الذين تحركوا لحصار أبي عبيدة، فخشيت من مغبة هذا الأمر وآثرت الرجعة من حيث أتت.(١)

٥- سياسة عمر في التوسع في الفتوح:

يعتقد الدكتور هيكل أن سياسة عمر في الفتح حتى نهاية السنة السابعة عشرة من الهجرة كانت سياسة عربية خالصة، حيث كان يهدف إلى جمع الجنس العربي في وحدة سياسية تمتد من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمال بادية السماوة بالشام. ويستدل على هذا بأن عمر أمر سعد بن أبي وقاص حين استأذنه في مطاردة الفرس وراء جبلهم بألا يطاردهم، قائلًا: "وددت لو أن بين الوادي والجبل سدًا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال". ويعلق الدكتور هيكل قائلًا: "وكان عمر مخلصًا في هذه السياسة كل الإخلاص".(٢)

كما يستدل على هذه السياسة العمرية في الفتح بأن أمير المؤمنين عمر كان يجيز الصلح كلما طلبه الفرس بعد هزيمتهم، وكان يأمر برد السبي إلى حريتهم والاكتفاء منهم بالخراج، ثم يأمر رجاله بتعمير البلاد وشق الأنهار خلالها وإحياء الموات من أرضها وإقامة العدل بين أهلها. ثم يعلق على هذه السياسة قائلًا: "ولو أن الفرس أذعنوا للأمر الواقع وارتضوا هذه السياسة وأخلصوا في عهدهم مع المسلمين لبقي ليزدجرد سلطان فارس ولما امتد الفتح الإسلامي في عهد عمر إلى ما امتد إليه".(٣)

---

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج١ ص ٢٤٥ ٢٤٧.

(٢) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج٢ ص ٥.

(٣) انظر المرجع السابق ص ٩- ١٠.

ويـرى الدكتـور هيكل أن الظـروف هي التي أدت بعمـر إلى الخروج على هذه السياسـة، فقد كان بالعراق والشام من قبائل العرب التي نزحت من شبه الجزيرة وأقامت مملكة الحيرة ومملكة غسـان، وهم يمتون إلى المسلمين بأوثق الصلة، فمن حق المسلمين أن يطمعوا في مؤازرتهم لهم وانضمامهم إليهم. فأما ما وراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم فلم يكن للخليفتين الأولين مطمع في غزوه وفتحه.

على أن الحوادث كثيرًا ما كانت أقوى من الرجال وكثيرًا ما حملتهم على تعديل اتجاههم وتغيير سياستهم. وقد حملت هذه الظروف عمر على تعديل سياسته إزاء الفرس والروم على كره منه بادئ الأمر، ثم ملأته حماسة للسياسة الجديدة بعد أن حالف النجاح هذه السياسة إلى مدى لم يكن يتوقعه الخليفة ولم يتوقعه أحد غيره".[١]

وواضـح أن هـذا الذي ذهب إليه الدكتور هيكل عند تناوله لسياسـة الفتح في عهد عمر يتنافى مع مبدأ عالمية الدعوة الإسـلامية. فلم يكن الإسـلام ثورة تهدف إلى تحريـر الجنـس العربي من نـير الاحتلال الأجنبـي أو ترمي إلى جمـع العرب في وحدة سياسـية حتى يصيروا ندا للفـرس والروم، وإنما هو هداية الله للناس جميعًا عربهـم وعجمهـم وأبيضهـم وأصفرهـم وأسـودهم. بهذا نـزل القـرآن في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "قل يا أيها الناس إني رسـول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السـماوات والأرض لا إلـه إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسـوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون".[٢] وأحاديث الرسول ﷺ تؤكد هذا المعنى وتوضح أن الإسلام صهر العصبية وألغى الفروق بين الأجناس ومنها قوله ﷺ: "أنا سـابق العرب وسـلمان سابق الفرس وصهيب سـابق الروم وبلال سابق الحبشة".[٣]

---

(١) المرجع السابق ص ٥.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٥٨.

(٣) رواه ابن عدي في الكامل ٧ / ١٦٧ وعبد الرزاق في مصنفه كتاب الجامع باب أصحاب النبي والحاكم في مستدركه في الفضائل "مناقب بلال ومناقب صهيب".

ومنها قوله: "سلمان منا آل البيت".[١] وعليه فلم يكن هناك ما يلجئ الدكتور هيكل للوقوع في المأزق الذي وضع نفسه فيه حين قرر أن سياسة أبي بكر وعمر في الفتح كانت سياسة عربية بحتة حتى العام السابع عشر من الهجرة. فلما امتدت الفتوح بعد هذا العام إلى ما وراء حدود العراق العربي وانساح المسلمون في فارس حتى سقطت المدائن، واتسعت رقعة الفتوح الإسلامية في ممالك الروم حتى فتحت مصر وبرقة، عزا ذلك إلى الحوادث التي كثيرًا ما تضطر الرجال إلى تعديل اتجاههم وتغيير سياستهم على حد تعبير الدكتور هيكل.

ولو أنه نظر إلى سياسة الفتح في إطار تطبيق مبدأ عالمية الإسلام ما جانبه الصواب، لكنه نظر إليها بمنظور قومي إقليمي فوقع في الحرج حين تخطت الفتوحات الحدود الإقليمية، فعزا ذلك للظروف التي اضطرت عمر إلى الخروج عن سياسته العربية في الفتوحات. ولو أن الدكتور هيكل نظر إلى سياسة الفتوح بمنظار الحق لرأى أن دعوة الإسلام دعوة إلى الخير توجه إلى كل الناس، ولم تكن الحرب إلا وسيلة لإزاحة العقبات التي تقف في وجه الدعوة. فلقد كان المسلمون يعرضون دعوتهم في الإطار السلمي، فمن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن أبى فله حريته وحقه في الثبات على دينه شريطة ألا يتعرض للمسلمين وألا يصد عن سبيل الله ويدفع الجزية لا عقابًا ولا إذلالًا، وإنما مساهمة في الأعباء العامة للدولة التي ترعى الأمن في الداخل والخارج، وتقوم بالمشروعات والمرافق العامة التي يتمتع بثمراتها كل من يعيش في ظل دولة الإسلام. وأما من أبى فلم يسلم ولم يذعن ولم يسالم، فالحرب حينئذ هي الدواء الأخير والعلاج الحاسم لمن حاد الله ورسوله وصد عن سبيل الله.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٦٠٤٠ والحاكم في مستدركه وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" والبيهقي في "دلائل النبوة".

٦- سياسة عمر في تكوين القوة العسكرية النظامية:

كانت السياسة العامة للجندية في الإسلام قائمة على أساس التطوع الاختياري تبعًا لاستطاعة الجندي المسلم، فيعد زاده وسلاحه وفرسه ونفقة أهله أثناء غيابه في الميدان. وكانت هذه السياسة نابعة من ظروف الدولة وإمكانياتها إبان نشأتها، إذ لم يكن هناك موارد عامة تخصصها الدولة للإنفاق على الشؤون العسكرية. وكان الحافز والدافع للتطوع هو الإيمان بما أعده الله للمقاتلين في سبيله من ثواب عظيم وما يفيئه الله على المقاتلين من أسلاب وغنائم نظمها الإسلام تنظيمًا دقيقًا بالكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٢) وقال ﷺ: "من قتل قتيلاً فله سلبه".(٣)

كانت هذه السياسة مناسبة لحالة الحرب وقتئذ، إذ كان ينادى بالنفير العام فيتوجه القادرون على الجهاد إلى المعركة، وبانتهائها يعود كل منهم إلى حياته العادية. وبذلك كانت الجندية من الأمور المؤقتة التي تنتهي بانتهاء الظرف الداعي إليها ولا تستغرق وقتًا طويلًا. وكانت الغنائم لا تتعدى المنقولات وكان توزيعها ممكنًا وسهلًا، فكان الخمس لرسول الله ﷺ يضعه في مصارفه، وتوزع الأربعة أخماس على المجاهدين للراجل سهم وللفارس سهمان.

(١) سورة الحشر آية: ٧.

(٢) سورة الأنفال آية: ٤١.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجهاد باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

فلما فتح الله للمسلمين ممالك الفرس والروم واتسعت الدولة، وأصبحت الجندية من الضرورات الدائمة لدولة الإسلام ولا يستطيع نظام التطوع المؤقت والقائم على أساس مقدرة المقاتل أن يسد حاجة الدولة من الناحية العسكرية، فكان لا بد من إنشاء قوة عسكرية إسلامية نظامية حرفتها الجندية وتكون تحت السلاح باستمرار لمواجهة الظروف التي تستجد في لحظات. واقتضى هذا النظام إقامة المسالح للإقامة الدائمة للقوات الإسلامية، وبذلك تم إقامة مدن جديدة للجنود كانت بمثابة قواعد عسكرية ثابتة دائمة حتى يمكن دفعها في الوقت المناسب إلى جبهات القتال المشتعلة بين المسلمين والفرس والروم، أو للقضاء على حركات الانتقاض والثورة ضد المسلمين.

ولقد قيض الله عمر بن الخطاب لدولة الإسلام في هذه المرحلة الدقيقة، فرأى بثاقب فكره ونافذ بصيرته أن أمر الله للمؤمنين بإعداد القوة مخاطب به الفرد والجماعة ممثلة في الدولة. قال تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون".(١)

فأنشأ المسالح وشحنها بالجند المنظم المسجل في ديوان الجند، فكان لا بد من تدبير مورد دائم للإنفاق على هؤلاء الجنود المرابطين في سبيل الله. وكان هذا المورد باجتهاد عمر وبتوفيق الله له هو أرض السواد التي غنمها المسلمون بالعراق، وكذا الأرض التي غنموها بالشام حين أبى أن يوزعها على المقاتلين توزيعًا عاجلًا كالمنقول، وأصر على أن تظل موردًا دائمًا ينفق منه على المجاهدين باستمرار. وفي هذا إعطاء وتوزيع لهذا الحق ولكن على المدى الطويل.

والدكتور هيكل يبرز هذا العمل الجليل من أعمال عمر، ويذكر الجدل والنقاش الذي دار بين عمر ومخالفيه في هذا الرأي، وكيف أبدى عمر من الحجج ما يؤيد به

(١) سورة الأنفال آية: ٦٠.

وجهة نظره حتى أقنعهم بعد موافقة أهل الرأي من الأنصار حين حكمهم في هذا النزاع الفكري، فقالوا جميعًا: "الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت فإن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم".(١)

وكان رأي المقاتلين ومن وافقهم أن توزع عليهم الأرض التي فتحوها عنوة وما عليها توزيع الغنيمة. أما عمر فقد رأى أن يوزع عليهم ما غنموه إلا الأرض وما عليها من الناس، فيفرض على الإنسان الجزية وعلى الأرض الخراج، ويكون من ذلك مورد دائم ينفق منه على المقاتلين. يقول عمر: "لكني رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئًا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ولا بد من إدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج".(٢)

ويعلق الدكتور هيكل على هذه السياسة موضحًا أنه رأي لابن الخطاب نابع من اجتهاد غير معتمد فيه على نص في الكتاب أو سنة سبقت من رسول الله ﷺ بل على المنفعة العامة للدولة".(٣)

والواقع أنه اجتهاد من عمر في تطبيق النص القرآني بخصوص توزيع الغنائم، إذ هو توزيع لهذا الحق على المدى الطويل. فإذا كان المقاتل يعد لنفسه العدة ويتحمل نفقته وسلاحه ومركبه ولا يوزع عليه شيء إلا إذا كانت هناك غنائم، فإنه في ظل هذا النظام من التوزيع يجرى عليه العطاء باستمرار له ولذريته، ويجهز له منه عدته

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٨.

وسلاحه. ثم يعقب الدكتور هيكل على هذا القرار من عمر بما يستحقه من ثناء قائلًا: "كان هذا اجتهاد رأي من عمر في أمر الأرض التي غنمها المسلمون، وقد كان هذا الاجتهاد على حد تعبير أبي يوسف في كتاب الخراج كان توفيقًا من الله له فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين. وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عمومًا النفع لجماعتهم، لأن هذا لو لم يكن موقوفًا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدينتهم إذا خلت من المقاتلة المرتزقة. والله أعلم بالخير حيث كان".[١]

ملاحظة على منهج الدكتور هيكل عند تناوله لحركة الفتح الإسلامي:

هناك ملاحظة جديرة بالنقد يؤكد عليها الدكتور هيكل تأكيدًا شديدًا ويكررها كلما تناول حركة الفتح الإسلامي سواء في عهد الصديق أو في عهد الفاروق، ألا وهي الإلحاح ودوام الإلحاح على العامل المادي كدافع أساسي ومهم لدفع هذه الحركة، مع استعماله لتصوير هذا العامل الأسلوب الأدبي القائم على المبالغة استعمالًا أدنى إلى القصص والأساطير منه إلى كتابة التاريخ.

فعند تناوله لفتح مصر مثلًا يذكر من المبررات لهذا الفتح: رغبة المسلمين في أن "ينالوا حظًا من ثرائها وخيراتها". ثم كان للمسلمين من ثراء مصر ومن خيراتها الوفيرة ما يضاعف حظهم من نعيم الدنيا بقدر ما يضاعف الاستشهاد حين الجهاد حظهم من نعيم الآخرة.

ثم يعلق على ذلك بقوله: "فالإغراء بغزو مصر لمن استطاع غزوها قوي شديد، فأين منها العراق والشام ثروة ونضرة".[٢]

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٩.

(٢) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج٢ ص ٦٠.

ثم يقول في موضع آخر: "وكانت هذه الصورة مغرية أيما إغراء، فقد كان خصب مصر ووفرة إنتاجها مضرب المثل في العالم كله، وكان ما يفيض عن حاجات أهلها من القمح والشعير وغيرهما من أنواع الغلال أرزاقًا لا تحصى، وكانت ثروتها من الأحجار والمعادن فوق الحصر".[١]

وهذا الإلحاح على العامل المادي لا يليق بقوم تجردوا لله ووقفوا حياتهم جهادًا في سبيله وتبليغًا لدعوته، وهم الرعيل الأول الذين تلقوا الدين من نبعه الصافي من رسول الله ﷺ.

وحين يصف الدكتور هيكل جنود المسلمين إبان فتحهم لمصر يصفهم وكأنهم في رحلة سياحية، يبهرهم ما يرون من آثار ويأسرهم ما يشاهدون من مظاهر الحضارة. فحين يتحدث عنهم لما فتحوا منف يقول: "رأوا آثارًا تحدث عن حضارة الفراعنة الأقدمين وعبادتهم حديثًا عجبًا، كان فيها معبد (فتاح) الضخم الفسيح تعبد فيه الشمس كما كانت تعبد بالكرنك في طيبة، وكان يظاهرها معبد السرابيوم مقام العجل أبيس محاطًا بكل مجالي الإجلال والإكبار، وكان أمام هذا المعبد صفان طويلان من آباء الهول يلقيان في روع الداخل إليه الهيبة، وكانت قبور العجول المقدسة قائمة وراء المعبد تأخذ عظمتها بالنظر".[٢]

ويتحدث عنهم حين حاصروا الإسكندرية تمهيدًا لفتحها فيقول: "فلما اقترب الجيش من أسوار الإسكندرية وقف الجند كله أمامها وقد أخذه البهر من كل مكان لمرآها، وفتح هؤلاء العرب أبناء البادية عيونهم واسعة على منظر رائع تسحر روعته العقول والقلوب. وظلوا وقوفًا يجيلون أعينهم يمنة ويسرة فلا تقع إلا على ما يزيدهم سحرًا وبهرا". ثم يعلق الدكتور هيكل قائلًا: "ولا عجب فقد كانت إسكندرية ذلك العهد أجمل مدائن العالم وأبهاها". ثم يردف مستنتجًا: "أفيضن

(١) المرجع السابق ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق ص ١١٣ – ١١٤.

هذا الجيش الباسل ببذل في سبيل اقتحامها وفتحها؟ كلا".[١]

بل إنه ليصل به وصف الجمال إلى حد ينسى الجنود أمامه ما هم فيه من عمل جليل وما يحيط بهم من مخاطر فيقول: "كانت هذه المجموعة البديعة من قصور ومعابد وكنائس وتماثيل وعمد ومسلات مشرفة على البحر عند نهاية أحد الطريقين الرئيسيين للمدينة، فكان العرب إذا يبلغونها يقفون عند كل واحد منها مسحورين تولاهم البهر، وما ندري لعل بهرهم بها أول دخولهم المدينة قد أتاح للروم الذين فروا في البحر فرصة الابتعاد بالسفن عن الشاطئ".[٢]

ويستمر الدكتور هيكل في وصف ما بالإسكندرية من معالم وآثار على نهج أدب الرحلات موضحًا أثرها في نفوس وقلوب أبناء البادية. ولئن كان ما سطره الدكتور هيكل هو الحقيقة والواقع، فإن جند الإسلام لا يفاجئهم هذا الجمال لأن القرآن الكريم قد حدثهم حديث الحق عن هذه الحضارة وغيرها من حضارات بائدة عبر التاريخ. حدثهم القرآن عن أسلاف المصريين وحضارتهم فقال على لسان فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.[٣] وقال عز وجل قائلاً في وصف هذه الحضارة وآثارها: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.[٤] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.[٥]

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ١٢٥ – ١٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧.

(٣) سورة الزخرف آية: ٥١.

(٤) سورة الفجر آية: ١٠، ١١.

(٥) سورة غافر آية: ٣٦، ٣٧.

كذلك حدثتهم سورة يوسف عما في مصر من ثراء وخصب، وأنها كانت مخزن العالم من الغلال والأقوات في عهد يوسف الصديق عليه السلام، حين كان القحط والجدب يعم أرجاء المعمورة. ويصور القرآن الكريم هذا الثراء بأبلغ وصف وأوجزه فيقول الحق بعد غرق فرعون وجنوده: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.[1]

أما وهذا بعض حديث القرآن عن مصر وحضارتها وثروتها، فإن المسلمين لم يفتحوا عيونهم فجأة على هذه الحضارة فيأخذهم البهر والعجب وهم في المعركة حتى يفر العدو ويهرب، وهم مشدوهون مبهورون لعب بهم البهر والعجب كما تلعب الصهباء بعقول شاربيها.

واتباعًا لنفس المنهج، يصف الدكتور هيكل جند المسلمين وهم في طريقهم لفتح دمشق:

"فلما ساروا من الواقوصة على اليرموك إلى دمشق رأوا جمالًا يبهر بهاؤه اللب وتسحر بهجته القلب، ويصف مظاهر هذا الجمال إلى أن يقول: وزادت بنات الأصفر هذا الوسط الطبيعي الرائع رواء وبهجة، يتهادين فوق هذه الروابي وبين هذه الأودية تمسك النظر قدودهن الممشوقة وحدودهن الملساء، أشربت وجناتها حمرة تنم عن عافية وري، وقد سواهن البارئ أحسن تسوية وقومهن أحسن تقويم، فكن ملائك هذه الجنان التي يسير العربي خلالها في الطريق إلى العاصمة الحصينة". ثم يستمر في وصف دمشق بعد اقتحامها قائلًا: "رأت أعينهم هذا السهل الفسيح تقوم عليه أم المدائن وأقدمها وكأنه قطعة من الجنة هبط به الملائكة من سماء الخلد إلى هذه الأرض". إلى أن يقول: "إنما يرون من الطعام ما لم يكن يدور لهم في خيال، وما حسبه أكثرهم مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر".[2]

(١) سورة الدخان آيات: ٢٥ – ٢٩.

(٢) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ١٢٥ – ١٢٨.

وهـذا النعيـم على طرافته فإن للمسـلمين به إلفًا، فلقد تحـدث إليهم القرآن في سـور شـتى وآيات كثيرة عن عظمـة مخلوقات الله عـز وجل وأمرهم أن يسـيروا في الأرض لـيروا مـن عظمة هذا الخلق ممـا ليس في بيئتهم، وتعـدد الآيات بعض هـذه المخلوقات من الدواب والحيـوان والنبات. ثم يقول الحق: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾.(١)

بـل إن القرآن قد أعطى للمؤمنين به بعدًا فكريًا عميقًا يكون رصيدًا لا يتناهى عند حد بالنسبة لعظمة الخلق. وبالنسبة للنعيم قال تعالى يصف متاع الدنيا: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾.(٢)

وقـال عـز مـن قائـل: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.(٣)

وبهـذا يكون المؤمن في حصانة من أي فتنـة أو إغراء بمظاهر هذا المتاع الداني، فهـو مهما بلغ لـن يداني بعض متـاع الآخرة، والـذي من أجله تحـرك المجاهدون وحملـوا أرواحهـم عـلى أكفهـم ثمنًـا لرضـوان الله حتـى يدخلهـم جنـة عرضها السماوات والأرض. فإذا صادفهم شيء من متاع الدنيا الزائل ونظروا إليه من علٍ فلن تأسرهم زينته ولن يستخفهم متاعه.

ثانيًا: الجانب المدني في دولة الإسلام وإسهامات عمر بن الخطاب فيه:

أوضـح الدكتور هيكل أن لعمر بن الخطاب ﷺ إسـهامات عظيمة وبصمات واضحـة عـلى الجانب المدني لدولة الإسـلام بقـدر ما كان له ﷺن إسـهامات في الجانـب الحـربي. فإذا كانت سياسـة الفـاروق في الجانب العسـكري سـاهمت في إفسـاح الدولة الإسـلامية، فقد أدت سياسـته في الجانب المدني إلى اسـتقرار نظام

(١) سورة لقمان آية: ١١.

(٢) سورة النساء آية: ٧٧.

(٣) سورة السجدة آية: ١٧.

الدولة وإلى إرساء حضارة شامخة رسمت طريق الإنسانية الراشدة لعدة قرون.

وأتناول منهج الدكتور هيكل عند تناوله لهذا الجانب من حياة عمر ﷺ بالدراسة والتحليل، وذلك في عدة جوانب هي:

١- الجانب السياسي.

٢- الجانب الاقتصادي.

٣- الجانب الاجتماعي.

٤- الجانب الفكري.

١- الجانب السياسي واسهامات عمر بن الخطاب فيه:

الإسلام دين شامل ونظام كامل وقانون إلهي يحكم العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وبني جنسه أفرادًا وجماعات. ولذلك لا ينفصل فيه الجانب السياسي عن الجانب التعبدي، ولا عن الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي، ولا تنفصل فيه الدنيا عن الآخرة. ومحاولة فصل أي جانب من جوانب الحياة وعزله عن الدين يعتبر انتقاصًا في الدين.

ولقد فهم عمر هذه الحقيقة وأدركها، فأولى الجانب السياسي من حياة المسلمين عنايته واهتمامه، فكانت له إسهامات واضحة في الحياة السياسية للدولة الإسلامية إبان خلافته. ويرصد الدكتور هيكل أهم هذه الإسهامات في النقاط الآتية:

أ- توحيد الجنس العربي في وحدة سياسية:

فالدكتور هيكل يرى أن سياسة عمر بن الخطاب كانت تهدف إلى جمع العرب في وحدة سياسية واحدة، بل كانت هذه الوحدة تشغل باله منذ خلافة الصديق وقبل أن يتولى هو إمارة المؤمنين. فلما مات أبو بكر واستخلف عمر من بعده، كان تثبيت هذه الوحدة وتوطيد دعائمها أول ما اتجه إليه عمر.

ولقد أدرك ﷺ أن وحدة العرب لن تكون قوية وراسخة إلا إذا اجتمعوا على دين واحد، كما أنهم يتكلمون لغة واحدة. ومن هنا كان إجلاؤه لليهود والنصارى عن جزيرة العرب وسيلة من وسائل تحقيق هذا الهدف في الوحدة، إذ بذلك يحقق وحدة العقيدة في شبه الجزيرة العربية.

ويعتقد الدكتور هيكل أن القرارات السياسية لا يحكمها إلا مصلحة الدولة الإسلامية، وأن سياسة الرسول ﷺ وسياسة الخلفاء الراشدين من بعده كانت تصدر عن هذه القاعدة. ويضرب مثلًا بموادعة الرسول ليهود يثرب أول عهده بها لأن الأحوال السياسية ومصلحة الدولة الإسلامية قضت بذلك. فلما رأى الرسول مصلحة الدولة العليا لا تستقيم بهذه السياسة، عدل عنها إلى سياسة الإجلاء والإبعاد. ولذلك، فالدكتور هيكل يرى أن قرار عمر بإجلاء اليهود والنصارى عن شبه الجزيرة اتباعًا لهذه السياسة التي استنها الرسول، والتي أوضحت أن مصلحة الدولة العليا هي التي تتخذ في ضوئها القرارات السياسية.[1]

والواقع أن هذا رأي من الخطورة بمكان، إذ يصور الإسلام وكأنه دين خالٍ من المبادئ السياسية الرشيدة والعادلة التي تحكم المؤمنين به من الناحية السياسية، وتقيم العلاقات بينهم وبين غيرهم على أسس سليمة. فلا يأبهون بمعاهدات دولية أمام مصلحة الدولة التي تتخذ على ضوئها القرارات السياسية.

والذين يفهمون الإسلام بهذه الصورة المعكوسة من المستشرقين يرونه دينًا انتهازيًا. ففي حالة الضعف يسالم ويهادن، فإذا ما اشتد ساعده أبعد وشرد. والحقيقة بخلاف ذلك، فحين وادع الرسول اليهود في يثرب لم يكن ذلك بحكم الظروف، وإنما بحكم قواعد الإسلام التي تؤكد على حق الجار وتدعو إلى احترام حرية الآخرين وممتلكاتهم وحياتهم وكافة حقوقهم طالما التزموا جانب الحق والعدل، فلم يظلموا ولم يعتدوا ولم يغدروا. ولقد وفى الرسول ﷺ لليهود

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ١٨٥ – ١٨٦.

بعهدهم واحترم ميثاقهم طالما كانوا أوفياء، فلما استزلهم الشيطان وزين لهم سوء الفعال ونقضوا العهد مع رسول الله ﷺ نصحهم الرسول وحذرهم عاقبة الغدر والخيانة، ولكنهم تمادوا في ذلك وأصروا عليه، فكان ما كان تنفيذًا لحكم المعاهدة التي أبرمها معهم، لا خروجًا على نصوصها وأحكامها إلى حكم المصلحة العليا للدولة كما يرى الدكتور هيكل.

وما فعله عمر من إجلاء اليهود والنصارى لم يكن من أجل مصلحة عليا للدولة ارتآها عمر، وإنما كان تنفيذًا لمبدأ أرساه الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى حين قال: "لا يجتمع ببلاد العرب دينان".[1]

فعمر رضي الله عنه في سياسة الإجلاء هذه إنما كان منفذًا لهذا التوجيه النبوي ليس إلا.

ب – تحقيق المساواة بين أبناء الجزيرة العربية:

يعتقد الدكتور هيكل أن اتباع عمر لهذه السياسة كان يهدف من ورائها إلى تقوية روابط الوحدة بين العرب، إذ لا يكفي اتحادهم في الدين وحده لإقامة هذه الوحدة بل لا بد من إزالة الفوارق بينهم والتي قد تشعر بعضهم بأنهم أقل حرية من غيرهم أو أقل في التقدير ممن سواهم.

ولتحقيق هذه المساواة اتخذ عمر عدة قرارات أهمها:

١ – قراره برد السبي من العرب إلى عشائرهم ورد حريتهم إليهم.

٢ – رفع الحظر عن من تاب من أهل الردة الذي كان قد فرضه الصديق عليهم حين أمر بألا يستعان بهم في الجهاد، فقرر عمر رفع هذا الحظر عن من ظهرت توبتهم وانضموا بذلك إلى صفوف المجاهدين. وبذلك انصهر العرب جميعًا في بوتقة الجهاد والفتح.

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ١٩٣٥٩ والبيهقي في الكبري ٩/ ٢٠٨.

ويعلق الدكتور هيكل على أثر هذين القرارين قائلًا: "وبذلك استفتح عمر عهدًا جديدًا سرى معه في نفوس العرب جميعًا روح أشعرهم على اختلاف مواطنهم من شبه الجزيرة بأنهم أمة واحدة لها هدف مشترك، وتوجهها سياسة عامة ومصلحة عليا يهيمن عليهما أمير المؤمنين".[١]

٣- جعل الهجرة مبدأ للتاريخ العربي، فقضى عمر بهذا القرار على ما كان يتخذه العرب في جاهليتهم من تقاويم كثيرة. كما واجه بهذا التقويم العربي الإسلامي التقاويم الأجنبية من فارسية ورومانية، وبهذا حقق لوحدة العرب المتانة والقوة باختيار هذا التقويم، وحقق لهم العزة والكرامة في مواجهة الأمم الأخرى.

وبهذا، فإن الدكتور هيكل يرى أن تحقيق المساواة كأنه من القرارات السياسية التي ابتكرها عمر تحقيقًا لوحدة العرب، رغم أن المساواة مبدأ مقرر بالكتاب والسنة. ولذلك هو واجب التطبيق لا على العرب وحدهم ولكن على كل رعايا الدولة الإسلامية، لا سياسة ولكن ديانة.

ج - تركيز السلطة في يد عمر بن الخطاب:

من المعلوم بداهة أن قدرة الإنسان محدودة ووقته كذلك محدود، ولذلك فلن يستطيع إنسان مهما كان أن يدير أعمالًا تفوق قدراته وطاقته. ومن هنا كان لا بد من تفويض السلطات وتوزيع المسؤوليات، خاصة في المستويات الإدارية العليا كرئيس الدولة وأمير المؤمنين. ويصبح تركيز السلطة في هذه الحالة أمرًا مستحيلًا، إذ لا يمكن لبشر أن يهيمن أو يشرف بنفسه على كافة الأنشطة وفي كل أرجاء الدولة في وقت واحد، خاصة في ظل الظروف التي كانت سائدة في عهد عمر ﷺ بطء في وسائل المواصلات وبدائية في أدوات السيطرة والاتصال.

ومع هذه المسلمات، فإن الدكتور هيكل يرى أن سياسة عمر في الإدارة والحكم كانت تهدف إلى تركيز السلطة كلها في يديه، مستشهدًا على هذا الرأي بقول عمر

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ١٨٧.

أول ولايته: "والله لا يحضرني من أمركم شيء فيليه أحد دوني ولا يتغيب عني فألوا فيه عن الجزأ والأمانة ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لأنكلن بهم". ثم يفسر كثيرًا من قرارات عمر بعزل الولاة أو محاكمتهم من خلال هذه الرؤية وهي تركيز السلطة في يده[١]، وكأنه كان مدفوعًا إلى هذه السياسة بدافع الحرص على السلطان والاستئثار به من دون الناس. ويلتمس العذر لعمر في انتهاج هذه السياسة بأن ظروف الحرب وظروف الدولة كانت تقتضي ذلك، فيقول مبررًا: "ولو أن ما واجه عمر يومئذ حدث في زماننا أو في أي زمان آخر لقضت أحوال الحروب بإسناد الأمر إلى رجل موثوق به، تجتمع السلطة في يده لتنظيم جهود الحرب والاضطلاع بتبعاتها".[٢] ولم يتوانَ عمر في تنفيذ هذه السياسة في الحرب وفي ما بعد الحرب.

فقد كان يشارك أمراء الجند في وضع خطط القتال، بل كان هو الذي يضعها في كثير من الأحيان. فإذا تم الفتح رسم السياسة التي تجري في البلاد المفتوحة، وصور ما يجب القيام به من شؤون الإصلاح فيها.[٣]

والحق أن ذلك لا يعني أن عمر كان يهدف إلى جمع السلطة كلها في يده، لأن الذي يفعل ذلك إنما هم الحكام المستبدون، والذين يرى أحدهم نفسه مركز النظام ومحور ارتكازه حتى قال أحدهم: "أنا الدولة والدولة أنا". ولكن ما فعله عمر كان استشعارًا لعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه كأمير للمؤمنين. والدكتور هيكل نفسه يوضح هذه النقطة قائلًا: "ولم يبتغ عمر من الخلافة شيئًا لنفسه، بل كان يعد نفسه الحارس الأمين على مال المسلمين كما كان الحارس الأمين على وحدتهم وحريتهم. وقد قربه ذلك إلى الناس وحببه إليهم، وزادهم محبة له أنه كان يرى الخلافة أبوة تُلقي على الخليفة واجبات للمسلمين هي واجبات الأب

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج١ ص ٩٩.

(٢) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ١٨٧.

(٣) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ١٨٧.

نحو أبنائه، والحنان والبر أقدس عواطف الأبوة وأسماها. وكان عمر أشد الناس حنانًا على المحتاجين إلى الحنان وأشدهم برًا بهم، فقد كان يرى الحنان والبر بعض واجبات الحكم كإقامة العدل والمحافظة على الأمن سواء".[١]

ورغم أن نظام الحكم في الإسلام كان يقوم على أساس الشورى وطبق عمر هذا المبدأ وأمر الولاة وأمراء الجنود بتطبيقه كل في دائرة اختصاصه، فإن الدكتور هيكل يرى مع هذا أن الشورى لم تحد من سلطان الخليفة حيث إنها ليست ملزمة. فلم يكن "لأصحاب الرأي الذين يشيرون على الخليفة حقوق يفرضون بها رأيهم عليه، بل كان الخليفة مطلق السلطان مع هذه الشورى وحسابه على الله وعلى نفسه وعلى الشعب الذي بايعه.[٢]

وبهذا يقرر الدكتور هيكل أن الخليفة مسؤول أمام الله وأمام نفسه وأمام الشعب الذي بايعه، فكيف يكون مع هذه المسؤولية مطلق السلطان؟ أتصور أن الكاتب ﷺ رغم أنه سياسي محنك قد خلط بين حرية الخليفة في اتخاذ القرار بعد المشاورة وبين السلطان المطلق الذي يستبد بالرأي على حد قول فرعون الذي حكاه الله في القرآن الكريم: "قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد".[٣]

إن نظام الشورى ليس معناه أن يكون الخليفة مجرد أداة لتنفيذ ما يملى عليه من مجلس شوراه، وإلا لتعطل منصب الخلافة وأصبح كأنه غير موجود. وإنما معناه عرض الأمور الهامة على أهل الشورى للمداولة وتمحيص الآراء، فإذا تعددت الآراء كان الخليفة في حل أن يأخذ ما يراه محققًا للمصلحة العامة. وهو مسؤول أمام أهل الشورى لا ليملوا عليه القرارات والأوامر، فهذه مسؤولية وأمانة، فإذا أخل

(١) المرجع السابق ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩.

(٣) سورة غافر آية: ٢٩.

بواجبات المسؤولية وأضاع الأمانة فلهم عزله. وعلي هذا فإن الخليفة ليس مطلق السلطان لأن الشورى ليست ملزمة، لأن أهل الحل والعقد والأمة في مقدورها أن تعزله بالكلية إذا هو أساء واتخذ من القرارات ما يفوت المصلحة أو يضر بالأمة.

ومن العجيب حقًا أن يقول الدكتور هيكل: "إذا كان أمير المؤمنين صاحب الرأي الأخير والقول الفصل في كل أمر، فقد كان عليه لقاء ذلك كل التبعة عن سياسة الدولة، وبذلك اجتمعت في يده السلطات كلها، فكان المشرع في حدود كتاب الله وسنة رسوله، وكان المنفذ والقاضي والقائد الأعلى للجيش".[١]

إذ كيف يستطيع إنسان مهما أوتي من القوة والعزم أن يفصل في كل أمر من أمور الدولة؟ والحق أن هذا أمر مستحيل وقوعه، ولذلك نرى الدكتور هيكل يستدرك قائلًا:

"على أن عمر ألفى نفسه بعد قليل من ولايته قد شغلته شؤون الدولة العامة وسياستها العليا عما كان قد عول عليه يوم بويع على أن يضطلع هو به. لذلك لم يكن بد من أن يولي أعوانًا له يقضون مصالح الأفراد فيما لا تتأثر به مصلحة الدولة. وكان أول ما صنع من ذلك أن فصل قضاء المدينة عن سلطته وأقام أبا الدرداء عليه وجعل له اسم القاضي وناط به الحكم بين الناس فيما يرفعون إليه من خصوماتهم، على أنها كانت خطوة أدت إليها الحاجة وقضت بها ضرورات التطور في أحوال الدولة. وبقيت كذلك فلم تصبح مبدأ مقررًا في أرجاء الدولة كلها إلا بعد زمن طويل من عهد الفاروق".[٢]

د – سياسة عمر في اختيار العمال والأمراء ومحاسبتهم:

لقد كان عمر رضي الله عنه على علم بالرجال، فاختار الولاة والأمراء ممن توافرت فيهم الكفاءة والأمانة بمعناها الواسع، ولم يقصر في ذلك ولم يجامل، فحالفه التوفيق

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ١٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣.

في اختياره. وكان ﷺ يرى أن هؤلاء الولاة والأمراء هم نوابه وأعوانه الذين يحملون معه عبء المسؤولية، فإذا اختار واحدًا وعظه ونصحه ثم راقبه في عمله.

ويوضح الدكتور هيكل هذا الإحساس بالمسؤولية لدى أمير المؤمنين عن عماله، مسؤولية لا تنتهي عند حسن الاختيار والنصح، بل تتجاوز ذلك حتى يطمئن عمر إلى عدلهم وبرهم برعيتهم فعلًا وواقعًا. قال عمر يومًا لمن حوله: "أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل، أقضيت الذي علي؟ قالوا: نعم. قال: لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته به أم لا". وكان لذلك شديد الحساب لهؤلاء العمال، شدة رأينا مظاهرها في عزل خالد بن الوليد ومقاسمة عمرو بن العاص".[١]

وكان ﷺ يطلب من عماله أن يوافوه في موسم الحج كل عام بمكة، يسألهم عن أعمالهم ويسأل الناس عنهم. فإذا سمع شكاية من الرعية حقق فيها ووصل إلى الحقيقة فيها، وعمل جاهدًا على إزالة أسباب الشكوى. فإن كان تقصيرًا من الوالي أو الأمير عزله، وإن كان لا أصل للشكوى انتصف للولاة حتى يحافظ على هيبتهم طالما التزموا العدل وعملوا بالحق. فإذا اعتدى عليهم واستهان بأمرهم مستهين، عاقبه عمر أشد العقاب.[٢]

ويوضح الدكتور هيكل أنه كان من سياسة عمر تشجيع وتقدير من تظهر قدرته وكفاءته من الولاة على تسيير الأمور ويبقيه في منصبه بتجديد العهد له. كما فعل مع عمير بن سعد ﷺ حين ولاه على حمص، ثم استدعاه إليه بما جبى من فيء المسلمين فجاءه وليس معه شيء، فلما قال له: "فما جئتنا بشيء؟" قال: "لا ولو نالك منه شيء لأتيتك به"، وأعلمه أنه أنفق كل ما جباه في موضعه وما بقي لبيت المال بالمدينة شيء. عندئذ قال: "جددوا لعمير عهدًا"، ثم عبر عن تقديره

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٠١.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

لهذا الصنف من الولاة فقال: "وددت لو أن لي رجلًا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين".

ولقد وقعت في حيرة مما يذكره الدكتور هيكل عندما تعرض لعلاقة أمير المؤمنين عمر بواليه على مصر عمرو بن العاص بالمقارنة بعلاقته مع واليه على حمص عمير بن سعد.

فقد جدد لعمير عهدًا حين علم أنه أنفق كل ما جباه في مواضعه من المصالح والمرافق العامة في حمص. أما عمرو بن العاص، فيصور الدكتور هيكل علاقة أمير المؤمنين به على النقيض من ذلك تمامًا. فحين ينفق عمرو من الخراج والجزية على المرافق بمصر، فيقوم بحفر خليج تراجان لربط النيل بالبحر الأحمر ومن ثم بالبحر المتوسط لتسهيل حركة التجارة بما يعود على مصر والمصريين بالخير والفائدة، ويقوم بإصلاح ما خربه الروم من مرافق البلاد، ويعفي القرى التي أصابها الخراب من الجباية، فيثور عمر ثورة عارمة بعمرو بن العاص من أجل هذا الإنفاق. وما أظن أن أمير المؤمنين عمر يعارض مثل هذه الأعمال الجليلة، فسياسته النابعة من روح الإسلام هي الإصلاح وإقامة المشروعات النافعة والرفق بالرعية. لكن الدكتور هيكل يصوره بصورة الشره إلى المال، وهذا يخالف ما اشتهر به عمر ﷺ. يقول الدكتور هيكل:

"وكان عمر في حاجة إلى المال لتنفيذ سياسته في شبه الجزيرة، وكان لذلك يلح على عمرو ليبعث إليه بالخراج كاملًا، فلا يجد منه إسراعًا إلى تلبيته لما يريد تشبثًا منه هو أيضًا بسياسته. وضاق عمر بذلك ذرعًا، فكانت بين الرجلين كتب عنيفة بلغ عنفها وبلغت شدتها حد الاتهام".[1]

ويورد الدكتور هيكل نصوص هذه الكتب التي لا تتفق وما عرف عن عمر من حزم وإقدام على عزل من تحوم حوله الشبهات من الولاة. فكيف يبقي على

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج٢ ص ١٧٦.

عمرو وقد وصل الحال بينهما -على حسب الكتب المتبادلة بينهما- إلى حد الاتهام الصريح؟ فيقول الدكتور هيكل: "ولقد ضاق عمر آخر الأمر ذرعًا بهذه الكتب، ورأى فيها نذيرًا إن لم يتداركه بما عرف من شدته تفاقم الأمر بينه وبين عمرو تفاقمًا قد ينتهي إلى غير ما يحب. لذلك انتقل إلى الاتهام الصريح ثم إلى التحقيق مع عمرو فيما كسب من مال في أثناء ولايته على مصر".[١]

ترى ما الفرق بين مصر وحمص؟ وما الفرق بين عمرو وعمير؟ أَلِأَنَّ أهل مصر ليسوا عربًا على رأي الدكتور هيكل الذي يرى فيه أن عمر كان يخص العرب وحدهم بالعدل والرحمة دون سواهم؟

يقول الدكتور هيكل معبرًا عن هذا الرأي الشاذ والغريب: "فأمر عماله عليهم -أي العرب- أن يكونوا على مثاله حزمًا وعدلًا وبرًا ورحمة، وأن يسووا بين العرب في المعاملة على اختلاف منازلهم من شبه الجزيرة. ولهذا الغرض -أي زيادة وحدة العرب متانة- أصدر وصاياه لعماله بما قدمنا. فهو لم يكن يبعثهم إلى العرب ليذلوهم بل ليقيموا بينهم حدود الله بالعدل والقسط. وذلك قوله لهم: اجعلوا الناس عندكم سواء، قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم. وإياكم والرشا والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب، فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار".[٢]

كيف فسر الدكتور هيكل لفظة "الناس" في كتاب أمير المؤمنين بالعرب وحدهم؟ الحق أن اللغة لا تساعده على هذا التفسير، وما كان يصح أن يفهم أن ظلم أهل مصر ومنعهم من المشاريع النافعة وأخذ خراج مصر وجزيتها كاملًا جائز في سياسة عمر بن الخطاب حتى ينفذ سياسته في شبه جزيرة العرب. فما عُرِف به عمر من حبه للعدل وشفقته بالرعية لا يتفق مع هذا الفهم، وما كان الإسلام في عدله ورحمته ليفرق بين جنس وجنس أو شعب وشعب.

(١) المرجع السابق ص ١٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١.

ويشـهد بضعف هذا الرأي وغرابته مـن الدكتور هيكل ما ذكره من دعاء عمر حين قال: "اللهم إني أشـهدك على أمراء الأمصار، فإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهـم وسـنة نبيهم ويعدلوا بينهم ويقسـموا فيأهـم بينهم ويرفعوا إلى ما أشـكل عليهم من أمرهم".[١]

فهو ﷺ لم يخصص أمراء بعينهم ولا أمصارًا بعينها، ولم يذكر العرب وإنما ذكر النـاس. فهـو إذن يقصد أي أمـير المؤمنين، أي أمير على أي مـصر على أي جنس. فمن القصور المعيب أن نخصص أمراء أو أمصارًا أو جنسًا بعينه، إذ إنه تخصيص لا دليل عليه.

ثم ما هو تفسير الضعف والخور من عمر أمام عامله على مصر عمرو بن العاص رغم ما اشـتهر به الفاروق من شـدة وحزم؟ يذهب الدكتور هيكل إلى تفسير هذا الموقف الغريب من عمر بما ضمنه الإسـلام لأبنائه من حرية عقلية تعطي المسـلم الحـق في أن يتمسـك برأيه ولو خالف فيه رأي أمـير المؤمنين. فلقد أصر عمرو بن العاص على سياسـته في إدارة شـؤون مصر رغم مخالفته في هذه السياسـة لما ارتآه عمـر إذ لم يلبـث أن خالف عمر فيما اتصل من سياسـته بتخفيف الضرائب مخالفة بلغـت حـد المؤاخذة، وكتب إليـه مرات فلم يغـير عمرو من رأيـه ولا من خطته بل أصر على ذلك إصرارًا أقام الشـبهات في نفس عمر. وهذه الشـبهات هي التي جعلت الرجلين يتبادلان من الكتب ما لا يستطاع تصور مثله في العصر الحاضر. وكيف تسـتطيع أن تتصوره وقـد وقف ابن العاص من أمـير المؤمنين موقف الند مـن نده مع ما يعرفه من شـدة عمـر على عماله حتى ليـسرع إلى عزلهم متى زايلت نفسـه الطمأنينـة إلى عدلهـم وأمانتهـم.[٢] ولقـد كان الأجدر بالدكتـور هيكل أن يمحـص هذه الروايات كما هو منهجه ولا يقف منها موقف الناقل لأنها تتعارض

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥.

مع المعروف عن عدل وحزم عمر، كما تتناقض مع ما هو مقرر من سماحة الإسلام ورفقه بكل رعاياه عربًا كانوا أم عجمًا، مسلمين كانوا أم ذميين.

٥ - سياسة عمر بن الخطاب في الاستخلاف من بعده:

كان قرار عمر بالاستخلاف آخر القرارات السياسية قبل أن تفيض روحه إلى بارئها. فبعد أن طعنه أبو لؤلؤة في مؤامرة غادرة، أوضح الدكتور هيكل خيوطها وحدد أشخاصها، كان يشغل بال عمر التفكير في مصير المسلمين إذا نزل به قضاء الله: ماذا يصنع في إمارة المؤمنين من بعده؟ أيختار خليفته من بعده كما فعل أبو بكر؟ أم يترك الأمر للمسلمين يختارون من يرضونه كما فعل رسول الله ﷺ؟ ولخطورة هذا القرار، فلقد شاركه المسلمون في هذا الاهتمام مما يدل على أهمية منصب الخلافة.

أما بالنسبة للحل الأول، فلقد ذكر عمر رجلين لو كان أحدهما حيًّا ما تردد في استخلافه من بعده لما يراه من مؤهلات مطلوبة لهذا المنصب الخطير، وهما: سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة على لسان رسول الله ﷺ.

أما بالنسبة للحل الثاني وهو ترك الأمر مرسلًا، فلقد خشى عمر مغبة هذا القرار في الظروف التي تمر بها دولة الإسلام، فقد يتنازع المسلمون وينشب بينهم الشقاق حول منصب الخلافة مما يعوق حركة المد الإسلامي، وربما اشتعلت حرب داخلية بين المسلمين فتأتي على الأخضر واليابس.

ولقد سلك الفاروق إزاء هذا القرار مسلكًا جديدًا، فلم يصادر حق الأمة ولم يترك الأمر مرسلًا على عواهنه، وإنما رشح لمنصب الخلافة الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ليختاروا من بينهم واحدًا لإمارة المؤمنين بعد أن يلقي عمر ربه.

يقول الدكتور هيكل: "لم يلبث عمر بعد قليل من إعمال الرأي أن جعل الخلافة من بعده شورى في ستة هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام،

وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص – ﷺ – ومن المأثور عنه في استخلافهم قوله: لا أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدي".[١]

ثم وصى من يختار من بين هؤلاء أن يستعين بسعد بن أبي وقاص لأنه لم يعزله عن عجز ولا خيانة، وقد جعل ابنه عبد الله مع أهل الشورى هؤلاء يشاورونه وليس له من الأمر شيء. ويؤكد الدكتور هيكل أن عمر ﷺ إزاء هذا القرار كان واضحًا كل الوضوح، وحازمًا كل الحزم كما كان خلقه دائمًا، فقد جعل صهيبًا على الصلاة بالناس حتى يتم اختيار الخليفة، ولما كان

طلحة غائبًا عن المدينة، فقد أمر أصحاب الشورى أن ينتظروه ثلاثة أيام، فإن حضر وإلا قضوا أمرهم، ثم أعلن في حزم وعزم قوله: "من تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه".[٢]

وقد حدد لهم مدة الشورى بثلاثة أيام، وأسند مهمة الحراسة وحفظ النظام لاجتماع الشورى إلى الأنصار حتى يتم الاختيار في حرية تامة ونزاهة كاملة ومن غير تأثير خارجي. ثم رفع يديه إلى السماء ضارعًا إلى الله: "اللهم أنت خليفتي عليهم". وإتمامًا لحق الأمة عليه، أوصى الخليفة من بعده وصية جامعة لما يراه أقوم سياسة تطمئن بها أمور الدولة ويزداد الإسلام بها عِزًّا.[٣]

ويستنتج الدكتور هيكل من سياسة عمر في ترشيح أهل الشورى الستة ليختاروا خليفة من بينهم أن هذا يدل "على أن اختيار الخليفة لم يكن له نظام مقرر في الإسلام".[٤]

---

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٨٢.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٨٤

(٤) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٨١.

وهـذا الاسـتنتاج محـل نظر لأن الإسـلام جعـل هـذا الاختيار إلى الأمـة أولًا وأخيرًا، أما كيف تعبر الأمة عن رغبتها في ترشيح من تراه مناسبًا أو الاختيار من بين المرشحين، فهذا ما يختلف من حال لآخر.

ولقد وضح نظام الإسلام في احترام رأي الأمة حين ترك رسول الله ﷺ الأمر شـورى من بعده. فإذا اسـتخلف أبو بكر عمر فإن ذلك كان بمشورة المسلمين ثم بيعتهـم لـه بعد وفاة الصديق. فإذا رشـح عمر أهل الشـورى ليختاروا خليفة من بينهم فليس في هذا مصادرة لرأي الأمة.

وهكذا نرى أن اختيار الخليفة في الإسـلام له نظام يقوم على احترام حق الأمة في هـذا الاختيـار. وفعل الرسـول والخلفـاء الراشـدين من بعده من بـين الصور التـي بهـا تتحقـق إرادة الأمة في اختيـار ولي الأمر، وتعدد الطـرق لا يهدم النظام، وإنما يعطي انفسـاحًا لتطبيقه باتباع الصورة التي تتناسـب مع حالة الدولة وتلائم ظروفها السياسـية والعسـكرية والفكرية التي تمر بها. فالرسـول الكريم ﷺ ترك الأمر كله للأمة ترشـيحًا واختيارًا، وقام أولوا الرأي بترشيح ومبايعة أبي بكر، ثم بايعه مباشرة من تمكن من ذلك، ثم كان رضا الناس كافة بما تم.

وكذلك فعل أبو بكر حين اسـتخلف عمر، فقد شـاور واستطلع آراء الصفوة من الصحابة، فوافقوه على رأيه، وكذلك وافقه جمهور المسـلمين بالمدينة، ثم كانت البيعة العامـة بعد موت أبي بكر. وهذا يمثل صورة موافقة لظروف الدولة الإسـلامية إبان خلافتـه. فلـما طعن عمر وأراد أن يجنب الأمة الاختـلاف، أضاف إلى التطبيق صورة أخرى تتمثل في ترشيح النفر الذين تتوافر فيهم الكفاءة والأمانة ليختاروا أحدًا منهم لتقول الأمة فيه كلمتها. وهذا ليس خروجًا من عمر على سنة الرسول والصديق من بعده، وإنما هو إكمال وإتمام لنظام الإسـلام في اختيار الأمة لولي الأمر. والرسـول ﷺ قال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ".[1]

(١) رواه الترمـذي في سـننه باب ما جاء في الأخذ بالسـنة واجتناب البدعة رقـم ٢٦٧٦، وأبو داود

٢- الجانب الاقتصادي واسهامات عمر بن الخطاب فيه:

للجانب الاقتصادي أهميته في حياة الفرد والجماعة، ولذلك لم يتركه الإسلام هملًا، وإنما حدد معالمه في توازن إلهي يجمع بين مصلحة الفرد والمجتمع، ولم يضحِّ الإسلام بواحدة منهما لحساب الأخرى، فلا ظلم ولا مصادرة ولا أكل لأموال الناس بالباطل، وإنما حدد مصادر الكسب الحلال فأباحها، وبيّن المعاملات الظالمة ونهى عنها، وحدد على سبيل القطع كيف تنتقل الملكيات عبر الأجيال بالميراث، وجعل إيتاء الزكاة ركنًا من أركان الإسلام، وجعلها حقًا للفقراء في مال الأغنياء، وهذا يوضح شمولية الإسلام العظيم.

وانطلاقًا من هذا المنهج الرباني كانت عناية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بالجانب الاقتصادي في الدولة الإسلامية، فكانت له إسهاماته في هذا الجانب الحيوي.

ولقد بيَّن الدكتور هيكل عند كتابته عن الفاروق أهم هذه الاسهامات العمرية في الجانب الاقتصادي، وأهمها:

أ- تدوين الديوان وفرض العطاء:

يوضح الدكتور هيكل أن المال العام على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد الصديق ﷺ وفي صدر خلافة عمر كان يوزع كله على مستحقيه ولا يبقى في بيت المال شيء، وذلك لأن موارده كانت قليلة وتتمثل في الزكاة والفيء والغنيمة. فلما انفسحت رقعة الدولة الإسلامية استجدت موارد غزيرة ودائمة، وكان أكبر الموارد للمال العام "موارد الخراج والجزية". فقد صالح المسلمون أهل البلاد المفتوحة في العراق وفارس وفي الشام ومصر على أن يدفعوا جزية كان متوسطها على كل إنسان دينارين، وذلك فضلًا عن الخراج الذي كان الزراع يدفعونه عن أرضهم، فينفق جانب منه على مرافقهم وعلى تنظيم الحكم فيهم ويرسل ما بقي

في سننه كتاب السنة باب في لزوم السنة، وابن ماجه كتاب المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين.

منه بعد ذلك إلى المدينة. وقد بلغت غزارة هذا المورد مبلغًا حمل الخليفة على التفكير في إقامة نظام مالي للدولة الناشئة.[١]

ويهدف هذا النظام إلى إحصاء المال وتوزيعه على المستحقين، وقد اقتضى هذا تدوين المال وتسجيله في سجلات لعده وحصره، وكذا تسجيل المستحقين ومقدار استحقاق كل واحد منهم، وهو ما يطلق عليه الديوان، فهو سجل أُحصِي فيه من فرض لهم العطاء ومقدار كل عطاء مقرونًا باسم صاحبه.

وقد تم تدوين الديوان بعد مشاورة من عمر للمسلمين، وقد استفادوا في ذلك بما هو موجود لدى الأمم الأخرى. فلقد قال له الوليد بن هشام بن المغيرة: "يا أمير المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا وجندوا جنودًا، فدون ديوانًا وجند جندًا". فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نساب قريش، فقال لهم: "اكتبوا الناس على منازلهم".

ويعتقد الدكتور هيكل أن الدافع وراء تدوين الديوان وفرض العطاء هو ضمان وسائل العيش للعرب ليتفرغوا للجهاد في سبيل الله حتى يصبح ميدان الدعوة إلى الله حرًا طليقًا لا يتحكم فيه الفرس ولا الروم ولا غيرهما. وكان هذا هو الدافع أيضًا وراء عدم تقسيم الأرض في البلاد المفتوحة على الجند حتى لا يشغلوا بالزراعة عن الجهاد، وحتى لا تجذبهم الأرض إليها فتنسيهم الرسالة الكبرى التي ألقاها القدر عليهم. وهذا الحرص على أداء رسالة الإسلام هو الذي صرف عمر عن توجيه أموال الخراج والجزية لإصلاح الأرض في شبه الجزيرة حتى لا يستمرئ العرب العيش بها ويتركوا الجهاد إلى ما هو أيسر مشقة وأقل تعريضًا للخطر.

ورغم أن تدوين الديوان وفرض العطاء كان من العوامل التي دفعت حركة الفتح، فإن الدكتور هيكل ينحاز في الرأي إلى القائلين بأن هذا العمل كان له أثر سلبي على حياة العرب في الجزيرة؛ إذ أغرى هذا العطاء العرب بالكسل وأغناهم

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٠٦.

عن السعي للرزق، فلما تبدلت الأحوال ووقف اندفاع الفتح واشترك غير العرب فيه انقبض العطاء الذي كان مفروضًا لأهل شبه الجزيرة، فلم يطق الجيل الذي نشأ في البطالة أن يعود إلى التجارة والسعي للرزق. فأمحل الحجاز وظل مُمحلًا إلى وقتنا الحاضر. ثم يحمل الدكتور هيكل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هذه النتيجة التي وصل إليها حال بلاد الحجاز فيقول: كيف غابت هذه النتيجة عن عمر فلم يحسب لها حسابًا ولم يتخذ الحيطة لاتقائها؟ يقول الدكتور هيكل هذا رغم أنه يذكر أن عمر ﷺ كان يتوقع تغير الحال، فكان ينبه الناس إلى ضرورة السعي في طلب الرزق والاستكثار منه، كما كان شديد البرم بأولئك الذين يعزفون عن الدنيا تعبُّدًا وزهادة. وكان ﷺ يدعو الناس إلى ضرورة استغلال الثروات واستثمار الأموال، فقد كان يرى واجبًا على المسلم أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.(١)

ولقد آلى عمر على نفسه أن يصل الحق إلى صاحبه في مكانه ولو كان بجبل صنعاء. تحقيقًا لهذا الغرض، أرسل كل سجل خاص بناحية إلى واليها ليتولى توزيع العطاء على صاحبه في ولايته، كما كان عمر يتولى توزيع العطاء على أهل مدينة رسول الله وضواحيها.(٢)

وبذلك أسهم عمر ﷺ ساهمة فعالة في تحقيق العدالة من الناحية الاقتصادية، وبذلك اطمأن المسلمون إلى توافر مقومات حياتهم، فاندفعوا داعين إلى الله ومجاهدين في سبيله محتسبين أجرهم عند الله، يوفيهم الله إياه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.(٣)

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢١٠.

(٣) سورة الشعراء آية: ٨٨، ٨٩.

ب – دور عمر بن الخطاب في مواجهة الأزمة الاقتصادية:

شاء الله جلت حكمته أن تنزل بالمسلمين شدة ومجاعة أتت على الأخضر واليابس إبان خلافة عمر ﷺ ، وكما هي سنة الله في الخلق كانت هذه الشدة امتحانًا عسيرًا للفاروق، أبرز مواهبه وأظهر عبقريته في قيامه بدور الحاكم المسلم تجاه رعيته في حالات الشدة والعسرة حتى أذن الله أن تنكشف الغمة. فكان ﷺ أشبه بالملاح الماهر، هبت عليه ريح عاتية كادت تطوح بسفينته إلى الهلكة فصبر وصابر وبذل الجهد حتى وصل بها إلى مرفأ الأمان واستنقذها من بين الأمواج العاتية.

ولقد سجل الدكتور هيكل هذه المكرمة لأمير المؤمنين، وهي بحق جديرة بالإشادة والذكر حتى يتعلم ولاة أمور المسلمين كيف يتصدون لما قد ينزل بالأمة من أزمات أو ينزل بساحتها من شدائد. يذكر الدكتور هيكل أنه في أخريات السنة السابعة عشرة وطيلة السنة التي تلتها أصاب المسلمين شدة ومجاعة انتشرت في بلاد العرب دامت تسعة أشهر، هلك فيها الزرع والضرع، وهلك الحرث والنسل، وأصاب الناس منها جهد جهيد وبلاء شديد. وسبب ذلك أن السماء أمسكت ماءها فلم يأذن الله لها أن تمطر تسعة أشهر كاملة. وتحركت الطبقات البركانية من سطح شبه الجزيرة فاحترق سطح الأرض ويبس ما عليها من نبات، وصارت الأرض سوداء مقفرة كثيرة التراب، فإذا تحركت الريح سفت رمادًا. ولهذا سمي عام الرمادة، ونتج عن هذا جوع شديد أهلك الناس والأنعام، فنفق الكثير من قطعان الماشية والأغنام، وجف ما بقي، فأقفرت الأسواق وأصبحت الأموال في أيدي أصحابها لا قيمة لها ولا غناء فيها.

واشتد البلاء بسكان البوادي، فكانوا يهرعون إلى المدن والحضر لعلهم يجدون ما يحفظون به أودهم ويسد رمقهم، ولكن هيهات، فالمجاعة عامة والكارثة طامة. وكانت مدينة رسول الله ﷺ يؤمها هؤلاء الجوعى يشكون إلى أمير المؤمنين ما نزل بهم.[1]

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ١ ص ٢٦٥ – ٢٦٩.

كيف واجه عمر هذه المشكلة؟

يوضح الدكتور هيكل سياسة عمر تجاه هذه الأزمة في نقاط، هي:

١- تحمل عمر بن الخطاب آلام المجاعة مع المسلمين:

فلقد شارك عمر المسلمين فيما نزل بهم من مجاعة، وأقسم ألا يذوق لحمًا ولا سمنًا حتى يحيا الناس، وظل على هذا العهد حتى أذن الله فعاد المطر وزال عن الناس الجدب. وعبر عن سياسته تلك في قولة مشهورة: "كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما يمسهم؟" فصبر محتسبًا، وكان بوسعه أن يعيش بعيدًا عن آثار هذه الكارثة، ولكنه بر بقسمه حتى رآه الناس عام الرمادة وقد اسود لونه وكان أبيض مشربًا بحمرة، ولذلك عمل على إزالة آثار المجاعة عمل من يعاني منها ويكتوي بنارها.

ولقد اطمأن الناس حين رأوا أمير المؤمنين ليس بمنجاة مما هم فيه، فتحملوا الشدة صابرين، وعملوا جاهدين لإنهاء الشدة وإزالة آثارها.

٢- استنجاده بعماله في العراق والشام:

فقد كتب عمر ﷺ إلى عماله وولاته في الأقاليم التي وقاها الله شر المجاعة يستنجد بهم لغياث أهلهم في شبه الجزيرة. كتب إلى العراق والشام بعبارات صادقة صادرة من قلبه تشهد بسمو تقديره لمسؤوليته عن شعبه أمام الله وأمام ضميره. وكان أبو عبيدة أسرع هؤلاء العمال استجابة، فقدم في أربعة آلاف راحلة محملة طعامًا، فولاه عمر قسمتها فيمن حول المدينة، وبعث عمرو بن العاص بالطعام من فلسطين على الإبل وفي السفن من مرفأ آيلة.

وهكذا استنقذ المسلمون من أهل البلاد التي أفاض الله عليها أخلاف الرزق إخوانهم في شبه الجزيرة من براثن الهلاك جوعًا تطبيقًا لمبدأ التكافل بين المسلمين، وكان ذلك استجابة لنداءات أمير المؤمنين.

٣- تعيين من يقوم على خدمة الناس والتخفيف عنهم:

فقد أسند ﷺ هام الإغاثة إلى من وجد فيهم الأمانة والعزم على تحمل هذا العمل الشاق. فكانوا يستقبلون ما يرسل إلى شبه الجزيرة من مواد الإغاثة فيقومون بإعدادها وتقسيمها وتوزيعها في عدالة، وكانوا يتحرون في ذلك حال الناس كما أمرهم بذلك أمير المؤمنين. فكانوا يقدمون أهل البادية لأنهم أسوأ حالًا من أهل الأمصار. وكان ﷺ يبث العيون يتحسسون أحوال الناس ليقف على جلية الأمر، فكانوا يجتمعون عنده إذا أمسوا فيخبرونه بكل ما رأوه طول يومهم. كما كان يتولى بنفسه إعداد وتوزيع الطعام على أهل المدينة ومن اجتمع إليها، وأقام الموائد للناس وكان يشاركهم الطعام فلم يكن له طعام خاص يستأثر به من دون الناس.

٤- العناية بالمرضي وتجهيز ودفن من مات منهم:

فكان لا بد في ظل ظروف المجاعة والقحط أن تفشو الأمراض وتنتشر الأوبئة بين هؤلاء الجوعى انتشار النار في الهشيم، وأن يختار الله إلى جواره أعدادًا كبيرة منهم. فكان عمر ﷺ إزاء ذلك يتعهد المرضى ويخفف عنهم آلامهم، ويبعث بالأكفان لمن مات ويصلي عليهم. وكان يحاول أن يتغلب على الأزمة آخذًا بالأسباب متوكلًا على رب الأرض والسماء سبحانه وتعالى.

٥- اللجوء إلى الله عز وجل ليرفع البلاء:

كان عمر ﷺ خلال هذه الأزمة يضرع إلى الله طول الليل أن يرفع هذا البلاء ويبكي بكاء مرًّا، ضارعًا إلى الله ألا يجعل هلاك أمة محمد ﷺ على يديه. فلما طال زمن المحنة عزم على أن تقف الأمة كلها بين يدي ربها ضارعة لعل الله يرحمهم، فكتب إلى عماله أن يخرجوا بالناس في يوم عينه لهم، وأن يتضرعوا إلى ربهم. وخرج هو بالناس في ذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ. فلما انتهى إلى المصلى تضرع الناس وألحوا في الدعاء، وبكى عمر بكاء طويلًا حتى اخضلت لحيته. وأقام الناس يدعون ربهم تضرعًا وخشية، وقد أيقنوا الموت إن لم تتداركهم رحمة الله.

واستجاب الله لعباده المؤمنين ففتح أبواب السماء بماء منهمر، فكان بداية الغوث وانتهاء امتحان عسير نجح فيه عمر ونجحت فيه الأمة بأسرها.

٦- تأجيل جباية الزكاة عام المجاعة:

وتظهر عبقرية الفاروق ﷺ في الإدارة والحكم مع تمسكه بتعاليم الإسلام الحنيف في عدم إرساله المصدقين لجمع الزكاة في عام المجاعة. فلما ارتفع القحط وجاء الخير أمر عماله على الزكاة أن يجمعوها حصتين من القادرين: حصة عن العام المنصرم الذي كانت فيه المجاعة وحصة عن العام الذي يليه، وأمرهم أن يوزعوا حصة منهما على المحتاجين وأن يأتوه بالثانية إلى بيت المال. وبذلك زاد عمر ﷺ في تخفيف وطأة الفقراء ولم يرهق غيرهم ولم يحملهم ما لا يطيقون.[١]

٣- إسهامات عمر بن الخطاب في الجانب الاجتماعي:

يرصد الدكتور هيكل أهم مظاهر الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام، ثم يوضح أثر ظهور الإسلام وتعاليمه على الحياة الاجتماعية، ويرى أنها أدت إلى حدوث انقلاب في العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع الإسلامي، فقد سوى الوحي بين الجنسين ووجه القول للمؤمنين والمؤمنات والمشركين والمشركات، وتحدث عن النساء في رفق وإكرام، وجعل لهن مثل الذي عليهن بالمعروف".

وبهذا نظم الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة فاحترم إنسانيتها وفرض لها من الحقوق ما أوجب الله ورسوله ضرورة احترامه. فلا وأد للبنات ولا إكراه للفتيات على البغاء، وقرر لها حقها في الميراث. وسما بالعلاقة بين الجنسين من مجرد النظرة إلى العلاقة بينهما على أنها إشباع جنسي ومتاع شهواني إلى درجة المودة والرحمة. وحدد ما كان مطلقًا في عدد الزوجات بأربع وأوجب العدل بين الزوجات. وحدد الإسلام عدد الطلقات التي يملكها الرجل على زوجته بثلاث، فإذا أوقع الثالثة بانت منه زوجته بينونة كبرى فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره.

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٦.

ويـرى الدكتـور هيكل أن ما نـزل من القرآن في حقوق النسـاء كان جديرًا بأن يؤدي إلى انقلاب اجتماعي خطير في الحياة العربية، فالمرأة أساس الأسرة، والأسرة أسـاس القبيلة والأمة والاجتماع كله. واحترام الرجل للمرأة واشـتراكها معه فيما تؤهله لها طبيعتها من شـؤون الحياة يدفع إلى الحياة روحًا وقوة لا سـبيل إليهما إذا عوملت معاملة الرقيق وأقصيت عن كل شركة في شؤون الحياة.(١)

ثـم ينحـو الدكتور هيكل منحـىً غريبًا في تعليل قبول الرجـل العربي لمثل هذا التنظيـم الجديد لجوهر العلاقة بين الرجل والمـرأة فيقول: "وإنما هون على العرب أن يذعنـوا لما نزل من هذه الأحكام في شـأن المرأة حـين رأوه تعالى يقول: الرجال قوامـون عـلى النسـاء بـما فضـل الله بعضهم عـلى بعض وبـما أنفقوا مـن أموالهم. ويقول: واستشـهدوا شـهيدين من رجالكم فإن لم يكونـا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء".

"وحـين جعل للذكر مثـل حظ الأنثيين في الميراث، فهذه الآيـات تفتح بابًا لمن استعز بآرائه القديمة وإن لم تفتح هذا الباب إلا قليلًا، ولم تفتحه إلا لأنها ألقت على الرجل أعباء الإنفاق على أسرته والدفاع عن دينه ووطنه جهادًا في سـبيل الله".(٢)

وهـو بهـذا التعليل كأنه يـرى رأي هؤلاء الذيـن يعتقدون أن الإسـلام يجامل الرجـل ويحابيه على حسـاب المرأة. والحقيقة أنه أسـند إلى كل من الجنسـين المهام والواجبـات التـي هيـأه الله للقيـام بهـا بحسـب فطرتـه. العلاقة بين الجنسـين في الإسـلام قائمة على أسـاس التكامل وليس على أسـاس التضاد والتنازع، ثم كفل الإسـلام العظيم الحقوق لكلا الجنسـين بما يسـاعدهما عـلى أداء واجباتهما وتنفيذ دورهما في الحياة.

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٢٩

(٢) . الفاروق عمر د/ هيكل جـ ٢ صـ ٢٢٩.

ثـم يرصد الدكتور هيكل الحياة الاجتماعية للمسـلمين في عهد عمر فيذكر أنه طـرأت على حياتهم أحوال كان لهـا تأثيرها من الناحية الاجتماعيـة. فقد كثر المال وانتقـل الكثيرون من حيـاة البداوة إلى حياة الحضر، وكثرت وسـائل المتاع وأقبل النـاس عليه يعبون منه ما شـاء لهم المتاع. وعندئـذ أدرك عمر خطورة هذا الحال، فكانت له إسهاماته الجليلة التي عصمت الحياة الاجتماعية للمسلمين في عهده من التدهور. وأهم هذه الإسهامات:

أ- موقفه من الطلاق ثلاثًا دفعة واحدة أو بكلمة واحدة:

الأسرة هي أساس المجتمع، والعلاقة بين أفرادها هي المرآة التي تنعكس عليها صورة العلاقة بين أفراد المجتمع. لذا حرص الإسلام العظيم على أن تسود المودة والرحمـة في جو الأسرة، وسـمَّى القـرآن العظيم الرابطة الزوجيـة بالميثاق الغليظ دلالة على أهميتها وعظم شـأنها. ولذلك فأي تهاون أو استهتار بهذه الرابطة يجعل الحياة الاجتماعية للأمة في مهب الريح.

ولمـا كانت الحياة الزوجية عرضة للعراقيل والمشـكلات التي قد تحتم إنهاءها، فقد شرع الإسلام الطلاق كمخرج من عدم التوافق وسوء العلاقة بين الزوجين.

ولخطـورة هـذا القـرار عـلى حيـاة الأسرة، إذ قـد يكون هنـاك أطفـال صغار يتعرضون للتشريد إذا انفصمت العلاقة بين الأبوين، فقد جعل الإسـلام الطلاق مرتين تجوز مراجعة الزوجة بعدهما فقد ينصلح الحال بعد الطلقة الأولى فيراجعها. فـإذا طلقهـا الثانية فقد تكون هنـاك فرصة للإصلاح فلا مانـع، وكل هذا حفاظًا على اسـتدامة العلاقة بين الزوجين. قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.[1]

ولكـن الناس على عهـد عمر أكثروا من الحلف بالطـلاق ثلاثًا بكلمة واحدة، فرأى عمر أن يمضيه عليهم، وذلك حفاظًا على قدسية العلاقة الزوجية حيث إن

(١) سورة البقرة آية: ٢٢٩.

ذلك يدل على عدم احترام الناس لها، فأمضاه رغم أن المعمول به في عهد رسول الله ﷺ وفي خلافة الصديق أن الرجل إذا قال لزوجته أنت طالق ثلاثًا لم تكن إلا طلقة واحدة لأن الطلاق فعل يقع لا قول يلفظ. فلما أكثر الناس من التطليق ثلاثًا بكلمة واحدة مستعجلين الأمر، أمضاه عليهم عمر قائلًا: "إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم". فأمضاه.[١]

ب- موقف عمر من الغناء:

حياة الجماعة لا تقوم إلا على الجد والاجتهاد فلا تقوم على هزل أو كسل. فإذا تخلى الناس عن الجد وجعلوا حياتهم لهوًا وهزلًا فإنها لا بد صائرة إلى الاضمحلال والزوال.

غير أن الجد في الحياة لا يعني التجهم وقتل العواطف، وإنما يعني أداء الواجب في ظل من البهجة والسرور يساعد الإنسان على الاستمرار في البذل والعطاء حتى يثري الحياة.

ولذا أباح الإسلام من ألوان البهجة والسرور ما لا يجني على أداء الواجب ولا يؤدي إلى فساد في الأخلاق أو انحلال في القيم. ولقد كان عمر رضي الله عنه على شدته وحزمه يطرب للغناء ويردده أحيانًا، ولكنه حين رأى أن الغناء كاد يجني على عقيدة المسلمين وأخلاقهم بإقبالهم على سماعه بشغف، حتى إذا تُلِيَ كتاب الله تفرقوا عنه واستمعوا إليه بفتور، نهى عنه، خاصة ما كان من غناء القيان، لأنه يحرك في النفس نوازع الضعف ويثير فيها كوامن الشهوة. وفي هذا ما لا يخفي أثره السيء على حياة الجماعة.

وحفظ حياة الجماعة قوية نشيطة متطلعة إلى المعالي من واجبات الحاكم، وواجب عليه مراعاتها ورفعها دائمًا إلى العلا. ولهذا نهى عمر عن الغناء المبتذل الذي يجني على روح الأمة ويؤدي بها إلى الضعف والخور.[٢]

(١) انظر الفاروق عمر ج ٢ ص ٢٥٦ – ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠ – ٢٤١.

ج - موقف عمر من ظاهرة المدح والهجاء:

المدح والهجاء غرضان من أغراض الشعر العربي في الجاهلية والإسلام. وحيث إن الإسلام هو الدين الحق فلا بد أن تختلف صور المدح والهجاء في ظله عنها في الجاهلية. ففي ظل الإسلام يخضع الشعر كأي نشاط إنساني لمعايير الخير والشر، ويلتزم الشاعر بموازين الحق في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره حتى لا يقع تحت قول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ...".[1]

والإسلام لا يحرم الشعر ولا يجرمه من حيث هو إبداع، ولكن يسمو به عن السقوط والابتذال. ولذلك استعمل المسلمون سلاح الشعر في الذود عن دين الله وحربًا لأعداء الله ورسوله. ومع ذلك لم يكونوا من الفاحشين أو البذيئين، وإنما التزموا في ذلك بطهارة الكلمة وعفاف الأسلوب، فسموا بذلك بفن المدح والهجاء في الشعر العربي. فلم يعد أعذب الشعر أكذبه كما كان يقال في الجاهلية، كما لم يعد الشعر نكدًا كله، فيقوى في الشر ويلين في الخير. وبهذا ارتفع الإسلام بالشعر وفنونه إلى مرتبة تليق بكرامة الإنسان المسلم.

ولكن بعض الشعراء في خلافة عمر نسي هذه الحقيقة، وانتكس إلى فحش الجاهلية، فغلا في المدح والهجاء غلوًا يحرك الحفائظ ويثير المنازعات ويفسد الأذواق والأخلاق، فوقف منهم عمر موقفًا حاسمًا، فحذرهم وأنذرهم بل وعزرهم بالحبس حتى يرعووا عن هذا السقوط في مستنقع الجاهلية الآسن بعد إذ أنجاهم الله منه بالإسلام. فقد حبس الحطيئة الشاعر لأنه كان يقول الهجر من الشعر ويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم، وحبس غيره ممن فعل مثله.

---

(١) سورة الشعراء آية: ٢٢١ - ٢٢٧.

يقـول الدكتور هيكل: "وإنما عاقب عمر الشـعراء الهجائيين وضربهم وعذبهم وعزرهـم وأنذرهـم لمـا يعلمه من أن القول أعمـق أثرًا في حياة الجماعة الإنسـانية مـن كل ما سـواه، فالناس منـذ طفولتهم إلى ختـام حياتهم يتأثرون بـه ويندفعون إلى أعمالهـم بما يلقنون منه، فعقائدنا وعاداتنا وعلمنـا وتفكيرنا وعواطفنا وميولنا تتكيف كلها بما نسـمعه منذ طفولتنا من أهلينا وأسـاتذتنا وأصحابنا وما نقرؤه في كتب من سبقنا".

ولقـد أدت سياسـة عمـر في محاربـة الهجـاء والهجائيـين إلى اسـتنامة الحفائـظ وسكون كل ما يثيرها، فعاش الناس تجمع بينهم الألفة والمودة.(١)

د- موقف عمر من ظاهرة شيوع شرب الخمر:

يذكر الدكتور هيكل أن الفتح بما هيأ للعرب من أسباب الرفاهية في العيش وبما أتاح لهم الثراء أن يغترفوا من متع الحياة ما شاء لهم المتاع، أعاد الكثيرين منهم إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من معاقرة الخمر والتوافر على الشراب. كما يذكر أن السبايا من بنات الروم وفارس لعبن حتى بأولي الألباب من المسلمين، ويستدل على ذلك بقصص يرويها في هذا المجال عن كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب التي ليس لهـا في سـوق العلم أدنـى قيمة وكأنه بإسـنادها إلى كتاب الأغـاني وأمثاله يوثقها.

ومـن هـذه القصـص قصة عبـد الرحمن بـن أبي بكر الـذي اسـتهام بليلى بنت الجودي الغسـاني، فلما وقعت في سبايا دمشـق غنموها لعبد الرحمن هذا، فسار بها إلى المدينة وأقام معها مفتونًا بها فتنة جنون. ويستمر الدكتور هيكل في سرد القصة عـلى خلاعتهـا ومجانتها، ثم يقول: هذا ما كان يقـع في المدينة، فما بالك بما كان يقع في الكوفة والبصرة ودمشـق وحمص وبالفسـطاط والإسـكندرية؟ ثـم يعلل هذه الظاهـرة من توافر الكثيرين على الشراب وفتنهم بالنسـاء بحالة الحرب التي كان يعيشـها المسـلمون وهم يفتحون ممالك الفرس والروم وكأنهـم جنود هولاكو أو

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٣.

جانكيز خان أو لكأنهم جنود نابليون بونابرت. ثم يستبيح الدكتور هيكل لنفسه أن يصف جنود الإسلام بما لا يليق فيقول:

"وكان الجنود كلما انتصروا عادوا بالغنائم والأسلاب ومن بينها السبايا من نساء البلد المفتوح وبناته، وكثيرًا ما يحدث في الحروب أن يستباح البلد المفتوح أيامًا عقب الفتح، يُرخَى للجنود فيها العنان، يأكلون ويشربون ويستمتعون بكل ما طاب لهم أن يستمتعوا به. وكان الذين يعودون من الفتح بالسبايا في حل من الاستمتاع بما ملكت أيمانهم منهن، فأما من لم يكن له منهن حظ يرضيه ثم هوت نفسه إلى المتاع فقد كان يلتمس بعد أوبته وسيلة متاعه".

ذلك شأن الجند في كل عصر، وهو شأنهم اليوم. وهو يفسر لنا بعض ما ترويه كتب الأدب والتاريخ لما حدث من مثله في عهد الفتح الإسلامي".[١]

والدكتور هيكل قد جانبه الصواب في ذلك، إذ إن كتاب الأغاني ليس حجة تدمغ هؤلاء الأطهار الذين رباهم رسول الله، ورعاهم أبو بكر وعمر، وقادهم أبو عبيدة وخالد وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من القادة الأبرار الذين يعلمون كما علمهم الإسلام، وكما عبر عن ذلك الفاروق في وصيته للقادة والجنود أن ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم.

ثم يذكر الدكتور هيكل أن حالة شيوع شرب الخمر هذه أثارت حفيظة عمر بن الخطاب بما عرف عنه من حزم وصرامة، فقد كان "عمر حازمًا كل الحزم، صارمًا كل الصرامة، لا يعرف ترددًا ولا هوادة، وكان يقيم حدود الله، ويضع من الحدود بعد مشورة أولي الرأي ما يتفق وأغراض الإسلام".[٢]

ويستشهد الدكتور هيكل على وضع عمر للحدود بوضعه لحد شرب الخمر بعد أن فشا هذا الفعل في خلافته، مدعيًا أن الرسول لم يحد في الشراب، ولا أبو بكر من

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤.

بعده، إلى أن وضع عمر حد الشراب. وإن كان يذكر في هامش الصفحة رقم ٢٤٤ من كتابه الفاروق عمر ج٢ أنه في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ حد في شرب الخمر. وإذا كانت هذه بعض الروايات، فأين باقي الروايات التي استند إليها الدكتور هيكل في دعواه أن الرسول لم يجلد شارب الخمر؟ رغم أن الثابت في كتب السنة الصحاح أن رسول الله ﷺ جلد في الخمر، ومن بعده أبو بكر رضي الله عنه أربعين. فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس رضي الله عنه : "أن النبي ﷺ ضرب في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر أربعين".(١) وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن حصين ابن المنذر في قصة الوليد بن عقبة، قال علي: "جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكُلٌّ سنة، وهذا أحب إلي".(٢)

يقول الأستاذ الدكتور (محمد بن محمد أبو شهبة) بعد استعراضه للأحاديث الدالة على حد شرب الخمر: "فمن ثم نرى أن الحد في شرب الخمر ثابت في عهد النبي ﷺ، وأنه كان أربعين ضربة، إما بجريد أو بنعل أو بثوب أو بيد. ولما تولى الصديق أبو بكر رضي الله تعالى عنه الخلافة، نهج منهج الرسول ﷺ، فجلد في الخمر أربعين. واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان عهد الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه ، ورأى تهاون الناس بشرب الخمر واستهانتهم بحد شرب الخمر، فاستشار وجوه الصحابة في هذا. فقال سيدنا عبد الرحمن بن عوف: أخف الحد ثمانون، يريد أن حد القذف ثمانون وهو أقل الحدود. وكذلك أشار عليه سيدنا علي بن أبي طالب، فقال: نرى أن تجعله ثمانين، فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فحده حد المفتري، يريد القاذف، -رواه مالك في الموطأ- فاستحسن عمر رضي الله عنه ذلك وأمر به".(٣)

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحدود باب ما جاء في ضرب شارب الخمر.

(٢) صحيح مسلم كتاب الحدود باب حد الخمر.

(٣) الحدود في الإسلام ومقارنتها بالقوانين الوضعية أ. د/ محمد بن محمد أبو شهبة، سلسلة البحوث الإسلامية العدد ٧٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

إذن فعمر ﷺ لم يضع حد شرب الخمر، وإنما وضعه الشارع الحكيم، وأقامه رسول الله ﷺ وأبو بكر. فلما تجرأ الناس على الشراب واستهتروا بالحد، استشار عمر وجوه الصحابة، فأشاروا عليه بأن يجعله كحد القذف. ويذهب الشافعية إلى أن الزيادة على الأربعين إنما هي من باب التعزير الذي أمْرُه إلى الإمام، بحيث لا يتجاوز فيه أقل الحدود وهو الأربعين بالنسبة للجلد.

ه - سياسة عمر بن الخطاب في العطاء وأثرها على الناحية الاجتماعية:

كانت سياسة أبي بكر ﷺ هي التسوية بين الناس في العطاء. فلما قيل له: ألا تفضل السابقين في الإسلام؟ كان جوابه: إنما أسلموا لله وعليه أجرهم يوفيهم ذلك يوم القيامة، إنما هذه الدنيا بلاغ. وبذلك كانت سياسته هذه مبنية على تمحيص الإسلام لله واحتساب أجر ذلك عند الله يوم القيامة.

فلما تولى عمر بن الخطاب ﷺ إمرة المؤمنين سار على هذه السياسة، ولكنه حين زاد المال زيادة اقتضت تدوين الديوان، رأى عمر أن يبدأه بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب. فلما قيل له في ذلك، رد قائلاً ومعللاً: والله ما أدركنا الفضل في الدنيا، ولا نرجو في الآخرة من ثواب الله على ما علمنا إلا بمحمد ﷺ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب. ثم كان له رأي في فرض العطاء، رأى فيه أن يزيد أصحاب الفضل في العطاء على من دونهم. فلما ذكر له صنيع أبي بكر، قال: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه.

ولقد التزم عمر قاعدة وضعها، وجعلها أساسًا لتوزيع العطاء، تبدو واضحة في قوله: ما من الناس أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما من أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدهم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه.

وبهذا نجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في سياسة تقدير العطاء أخذ بعدًا إيمانيًا، ففضل أهل السابقة في الإسلام والنصرة على من تأخر إسلامه واستطال على الرسالة وصاحبها، وآذى من آمن بها قبل أن يهديه الله للإسلام. وهذا من باب التكريم الذي يستحقه هؤلاء. ولعمر ﷺ في هذا التكريم أسوة برسول الله ﷺ، إذ أسبغ على هؤلاء السابقين من مظاهر الحفاوة والتكريم ما هم أهل له. فقال ﷺ عن أهل بدر مثلًا، فيما رواه البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ: "إن رسول الله ﷺ قال: لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم".(١)

ولقد مدح الله تبارك وتعالى السابقين، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.(٢) وفي مجال فضل أعمالهم عند الله على أعمال من سواهم، قال تعالى: "وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكُلًّا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير".(٣) وفي مجال بيان مكانة نساء النبي ﷺ، قال تعالى: "﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.(٤)

فإذا فضل عمر ﷺ في العطاء أصنافًا ورد القرآن بفضلها ووردت السنة مبينة لرفعة شأنهم وعظيم مثوبتهم، فإنه في ذلك يكون متبعًا لمنهج قويم. فإن

(١) صحيح البخاري كتاب تفسير سورة الممتحنة.

(٢) سورة التوبة آية: ١٠٠.

(٣) سورة الحديد آية: ١٠.

(٤) سورة الأحزاب آية: ٣٠ – ٣٢.

زيادة العطاء بعض مظاهر التكريم الذي يستحقه هؤلاء الصفوة من المؤمنين، كما يحدث في واقع الحياة، حيث يُمنَح الناس البارزون في ميادين الخير أوسمة ونياشين وجوائز تكريمًا لهؤلاء الأعلام. وعليه، فإن فعل عمر هذا لا يقصد منه تقسيم الناس إلى طوائف بعضها فوق بعض درجات، كما يعتقد ذلك الدكتور هيكل ظنًا منه أن عمر بذلك خالف القرآن الذي لم يفضل طبقة من المسلمين على طبقة، ولم يزد جماعة في الرزق لنسبهم، ولم يجعل الناس طبقات يمتاز بعضهم على بعض بالنسب، بل أكرمهم عند الله أتقاهم.(١)

هكذا يظن الدكتور هيكل أن عمر ﷺ بتفضيله السابقين وذوي الفضل في العطاء إنما خالف منهج القرآن بتقسيم الناس إلى طبقات بعضها فوق بعض. وهذا ظن خاطئ، لأن التفضيل كان على أساس الأعمال كالسبق إلى الإسلام والمسارعة في نصرته والتضحية في سبيله، أو على أساس صلتهم برسول الله ﷺ كأزواجه أمهات المؤمنين وأهل بيته الطاهرين الذين قال الله في حقهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.(٢) فليس في هذا أساس طبقي أو عصبية نسب، إنما هو تكريم لا يسمو بهم فوق أحد، ولا يجعل من هؤلاء طبقة تعلو فوق رؤوس الناس. فلا يمثل أهل بدر طبقة في المجتمع المسلم، ولا يمثل أزواج النبي طبقة، كما لا يمثل ذوو قرابة النبي طبقة بالمفهوم المتعارف عليه الذي يؤدي إلى الصراع والحقد والكراهية. علمًا بأن الإسلام يعلمنا أن التفاوت في الأرزاق بين الناس من سنن الله في الخلق، يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.(٣)

(١) انظر الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٢) سورة الأحزاب آية: ٣٣.

(٣) سورة النحل آية: ٧١.

هـذا ويرى الدكتـور عبد المتعال الصعيدي أن الدكتـور هيكل جانبه الصواب فيما ارتآه من أن ما فعله عمر من تفضيل أهل السـابقة في العطاء كان نزعة جديدة أريـد بها تقسـيم الناس طوائف بعضها فوق بعض درجـات، لأن عمر إنما فاضل في العطاء على أسـاس التفاضل في الأعمال، والإسـلام يقرر هذا الأساس. ولعمر في هذا اجتهاده وقصده في ترغيب الناس في العمل لرفعة الإسـلام، لأن التفاضل بالأعمال هو الوسـيلة الوحيدة والمشروعة للنهوض والتقدم والتنافس بين الأفراد في العمل لما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.[1] وهذا عين الحق والصواب.

٤- إسهامات عمر في البناء الفكري للدولة الإسلامية:

يتنـاول الدكتـور هيـكل هـذه الإسـهامات في فصل بعنـوان "اجتهـاد عمر"، يستعرض فيه ما كان لعمر ﷺن اجتهادات موفقة في كثير من المشكلات الفكرية التي واجهت الدولة الإسلامية إبان خلافته ﷺ. وأشير إلى أهمها باختصار حيث وردت في ثنايا البحث على سبيل التفصيل، وأهمها:

١- رد السـبايا مـن أهـل الردة إلى عشـائرهم والسـماح لمن ظهـرت توبته من المرتدين بالمشاركة في الجهاد في سبيل الله.

٢- إجلاء اليهود والنصارى عن شبه الجزيرة العربية.

٣- اعتزال البلد الموبوء وعزله عن غيره من البلدان.

٤- التفريـق في العطاء بين المسـلمين حسـب سـبقهم إلى الإسـلام أو قرابتهم لرسول الله ﷺ.

٥- اجتهـاده في سـهم المؤلفة قلوبهم مـن الزكاة فمنعه وجعلهـم كغيرهم من الناس لأن الله قد أعز الإسلام.

---

(١) انظر السياسـة الإسـلامية في عهد الخلفاء الراشـدين، عبد المتعال الصعيدي ص ١٢٩ الناشـر دار الفكر العربي.

٦- اجتهاده في حبس أرض السواد بالعراق وكذا أرض الشام وما بها من أنهار وعدم توزيعها على الفاتحين لها توزيع الغنائم، ووضع الخراج عليها لتكون موردًا دائمًا يصرف منه على شؤون المقاتلين والمرابطين في سبيل الله باستمرار.

٧- اجتهاده في تفصيل ما لم يرد فيه نص صريح في كتاب الله تعالى.

وعلى الجملة، فإن الدكتور هيكل يرى أن "الفقه الإسلامي مدين لاجتهاد عمر بما لا يقل عن السياسة الإسلامية لحسن رأيه وصدق إيمانه وعزمه في إقامة الدولة، فقد قرر مبادئ وآراء في الفقه أخذ بها الذين جاؤوا من بعده، وعدوا صدورها عنه حجة على صحتها، والكثير من هذه المبادئ خطير الأثر جليل، وهو لذلك باقٍ إلى اليوم يطبق في الفقه وغير الفقه على أنه من المبادئ العالمية التي لا تقبل نقضًا".(١)

ثم يستخلص الدكتور هيكل بعض هذه المبادئ التي أرساها عمر باجتهاده، وهي:

أ- مبدأ الضرورة: ويضرب لذلك مثالًا بدرء عمر للحدود بالضرورة، استنادًا إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.(٢)

ب- مبدأ المساواة أمام القضاء.

ج- مبدأ مراعاة المصلحة العليا للدولة.

ويعتقد الدكتور هيكل أن عمر ﷺ هو الذي أرسي هذه المبادئ. ولكن بعد قليل من أعمال الفكر نرى أن هذه المبادئ جاء بها الإسلام واعتبرها أصيلة وطبقها عمر ﷺ على نطاق أوسع. فمثلًا، ليس مبدأ المساواة أمام القضاء من ابتكار أمير المؤمنين عمر، كما أن مبدأ مراعاة المصلحة العامة ليس من عنديات نفسه. إنما هذه المبادئ

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج ٢ ص ٢٦٤.

(٢) سورة البقرة آية: ١٧٣.

وغيرها قد وضعها الإسلام وطبقها عمر تأسيًا في ذلك برسول الله ﷺ وبالصديق أبي بكر ﷺ. غاية ما هنالك أن عمر ﷺ قد اجتهد في تطبيق هذه المبادئ على حالات وصور لم تحدث على عهد النبي ﷺ ولا على عهد الصديق ﷺ. كتطبيقه ﷺ لمبدأ مراعاة المصلحة العليا للدولة في عدم توزيع الأرض على الغانمين ووضع الخراج عليها لينفق منها على المرابطين والمقاتلين في سبيل الله. وكاجتهاده ﷺ في عدم القطع في عام الرمادة، وكاجتهاده ﷺ في سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة، فليس هذا تعطيلًا حيث لم يرفعه، إنما اجتهد في منعه لأن الله قد أعز الإسلام. فإذا استجدت أمور تقتضي هذا التوزيع، عاد التوزيع على أصله مرة أخرى.

مقتل عمر بن الخطاب ﷺ :

يسجل الدكتور هيكل هذا الحدث الخطير الذي أصاب الأمة الإسلامية في مقتل إثر طعنات غادرات بخنجر مسموم وجهها عدو الله أبو لؤلؤة المجوسي إلى صدر وبطن أمير المؤمنين عمر، الذي أزال الله على يديه مملكة فارس وفر كسرى طريدًا حتى قتل شر قتلة، فأحفظ ذلك الفرس على عمر ومالأهم على ذلك اليهود والنصارى الذين أنهى الإسلام سلطتهم الزمنية وجعل ينتشر في أرجاء ممالك هاتين الديانتين المحرفتين.

ويرى الدكتور هيكل أن عملية الاغتيال هذه لم تكن عملًا فرديًّا، وإنما كانت بعد مؤامرة غادرة اشترك فيها الهرمزان وجفينة مع أبي لؤلؤة، الذي قتل نفسه عند القبض عليه بعد جريمته النكراء بمسجد رسول الله وعمر يؤم المسلمين لصلاة الفجر.

فلم يكن الدافع ذاتيًّا، وإنما هو الحقد الدفين من كل أعداء الإسلام على ذلك الرجل العظيم الذي أعز الله الإسلام على يديه، ومكن له في ممالك الفرس والروم ليرفرف عليها لواء الإسلام رحمة وهداية وعدلًا وحضارة. رحم الله أمير المؤمنين عمر لقاء ما قدم للإسلام، وأحسن له المثوبة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

"الفصل الثالث"

(منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

منهجه في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع الشيخين ﷺ.

المبحث الثاني:

منهجه في الكتابة عن عثمان بن عفان أميرًا للمؤمنين وتحمله المسؤولية الأولى في الدولة الإسلامية بعد عمر ﷺ.

تقديم:

يذكر الأستاذ أحمد هيكل المحامي نجل الدكتور محمد حسين هيكل في تعريفه بكتاب "عثمان بن عفان" ﷺ أن والده قد بدأ الدراسة لعهد عثمان بن عفان حوالي سنة ١٩٤٥م، ولكن ظروفه قد حالت دون إتمام هذه الدراسة، فلقد كان من خطته رحمه الله ألا يصدر كتابًا أثناء توليه الوزارة وكذلك مدة رئاسته لمجلس الشيوخ، نظرًا لاشتغاله بأعباء العمل العام الذي يستغرق معظم وقته، وكذا لأمر كان في نفسه. وقد أدى ذلك إلى إرجاء دراسة ما تبقى من عهد عثمان ﷺ عامًا بعد عام حتى أصبح الرجوع إليها بعد ذلك أمرًا غير ميسور.

يضاف إلى ذلك أمر آخر حال دون إتمام هذه الدراسة، وهو استمرار الجدل بين الفرق الإسلامية وحتى الآن في أمر خلافة عثمان ومدى أحقيته فيها عن علي بن أبي طالب ﷺ ، ذلك الجدل الذي بلغ حد الخصومة العنيفة والتطرف المعيب والذي بحثه الدكتور هيكل باستفاضة فلم يصل من بحثه هذا إلى رأي يطمئن إليه أو حقيقة مؤكدة يمكن الركون إليها حتى وافته المنية.

ويلخص الأستاذ أحمد هيكل المحامي خطة والده ومنهجه في دراسة التاريخ الإسلامي بأنه رحمه الله كان يميل في ذلك إلى الطريقة التحليلية، وقد كانت هذه هي طريقته في دراسته لسيرة عثمان. وتعتمد هذه الطريقة على الدراسة والتمحيص والتحليل لأحداث التاريخ ورواياته بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية واستخلاص العبر التاريخية بعد الوقوف على حقائقه. وكان هذا منهج دراسته لسيرة عثمان ﷺ ، نظرًا لاختلاف المؤرخين في تقدير أمر عثمان وأثره في تاريخ الدولة الإسلامية. ذلك الاختلاف الذي يقتضي مزيدًا من الدقة في البحث ومزيدًا من الحرص في الحكم على الأشخاص والأحداث، وهذا ما تتيحه

الطريقـة التحليلية لدراسـة التاريخ، تلك التي لا تقف عنـد مجرد سرد الأحداث وروايات التاريخ، وإنما تتعدى ذلك إلى الدراسة والتمحيص والموازنة والترجيح حتى يمكن الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي هي مناط العظة والعبرة من دراسة التاريخ.

وأتناول منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ في مبحثين:

المبحث الأول:

منهجه في الكتابة عن عثمان مع رسول الله ﷺ ومع الشيخين ﷺا.

المبحث الثاني:

منهجه في الكتابة عن عثمان أميرًا للمؤمنين وتحمله المسـؤولية الأولى في الدولة الإسلامية بعد عمر ﷺا.

المبحث الأول:

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ مع رسول الله ﷺ ومع الشيخين ﷺ.

لقد جاء الإسلام الحنيف للناس كافة عربهم وعجمهم. وإذا شاء الله تبارك وتعالى أن يكون الرسول عربيًا قرشيًا، فإن ذلك لا يعني اختصاص العرب وحدهم بهذا الدين أو اصطفاء قريش من بين العرب، وإنما كما قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. وإذا كان لا بد لكل شيء من بداية، فقد شاء الله أن يكون العرب أول المخاطبين بهذا الدين، وأن تكون قريش أول المنذرين به. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[2] وشاء الله تبارك وتعالى أن يدخل في دين الإسلام منذ فجر الدعوة أناس ليسوا عربًا، منهم بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، كتطبيق عملي لعالمية دعوة الإسلام.

ورغم وضوح هذه الحقيقة، فإن الدكتور هيكل رحمه الله كثيرًا ما يركز على العصبية للقبيلة أولًا وللعروبة ثانيًا، ويستخدمها في تفسير كثير من أحداث التاريخ الإسلامي سواء على المستوى العام أو على المستوى الخاص. فالفتوح الإسلامية في رأيه، مثلًا، هي حركة تحرير قصد منها تحرير الجنس العربي من ربقة الاحتلال الفارسي والرومي، والأمة الإسلامية هي في تقديره أولًا هي أمة عربية تكونت من اجتماع الجنس العربي في الجزيرة العربية والشام والعراق العربي في وحدة سياسية واحدة تشمل الشعب والأرض.

(١) سورة الحجرات آية: ١٣.

(٢) سورة الشعراء آيات: ٢١٤ – ٢١٦.

وعلى المستوى الخاص، فإن العصبية القبلية حالت دون دخول بني عبد شمس في دين الإسلام، دين محمد الهاشمي، لما بينهما من تنافس وعداء. كما يعتقد الدكتور هيكل أن إسلام حمزة والعباس عمي النبي ليس إلا تعصبًا لابن أخيهما دفعت إليه النخوة حين اشتد إيذاء المشركين لابن أخيهما.

فإذا وجد الدكتور هيكل من حقائق التاريخ ما يصادم هذا الرأي، أوجد له تعليلًا وتبريرًا خاصًا لا يرقى إلى مستوى القاعدة العامة، وإنما يبرزه على أنه استثناء من قاعدة العصبية للجنس أو للقبيلة أو للبطن.

فمن المعروف يقينًا أن أبا لهب، وهو عم النبي ﷺ، قد ناصب ابن أخيه العداء ونال منه ما لم ينل أحد غيره، حتى نزل القرآن مدافعًا عن النبي ﷺ ومؤكدًا أن الإيمان وعدمه لا يخضع لعصبية الدم أو النسب. قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.(٢)

وظل عم النبي أبو طالب على دين آبائه، ولم يدخل في دين ابن أخيه، والرسول يلح عليه في الدعوة ليستنقذه من النار حتى نزل قول الحق تبارك وتعالى: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين"(٣)، رغم وقوفه عصبية يدافع عن ابن أخيه.

ويعلق الدكتور هيكل على هذه الحقائق مبررًا، فيقول: "لم يكن ذلك من أعمام النبي -أبي لهب وأبي طالب- عجبًا يؤاخذهم به مؤاخذ، فللعقائد سلطان على

(١) سورة المسد آيات: ١ - ٥.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٢٥.

(٣) سورة القصص آية: ٥٦.

النفس يمسك الأكثرون معه عن مناقشة ما وجدوا عليه آباءهم لمعرفة ما يحتويه من حق وما يشوبه من باطل".[١]

وعلى ذلك، فالدكتور هيكل يعترف بها للعقائد من سلطان على النفوس، ولكنه يقصر هذا السلطان على التعصب لدين الآباء والأجداد، أما في حالة قبول الدين الحق فإنه يقول:

"والأقلون الذين أنار الله بصائرهم هم الذين يهديهم الله إلى الحق، فلا يتعصبون لباطل متى تبينوا الحق فأضاء آمالهم بنوره. هؤلاء لا تمنعهم عصبية لقبيلة ولا لجنس ولا لعقيدة عن أن يقبلوا على الحق متى دعوا إليه، فإذا اقتنعوا آمنوا به وأصبحوا من أكبر دعاته".[٢] فلماذا لا يكون إيمان من آمن من أعمام النبي من هذا القبيل وهو الحق بدلًا من أن يكون متعصبًا للقرابة والنسب؟

ولقد علمنا القرآن في قصصه الحق أن رابطة الإيمان هي أسمى من رابطة الدم والنسب في قصة نوح عليه السلام حين خاطب ربه في ابنه الذي أبى إلا أن يكون مع الكافرين فكان من المغرقين. فقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.[٣]

بهذا يتبين أن العصبية ليس لها دخل في إيمان المؤمنين، فلا تنقل أحدًا من كفر إلى إيمان، وإلا لآمن أبو طالب الذي تعصب لابن أخيه ووقف بجانبه ليصد عنه أذى المشركين، ولكنه مع هذا لم يسلم. فدل بذلك على أن العصبية شيء والإسلام شيء آخر، وعليه فلا يجوز أن نمسك بميزان العصبية لنقيس به إيمان المؤمنين من بني هاشم أو قريش أو العرب.

---

(١) عثمان بن عفان د/ هيكل ص ٢٣.

(٢) عثمان د/ هيكل ص ٢٣.

(٣) سورة هود آية: ٤٥ – ٤٦.

يستعرض الدكتور هيكل حياة عثمان بن عفان منذ مولده، فيذكر أنه ﷺ ولد في السنة السادسة من عام الفيل، فهو يصغر النبي بست سنوات. ولقد عاش فترة الصبا والشباب عيش الموسرين من قريش، واحترف التجارة فكان تاجرًا بزًا في الجاهلية والإسلام. ولقد راجت تجارته نظرًا لأمانته وصدقه في المعاملة وما تمتع به من كريم الصفات وأحسن السجايا، فلقد اشتهر ﷺ بالحياء. والحياء كما قال الحبيب المصطفى خير كله، فقد عصمه حياؤه في شبابه من الانزلاق مع نزوات الشباب، فلم يُعرَف عنه أنه كان صاحب خمر أو صاحب نساء، وإنما كان عفًا كريمًا رقيق القلب حلو المعشر، وللعاطفة على نفسه سلطان كبير، فكان لذلك ميالًا للمسالمة مجافيًا للمجادلة بعيدًا عن القسوة، ولقد كان ﷺ حبًا لقرابته، وصولًا لأرحامه، سخيًا كريمًا. كما كان ﷺ راجح العقل، ثاقب الفكر. يدل على ذلك أنه كان من السابقين إلى الإسلام رغم أنه ليس من رهط النبي، فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، فهو من بني أمية الذين ناصبوا بني هاشم العداء. وقد أسلم ﷺ بدعوة أبي بكر إياه وحسن إسلامه، فأحبه رسول الله ﷺ وأدناه منه لصدق إيمانه ولصبره على الأذى في سبيل الله. ولحب الرسول له أصهر إليه، فزوجه ابنته رقية، وأقام معها بمكة يزاول تجارته ويشارك المسلمين ما يتعرضون له من التعذيب والأذى. فلما اشتد بهم الإيذاء وضاقوا به ذرعًا، أمرهم الرسول ﷺ أن يتفرقوا في الأرض فرارًا إلى الله بدينهم، وأشار عليهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد. فخرج إليها أحد عشر مهاجرًا رجالًا ونساء، وكان عثمان وزوجته رقية في طليعة هؤلاء المهاجرين.

يتساءل الدكتور هيكل عن سبب إسراع عثمان إلى الهجرة، ولماذا لم يبقَ إلى جانب رسول الله ﷺ مع الذين ظلوا إلى جواره ولا يضيقون صدرًا بالأذى في سبيل الله؟

يجيب الدكتور هيكل عن هذا التساؤل معددًا للأسباب التي قد تكون وراء هذا الإسراع. فقد يكون ذلك طلبًا للسلامة، أو قد يكون لأنه يمقت القسوة

فلـم يطـق أن يرى غيره من المسـلمين من يقـاسي العذاب ألوانًا. وقـد يكون لأن بني أمية كانوا أشـد عليه في الإيذاء لخروجه على منهجهم واتباعه للنبي الهاشـمي ومصاهرتـه إياه. وقـد يكون لأنه خاف على زوجته رقية بنت النبي ﷺ أن تصاب بمكروه أو تتعرض لسوء ولا يستطيع منعها، فيكون ذلك له عار الأبد. وقد تكون كل هذه الأسـباب مجتمعة هي السـبب في إسراع عثمان رضي الله عنه إلى الهجرة، وإن كان يُرجـح أن خوف عثمان عـلى زوجه هو الأقوى وراء هـذا الإسراع. ومع تقديري لهذه الدوافع، فلماذا لا يضاف إليها اسـتجابته رضي الله عنه لتوجيه رسول الله ﷺ؟ وكفى بالاستجابة لرسول الله دافعًا.

ولقد ظل عثمان رضي الله عنه برفقة زوجه رقية في الحبشـة وبقي بها الهجرتين جميعًا، ثم هاجـر بعـد ذلك من مكة إلى المدينـة. وفي المدينة، جعل رسـول الله ﷺ دار عثمان رضي الله عنه في مواجهة داره، وجعل باب عثمان في مواجهة بابه ﷺ، واتخذه الرسـول من كتاب الوحي.

وفي المدينة مرضت رقية، فأذن النبي ﷺ لعثمان أن يظل بجانبها ليمرضها. ولما منَّ الله على المسلمين بالنصر في غزوة بدر، جعل النبي ﷺ لعثمان سهمًا كمن شهدها، ولذلك اعتبر عثمان رضي الله عنهم من البدريين. وماتت رقية في مرضها هذا، وبعد موتها زوجه الرسول من أختها أم كلثوم. فلما ماتت أم كلثوم، عزاه رسول الله ﷺ وواساه بعبارة حانيـة تدل على مدى حب النبي ﷺ لعثـمان، فقال له: "لو أن لنا ثالثة لزوجناك".

ولقـد ضحـى عثمان بـن عفان رضي الله عنه عن طيـب خاطر بثرائه العريض في سـبيل الله وفي مصالح المسـلمين. فلقد شارك في تجهيز جيش العسرة بثلاثمائة بعير كاملة العدة وبألف دينار وضعها في حجر النبي ﷺ.

وفي مجال مسـاهمته رضي الله عنه في المنافع العامة للمسـلمين، اشـترى بئر رومة وجعله للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم.

وقد شـهد عثمان المشاهد كلها مع رسـول الله ﷺ، وتولى مهمة السفارة إلى قريش

عـام الحديبيـة. فلما طال غيابـه لدى قريش، ظن المسـلمون أن قد قتـل، وعندئذ قال رسـول الله ﷺ: لا نـبرح حتى نناجز القوم، وأخذ البيعة مـن أصحابه على أن يقاتلوا قريشًا ثأرًا لعثمان، وألا يفروا بل يثبتوا حتى الموت. فلما تمت بيعتهم ضرب رسول الله ﷺ بإحـدى يديـه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حـاضر معهم. فلما عاد عثمان، كانت محادثاته مع قريش أساس صلح الحديبية الذي أبرم بين قريش ورسول الله ﷺ.

ولقد كانت لعثمان مكانة خاصة عند رسـول الله ﷺ وثقة في مقدرته على إدارة الأمور، فاسـتخلفه ﷺ على المدينة في غزوتـه إلى ذات الرقاع وفي غزوته لغطفان. فلما لحق الرسـول ﷺ بالرفيق الأعلى، كان عثمان في عهد أبي بكر كشـأنه على عهد رسـول الله. فلقـد كان رضي الله عنه نصرفًـا إلى تجارته مجتهـدًا في عبادة ربـه متفانيًا في فعل الخـيرات. وكان مـن أصحاب شـورى خليفة رسـول الله أبي بكـر رضي الله عنه. فلما أراد أن يسـتخلف أبو بكر عمر بن الخطاب من بعده، كان عثمان ممن أحسـنوا الشهادة فيـه، فقال لأبي بكـر: "اللهم علمي به أن سريرته خير مـن علانيته، وأن ليس فينا مثله". فلما بويع عمر، أقام عثمان بالمدينة يباشر تجارته ويشير على أمير المؤمنين مع المشـيرين عليه. وكان في مشـورته يتحـرى الحق ويقول الصـدق ولو خالف رأي عمـر. فلما طعـن أمير المؤمنـين وأراد أن يجمع الناس على خليفة من بعده، سـمى أهـل الشـورى الذين مات رسـول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ليختـاروا من بينهم خليفة منهم بعد مشاورة المسلمين، فكان فيهم عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المبحث الثاني:

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ أميرًا للمؤمنين وتحمله المسؤولية الأولى في الدولة الإسلامية بعد عمر ﷺ.

عثمان بن عفان أميرًا للمؤمنين:

تولى عثمان ﷺ الخلافة بعد عمر بن الخطاب، بعد اجتماع أهل الشورى الذين عينهم عمر ﷺ. وقد كان لعبد الرحمن بن عوف ﷺ دور بارز في حسم الأمر، فقد أخرج نفسه من المنافسة على منصب الخلافة وتحمل مسؤولية اختيار واحد من الخمسة الباقين، وأخذ العهد على نفسه ألا يخص ذا رحم لرحمه ولا يألو المسلمين نصحًا. ووفاءً بهذا العهد الذي قطعه على نفسه، أخذ يلقى الناس ويستطلع رأيهم سرًا وعلانية، زرافات ووحدانًا، يسر إليهم عمن يختارون للخلافة من أهل الشورى غيره، فكان رأي الأغلبية لتولية عثمان، وفعلًا تم تنصيبه خليفة للمسلمين بعد عمر ليكون الخليفة الثالث.

وللدكتور هيكل تعليقات على اجتماع الشورى وتنصيب عثمان خليفة تحتاج إلى وقفات:

الوقفة الأولى: عند تفسيره للخلاف بين أهل الشورى:

فقد استعرض الدكتور هيكل تاريخ الرجال الستة الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ، والذين رشحهم عمر لاختيار الخليفة من بينهم. وذكر لكل واحد منهم فضله وسابقته ومكانته، ثم ذكر اختلافهم وعدم وصولهم إلى حل لاختيار واحد منهم لاشتداد المنافسة بينهم، لحرص كل واحد منهم على الخلافة حتى علت أصواتهم. وحتى قال لهم أبو طلحة الأنصاري: أنا كنت لأن تدافعوها

أخوف لأن تنافسوها. ثم يتساءل الدكتور هيكل: كيف اشتد الخلاف بينهم لأول ما اجتمعوا يختارون أحدهم للخلافة؟.[١]

ثم يفسر هذا الخلاف بحرص كل واحد منهم على الاستئثار بمنصب الخليفة بعد أن أصبحت الخلافة مغنمًا، فقد تبدل الحال بعد انتصار المسلمين وانسياحهم في ممالك الفرس والروم، وتدفق الفيء والغنائم من تلك البقاع إلى المدينة، فأصبحت الخلافة بذلك أكثر إغراء على خلاف الحال في عهد أبي بكر وعهد عمر ﷺ، فقد كان عهدهما تمهيدًا وبناءً للدولة الإسلامية، أما الآن فقد حان وقت الحصاد.

وأما الثانية من أسباب الاختلاف بين أهل الشورى للفوز بالخلافة، فهي اشتداد المنافسة بين قبائل قريش على فوز مرشح كل قبيلة كيما تكون لها الصدارة والعزة إذا فاز مرشحها بهذا المنصب الخطير.[٢]

وهذا تفسير لا يليق بهؤلاء الأماجد من أهل الشورى ﷺ، إذ لو كان الدافع لهذا الاختلاف هو الحرص على منصب الخلافة لما يدره من أخلاف الرزق وما يتيحه لشاغله من مهابة ومكانة، فبماذا نفسر إخراج عبد الرحمن بن عوف نفسه من المنافسة على الخلافة رغم أن فرصته كانت كبيرة؟ إنه الزهد والتجرد لله والصدق والإخلاص لخدمة المسلمين ليس إلا، وهذا هو التفسير الحق لهذا الموقف من عبد الرحمن ﷺ، كما رجح ذلك الدكتور هيكل نفسه، مستبعدًا بذلك أن يكون صنيعه هذا من قبيل المناورة السياسية.

فلماذا لا نقيس الغائب على الشاهد ونجعل موقف عبد الرحمن دليلًا صادقًا على موقف كل أهل الشورى، وهم بفضل الله لا يقلون عنه إيمانًا ولا ورعًا ولا حرصًا على مصلحة المسلمين؟ ثم أين هي أخلاف الرزق التي يدرها منصب الخلافة؟ وهذا عمر بعد ما طعن ينادي ولده: "يا عبد الله بن عمر، انظر ما علي

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٨.

(٢) انظر عثمان بن عفان د/ هيكل ص ١٨ – ٢٠.

من الدين فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه. فقال: إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدِّ عني هذا المال".[1] ستة وثمانون ألفًا دين على أمير المؤمنين عمر، مطلوب سدادها من مال آل عمر، فإن لم يفِ فمن مال رهطه، فإن لم يفِ فمن مال قريش. ومن هنا، وبعد أن اطلع أهل الشورى على المركز المالي لعمر في نهاية خلافته، فإذا هو مدين بهذا الدين الثقيل للمسلمين، فلا يتصور أحد أن الخلافة تدر على من تُسنَد إليه أخلاف الرزق، وإنما هي الأمانة والصدق والتجرد الذي يفوق التصور.

الوقفة الثانية: لماذ وافقت الأغلبية على خلافة عثمان بن عفان؟

بعد خلع عبد الرحمن نفسه من المنافسة على منصب الخلافة، انحصرت المنافسة بين عثمان بن عفان الأموي وعلي بن أبي طالب الهاشمي. فلماذا كان رأي الأغلبية بالموافقة على خلافة عثمان؟

يورد الدكتور هيكل الآراء في هذا التأييد ثم لا يرجح أيًا منها، وهي:

١- أن الناس مالوا إلى رجل لا يكون كعمر بطشًا وشدة وانصرافًا عن الدنيا وصرفًا للناس عنها، فكان عثمان هو ذلك الرجل.

٢- قوة الدعاية لعثمان بن عفان من جانب بني أمية، وهم أكثر عددًا من بني هاشم رهط علي بن أبي طالب، فشكلوا بذلك جانبًا كبيرًا من الرأي العام الذي انحاز إلى عثمان.

٣- عطف الناس على عثمان لكبر سنه وتقديرهم لماضيه، وعدم تعارض ذلك مع حبهم لعلي، فما زال أمامه في العمر متسع يتيح له الترشيح للخلافة مرة أخرى.

(١) صحيح البخاري باب مناقب المهاجرين وفضلهم - باب مناقب عثمان بن عفان - قصة البيعة واجتماعهم على عثمان.

وبعـد أن أعلن عبـد الرحمن بن عوف نتيجة المشـاورة واسـتطلاع الآراء، قلد عثمان مهام الخلافة قائلًا: اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك وجعلته في رقبة عثمان، وبايعه. وعند ذلك أقبل من بالمسجد يتزاحمون ويبايعون عثمان دون تخلف أحـد أو اعتراض. ويجزم الدكتور هيكل أن الكثرة الكبرى من الناس اسـتراحت لبيعـة عثـمان وأقبلت عليها راضيـة مطمئنة، كما يجزم أيضًا أن عليًا وبني هاشـم لم تسـترح نفوسـهم لهذه البيعة.[1] والثابت أن عليًا بايع عثمان بعد بيعة عبد الرحمن ولم يبدُ منه ما يدل على أنه غير مستريح لهذه البيعة كما يجزم بذلك الدكتور هيكل.

عثمان بن عفان يتحمل المسؤولية الأولى عن الدولة الإسلامية:

بعـد بيعـة عثـمان بن عفـان ﷺ بيعة عامة، أصبح مسـؤولًا عن إدارة شـؤون الحكـم في الدولة الإسـلامية، فكان عليه أن يواجـه قضية عبيد الله بن عمر، الذي قتـل الهرمـزان الفـارسي وجفينة النصراني وابنـة صغيرة لفيروز قاتـل عمر تدَّعي الإسلام. وكان عبيد الله هذا محبوسًا على ذمة القضية، وذلك لظنه أن هؤلاء كانوا أعضاء في شـبكة إجرامية خططت وشاركت في قتل والده عمر بن الخطاب. وقد طلـب الخليفـة المشـورة من الحاضريـن، فمن قائل بقتـل عبيد الله بـن عمر، ومن معـترض على ذلك الحكم، ومن مشـير للخليفة بعدم مسـؤوليته عن حادث وقع قبـل توليـه الخلافـة. ولكن عثـمان ﷺ وبما عرف عنه من سـماحة طبـع وميل إلى السلم قال:

أنا وليهم -يريد الذين قتلوا- وقد جعلتها دية وأحتملها في مالي.

ويعلق الدكتور هيكل على هذا الحكم بأنه عين الحكمة من أمير المؤمنين عثمان ﷺ ، فقد هدأت الخواطر واستراحت النفوس وأسدل الستار على هذه القضية.

وبعـد الفـراغ من هذه القضية، أخذ عثمان ﷺ في السياسـة التي يسـير عليها، وكان أبرز معالم هذه السياسة في الإدارة والحكم كما يرصدها الدكتور هيكل ما يلي:

(١) انظر عثمان بن عفان د/ هيكل ص ٣٦.

١- التوسعة على الناس بزيادة العطاء واتخاذه في المسجد سماطًا للمتعبدين وللمعتكفين والفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

٢- بث الطمأنينة في قلوب الرعية بأنه سيسير على خطة عمر في العدل وشتى شؤون الحكم، فكتب إلى عماله بالأمصار وذكرهم بأن الله أمر الأئمة أن يكونوا دعاة لا جباة، كما أمرهم أن يأخذوا من الناس الذي عليهم ويعطوهم الذي لهم، مسلمين وأهل ذمة، بل مع الأعداء واجب عليهم أن يوفوا بما يقطعون لهم من عهود وما يبرمون معهم من مواثيق.

كما كتب إلى عماله على الخراج ألا يظلموا الناس، وكتب إلى العامة محذرًا إياهم من فتنة الدنيا وغرور متاعها، وأمرهم بالاقتداء والاتباع للنبي ﷺ حتى تدوم عليهم النعمة. كما كتب إلى أمراء الأجناد وذكرهم بمسؤوليتهم في الذود عن الإسلام والدفاع عن المسلمين، وحذرهم أن يغيروا فيغير الله ما بهم.

٣- إقرار الولاة في ولايتهم فلم يعزل منهم أحدًا ولم ينقل أحدًا إلى غير ولايته التي كان عليها حين استشهد عمر، وذلك تنفيذًا لوصية عمر لخليفته من بعده أن يقر عماله سنة في أعمالهم.

٤- القضاء على روح التمرد والاضطراب التي سادت كثيرًا من الأمصار عقب اغتيال عمر، وكأنهم ظنوا أن قوة الإسلام ذهبت مع روح عمر، ولكنهم كانوا في ظنهم هذا واهمين. حيث تصدى لهم عثمان بن عفان ﷺ حتى أعاد الاطمئنان إلى ربوع دولة الإسلام. وقد حدث أول انتقاض من أذربيجان وأرمينية، ثم هاجم الروم الشام، ثم نقضت الإسكندرية عهدها واستعانت بالروم الذين قدموا إليهم من البحر، فشمر عثمان ﷺ عن ساعد الجد، فأرسل القوات إلى هذه الجهات، فقضت على روح التمرد وأعادت إليها روح الأمن والسلام.

٥- مواصلة سياسة الفتوح الإسلامية، فبعد إخماد الانتفاض واصلت القوات الإسلامية تقدمها ففتح الله عليها في كل الجبهات. فعلى جبهة أفريقيا فتح عبد

الله بـن سـعد وعبد الله بن الزبـير أفريقية كلهـا حتى بحر الظلـمات، وقد فتح الله قلـوب أهلها للإسـلام فاجتمعوا عليه وحسـنت طاعتهم. وعـلى الجبهة الشرقية اسـتطاع عبد الله بن عامر وسـعيد بن العاص أن يعيدا لممالكها الأمن والطمأنينة، وأن يمكنا لسـلطان الإسلام في فارس وكرمان وسجستان وجرجان وطبرستان. أما الفتوحات البحرية فقد فتح الله للمسـلمين جزيرة قبرص ذات الموقع الهام في الشـمال الشرقي للبحر المتوسـط، بعد أن أذن أمير المؤمنين عثمان بإنشاء الأسطول الإسـلامي لصد هجـمات الروم مـن البحر على شـواطئ الدولة الإسـلامية، كما حدث في غزوة ذات الصواري. وذلك نظرًا لطول السـواحل الإسلامية التي تمتد من أنطاكيا في الشرق وحتى طنجة على الساحل الغربي لأفريقيا. وبذلك أصبحت للمسـلمين السيادة في البحر وانتزعوا السـيطرة البحرية من الروم، فانقطع أملهم إلى الأبد في مهاجمة الشواطئ الإسلامية.

٦- إطلاق حرية الإقامة والتنقل للمهاجرين بالأمصار. فقد كان من سياسـة عمر ﷺ أن يبقيهم إلى جواره بمدينة رسـول الله ﷺ، فلم يسـمح لهم بالانسـياح في البلاد المفتوحة، حتى إنه كان لا يسـمح لمن يسـتأذن منهم للجهاد في سبيل الله، ويقول له: حسـبك جهادك مع رسـول الله، خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك. فلما كان عهد عثمان، سمح لهم بالإقامة حيث شاؤوا.

٧- الحفـاظ على وحدة الأمة بجمعها على قراءة واحـدة للقرآن الكريم. ذلك أن الناس في الأمصار النائية، وبعد انتشار الصحابة في الأمصار المفتوحة، أخذ كل مصر بقراءة من أقام فيه من صحابة رسول الله ﷺ، وتعصب أهل كل مصر للقراءة التـي أقرأهم إياها صحابة رسـول الله. فإذا اجتمعـوا في مكان واحد، كاجتماعهم مثلًا في سـاحات القتال، كما حدث وهم يقاتلـون في أرمينية وأذربيجان، تعصب كل قبيـل لقراءته وخطَّأ مـا عداها، بل وكفر بعضهم بعضًا بحجة أن المخالف إنما يحـرف كتـاب الله. عندئذ أسرع سـيدنا حذيفـة بن اليـمان ﷺ وشرح للخليفة ما رأى، وقـال له: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلـك. فجمع أمير المؤمنين وجوه الناس

يشاورهم في الأمر، فسألوه عن رأيه، فقال: الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافًا. فأقره أهل الرأي على ما رآه، فبعث إلى حفصة بنت عمر يسألها أن ترسل إليه مصحف أبي بكر لنسخه في مصاحف، وأمر عثمان بن عفان ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب المصحف وأن يملي عليه سعيد بن العاص بحضرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة مضر. فلما فرغ من كتابة عدة مصاحف، أرسل إلى كل مصر نسخة، وأبقى مصحفًا بالمدينة، ثم أمر الخليفة بجمع ما عدا المصحف الإمام (المصحف العثماني) من المصاحف وأحرقها وأوجب أن توحد القراءة.[١]

٨- تطوير عمارة المسجد النبوي، ذلك أن المسجد النبوي كان مركز الحكم، وكانت تصدر منه الأوامر إلى الولاة بالأمصار. فكان لا بد عند توسعته في عهد عثمان أن تعاد عمارته حتى تتناسب مع ما يقوم به من دور بجانب الصلاة فيه. فاستخدمت حجارة منقورة أدخل فيها بعض الحديد وصب فيها الرصاص لتزداد متانة في صنع عمده، كما جعل سقفه من الساج.

تقويم الدكتور هيكل لسياسة الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ :

لم يستكمل الدكتور هيكل ﷺ دراسته لسيرة الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ ، ولذلك فإن التقويم الكامل لسياسة عثمان غير مستطاع لأن ذلك يستلزم استكمال دراسة سيرته أولًا. ومن ثم فإن التقويم سيكون في حدود ما كتب رحمه الله:

١- حب عثمان ﷺ لذوى قرباه:

يذكر الدكتور هيكل أن حب عثمان لذوي قرابته وعطفه عليهم كان بعض خلقه، فقد كان هذا الحب متأصلًا فيه ولم يكن ناشئًا عن ضعف الشيخوخة بعد أن تولى إمارة المؤمنين كما يتوهم البعض. ولقد ظهرت أمارات هذا الحب في حياة

(١) انظر عثمان بن عفان د/ هيكل ص ١٠٩ - ١١٠.

النبي ﷺ حين شفع لدى النبي ليعفو عن أخيه في الرضاع عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان النبي قد أهدر دمه ضمن جماعة أمر بقتلهم ولو كانوا تحت أستار الكعبة لما ارتكبوا من جرم في حق الله ورسوله ودينه، فقبل النبي شفاعته وعفا عنه.

ورغم اعتراف هيكل بهذه الحقيقة، فإنه يقول: "وقد بالغ عثمان في هذا العطف مبالغة كان لها من بعد في حياته وحياة الدولة أبعد الأثر".[١] وكأن الدكتور هيكل بهذا القول يرى رأي الذين آخذوا عثمان بسياسته في تعيين الولاة، إذ يرون أنه آثر بمعظم مناصب الدولة ذوي قرباه ليضمن ولاءهم.[٢] ومن هؤلاء المقربين عبد الله بن سعد، الذي سبق وأن أهدر النبي دمه، فقد ولاه عثمان مصر بدلًا من عمرو بن العاص الذي فتحها وكان واليًا عليها في عهد عمر. ومن أقاربه الوليد بن عقبة، أخوه لأمه، فقد ولاه الكوفة بدلًا من سعد بن أبي وقاص. ومنهم عبد الله بن عامر، الذي ولاه البصرة بعد عزل أبي موسى الأشعري عنها. ومنهم سعيد بن العاص الأموي، الذي ولاه الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة عنها.

والحقيقة أن تعيين الولاة وأمراء الجيوش من مهام أمير المؤمنين بل من أهمها جميعًا، وهو محاسب عن أي تقصير في هذه المهمة أمام الشعب وأمام الله سبحانه وتعالى. ولو حاسبنا هذا الخليفة الراشد حساب الناس، لظهر أنه بريء من تهمة المحاباة أو المجاملة لأقربائه على حساب مصلحة الدولة الإسلامية بتعيينهم في المناصب العليا. فهو لم يستعمل منهم إلا ذوي الأمانة والتجربة، وقد أسندت إلى معظمهم مهام قيادية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ثم إنه كان حازمًا معهم، فإذا ثبت على أحدهم عجز أو خيانة فإنه يحاسب بحزم ويجازي بشدة، بل ويعزل منهم من لا يصلح. فقد عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة وأقام عليه الحد لشربه الخمر، وأقام سعيد بن العاص مكانه. كما أنه رضي الله عنه قد رفض تولية محمد بن أبي

(١) عثمان بن عفان د/ هيكل ص ٤٥.

(٢) انظر عثمان بن عفان د/ هيكل ص ١٠ التعريف بالكاتب.

حذيفة، الذي كفله الخليفة بعد قتل أبيه في حروب الردة لأنه من بني عبد شمس رهط عثمان. فلما شب محمد بن أبي حذيفة أصاب شرابًا، فأقام عليه الخليفة الحد، ثم تنسك وأقبل على العبادة، وطلب من عثمان أن يوليه عملًا، فقال له: لو كنت أهلًا لذلك لوليتك.

ومن هذا يتضح أن سياسة عثمان ﷺ في تعيين الولاة كانت مجردة من الهوى وبعيدة عن المحاباة والمجاملة على حساب مصلحة الأمة.

وتفريعًا من الدكتور هيكل على فهمه لسياسة عثمان في إيثار ذوي قرباه بمناصب الدولة، فإنه يعتبر أن هؤلاء الولاة من الأمويين كان يحركهم حرصهم على هذا السلطان حتى إلى ميادين القتال. فعندما تحرك سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ليقضيا على انتفاض أهل خراسان وما والاها من الولايات الشرقية ببلاد فارس ضد المسلمين، يعلق الدكتور هيكل فيقول: "ترامت أنباء ذلك –الانتفاض– إلى سعيد بن العاص بالكوفة وإلى عبد الله بن عامر بالبصرة، فأيقنا أن الأمر إن يفلت من أيديهم تذهب ريح المسلمين في بلاد فارس جميعًا، وعند ذلك ينقلب خصوم عثمان بالمدينة عليه وينزعونه من الخلافة، وإذا ضاع عثمان ضاع سعيد وضاع ابن عامر وضاع كل أموي وتلك هي الطامة الكبرى. لذا سار كل من الرجلين بنفسه وسير أمراء جنده وحرضهم وحضهم على الجهاد في سبيل الله دفاعًا عن دين الله وعن المسلمين جميعًا، ولا أحسبهما نسيا ما في هذا الجهاد من دفاع عن العصبية وعن سلطانهما الذاتي المتصل بهذه العصبية. فلو أنها ذهبت وذهب هذا السلطان الذاتي معها، فهيهات أن تعود".[1]

وهذا التفريع لا محل له حيث إنه قائم على مجرد الحسبان الذي لا يتفق مع سياسة عثمان في تعيين الولاة. حيث إنه ﷺ عمل بنصيحة أمير المؤمنين عمر حين جمع أهل الشورى وأوصاهم فقال لعثمان: "أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمر

(١) عثمان بن عفان د/ هيكل ص ٩٢.

الناس شيئًا أن لا تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس".[١] ولا نظن بعثمان ﷺ إلا الوفاء بهذا العهد.

٢- الاضطراب في تقويم بعض قرارات أمير المؤمنين عثمان ﷺ :

حين عرض الدكتور هيكل لتقويم سياسة عثمان إزاء عمارة المسجد النبوي ورفعه الحظر عن المهاجرين، فسمح لهم بالانسياح في البلاد المفتوحة وما كان منه من زيادة العطاء، يقول: "لم يدفع عثمان إلى ما صنع من عمارة المسجد وما أباح للمهاجرين من الانتشار في بلاد الدولة وما كان من زيادة العطاء تهالك على الدنيا أو حب لمظاهر السلطان".[٢] وهذا حق، ودلل الدكتور هيكل عليه بأن عثمان ﷺ كان من أتقى الناس ومن أكثرهم حياءً وأصدقهم إيمانًا. وعلى هذا، فالدافع لاتخاذ هذه القرارات نابع من إيمان صادق وحياء جم وتقوى خالصة، ومقتضى ذلك أن تكون هذه القرارات لما يرى فيه الخير للناس وما يحقق المصلحة العليا لدولة الإسلام.

ولكن الدكتور هيكل في معرض قياسه لرد الفعل لدى الناس إزاء هذه القرارات يقول: لم يفكر أحد في مؤاخذة عثمان بما في هذه الإباحة من مخالفة لسنة الخليفتين من قبله. فالناس إنما يثورون بالحكم ويلتمسون المنطق الذي يسوغون به ثورتهم حين لا يرضي مطالبهم وأهواءهم أكثر مما يثورون به إذا تردد الرأي في تصرفاته بما يحقق المصلحة العامة وما لا يحققها. ثم يقول معللًا: لم يكن عثمان يستطيع أن يلزم الناس من التقشف والزهادة ما كان يفرض عمر عليهم. ذلك لأن عمر كان متقشفًا شديد القسوة بنفسه، كما كان يرى من الواجب عليه أن يشعر بشعور الضعيف والبائس والمحروم، وكان يقدر على احتمال هذه القسوة بنفسه لما حباه الله من صحة وقوة.

---

(١) الفاروق عمر د/ هيكل ج٢ ص ٢١٣.

(٢) عثمان بن عفان د/ هيكل ص ١٠٨.

ثم يقول: أما عثمان فكان في ذلك كله نقيض عمر، أما وذلك شأنه فلم يكن في وسعه أن يمنع المهاجرين أو غير المهاجرين من أن يمشوا في مناكب الأرض وأن يأكلوا مما رزقهم الله حلالًا طيبًا.

ثم يعقب قائلًا: أما وذلك شأن عثمان، فلم يكن مستطاعًا أن يحبس المهاجرين بالمدينة أو يصدهم عن أن يضربوا في الأرض ويأكلوا من رزق الله، ولم يكن مستطاعًا أن يلزم الخليفة الناس التقشف والزهادة ما كان يفرض عمر عليهم بالانصراف عن الدنيا، أو يطلب إلى ولاته بالأمصار أن يلزموهم شيئًا من ذلك.[1]

وهذا التعقيب يعني أن الخليفة لم يكن أمامه خيار إلا أن يتخذ هذه القرارات، فقد اضطر إليها اضطرارًا ولو كانت مخالفة لسنة الخليفتين من قبله.

وهذا الاضطراب في تقويم هذه القرارات مرجعه إلى المقارنة بين عمر وعثمان. وهذه المقارنة ليست من الحق ولا من الصواب في شيء، نظرًا لاختلاف الظروف، ولأن كُلًّا من الخليفتين في مرتبة الاجتهاد المطلق، ليس بأشخاصهما فحسب، ولكن بما حباهما الله من أولي الرأي والمشورة من صحابة رسول الله ﷺ الذين لا يجتمعون على ضلالة.

وسياسة كل خليفة إنما تعبر عن فهمه للشريعة وتمثل نموذجًا تطبيقيًا لمبادئ الإسلام. وعلي ذلك، فإذا تنوعت التطبيقات، فإنها لا تتنافى ولا تتعارض وإنما تتنوع لتعطي مجالًا أوسع للتطبيق، فلا يقتصر على صورة واحدة ربما تضيق بها أحوال الناس.

والتقويم الحق للسياسات والقرارات إنما يكون بردها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس بمقارنتها بسياسة أخرى اقتضتها ظروف الأمة في وقت معين ولا يكون لها صفة الثبات.

---

(١) انظر عثمان بن عفان د/ هيكل ص ١٠٥ – ١٠٦.

٣- جمع الناس على قراءة واحدة للقرآن الكريم:

لقد أنصف الدكتور هيكل في تقويمه لهذا القرار من قرارات عثمان بن عفان ﷺ، ووضعه في مصاف القرارات الحكيمة التي حفظ الله بها للقرآن الكريم صفاءه كما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ.

والحق أن تحريق المصاحف ما عدا مصحف عثمان لا يستدعي ثورة الثائرين ولا شغب المشاغبين، فقد صنع مثل ذلك أبو بكر حين تخلص من الأشياء التي كتب فيها القرآن بعد جمعه في مصحف له دفتان بإحراقها من غير نكير أو اعتراض من أحد. ثم إن ما فعله عثمان ﷺ كان بمحضر من الصحابة ورضا منهم بما صنع، فهو لم يفعل شيئًا منفردًا به أو مخالفًا فيه الرأي العام للمسلمين، وإنما تم كل شيء بعد مشاورة في الأمر، كما أمر بذلك الله في القرآن حين قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.(١)

٤- رصد التيارات الخفية التي أدت إلى الثورة بعثمان ﷺ :

يرصد الدكتور هيكل ﷺ التيارات التي كانت تعتمل داخل المجتمع الإسلامي حتى اشتعلت نار الثورة التي أدت إلى مصرع أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ على أيدي بعض رعاياه من المسلمين، ويحصرها في العوامل الآتية:

أ- التنافس بين بني هاشم وبني أمية:

وهذا التنافس يعود بجذوره إلى مائة عام قبل بعثة النبي محمد ﷺ. فلما جاء الإسلام ومكَّن الله له ودخل الناس فيه أفواجًا، استجن هذا التنافس ليعود إلى الظهور بصورة سافرة عكست ظلالها على اجتماع الشورى الذي عقد بعد موت عمر لاختيار خليفة للمسلمين. فلما انتهت المشاورة باختيار عثمان، لم يقتنع بنو هاشم بهذه النتيجة ظنًا منهم أن الخلافة هي بعض ميراث النبي، وهم لذلك أولى الناس بها.

(١) سورة آل عمران آية: ١٥٩.

وهـذا محـل نظر، فلـم يثبت أن أحدًا مـن آل بيت النبـي كان وراء المؤامرة على عثمان أو شجع عليها أو رضي بها.

ب – ضيـق صـدور بنـي هاشـم لإقصائهم عن الخلافـة وضيق سـائر العرب بحصر الخلافة في قريش:

فلقد سـبب إقصاء بني هاشـم عن الخلافة ضيقًا وبرمًا لم يظهر أثره إبان خلافة الصديـق وخلافة عمـر، وازداد هذا الضيـق في خلافة عثمان وظهـر أثره إذ اعتبر الهاشـميون أن خلافة عثمان انتصارًا للبيت الأموي على حسـاب البيت الهاشمي. أما سائر العرب فقد نفسوا على قريش أن تستأثر بالخلافة وبمعظم مناصب الدولة الهامـة، وقد ظهر أثر هذه المنافسـة في صورة قلاقل واضطرابات أدت إلى إشـعال ثورة يأملون أن تتعدل الصورة بعدها لصالحهم.

ج – شعور الأعاجم وكذا اليهود والنصارى باستعلاء العرب عليهم وتحكمهم فيهم:

ذلك أن العرب كانوا قبل الإسـلام مجرد قبائل هائمة في صحراء شـبه الجزيرة تثور فيها الحروب لأتفه الأسباب، وكانت السيطرة السياسية للفرس وللروم على العرب المستقرين على تخوم هاتين الإمبراطوريتين تحت إمرة الغساسنة والمناذرة.

فلما بعث الله رسوله بدين الإسلام وتوحد العرب تحت رايته، بدأ يسطع نجمهم ويعلو ذكرهم، وأزال الله على أيديهم ممالك الظالمين من الأكاسرة والأباطرة.

وقـد أجـلى عمر اليهـود والنصـارى عن شـبه الجزيـرة لتصبح خالصـة لدين الإسـلام. وتحـت وطأة المهانة والحقد، أخـذ هؤلاء جميعًا يتآمرون ضد المسـلمين ويخططون لثورة حمراء تأكل الأخضر واليابس، فتوقف المد الإسلامي وربما يعود لهم بعض الذي كان.

ولقـد ظهر أثر هذه المؤامرة في عهد عمر حيـث قُتل على يد مجوسي ومالأة من اليهود والنصارى. وازداد الأمر تفاقمًا في عهد عثمان، وتحرك الموتورون في الظلام حتى استطاعوا قتل عثمان لا بيد يهودي أو نصراني أو مجوسي ولكن بيد مسلمين، وهذه قمة المأساة.

والدكتور هيكل إذ يرصد هذه التيارات الخفية لينحي باللائمة على المسـؤولين الذين لم يفطنوا إلى أبعاد هذا التآمر، وعلى رأسهم عمر وعثمان اللذان عالجا المواقف التي نشأت عن هذه التيارات معالجة ظاهرية، ولم يفكر أحدهما في اجتثاث أسباب الفتنة من جذورها، فاسـتمرت تداعياتها الخبيثة واشتعلت نار الفتنة والحرب بين المسـلمين، فتعطلـت بذلك حركة المد الإسـلامي وشـجر الخلاف والشـقاق بين المسلمين، فلم يجتمع لهم شمل بعد ذلك أبدًا.

ولست أدري: ماذا يقصد الدكتور هيكل باجتثاث أسباب الفتنة التي قصر فيها عمر وعثمان ﷺ؟ فماذا كان يصنع عمر ليرضي المجوس واليهود والنصارى؟ أم ماذا كان يصنع عثمان ليرضي هؤلاء الهمج وشذاذ الآفاق الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أدوات في أيدي أعداء الله ورسوله؟

اللهـم إنهـما ما قصَّرا وما فرَّطا، وإنما قاما بالواجـب في حدود إمكانات البشر، ولله في خلقه شؤون، وهذا قدره الذي خطه في صحائف هذه الأمة أزلًا: "سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورًا".[1]

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٨.

"الباب الثالث"

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن المشاعر الإسلامية

وبعض التشريعات الإسلامية على ثلاثة فصول

مدخل وتمهيد.

الفصل الأول: منهجه في الكتابة عن الحج وما يتعلق به من الأماكن و غيرها.

الفصل الثاني: منهجه في الكتابة عن المدينة المنورة وما يتعلق بها.

الفصل الثالث: منهجه في الكتابة عن نظام الحكم في الإسلام.

"مدخل و تمهيد"

(أهمية منزل الوحي بمكة المكرمة)

سبب الكتابة عن المشاعر الإسلامية:

مكان مبارك جعل الله تبارك وتعالى قلوب المسلمين جميعًا تهفوا إليه ويسوقهم الحنين لزيارته استجابة لدعاء الخليل عليه السلام حين دعا ربه:

"ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون".[١] ولا غرو أن تكون هذه مكانته وقد جعله الله مثابة للناس وأمنًا. قال تعالى: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود".[٢]

وبعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين معه بالتوجه إليه عند كل صلاة، قال تعالى: "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره".[٣]

وكيف لا يكون كذلك وقد جعل الله قصده للزيارة والتعظيم ركنًا من أركان الإسلام. قال عز من قائل: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان أمنًا ولله على الناس حج

(١) الآية رقم ٣٧ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية رقم ١٢٥ من سورة البقرة.

(٣) الآية رقم ١٤٤ من سورة البقرة.

البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين".[١]

وقال ﷺ: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان".[٢]

وبعد أن جعله الله مكانًا لميلاد خاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، وبعد أن زاد شرفًا بتنزل الوحي في أرجائه، فكان بذلك مركز الدائرة الذي شع منه نور الهداية على العالم أجمع.

مكان بهذه المكانة كان لا بد أن يكون موضع عناية الكاتبين والباحثين من المسلمين ومن غيرهم على مر العصور.

على أن ما أسبغ الله على هذا المكان من المهابة قد حال دون التعمق في التنقيب عن تراثه، كما لوى عنق الكثيرين من الكتاب عن التعمق في دراسته ضآلة نصيبه من حظوظ الدنيا. وهذا هو السبب في قلة ما كتب عن بلاد النبي ﷺ في القرون الأخيرة.

(١) الآية ٩٦، ٩٧ من سورة آل عمران.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ط كتاب التحرير كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ "بني الإسلام على خمس"، رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب الإيمان، و قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس.

منهج

الدكتور هيكل في الكتابة عن المشاعر الإسلامية

أولًا: الوقوف على البحوث التي تناولت بلاد العرب من الناحية الروحية والتي تكشف الغطاء عن حقيقة هذه البلاد واختيار الله لها لتكون مهبط الوحي بآخر رسالة من السماء. ولقد وفق الكاتب لبعض ما أراد من ذلك في الكتب العربية في العصور الإسلامية الأولى وفيما كتب بالعربية من بحوث في العصور الأخيرة، كما وفق لناحية أخرى منه فيما كتبه علماء الغرب ورجال الرحلات فيه.[١]

ثانيًا: الوقوف حيث وقف النبي والسير في أثره ﷺ: كان الهدف من هذه الدراسة استكمال دراسة الكاتب لسيرة النبي ﷺ، فقد شعر الكاتب أن دراسة بيئة النبي ﷺ من خلال البحوث والدراسات العلمية التي كتبت عنها لا تشفي غلته، بل سيظل ينقصه جوهر ما يبحث عنه إذا لم يذهب إلى هذه البلاد بنفسه ليقف حيث وقف النبي ﷺ في أدق ما مر به من مواقف أثناء حياته ﷺ.

ثالثًا: الرحلة إلى بلاد الحجاز، حيث منزل الوحي إلى النبي ﷺ، والوقوف حيث وقف النبي ﷺ، ليستعيد ذكريات التاريخ وتسجيل مشاهداته وانطباعاته وتصوراته وحديث نفسه حين وقوفه بهذه الأماكن المقدسة. ولقد أطلق الكاتب لنفسه العنان حين وقوفه بأماكن الذكريات، فشعر و هو في وحي المكان و كأنه يخترق حواجز الزمن حتى وجد نفسه يتعدى السيرة إلى عصرنا الحاضر.

رابعًا: سجل الدكتور هيكل في كتابه (في منزل الوحي) ما رأى وما أحس به

(١) انظر منزل الوحي د/ هيكل ص ١٠.

حين كرَّ راجعًا بالزمن إلى عهد الرسول ﷺ، وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين في عهدهم الأول، ثم ما أصاب البلاد الإسلامية المقدسة بعد ذلك إلى وقتنا الحاضر. وعرج خلال ذلك على ما يواجه هذه البلاد من مصاعب ومشاكل، مع الإشارة الموجزة إلى ما يرجوه في مستقبل هذه البلاد حين ينصر الله دينه على الدين كله.

الاستعداد للسفر إلى بلاد الحجاز:

وكان ضروريًا أن يتعرف الكاتب على أحوال هذه البلاد، وأن يقف على حقيقة ما يروى من الأنباء عن الوهابيين وعن مذهب ابن عبد الوهاب وما ينطوي عليه. فأخذ يسأل الذين سبقوه إلى الحج، وكان يهدف من وراء ذلك إلى التهيئة للبحث فيما يُستطاع عمله لخير هذه البلاد العربية ولخير المسلمين الذين ينزلون بها. فلقد ملك التفكير في إصلاح أحوال البلد المقدس كل أقطار نفسه واستغرق معظم وقته حتى وهو يؤدي مناسك الحج. ولم يعجب حين رأى الكثيرين من زملائه يشاركونه هذا الرأي، فقد رأوا جميعًا أن مناسك المسلمين في حاجة إلى الإصلاح، فتحركت نفوسهم وعقدوا الاجتماعات يلتمسون وجوه الرأي للوصول إلى هذا الإصلاح المنشود.

وقد خطا الدكتور هيكل خطوة أبعد من مجرد التفكير، حيث وضع مقترحات لبعض وجوه الإصلاح التي رآها، ودفع بها إلى رجال الحكومة العربية لتقوم بتنفيذها. ولكنه في الكتابة عن منزل الوحي لم يبسط القول فيما رأى من وجوه الإصلاح لأن ذلك ليس هو الهدف الأول من وضع الكتاب. ولأن وجوه الإصلاح تتغير وتتبدل تبعًا لتغير الظروف والأحوال، وهي سريعة التبدل والتغير في زمن تدور فيه عجلة التغيير بسرعة رهيبة. ولكنه تبسط في نقد ما رآه موجبًا للنقد من أحوال بلاد العرب الاجتماعية، وفي بيان الأسباب التي أدت إلى تدهور البلاد العربية والإسلامية، لاقتناعه بأن النقد فاتحة الإصلاح وبأن تحري الأسرار التي أدت إلى الضعف تشخيص للمرض يسهل معه وصف العلاج.

خامسًا: أبرز سمة في منهج الدكتور هيكل في كتابته عن المشاعر الإسلامية هي إطلاق العنان للتفكير والتأمل فيما رأى وشاهد، وعدم التقيد في تفكيره وتأمله بشيء إلا بعقيدته الذاتية ومنطقه اللذين كونتهما لديه الطريقة العلمية الحديثة. فهو لا يسلم بالعقيدة الموروثة ما لم يمتحنها ويمحصها حتى يصل إلى الإيمان بأنها هي الحقيقة كما يسيغها عقله ويطمئن إليها ضميره. فالإيمان بالموروث ليس هو الإيمان الحق، وإنما الواجب على الإنسان حتى يحافظ على كرامته الإنسانية أن يحاول ما استطاع فهم ما يُلقى إليه، سواء اتصل ذلك بالعقيدة أو بالتشريع أو بالعلم والفن، فإن اهتدى إلى الحق فيه فهو المطلوب، وإلا فليلتمس الهدى عند أهل العلم وليطالبهم بإقناعه.[١]

– سادسًا: توجيه أكثر عناية إلى آثار الرسول ﷺ: فقد وجه أكبر العناية لدراسة آثار الرسول ﷺ، جاعلًا أكبر همه أن يسير حيث سار، ملتمسًا بذلك ما في حياته ﷺ من أسوة وعبرة، راجيًا أن يقف على شيء من السر الذي هيأ هذه البلاد لتكون منزل الوحي إلى خاتم الأنبياء والمرسلين.

– سابعًا: الوقوف موقف الناقد لبعض الشؤون الحاضرة في البلاد المقدسة لمعرفة أسبابها والطريقة المثلى لعلاجها.

ويصف الدكتور هيكل كتابه (في منزل الوحي) بأنه ليس مرجعًا من مراجع التاريخ الإسلامي ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب، وإنما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله، استوحيت فيها مواقف محمد ﷺ عبد الله ونبيه ورسوله، وهناك في هذه المواقف تجردت نفسي وسمت روحي وكررت بالعصور والقرون أطويها ورحت أتمثل هذا الهادي الكريم وأتمثل المسلمين من حوله، ألتمس في ذلك الأسوة والعبرة، آملًا أن أشرك فيهما إخواني المؤمنين بالله وبما جاء من عند الله.[٢][٣]

---

(١) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٢.

(٢)، (٣) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٠.

ويحدد الدكتور هيكل طريقته الخاصة في التأمل عند وقوفه بأماكن الذكريات في النقاط الآتية:

١- عدم التقيد في تأملاته إلا بما جاء في القرآن الكريم.

٢- حرية الفكر وإطلاق هذه الحرية من كل قيد إلا قيد الضمير والعقل.

٣- عرض هذه الأفكار والمشاعر على ضميره وعقله متقيدًا في ذلك بما جاء في القرآن الكريم.

يقول موضحًا ذلك: "لقد تركت نفسي على سجيتها تتوجه بوحي روحي وتستلهم الحق مما حولي وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلي وتقدير ضميري ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغي به إلا رضا الله وحسن ثوابه".(١)

وبذلك نلاحظ أن الدكتور هيكل قد أغفل كتب السنة فحرم نفسه من عطائها المدرار، حيث إن بها الكثير من مواقف النبي ﷺ والكثير من أقواله ﷺ فيما يتعلق بأم القرى ودار هجرته عليه الصلاة والسلام.

(١)

حرية البحث وعدم التقيد بما كتب

في مفهوم الدكتور هيكل

لقد أتاح له وقوفه في منزل الوحي أن يقف بنفسه في دنيا الواقع على ما وقف عليه في عالم الأفكار عند مطالعته إياه في الكتب، وأن يصف هنا ما كان لهذه المواقف من أثر مباشر في أعماق نفسه وروحه. وهو يعتبر هذه الحرية في الأحاسيس والمشاعر وفي التعبير عنها فضلًا من الله عظيمًا، فالإنسان في حاجة إلى أن يرى الأشياء في كل عصر بعيون أهله وأن يحكم عليها بما بلغه عصره من تقدم في العلم والحضارة. أما أن يتقيد بما شهده السلف بعيون عصرهم وبحكمهم عليه بوسائلهم، فذلك الجمود الذي لم يرضَه الإسلام لأهله، وهذا ما يجب أن نتنزه عنه. "ولهذا قدمت أنني لم أتقيد أمام شيء مما رأيت بكتاب غير كتاب الله ولم أجعل لي في التقدير إمامًا إلا ما رضيه العقل وطابت به النفس، ولم أخشَ إلا الله وإلا ضميري فيما أفاضه الحس على القرطاس. فليغمزني من شاء بالرجعية وليتهمني من شاء بمخالفة الإجماع وليقدر هذا المجهود من شاء بما يشاء، فإنما أبتغي به الجزاء من الله يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا يعرف حميم حميمًا".[1]

ولما كان الهدف الأكبر للدكتور هيكل من زيارة البلاد المقدسة هو الوقوف على آثار الرسول ﷺ، فقد جعل السير في أثره ﷺ غرضه بعد أن أتم مناسك الحج. وقد كان يحسب أن السبيل ميسرة لهذا السير وأنه سيجد عند كل موقف من مواقف الرسول أثرًا يدل عليه ويشهد به. وكيف لا يكون الحال كذلك وما زال العهد قريبًا بعصر النبوة، فإن ألفًا وأربعمائة عام ليس شيئًا في عمر الزمن، خاصة

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٩.

إذا تعلق الأمر بآثار نبي وسيرة من يؤمن به سكان تلك الديار ويحبونه حبًا جمًا، فإذا حافظ المصريون على آثار الفراعنة وهم ليسوا بأنبياء ولا قديسين منذ فجر التاريخ وعلى مدى خمسين قرنًا من الزمان، أفلا يجدر بالمسلمين أن يحافظوا على آثار نبيهم وشواهد حبيبهم هذا الزمن اليسير؟

ولم يزعزع من عزم الدكتور هيكل الإقدام على هذه الخطوة ما علمه من هدم الوهابيين للقباب التي أقامها من حكموا الحجاز في العصور التي سبقتهم، فهم ما زالوا حديثي عهد بحكم هذه البلاد، فما وصلوا لحكمها إلا منذ عشر سنوات، فإن هدموا القباب فإنها ليست كل آثار الإسلام.

كيف وجد الدكتور هيكل آثار النبي ﷺ؟

لقد وجد هذه الآثار على صورة لا تمثل الحقيقة إلا القليل منها، لأمور، أهمها:

١ الاختلاف على تحديد بعض الأماكن التي كان لها أثر وذكر في تاريخ العرب والمسلمين.

٢ وجود آثار لحوادث في أماكن لا يدل التاريخ الحق على أنها وقعت حيث تقوم هذه الآثار.

٣ وجود آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من أمرها شيئًا.

وهذا يمثل في رأيه جريمة في حق الدين والتاريخ، سوَّغ وقوعها جهل خيَّم على بلاد العرب منذ عصر العباسيين.

موقف الدكتور هيكل من هذه الجريمة:

يرى الدكتور هيكل أن الواجب على المسلمين أن يعملوا جميعًا، خاصة من يعملون في مجال البحث العلمي، على تحقيق هذه الآثار تحقيقًا علميًا يبين قيمتها العلمية وصولًا إلى الحقيقة التاريخية التي تدل عليها هذه الآثار. ومن جانبه، فلقد قام بتحقيق ما أتاحته له ظروفه وإمكانياته. وإن كان هذا العمل كبيرًا على الجهد

الفردي، فإن الواجب أن تُخصص بعثة جامعية للقيام بهذا العمل لما فيه من الفائدة ومن المتاع العلمي ما يُهون مشقة القيام به.

أهمية الآثار الصحيحة:

كان حديث الآثار الصحيحة التي وقف عندها الدكتور هيكل كله البلاغة في التعبير عما تدل عليه وتوحيه إلى النفس من آيات الجلال والعظمة. ويتحدث عن بعض مشاعره حين وقوفه أمامها فيقول: "هذه المواقع كانت تثير أمام ذهني ذكريات مليئة بالحياة كأنما حدثت بالأمس، وكانت توحي إلي بمعاني الإكبار والإعظام وتزيدني إجلالًا لهذه الأماكن في صمتها العميق لم يغير منه توالي القرون. ولقد كان ما أوحته هذه الأماكن مما حاولت تصويره في هذا الكتاب أبلغ من كل ما استطاع قلمي أن يصفه أضعافًا مضاعفة".[١]

ما الذي تدل عليه هذه الآثار؟

لقد كشفت هذه الآثار للدكتور هيكل عن صورة لبلاد العرب حين بعث النبي ﷺ تختلف أشد الاختلاف عن صورتها في الوقت الحاضر، وتختلف عما وقر في نفس الكثيرين من صورتها في آخر أيام الجاهلية. فقد كانت بلاد العرب يومئذ ذات حضارة، لا شيء يشبهها اليوم في شبه الجزيرة. ويعتقد الدكتور هيكل بناءً على حديث هذه الآثار أن العرب كانت أمة فتية ذات حضارة زاهرة وتجارة رائجة ومدن عامرة، وكان فيهم أصحاب الثقافة والحكمة والأدب، لكنهم من الناحية السياسية كانوا يحيون حياة أشبه بحياة اليونان القديمة وبحياة بعض بلاد الغرب الآن.

فلما هداهم الله إلى الإسلام استطاعوا بما لديهم من مقومات حضارية، وما بثه فيهم الدين الجديد من عزم وقوة، أن يثبوا إلى حيث وثبوا، وأن يبثوا في العالم حضارة هذا الدين الذي اختار الله بلادهم لتكون وطنه الأول.

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٤.

وفي الحقيقة، فإن حديث الآثار هذا لا يعدو أن يكون حديث خرافة، لأنه يناقض حديث القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.[1]

(١) الآية رقم ٢ من سورة الجمعة.

السر في اختيار القدر

بلاد العرب لتكون الموطن الأول للإسلام

كشفت هذه الصورة التي رسمها الدكتور هيكل لبلاد العرب بناءً على حديث الآثار إليه عن جانب من السر الذي كان يبحث عنه، والذي كان خفيًّا عنه عندما كان يتصور بلاد العرب كلها كما يتصورها الكثيرون واديًا غير ذي زرع لا تصلح مقرًّا لحضارة يضيء نورها العالم أجمع.

فقد كان أهلها شديدي المحافظة على عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكانوا ذوي بأس وقوة في هذه المحافظة، ولكن عقائدهم الوثنية كانت تمسكهم دون الوثوب إلى دعوة العالم المفكك الأوصال يومئذ ليستظل بحضارة أجدر بالإنسان مما كانت تدعو إليه بيزنطية وفارس. فلما هدى الله العرب إلى الإسلام كانت تعاليم هذا الدين منارة الهدي للعالم أجمع، وكان النبي ﷺ الأسوة والمثل الأعلى بأدبه وخلقه وقوته على الحياة لنشر هذه التعاليم وإحياء الإنسانية بروحها السامي. وهذه الأسوة هي ما تحدث به آثاره في بلاد العرب حديثها البليغ الذي تهتز له النفس وتسمو به الروح إلى مراتبها العليا حيث تشرق الأرض بنور ربها ويرى الإنسان فيها فضائل الكون مجتمعة.

والحق أن الإسلام أنشأهم نشأة أخرى، فهداهم الله به بعد ضلال، وأعزهم الله به بعد ذل، ورفعهم الله به بعد ضعة، وأغناهم الله بعد فقر. أما حالهم قبل الإسلام فلم يكونوا شيئًا مذكورًا.

بماذا توحي أثار الرسول ﷺ؟

لقد لخَّص الدكتور هيكل كل ما توحي به آثار الرسول ﷺ في عبارة موجزة، هي: تكريس الحياة لمثل أعلى يوجه الإنسان إليه كل جهوده، فيبلغه أو يموت دونه مستشهِدًا في سبيله.

حول فكرة الدكتور هيكل عن المثل الأعلى:

يرى الدكتور هيكل من حيث المبدأ أن المثل الأعلى يمكن أن يختلف من إنسان لآخر، كما يمكن تجسيد هذا المثل في صورة مادية، هذا بصفة عامة. ثم يتساءل بعد ذلك عن المثل الأعلى في الإسلام، ما هو؟

ثم يجيب بقوله: رضا الله بالبر والتقوى، وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.[١] ومع اقتناع الدكتور هيكل بهذه الحقيقة، فإنه يطلب من الإنسان المسلم أن يصور هذا المعنى النفسي في صورة مادية ليكون مثله الأعلى، يسعى من أجل تحقيقه ويضحي في سبيله ولو بالحياة. ويضرب أمثلة للمثل العليا التي تتجسد في صورة مادية قائلًا: "أنت تريد الغنى مثلًا أعلى، فليكن. لكن يجب أن تبتغي به رضا الله، وأن تكون في تحصيله برًا تقيًا، وألا تعامل الناس في تحصيله إلا بما تحب أن يعاملك به من أراد منهم مثل غايتك. وذاك يرى جاه الحكم مثلًا أعلى له، فليكن. لكنه يجب أن يبتغي بالحكم رضا الله، وأن يكون فيه برًا تقيًا، ولا يعامل غيره إلا بما يحب أن يعامله الغير به إذا وَلِيَ أمره. فإذا صور الإنسان مثله الأعلى وجب عليه أن يسعى إليه، غير وانٍ، بل يوجه إليه كل جهوده، وأن يستهين في سبيله بكل تضحية وإن كانت بالحياة".[٢]

ولا أوافق الدكتور هيكل فيما ذهب إليه من أن المثل الأعلى يمكن أن يتعدد أو أن يتجسد تجسيدًا ماديًا أو أن ترد عليه شروط، لأنه غاية ما بعدها غاية وهو مطلق لا ترد عليه شروط. وكان يكفي أن يحدد المثل الأعلى للمسلم في رضا الله عز وجل،

(١) في منزل الوحى د/ هيكل ص ١٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٥ ١٦.

وهو لا يمكن تجسيده في صورة مادية ليكون كالغنى أو الجاه والسلطان مثلًا، لأن كل هـذا من متطلبات الحياة. فكيف يضحي الإنسـان بالحياة من أجل متطلباتها؟ وهـل يجـوز أن يكون الثـراء مثلًا أعلى يضحي الإنسـان بحياته في سـبيل تحقيقه؟ وكيـف يكون جاه الحكم مثلًا أعلى يضحى الإنسـان من أجلـه، وأين له أن يحترم رغبة الآخرين الذين يسعون لجاه الحكم تحقيقًا لمثلهم الأعلى إذا كان هو يسعى إليه؟

لعـل الدكتـور هيـكل رحمه الله قصـد إلى أن يكـون الثراء وجاه الحكم وسـيلة الإنسـان لتحقيـق مثله الأعلى، ولهذا أوجـب عليه أن يكون برًا تقيًـا محبًا لإخوانه مـا يحب لنفسـه، قاصدًا بذلك رضا الله عز وجل. وهذا هـو المعقول والمفهوم من سياق حديثه عن المسلمين الصادقين الذين جعلوا مثلهم الأعلى ما بعث الله به نبيه هدى للناس ونورًا، وكيف أنهم ضحوا من أجله وتمنوا لو يستشـهدون في سبيله. ذلـك أن الديـن علمهم أن الأمة يجب أن يكون لها مثـل أعلى تجتمع حوله وتعمل على تحقيقه وتضحي في سبيله.

قـال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.(١)

وقـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.(٢)

وقـال تعـالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا

(١) الآية رقم ١١١ من سورة التوبة.

(٢) الآيتان رقم ١٠، ١١ من صورة الصف.

جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.[١]

وقال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون".[٢]

وحين تمسك المسلمون بهذا المثل الأعلى، صارت بلاد العرب محط أنظار العالم كله في حياة الرسول ﷺ، وبعد أن اختار الرفيق الأعلى، فتح الله لهم ممالك الفرس والروم وانساحوا في أرجاء المعمورة حاملين مشاعل النور والحضارة. فلما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم حتى صاروا إلى حال تبعث على الألم والحسرة.[٣]

(١) الآيتان رقم ١٠٤، ١٠٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية رقم ١١٠ من سورة آل عمران.

(٣) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٧.

أسباب تخلف بلاد العرب

يتساءل الدكتور هيكل عن أسباب تحول بلاد العرب من التقدم إلى التأخر ومن الحضارة والعمران إلى التخلف والخراب، ويلخص هذه الأسباب فيما يلي:

١- هجرة أبناء الأراضي المقدسة إلى غيرها من الأمصار كالشام والعراق ومصر، ونزوح أعداد كبيرة من أبناء هذه الأمصار إلى الأراضي المقدسة والإقامة فيها واتخاذها وطنًا لهم، وبذلك انحلت الرابطة القومية لسكان الأراضي المقدسة.

٢- إهمال الحكام المسلمين لشؤون الأراضي الحجازية. فقد انتقلت عاصمة الدولة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية واستقرت في خارجها في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة، ونظر الحكام المسلمون إلى البلاد المقدسة نظرة لا تليق بمكانتها. فقد أغدقوا في الأعطيات على أهلها أول الأمر حين كان لأهل هذه الديار من المكانة ما يحتم احترامهم. فلما آل الحكم إلى غير العرب أهملوا شأن هذه البلاد وتبدلت معاملتهم لأهلها. فبعد أن كانت الأعطيات والأرزاق تُجبى إليهم على أنها حق واجب، أصبح العطاء منةً وتفضلًا من الحكام الأعاجم، إن شاءوا أعطوه وإن أرادوا منعه منعوه. فأسرع حال البلاد إلى التدهور الذي زاده سرعة وتمكنًا الجهل المطبق الذي خيم على عقول وفكر ساكني هذه الديار.

٣- نزوح العلماء والفقهاء والأدباء إلى حيث العواصم التي بعدت عن بلاد العرب حتى صارت العلوم والفنون والآداب جميعًا غريبة عنها.[١]

وحين يصل الدكتور هيكل إلى هذه الأسباب التي أدت إلى سوء حالة بلاد العرب وسكانها، يقف ليدافع عن الإسلام المفترى عليه، والذي يُتهم بأنه هو

(١) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٨ ١٩.

سبب هذا التخلف، فيقول: "إنما اكتفيت بالإشارة إلى ذلك لأبين أن التأخر مرجعه إلى أسباب سياسية واجتماعية لا أثر للعقيدة ولا للدين فيها، وأن العقيدة والدين تأثرا كما تأثر العرب والمسلمون بهذه الأسباب السياسية والاجتماعية، وأن من اليسير لذلك أن يعود العرب والمسلمون سيرتهم الأولى، وحسبهم أن يغيروا ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم".[١]

كيف السبيل إلى النهوض بالأمة الإسلامية ؟

رأى الدكتور هيكل أول الأمر أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية هي سبيلنا إلى هذا النهوض، لكنه سرعان ما رأى الاختلاف البين بين حياتنا الروحية وحياة الغرب اختلافًا عميقًا يتعذر معه نقل حياته الروحية إلينا. فتاريخنا الروحي غير تاريخه، وثقافته الروحية غير ثقافتنا. ومن هنا كان لا بد من أن نلتمس في تاريخنا، وفي ثقافتنا، وفي أعماق قلوبنا، وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نحيي بها ما فتر من أذهاننا، وخمد من قرائحنا، وجمد من قلوبنا. فكانت دراساته الإسلامية لحياة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين لا رجعية، وإنما هي رجوع إلى الجذور، وعودة إلى النبع الصافي لننهل من معينه العذب، قبل أن تتشعب به السبل، وقبل أن يعلوه الزبد الذي تراكم عليه خلال مسيره الطويل عبر عصور الظلام، والجمود، والانحطاط التي مر بها العالم الإسلامي خلال حقب من تاريخه الطويل.

(١) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٨ ١٩.

الدعوة إلى إحياء

الحضارة الإسلامية عن طريق دراسة السيرة النبوية

حين تبين هذا الأمر للدكتور هيكل أخذ يدعو إلى إحياء حضارتنا الشرقية. "ومصدر الحضارة هو سنا الأرواح المضيئة، وقوامها وثبة النفوس القوية. والأرواح تضيء ما اتصلت بروح أقوى سلطانًا وأبهر سنًا، كما يضيء سلك البلاتين إذ يصهره تيار الكهرباء. وكم في ماضينا من أرواح ذات سنا باهر قادرة بقوتها أن تبعث الحضارة الإسلامية خلقًا جديدًا كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية الحديثة! ومحمد بن عبد الله ﷺ هو النور الأول الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها، وهو الشمس التي أمدت كل هذه الأقمار بسناها، لذلك جعلت سيرته موضع دراستي في (حياة محمد)، وجعلت مواقفه (في منزل الوحي) مصدر إلهامي لما تنطوي عليه من تعاليم أوحاها الله إليه كلها السمو والقوة والجلال والعظمة".[١]

وهذا توجه حق من الدكتور هيكل حين يلجأ إلى الإسلام (الرسالة والرسول) للنهوض بهذه الأمة. فلن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، فالرسالة وهي القرآن الكريم هو وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والرسول ﷺ صنعه الله على عينه واصطفاه لحمل الرسالة الخاتمة، "الله أعلم حيث يجعل رسالته".[٢]

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٤ ٢٥.

(٢) الاية رقم ١٢٤ من سورة الانعام.

ولقد أثبت التاريخ عجز الذين حاولوا نقد القرآن أو غمز الرسول ﷺ، فذهب نقدهم وغمزهم أدراج الرياح، وبقي الحق ظاهرًا. واعترف العلماء بعجزهم أمام سنن الله في الكون، وهي بعض ما خلق الخالق جل وعلا. فإن يكن ذلك مبلغ العلماء من العلم، فأخلق بالذين يتحدثون عن النقد العلمي إذ يذكرون القرآن أن يكونوا أكثر تواضعًا وأن يخشوا الله أكثر من خشيتهم غرورهم، وأن يذكروا أن ما في النفس الإنسانية من قوى يتوسمها العلم ولم تزل خفية عليه يعدل أضعاف ما كشف العلم حتى اليوم عنه.(١)

وإذا كان بعض الناس من العلماء آتاهم الله من القوى والمواهب ما به توصلوا إلى اكتشاف بعض أسرار الله في الكون، وإذا ظل كثير من الظواهر الكونية مستعصية على العلم، فكيف بنا أمام ظاهرة الوحي؟ وكيف بنا إذا وقفنا أمام آثار الرسول الكريم نستلهم مواطن العظمة؟ فما كان أعظمه في كل صفاته وفي كل أعماله ﷺ! عظمة بلغت من السمو إلى حيث لا تدرك الإنسانية منه بعض مداه. وهنا يحاول العقل أن يسمو فوق نفسه ليدرك هذا الأفق الذي وصل إليه، وهيهات أن يدركه، والعلم ما يزال إلى اليوم محدود الأفق قاصرًا عن تفسير الكثير مما يقع عليه الحس.(٢)

صراع الفلسفات و المذاهب في عالم الأفكار:

يرصد الدكتور هيكل هذا الصراع بين المذاهب الفلسفية، رغم أنها كلها ترمي إلى تصور الكون بدءًا وغاية، ورغم أنها كلها تستمد هذا التصور من وحي الحياة، ما كان منها وما يكون، ما كشف العلم عنه وما يزال منه مطويًّا في سر الغيب. ومع هذا، تتصارع هذه المذاهب ويتهم بعضها بعضًا بقصور وسائلها عن درك الغاية أو بنزوع وسائلها منزعًا لا يقف عند حدود العلم وطرائقه. ومع ذلك، لم يحل هذا

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧.

الصراع دون انتشار هذه المذاهب جميعًا، كما لم يحل دون اهتمام المثقفين بها، حرصًا منهم على اجتلاء الحق الذي تنطوي هذه المذاهب عليه.

ولهذا، فإن الدكتور هيكل لا يأبه بمن يتهمه بالرجعية أو يعارضه في أفكاره، وحسبه عزاء عن هذا الاتهام ما لقيته بحوثه من عناية القراء والباحثين بها، عناية كانت الشهيدة على ما حباه الله من توفيق في التحدث إلى الناس حديثًا يرونه جديرًا بالاستماع إليه.(١)

والدكتور هيكل بعد رضاه عن طريقة بحثه واغتباطه بما وصل إليه من نتائج، يترك الحكم عليها لمن اختصوا ببحث هذه الشؤون، كما يترك لهم تقدير ما خالف الجمهور فيه بعد أن رجع إلى مصادر البحث العربية والأجنبية التي أتيح له الرجوع إليها، وبعد أن بذل غاية الوسع في التحليل والفهم والاستنباط.

أهداف الدكتور هيكل من بحوثه في منزل الوحي:

يهدف الدكتور هيكل من وراء هذه الأبحاث إلى تحقيق ما يأتي:

١- إتمام دراسة سيرة النبي ﷺ بالوقوف في مواقفه ﷺ والسير في آثاره، لاستلهام العظمة والجلال في حياته ﷺ وكذلك استلهام الذكرى والأسوة الحسنة.

٢- لفت أنظار العلماء والباحثين لدراسة أحوال هذه البلاد دراسة علمية مستفيضة تساعدنا في الوقوف على بعض السر لاختيار الله لها لتكون منزلًا للوحي، وتؤدي إلى معرفتنا للأسباب التي أدت إلى تخلفها وكيف السبيل إلى النهوض بها مرة أخرى.

٣- حفز همم الساسة والمصلحين من أبناء العالم الإسلامي على إصلاح شأن هذه البلاد والارتفاع بمكانتها إلى المستوى اللائق كمركز هداية ومصدر إشعاع للنور والحضارة.

---

(١) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٧.

٤- العمل على إعادة مكانتها السياسية كما كانت في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وذلك باتخاذ مكة مقرًا لعصبة أمم إسلامية والمدينة المنورة عاصمة إسلامية.

"الفصل الأول"

منهج الدكتور هيكل في الكتابة

عن الحج

وما يتعلق به من الأماكن و غيرها

الفصل الأول

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن الحج
وما يتعلق به من الأماكن و غيرها

الحج ركن من أركان الإسلام، فرضه الله على من رزقه الاستطاعة المالية والبدنية وتوفر له أمن الطريق. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.(١) وكان الدكتور هيكل من الذين لبوا نداء الخليل عليه السلام حين أمره الله تبارك وتعالى بعد إتمام بناء البيت الحرام أن يؤذن في الناس بالحج. قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.(٢) فكان من وفد الله لحج بيته وزيارة قبر نبيه ﷺ سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد.

وكان رحمه الله قد عقد العزم على زيارة الحجاز وبلاد العرب بعد أن اتجه إلى دراسة حياة النبي ﷺ، وأراد من هذه الزيارة أن يقف بنفسه في منازل الوحي يستشعر ما فيها من عظمة وجلال، ويستوحي منها عظمة النبي ﷺ. وآثر أن تكون زيارته لهذه البقاع المقدسة في موسم الحج ليؤدي فرضه ويدرك إدراكًا ذاتيًا كل حكمته. فعقد العزم في ذلك العام على أن يقف بنفسه بين الحجيج بمكة ومنى وعرفات، ومع الذين يزورون قبر النبي ﷺ، ليستبين حكمته وليقف على ما يدركه المسلمون اليوم من هذه الحكمة. وليرى بعينيه كيف يؤدون هذا الفرض، ولماذا

(١) الآية رقم ٩٧ من سورة آل عمران.

(٢) الآية رقم ٢٧ من سورة الحج..

لا يكـون كذلك. والله تبارك وتعالى يقول في القـرآن الكريم تعليلًا لفرض الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.[1] ألم يفرض الحج إذن ليشهد النـاس منافع لهـم، وليذكروا اسـم الله في أيام معلومات؟ ولتتيـسر لهم بالاجتماع لأداء الحـج فرصة التعارف والتفاهم؟ فليكن الوقوف على تقديرهم لهذه الحكمة بعض ما يشهده من منافع الحج.

خواطر الاستعداد للسفر:

يصـف الدكتـور هيـكل خواطره عنـد عزمه عـلى السـفر، فيذكر أنـه تردد في ذلـك أول الأمـر، وكان سـبب تـرددده هو تصـوره لصعوبـة الحياة في هـذه البلاد القاحلـة الماحلـة التي يزدحم فيها الحجيج، فيكون الإنسـان أكثر عرضة للإصابة بكثـير مـن الأمراض الفتاكة التـي لا تقوى إمكانيات هذه البـلاد على مواجهتها. ويذكـر في ذلـك موت ابن عم له على عرفات ودفنه بمكـة منذ عامين. كما أخذ في الاعتبار الأحوال السياسـية والعسكرية، فماذا سـيكون الحال لو اشتعلت الحرب بـين الحلفـاء ودول المحور مرة أخرى؟ عندئذ سـيكون الشرق الأوسـط مسرحًا لعمليات عسكرية شاملة.

وعند ذلك لجأ إلى الأهل والأصدقاء الذين سـبقوه بالرحلة إلى البلاد المقدسـة يسـألهم الرأي، فكان منهم المحذر وكان منهم المشـجع. وأمـام هذه الحيرة لجأ إلى الله عـز وجـل يسـتخيره، وذات ليلة وبعد منتصف الليل شـاء الله أن يسـتمع إلى محـاضرة دينية بالإنجليزية من راديو بوادبسـت، عاصمة المجر، من أسـتاذ أسـلم حديثًـا وذهب إلى الحجاز ليؤدي فريضـة الحج. وكان في محاضرته هذه يتكلم عن الحج وشعائره ومناسكه، وما كان له في نفسه من أثر عميق. عند ذلك، أحس بأن

(١) الآيتان رقم ٢٨، ٢٩ من سورة الحج.

الله تعالى قد عزم له، فطرح التردد جانبًا وأخذ يناقش مع نفسه أسباب هذا التردد ليفندها واحدًا تلو الآخر.

أما اندلاع الحرب، فماذا ستكون شدتها إذا قيست إلى الحرب الكونية الأولى عام أربعة عشر وتسعمائة وألف؟ وكان إذ ذاك مسافرًا إلى لبنان ولم يكن يخشى أن تمتد الحرب إلى البحر المتوسط رغم أن الحرب قد دارت رحاها بالفعل. فكيف يخاف اليوم من مجرد احتمال نشوب الحرب؟ فإذا كان نشوبها يعرض الإنسان لمخاطر الهلكة، فكثيرًا ما تعرض هو نفسه لكثير من المخاطر والحوادث ولم يمت. والإسلام قد حسم قضية الموت وبيّن لنا القرآن أن لكل أجل كتابًا ورد على الذين زعموا أن الحرب تقصر العمر فقال ردًا عليهم: "الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين".[١]

وأما الخوف من شدة الحياة وعسرها ببلاد الحجاز، فما قيمة الحياة بلا مشقة؟ وهل يكون للحياة جمال إذا سارت على وتيرة واحدة؟ إنها تكون أقرب إلى الملل منها إلى الأمل، وهذا في الحياة العادية. فكيف لا يتحمل المشاق من أجل إقامة ركن من أركان الإسلام؟ إنها مشقة يشعر الإنسان معها بلذة لا تعدلها لذة.

وفي الحقيقة، فإن استحضار ثواب الله ورضاه عن العبد إذا أطاعه وأقبل عليه صابرًا محتسبًا يهون عليه مشقة العبادة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.[٢] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.[٣]

وبذلك انقشع ضباب الخوف، وأقبل الدكتور هيكل على السفر مرددًا في نفسه: "فليكن بعض إيماننا بالله أن نقبل على أداء واجبنا في الحياة مطمئنين غير

(١) الآية رقم ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية رقم ١٥٣ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان رقم ٤٥، ٤٦ من سورة البقرة.

هيابين ولا وجلين، فإن بلغنا من أدائه ما نرجو فذلك فضل الله وحسن تيسيره، وذلك هو الفوز العظيم. وإن اخترمتنا المنون أثناء قيامنا به مخلصين، فذلك مجدنا في الحياة ورجاؤنا في الله".[١]

وفي الحقيقة، لقد أحسن الدكتور هيكل وأجاد في وصف هذه المشاعر التي تنتاب الإنسان إذا أقبل على فعل من أفعال الخير، إذ يعتريه تردد يكاد يمنعه عن الإقدام ويسلمه إلى الترك والإحجام. وفي واقع الأمر، فإن هذا التردد ما هو إلا التجسيد الواقعي لوسوسة الشيطان الذي يقعد لابن آدم على الصراط المستقيم ليصده عن فعل الخير. فإذا بسلاح الإيمان بالله والتسليم بقضائه أقوى من وسوسة الشيطان وكيده. وصدق الله حيث يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.[٢]

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٠،٤١.

(٢) الآية رقم ٧٦ من سورة النساء.

خواطر الدكتور هيكل حول أركان الحج

١ـ الإحرام:

حدد الإسلام على لسان رسول الله ﷺ مواقيت مكانية لقاصدي البيت الحرام حجاجًا ومعتمرين، وهذه المواقيت لا يجوز للحجاج والعمار مجاوزتها دون الإحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما معًا. والميقات المكاني لمصر ومن جاء عن طريقها هو رابغ.

والدكتور هيكل سافر إلى البلاد المقدسة راكبًا البحر، وقبل وصول الباخرة إلى موضع رابغ ينبه ربانها الحجيج للاستعداد للإحرام وذلك بالتطهر والتجرد من المخيط بالنسبة للرجال ولبس ملابس الإحرام والصلاة. فإذا تلبس الحاج والمعتمر بالنسك، تغير فيه كل شيء. ويصف الدكتور هيكل هذا التغير بأنه تغير شامل لكل شيء في الإنسان، فيلبس الرجال غير المخيط ويحيون بالتلبية، وينسى وفد الله كل شيء في الدنيا ولا يذكرون إلا الحج ومناسكه في روعة وجلال.

ويستخلص الدكتور هيكل الحكمة الأولى من حكم الحج من ركنه الأول وهو الإحرام، فيرى أن حكمته هي السمو بالنفس برياضتها للارتفاع بها إلى أعلى درجات الكمال الإنساني الذي يتبدى في الأخوة الجامعة والمساواة التامة. يقول واصفًا حال الإنسان وهو محرم: "يجب أن ننسى كل شيء إلا أننا جند الله لبينا دعاءه. ويجب أن يكون كلامنا طاهرًا وقلوبنا طاهرة وأعمالنا طاهرة، وأن يكون كل وجودنا خالصًا لله وحده إخلاص صدق لا تشوبه شائبة ولا ترقى إليه ريبة من أوهام هذه الحياة الدنيا. ما أعظم هذه الرياضة الروحية للنفس! إنها رياضة تبلغ الإنسان إلى عليا درجات الإنسانية، إلى الدرجة التي يقرب عندها من الأنبياء والصديقين والأولياء والمقربين، والتي تطوع للإنسان أن يفنى في جلال الله ذي الجلال والإكرام، ليقوِّي بهذا الفناء ضعف نفسه وتزول بهذه القربى كل عوارض أهوائه".

ولكن هذا السمو الروحي الذي يهيئه الإحرام قللت من أمده سرعة وسائل المواصلات الحديثة التي أتاحت للحاج والمعتمر أن يقصر من أمد إحرامه حتى إنه ليمكنه أداء مناسك العمرة خلال أربع وعشرين ساعة. لذا يتساءل الدكتور هيكل: أين إذن أسوة المسلمين بالرسول وأصحابه في هذه الفريضة، حيث كان يستمر إحرامهم أيامًا متواصلة؟ فكانت هذه الأيام المتوالية لها أثرها في رياضة النفس الروحية وفي تهذيبها تهذيبًا ساميًا. ثم يعلق على هذه السرعة فيقول: إن رياضة هذا كل أمدها يوم واحد غير جديرة بأن تترك في النفس أثرًا يُذكر.[1]

جنوح في الفكر:

لا يجوز أن نتصور الإنسان وهو يمارس حياته العادية يمكن أن يسمو سموه وهو متلبس بعبادة أو نسك، وإلا فإننا نظلمه بذلك حيث إننا نطلب منه أن يكون ملاكًا. والصحابة ﷺ كانوا يدركون الفرق بين حالين: حالهم وهم مع رسول الله وحالهم حين ينقلبون إلى أهليهم. الأولى سمو وطهر، والثانية شهوات وممارسة لشؤون الحياة. وظنوا أن ذلك من النفاق، ولكن الرسول الكريم ﷺ علمهم وعلَّمنا معهم أنهم لا يمكنهم أن يظلوا هكذا كحالهم عنده، وإلا لصافحتهم الملائكة في الطرقات.

إذن فالإسلام يرحم الضعف البشري ويتعامل معه على أنه حقيقة واقعة فطره الله عليها، فشرع له ما يقويه على هذا الضعف. ففي مجال تنظيم الإسلام وتشريعه للضعف البشري أمام الشهوة الجنسية مثلًا، نظم العلاقة بين الرجال والنساء بما لا يؤدي إلى هياج الغريزة وفوران الشهوة، فحرم الاختلاط بين النساء والرجال الأجانب وأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج وستر العورات، إلى غير ذلك من التحفظات التي شرعها الإسلام حفاظًا على الكرامات وصيانة للأعراض. فإذا أردنا عفافًا وطهرًا، وجب علينا أن نطبق قواعد الإسلام في هذا المجال.

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٧، ٥٨.

ولا يصح أن نجاري الدكتور هيكل في تصوره أن الإنسان يمكن له أن يسمو بأخلاقه لدرجة لا يخشى معها من الاختلاط بين الرجال والنساء، وإلى درجة تستغني معها المرأة عن الحجاب، إذ يقرر إمكان حدوث ذلك حين قال له رفيق له أثناء رحلته إلى الحج وقد رأى الرجال والنساء يؤدون الصلاة جماعة في الباخرة: "أرأيت هذا الاجتماع الذي ضم الجنسين معًا في الصلاة؟ إن طهارة القلب والقصد وسمو الغاية كفيلة بأن تزيل كل خوف من اختلاطهما ولو أن أخلاقنا صلحت وغايتنا في الحياة سمت لما تمسك بالحجاب أحد وأقررت رأيه".(١)

وهذا جنوح في الفكر لا يتطابق مع واقع الإنسان في الحياة، والله تبارك وتعالى الذي خلق الإنسان وشرع له هو أعلم بما يصلحه. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.(٢)

ويستشعر الدكتور هيكل ما يوحيه الإحرام من أخوة ومساواة بين المسلمين الذين قصدوا وجه الله مخلصين وهم يغذون السير في البلاد المقدسة قاصدين بيت الله الحرام، فيعبر عن هذه المشاعر قائلًا: "ذلك وحي هذه الساعة الفذة من ساعات حياتي والتي اتصلت فيها لأول مرة بمكان خطت فيه قدما محمد ﷺ أكبر من دعا إلى المحبة والإخاء وأكبر من دعا إلى السعي والجهاد، وفاض بي هذا الشعور فتندت عيني وخفق قلبي وانفرجت شفتاي عن آي الحمد والشكر: لبيك اللهم لبيك... وسمعت أذناي الأودية والجبال والقوافل السارية بينها جميعًا يدوي فيها هذا النداء، فازداد شعوري فيضًا وقلبي خفقانًا وازددت لله شكرًا وبه إيمانًا".(٣)

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٧.

(٢) الآية رقم ١٤ من سورة الملك.

(٣) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٧١.

٢ـ الطواف بالبيت الحرام:

الطواف بالبيت الحرام سبعة أشواط ركن من أركان الحج والعمرة. ويصف الدكتور هيكل شعوره لمرأى الكعبة المشرفة حين تبدت له قائمة وسط المسجد، فشد إليها بصره وطفر نحوها قلبه ولم يجد فؤاده عنها منصرفًا. لقد شعر لمرآها بهزة تملأ كل وجوده وتحركت قدماه نحوها وكلّه الخشوع والرهبة، وقال إذ وقع نظره عليها ما ألقاه المطوف عليه: "اللهم أنت السلام ومنك السلام حينا ربنا بالسلام". فزاده ترديد هذا الكلام مهابة ورهبة، وارتسمت أمام بصيرته صورة البيت منذ أقام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعده مثابة للناس وأمنًا يقيمون الصلاة ويذكرون الله عنده. وتذكر ما حدث قبل بعثة الرسول ﷺ حين قامت قريش بتجديد بناء البيت من خلاف على من يضع الحجر الأسود مكانه، واشتد الخلاف والنزاع حتى كادت تنشب الحرب بينهم، ثم ارتضوا أن يحكموا بينهم أول داخل من باب الصفا، فكان محمد بن عبد الله أول من دخل منه فارتضوا حكمه.

ويطوف الدكتور هيكل طواف العمرة وقد اجتمع هذا الماضي وكلّه المهابة والجلال أمام بصيرته، فزاده شعورًا بما بينه وبين الذين أقاما قواعد البيت والذين طافوا به من صلة ينمحي أمامها الزمان والمكان، وتتبدى من خلالها وحدة الكون التي لا تعرف حدود الزمان ولا أبعاد المكان.[١] وبعد أن أتم الأشواط السبعة، يصف مشاعره قائلًا: "أتممت الأشواط السبعة وأنا مأخوذ بجلال هذا البيت العتيق ممتلئ النفس خشوعًا أمام تاريخه الروحي الرهيب، يفيض قلبي إيمانًا بالله الذي جمع في هذه البقعة الضيقة من الأرض كل هذا الجلال وكل هذه المهابة، والمؤون من حولي يطوفون كما أطوف ويتلون من الأدعية ما أتلو".[٢]

(١) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ٧٣ ٧٥.

(٢) المرجع السابق ص ٧٥.

ولا يفوت الدكتور هيكل أن ينقل لنا صورة هؤلاء الذين تعلقوا بأستار الكعبة يجأرون إلى الله رب البيت بالاستغفار والدعاء، ولا يجدون ملجأ من الله إلا إليه، ولا يجدون ملجأ إليه سبحانه خيرًا من التعلق بأستار بيته المحرم. ثم يذكر حاله من الصفاء الروحي الذي جعله يطرح وراء ظهره ما عوده التفكير الحديث من تعلق بالحاضر المحسوس وحده، ومن مبالغة في هذا التعلق إلى إنكار ما وراء المحسوس من معنى ينتظم الوجود ويسمو على الزمان والمكان.

ويرى الدكتور هيكل أن البيت الحرام هو هيكل التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة، ولذلك فالطواف به وسيلة ليرى المسلم حقيقة التوحيد من كل جوانبها. يقول موضحًا هذا المعنى الذي يستشفه من الطواف: "فنحن إنما نطوف بهيكل التوحيد لنرى حقيقة التوحيد من كل جوانبها. صحيح أن الهيكل رمز، وأن جوانبه كلها تتشابه، لكننا لا نستطيع أن نواجه الحقيقة لذاتها قبل أن نرى رمزها، ولا نستطيع أن نحيط بها كاملة دون أن نطوف بها من كل جوانبها. فإذا فعلنا، أتيح لنا أن نبلغ لبابها وصميمها، فالطواف إذن طريق الإحاطة بالحقيقة العليا التي يقوم البيت العتيق رمزًا لها وعلمًا عليها".[1]

٣ـ السعي بين الصفا و المروة :

وهو ركن من أركان الحج والعمرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.[2] فيسعى الحاج والمعتمر سبعة أشواط، يبدأ بالصفا وينتهي بالمروة. وعند تأدية الدكتور هيكل لهذا الركن، يلفت نظره عدم النظام بين الساعين، فكل إنسان في المسعى وكأنه عالم وحده. ويسترعي انتباهه وجود مقهى في وسط المسعى، فقال لصاحبه: "أفيليق أن تقوم مثل هذه المقاهي والحوانيت على حافة

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٣٩٥ ٣٩٦.

(٢) الآية رقم ١٥٨ من سورة البقرة.

هذا المكان المقدس؟" قال: "إنها ليست على حافته بل هي قائمة داخل حرمه".[١]

ولقد أبدى الدكتور هيكل بعض ملاحظاته على المسعى أهمها:

أ- قيام المقاهي والحوانيت التي تتجر في السبح والمنسوجات وما إليها مما يتبرك بـه الحجيج، وهذا لا يليق بهذا المكان المقدس الذي يجب أن تصرف كل الهمم فيه إلى التجارة مع الله، ليربح المؤمن جنة عرضها السموات والأرض ولينال رضا الله تبارك وتعالى.

ب- الإهمـال الشـديد لهذا المنسـك من مناسـك المسـلمين. ومـن مظاهر هذا الإهمـال اجتياز بعض الطرق إيـاه ومرور العربات والدواب والسـيارات في هذا الطريق بين الساعين أثناء أدائهم لهذه الشعيرة.

ج- العـدوان على حرم المسـعى بالمباني حتى اعـوج اعوجاجًا يحول دون رؤية الصفا من المروة أو رؤية المروة من الصفا، كما حال سـقفه بين السـاعين وفسـحة الجو وبهاء السماء.

د- عدم انتظام رصف أرض المسعى.

وإزاء هـذا الوضع غير اللائق بالمسـعى، فإن الدكتـور هيكل يتمنى أن تناله يد الإصـلاح حتى يعـود إليه بهـاؤه ورواؤه، وتعود إليه قدسـيته وروحانيته بما يليق وشعائر الحج الأكبر.

٤_ الوقوف بعرفة:

الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأكبر حتى قال رسول الله ﷺ: "الحج عرفة".[٢]

ويصور لنا الدكتور هيكل أحاسيسـه ومشاعره وهو يقف بين الحجيج فيقول:

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٠٧.

(٢) رواه أبو داود في المناسـك باب من لم يدرك عرفة، و الترمذى في التفسـير باب سـورة البقرة، والنسائي في الحج باب من لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام.

"طويت القرون القهقرى إلى أكثر من ثلاثمائة وألف سنة مضت، وتمثلت النبي العربي محمدًا ﷺ ها هنا فوق عرفات في حجة وداعه محرمًا كإحرامنا، ملبيا كتلبيتنا، مستغفرًا كاستغفارنا، خاضعًا لله خضوعنا، عبدًا لله كعبوديتنا له. تمثلت هذا النبي وقد تخطى السنين وفتح الله له فتحًا مبينًا، وقد أسلم لدينه أهل مكة الذين حاربوه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم، وقد آن أن يكمل الله للمؤمنين دينهم ويتم عليهم نعمته. تمثلته واقفًا في هذا المكان على رأس مائة ألف من المسلمين بعد أن قطع إليه الطريق من يثرب إلى مكة محرمًا طوال هذا الطريق، سائقًا هديه معه، مقيمًا على إحرامه أسبوعين كاملين، ملبيا والمسلمون من ورائه كل نهاره وطرفًا من الليل، مسلمًا كل أمره إلى الله لا إله إلا هو وإليه تصير الأمور".[1] ويسجل مشاهداته حين وقوفه بعرفة لينقل لنا صورة للمسلمين الذين رآهم، فيصور لنا هؤلاء الأعراب الذين يسيرون بقطعان الغنم يبيعونها إلى الحجاج الذين يذبحونها لساعتهم ويتصدقون بها على ذوي الحاجة من إخوانهم المؤمنين. ويرصد هؤلاء الذين احترفوا التسول وهم يطوفون على الحجاج يبتغون من ذوي اليسار بعض ما رزقهم الله، ثم يلحفون في ذلك مستغلين إحسان من لا يمسكون أيديهم في يوم الحج عن الإحسان. وينقل لنا صورة لهذا المسلم الذي تدل سيماه على أنه ليس من أبناء الشرق، فيقترب منه ويتحدث إليه فيعرف أنه مسلم من إيرلندا تعرف على الإسلام أثناء إقامته في إحدى المستعمرات البريطانية في شرق آسيا. والذي دفعه إلى دراسة الإسلام أنه درس أحوال المستعمرين ليقف على الأسباب التي أدت بهم إلى الخضوع لغيرهم، وكانت عقيدتهم الدينية بعض ما عني بدراسته. فلما تعمق في دراسة دينهم الإسلامي، أخذت بساطة عقيدته بمجامع قلبه فاعتنق الإسلام عن بصيرة واقتناع. وإذا اعتقد الإنسان عقيدة بعد بحث ودراسة ملكت عليه أقطار نفسه. ولذلك درس حضارة الغرب مقارنة بحضارة الإسلام، فإذا به بعد هذه الدراسة يصيب كبد الحقيقة ويصل إليها من أيسر طريق. فهو "يعتقد

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٩٠.

أن الحضارة التي تنشر أوروبا لواءها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء، إنما هي اللعنة التي صبها الله على العالم. فهذه الحضارة تتلخص عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامة التفكير وسمو الغاية ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية فتضعف نفوسهم ويذلوا. أما الإسلام فيدعو إلى معنى هو أسمى المعاني. إنه يدعو إلى نبذ كل عبودية لغير الله، وإلى الاستهانة بالموت في سبيل الله، وإلى البر والتقوى، وإلى المغفرة والرحمة، وهو يدعو إلى كل ذلك في بساطة وقوة لا يحتاج معهما إلى زيف أو خداع. ولو أن المسلمين أدركوا سر الإسلام إدراكًا عميقًا لهان عندهم ما يعرضه الغرب عليهم، ولما خضعوا لحكم الغرب ولا ذلوا لسلطان مهما كان. فالإسلام يربأ بمن يدين به عن الخضوع لغير الله، ويجعل الموت في سبيل التخلص من هذا الخضوع موتًا في سبيل الله يجزى صاحبه الجزاء الأوفى".[١]

أعجب الدكتور هيكل من هذه الرؤية الثاقبة والفهم العميق لروح الإسلام من هذا الإيرلندي المسلم، فسأله عن سبب مجيئه إلى الحجاز وعن رأيه في حكمة الحج، فقال: "إنما فرض الإسلام الحج ليُشهِدَ المسلمُ اللهَ على نفسه أمام إخوانه المؤمنين جميعًا أنه نبذ ما اختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار، والله يغفر له ما صدق في التوبة ليولد ميلادًا روحيا جديدًا يكون بعده خيرًا مما كان قبله".[٢]

وقد امتد الحديث بينهما وتطرق إلى عدم إدراك المسلمين لقوتهم العظيمة بسبب ما تخدعهم به مزاعم الغرب، وانطلى عليهم هذا الخداع بسبب جهلهم وأمكن استغلالهم لرضاهم بالذل والهوان.

وحان موعد الظهر، فأذن المؤذن وصلّى الناس في عرفات الظهر والعصر جمعًا وقصرًا وقاموا يلبون حين قيل لهم إن الخطيب قائم عند مسجد الصخيرات على

(١) في منزل الوحى د/ هيكل ص ٩٢-٩٣.

(٢) المرجع السابق ص ٩٣.

بعيره يخطب الناس. ولكن زحمة عرفات لم تدع فرصة لأحد أن يذهب لسماع الخطيب عند مسجد الصخيرات وفي مسجد نمرة.

ويواصل الدكتور هيكل سبحات فكره على أثر هبوب عاصفة هوجاء اكفهرت لها السماء، فأرعدت وأبرقت، وثارت الرياح ثورة عارمة، سقط المطر بعدها مدرارًا. ومرت العاصفة بآثارها على الواقفين في عرفات فما ألقت بظلالها على قلوبهم السابحة في ملكوت الله ولا قطب منهم جبين عني للحى القيوم. وكيف يتأثرون بالعاصفة وهي من أقدار الله الذي إياه يدعون وإليه يرغبون ومنه يخافون؟ إنه الإيمان الحق، جعله الله طوق النجاة وكهف الأمان، وصدق الله حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.[1]

ألا ما أجدر المسلمين أن يسترجعوا مثل هذه الإشراقات التي يفيضها الله على عباده في ساعات الصفاء الروحي الذي شمل وفده على عرفات، ومنهم الدكتور هيكل رحمه الله.

٥ - إلى المشعر الحرام بالمزدلفة:

أفاض الدكتور هيكل مع الحجيج من عرفات إلى المشعر الحرام، وهو مسجد قائم في عزلة الناسك بأرض فضاء قبيل منتصف الليل، فنزلوا عنده وحطوا رحالهم، وذكروا اسم الله تعالى عنده امتثالًا لأمر الله جل جلاله حيث قال: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2] وجمعوا الجمار التي سيرجمون بها الصخرات عند مِنَى.

(١) الآية رقم ٨٢ من سورة الانعام.

(٢) الآية رقم ١٩٨ من سورة البقرة.

٦ - المبيت بمِنَى:

ومِنَى هذه قرية صغيرة بها مبانٍ ومنازل ولها أبوابٌ فهي ليست بطحاءَ جرداءَ كعرفاتٍ وإنما هي قرية كالحضر. وقد توجه الدكتور هيكل مباشرةً إلى جمرة العقبة الكبرى ورجمها ثم عاد إلى مقامه بمنى ولم يتحلل التحلل الأصغر وآثَرَ أن يبقى على إحرامه حتى يطوف طواف الركن ويسعى ويتحلل التحلل الأكبر.

- إلى مكة لطواف الإفاضة: في يوم النحر عاد الدكتور هيكل إلى مكة للطواف بالبيت العتيق طواف الركن وبعد أدائه له انتحى جانبًا في فَيْءِ قباب المسجد الحرام وجلس فيه وشرب من ماء زمزم وصلى وأقام مكانه هنيهةً محدقًا ببيت الله وبالطائفين والقائمين والركع السجود. وإنه لكذلك إذ مرت بخاطره صورة الرسول ﷺ وهو في عمرة القضاء حين ظنت قريش أن الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين في عسرٍ وشدةٍ أنهكت قواهم فلما دخل الرسول المسجد ونادى بنية الطواف أخرج ذراعه الأيمن من ردائه وصاح بأصحابه: "رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوةً" ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهرول وهرول أصحابه من ورائه حتى بلغ الركن اليماني هناك مشى إلى الحجر الأسود مسبِّحًا لله مكبرًا إياه ثم هرول من جديد وهرول أصحابه معه حتى أتموا الثلاثة أشواط الأولى ومشوا سائر الأشواط. عند ذلك أيقن المشركون الذين خرجوا إلى الجبال يرقبون محمدًا ومن معه من المسلمين كَذِبَ ظنِّهم إذ رأوا محمدًا ﷺ والمسلمين معه أقوياءَ لم يصبهم نصب ولا لغوب.

عاد شريط الذكريات بالدكتور هيكل حين رأى المسلمين يهرولون في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف اتباعًا لسنة النبي ﷺ وإن لم يدرك أكثرهم حكمة هذه الهرولة ولم يدر بخاطرهم ما يدل عليه هذا المظهر من أن الإسلام هو دين بأس وقوة كما هو دين رحمةٍ ونظام.

وتتداعى الأفكار ليقارن الدكتور هيكل بين ما يفعله المسلمون اليوم وما كان عليه الصحابة الأماجد رضوان الله عليهم بقيادة الرسول الله ﷺ ليخرج

مـن هذه المقارنة بأسـباب الهوان والضياع الذي يعيشـه المسـلمون اليـوم، يقول: "المسـلمون اليـوم يطوفـون لا يؤمهـم أحـد، وهـم لذلك تختلـف أثنـاء الطواف صفوفهـم لا يهرولـون في نظام ولا يتئد سـيرهم في نظام وشـتان في ذلك ما بينهم وبين المسـلمين الأولين، شـتان ما أرى اليوم وما كان في عمرة القضاء أو في حجة الوداع. كان الرسـول ﷺ يؤم ألفين في عمرة القضاء ومائة ألف في حجة الوداع. يسـير كلهم سـيره ويتبعونه في نظام أدق، نظام هرولة، مشـيًا و استلامًا للركن أو الحجر الأسود. وهذا النظام المتصل بروح الإسلام سبب من أسباب القوة بل هو مصدرها وملاكها. وهذه الإمامة يقوم بها رجل مطهر يؤمن أصحابه بصدقه، هي روح هذه القوة وقوامها. ولو عاد المسـلمون إلى الإمامة والنظام في الحج وفي غير الحـج، ولو أنهم واءموا كما يوائم دينهم بين حرية تامة أساسـها الإيمان بالله وحده وإباء الخضوع لأحد سـواه وألا يتخذ بعضهم بعضًـا أربابًا من دون الله وبين هذا النظـام الكفيل بحرية الجماعة وحياتها، إذن لاسـتطاعوا أن يؤدوا في العالم رسـالة الإسلام كرة أخرى ولسعد العالم بهذا الدين كما يجب أن يسعد به.[1]

مـرت هـذه الخواطر بنفس الدكتـور هيكل وهو جالس في فَيْءِ المسـجد الحرام فانطلـق ذهنه مفكـرًا فيما يجب أن تكون عليه الإمامة والنظام في العالم الإسـلامي الحاضر وكيف يجب أن يكونا في المناسك وسائر العبادات وفي حياة المسلمين عامة.

٨ - العودة إلى مِنَى لرمي الجمار:

بعد الطواف والسـعي، تحلـل الدكتور هيكل من إحرامـه وعاد مرة أخرى إلى منـى ليتم حجه برمي الجمـرات الثلاث. وهي ثلاث صخرات قائمة على الطريق المؤدي إلى مكة؛ كبراها جمرة العقبة، وعلى مقربة منها الوسـطى والصغرى. وهذه الصخرات، أو الجمرات، هي اليوم قوائم من الحجر، ناتئة من الأرض إلى ما فوق قامـة الرجـل الفارع الطول. أحيط كل منها بسـور يقف النـاس عنده، ويحصبون

(١) في منزل الوحي د. هيكل ص ١٠٦.

هذه الأحجار قضاءً لمنسك منى. فإذا تم هذا المنسك، تم الحج، وهبط الناس إلى مكة، ليعودوا منها بعد طواف الوداع إلى أوطانهم، أو إلى مدينة رسول الله ﷺ، لزيارة قبره الشريف.

ولا ينسى الدكتور هيكل، وهو في منى، أن يذكرنا بوحي المكان عند جمرة العقبة الكبرى، حيث كانت بيعتا العقبة بين رسول الله ﷺ وبين رهط من أهل يثرب، آمنوا بالله ورسوله. فمهدتا لهجرته ﷺ إلى المدينة، وكانتا بذلك مبدأ التحول في مسار الدعوة، وأذانًا من الله بأن يفتح لرسوله، وينصره نصرًا مبينًا بقيام دولة الإسلام. ثم يلفت النظر إلى أن الواجب على المسلم أن يذكر هذا الموقف الفذ من سيرة النبي ﷺ حين يفيض وحين يرمي الجمرات، حيث إنه من المواقف التي حولت مجرى التاريخ الإسلامي، وكانت نقطة الانطلاق لبناء دولة الإسلام.

حول حكمة رمي الجمار:

بدايةً، فإن الاختلاف في تحديد حكمة الشعائر دليل على عدم إمكان الوقوف على الحكمة كلها. وهذا منطقي، لأن العبادة من تشريع الإله المعبود، ويستحيل أن يحيط العابد بكل حكمة الإله الذي يعبده مهما أوتي من العلم والفهم. فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.(١) ويقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.(٢) ويقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.(٣)

ومن هنا، وجب على المسلم ألا يظن أنه في مقدوره أن يستوعب كل الحكمة من تشريعات الإسلام وعباداته. فمن رحمة الله بنا أن شرع لنا الشرائع لنريح عقولنا وأذهاننا، ونركز كل جهودنا في العمل بما شرع لنا الحكيم الخبير.

---

(١) الآية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية رقم ٧٦ من سورة يوسف.

(٣) الآية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة.

فإذا أحسسنا بنسمات الرحمة تهب علينا، ولمسنا التوفيق يحالفنا كأثر من آثار العمل بما شرع الإله، فإن ذلك لن يعدو إلا أن يكون مظهرًا من مظاهر الحكمة التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. ومن هنا، فإنه يمكن أن تتعدد مظاهر هذه الحكمة التي تتبدى للناس طبقًا لمستواهم الفكري والعقلي، ولا ضير في ذلك أبدًا.

يدير الدكتور هيكل حوارًا يستعرض من خلاله حكمة رمي الجمار في واحد من هذه الأربعة:

١- الحج ومناسكه بما فيه من رمي الجمار أمر تعبدي، فهو فرض عليه أداؤه وإن لم يعرف له حكمة.

٢- رجم للشيطان حتى لا يعود يوسوس للإنسان، ليرده إلى المعصية والإثم بعد أن تطهر منها بالحج.

٣- إعلان المشيئة على طرح ما في النفس من زيف، مع صدق الإرادة لدوام طهرها بعد أن غفر الله بالحج ما مضى من حوباتها، وإشهاد ملأ المسلمين على ذلك كله.

لذلك، أوجب عليهم متى أفاضوا من عرفات ونزلوا بمنى أن يجتمعوا، ويتعارفوا، ويشهدوا منافع لهم. لذلك، فرضت أيام النحر الثلاثة ليحسنوا هذا التعارف والتشاور وشهود المنافع. ولتمام ذلك، سُنّت لهم مناسك يؤدونها لله لتظل نفوسهم نقية وأرواحهم زكية. فكان شهود العقبة التي شهدها رسول الله ﷺ، وأن يلقوا بسواعدهم جمرات يعلنون بإلقائها أنهم على عهد رسول الله في بيعة العقبة: ينفع بعضهم بعضًا، ويذود بعضهم عن بعض، ويكفل الكل بذلك حرية العقيدة الإسلامية وحرية الدعوة إليها. ويشهدون على أنفسهم أنهم على استعداد لإلقاء مثل هذه الحجارة في وجه عدوهم إذا حاول فتنتهم عن دينهم أو حاول إخضاعهم وقهرهم.

يستشعر الدكتور هيكل هذا المعنى من رمي الجمار لأن الدين الإسلامي كله بأسٌ وقوةٌ على الحياة، وكله النظام الذي يضاعف هذه القوة أضعافًا مضاعفة.

فلقد جمع الإسلام بين النظام والحرية؛ فيصل بالحرية إلى غاية حدودها، وبالنظام إلى أقصى حدوده. ومظهر النظام في الإسلام بالغ غاية الدقة من غير أن يجني على الحرية أو يمسها، في مساواة صحيحة وتعاون صادق.(١)

مكة الحديثة:

بعد أن قضى الدكتور هيكل شعائر الحج، قام بدراساته وأبحاثه عن البلد الحرام مكة المكرمة، محاولًا التعرف على مكة الحديثة. وبعد الدراسة والبحث، وجد أن مكة في عصرها الحاضر ما تزال بعيدة عن روح العصر، وإن لم يبقَ فيها شيء من الروح العربي القديم مما تحدثنا به تواريخ مكة من عدة قرون.

السكان:

فسكانها اليوم هم في الحقيقة خليط من أبناء الدول الإسلامية الذين قصدوا البلد الحرام حاجين، ثم جذبتهم قدسيتها فأقاموا بها. ومنهم من تيسرت لهم سبل الحياة وأسبابها، ومنهم من ظلوا يعتمدون في عيشهم على الصدقات وعلى معاونة الحاجين في أداء الشعائر. والشباب من أهل مكة يتطلعون إلى الحياة بطريقة لا يرضى عنها جيل الآباء وتتناقض مع الماضي القريب للبلد المقدس.

التعليم:

وتكاد تكون الأمية سائدة في بلاد العرب. وأول مدرستين أُنشئتا فيها يرجع تاريخهما إلى سنة ١٣٢٦هـ، إحداهما في جدة والأخرى في مكة. والشباب المتطلع إلى الحياة من غرس هذه المدرسة، ويقوم نظام التدريس فيها على الطريقة القديمة التي تعتمد على التكرار والحفظ لا على التفكير والإبداع. وطبيعي أنه ليس بإمكان هؤلاء الشبان أن يحدثوا تحولًا في حياة البلد الأمين؛ حيث إن القيادة الفكرية ما تزال بيد الأقدمين وإن كان النشاط العملي هو من نصيب الشباب.

---

(١) انظر في منزل الوحي د| هيكل ص ١١٧ – ١١٨.

ولما كان التفكير هو الأساس في صياغة أسلوب الحياة، فإن عمارة مكة وطرقها ومسالكها يسيطر عليها الطابع القديم، فهي أشبه شيء بأحياء القاهرة القديمة المحيطة بالأزهر قبل أن تهب عليها رياح التغيير. ولا يعني هذا أن مكة متأخرة عن غيرها من المدن الإسلامية، بل إنها كانت دائمة التطور في حياتها إلى ما تتطور إليه المدن الإسلامية الأخرى. إلا أن طابعها الخاص يجعل تطورها غير متأثر بعقلية أهلها أو خاضعًا لتفكير ذاتي، لأنها بلد الإسلام على اختلاف أجناس أهله ولغاتهم، فهي قبلة المسلمين جميعًا بقيت لهم عاصمة روحية وإن انحلت عنها السلطة الزمنية.

ومكة هي لذلك ميدان صدام بين المذاهب الإسلامية على مر العصور، وهي اليوم ميدان صدام بين المذهب الوهابي وسائر السنيين من المسلمين.

تطلعات الشباب المكي إلى الحياة:

الحضارة:

يحز في نفوس الشباب المكي أن يروا بلادهم ضعيفة، وأن يروا لغيرهم السلطان عليها. فهم يريدون لبلدهم العزة والتقدم كغيرها من بلاد الإسلام. إنهم يتطلعون إلى حياة كحياة المصريين، ومنهم من يتصور أن في محاكاة الغرب الوسيلة إلى ذلك، ومنهم من يرى العلم وحده هو الوسيلة إليه. وهم بين هذا وذاك يعملون، تاركين للزمن أن ينضج من ثمرات عملهم ما يرجون أن يصلوا إليه. وفي محاولة هادئة للوصول إلى ما يرجون، نراهم يحاولون الجمع بين أساليب الحياة المعاصرة، مع الحرص أشد الحرص على طابع البلد الأمين وتقاليده.

رأى غريب للدكتور هيكل:

يقارن الدكتور هيكل بين الحجاز ومصر من حيث الحضارة، فيرى بعد المقارنة أن هناك أسبابًا جعلت مصر تسبق الحجاز في ميدان الرقي من أهمها:

١- وجود الأجانب بيننا في مصر.

٢- الامتيازات الممنوحة لهؤلاء الأجانب المقيمين بمصر.

٣- المدارس الأجنبية في مصر وما قامت به من دور في نشر الثقافة والعلم الغربي.

٤- تغلغل النفوذ الأجنبي.

وذلك عكس الحال في الحجاز الذي فرض عليه العزلة والحرمة على غير المسلمين، ومن هنا قل عدد الأجانب الذين يأتون إليه، لأنه يفرض على من يريد الدخول إلى معقل الإسلام أن يعلن ويظهر إسلامه أولًا، وأن يدرس العربية، وأن يتزيا بالزي العربي، ويعيش عيشة العرب. فإن لم يفعل ذلك، لم يكن اجتيازه إلى داخل البلاد أمرًا ميسورًا، وإن فعلوا، حرصوا على إخفاء طواياهم ومظاهرهم، ومن ثم لم يكن لوجودهم بين العرب أثر المثَل الذي يُحتذى فيُحدث احتذاؤه النتائج الإيجابية التي حدثت في مصر والشرق.

هكذا يرى الدكتور هيكل، وكأن أنسياح الأوروبيين في البلاد وممارستهم حياتهم في بلاد الشرق كما يمارسونها في الغرب هو الذي أحدث الآثار الإيجابية في مصر، لأنهم حينئذ يقومون بدور المثَل الذي يُحتذى فيُحدث احتذاؤه النتائج الإيجابية في الحياة والأفكار. وهذا رأي غريب حيث إن ذلك لا يعدو إلا أن يكون مسخًا للشخصية الشرقية والإسلامية، وتراجعًا لقيم الإسلام، فلا يُسمى رقيًا أو حضارة.

الشركات الأجنبية:

يتفاءل الدكتور هيكل باكتشاف الذهب والبترول في جزيرة العرب، وأسند عمليات التعدين والاستخراج إلى شركات أجنبية، حيث سيؤدي ذلك حتمًا لتغلغل الحضارة الغربية من ناحيتها الصناعية ومظاهر العيش والحياة في هذه البلاد.

وسائل الحياة العصرية:

ومع أن مكة وبلاد الحجاز مازالت بعيدة عن الحياة المعاصرة، فقد غزتها وسائل هذه الحياة؛ فحلت السيارة فيها محل الإبل، كما دخلت إليها وسائل الاتصال الحديثة من برق وتليفون. وإذا كان لهذه الوسائل أثر واضح في سرعة الاتصال وسرعة الانتقال، فلقد جنت على وحي الصحراء وشاعرية البادية. ولكن الشباب يرون في هذه الوسائل دليلًا على عدم صلاحية الوسائل القديمة للحياة المعاصرة، مما جعلهم أشد صبوة إلى كل جديد.

الحالة التجارية:

ومكة سوق تجاري رائج لصناعات الغرب والشرق الأقصى. ولا يكاد الإنسان يجد فيها شيئًا من صناعة مكة أو صناعة بلاد العرب. وهي بذلك لا تختلف عن مكة القديمة، حيث كانت ملتقى تجارة الغرب والشرق.

الاتصال بالعالم الخارجي:

وموسم الحج إلى مكة من عوامل التطور نحو حياة العصر؛ حيث يفد إليها كل عام من يفرضون الحج من شتى بقاع العالم الإسلامي، ويقيمون بها زمنًا ليس بالقليل، مما حدا بالحكومة إلى إنشاء حي بضاحية الشهداء من ضواحي مكة تراعي فيه حاجات الحياة الحديثة في النظام الصحي والماء والإنارة ليصلح لإقامة الأثرياء من المسلمين تشجيعًا لهم على الحج وزيارة الأراضي المقدسة. وذلك لأن الأماكن الصالحة لنزولهم بمكة قليلة جدًا.

أثر التكايا:

أيضًا، فإن لإنشاء التكايا بمكة أثرًا في تطور الحياة، خاصة التكية المصرية التي أنشأها محمد علي بما تقدمه من خدمات صحية وعلاجية بالطرق الحديثة بعد أن كان العرب لا يعرفون من وسائل العلاج إلا ما يعرفه أهل البادية. كما كانت هذه التكية صورة من الحياة المصرية في هذه البلاد.

سلبيات في حياة المكيين:

يرصد الدكتور هيكل أهم السلبيات التي تشوب حياة مكة فيما يأتي:

١- الكسل والتواكل: التفكير القديم الذي لا يقوم على روح إسلامي صحيح قعد بهم عن بذل الجهد، واستمرؤوا الكسل خلطًا منهم بين مفهوم التوكل والتواكل وعدم السعي في الحياة والقناعة بالرزق الذي يأتيهم من الصدقات التي تجري عليهم.

٢- احتراف التسول: فقد دفع بهم هذا الفكر إلى اتخاذ التسول حرفة خاصة أثناء الحج، حيث تبدو هذه الصورة بشكل مروع في الحرم. وكثيرون من هؤلاء المتسولين أقوياء البنية أصحاء الأجسام، قادرون على العمل، ولكنهم يعتمدون على عطف المسلمين عليهم وتسامح رجال الحكومة معهم. ويعلق الدكتور هيكل على هذا الحال قائلًا: "ولو أن الألوف التي تعيش اليوم بمكة من الصدقات زاولت من الأعمال ما تستطيعه لتغير وجه الحياة في مكة، ولو أن ما يخرجه المسلمون من مالهم صدقات للمتسولين جمع وأنفق في أعمال يقوم على استغلالها هؤلاء لكان أعود عليهم وعلى مكة بالفائدة، ثم لتغير تبعًا لذلك تفكير الناس تغيرًا يدفع مكة إلى ناحية الحياة الحديثة".[١]

وفعلًا، بدأ الاتجاه إلى تجميع الصدقات لاستخدامها في أعمال ذات فائدة عامة، حيث اتفقت الحكومة المصرية والحكومة السعودية سنة ١٩٣٦ م بشأن تجميع الصدقات لتنفق في أعمال ذات فائدة عامة بدل أن تضيع في صدقات لا تنفع.

إذن، فالدكتور هيكل يرى عوائق التقدم في مكة تتلخص في الآتي:

١- فكر مغلوط يؤدي إلى التواكل والكسل واحتراف التسول.

٢- عدم وجود رابطة الجنس بين سكان مكة، وبالتالي عدم وجود الترابط بصورة قوية وضعف عاطفة الولاء للبلد الحرام.

---

(١) في منزل الوحي د هيكل ص ١٤١- ١٤٢.

واجب المسلمين تجاه البلد الحرام:

يرى دكتور هيكل أن المسؤولية عن البلد الحرام هي مسؤولية المسلمين جميعًا وليست على المقيمين بها فقط. ومن هنا، يتطلع إلى أن يقوم المسلمون بواجبهم كالآتي:

١- إصلاح الأماكن المقدسة بعمل الآتي:

أ- تعبيد الطرق بين جدة ومكة، وبين مكة وعرفات، وبين مكة والمدينة.

ب- تنظيم وتوفير المياه الصالحة للشرب في مناسك الحج جميعًا.

ت. تنظيم المضارب لنزول الحجيج لمناسك الحج.

٢- رفع المستوى الثقافي والفكري لأهل الديار المقدسة، وذلك بإنشاء جامعة بالطائف حتى تكون بعيدة عن اعتراض المعترضين على تعليم العلوم الحديثة بمكة المكرمة.

الدكتور هيكل في زيارة لملك نجد والحجاز:

أُتيحت الفرصة للدكتور هيكل لزيارة الملك عبد الله بن السعود لمدة ساعة، تبادلا خلالها الحديث عن الظروف السياسية والعسكرية التي حتمت على ابن السعود أن يفتح الحجاز وأن يبقى على سدة الحكم ملكًا على نجد والحجاز بعد مبايعة أهلها له ملكًا.

وتبادلا موقف البلاد العربية، وخاصة مصر، من حكومة الملك والعلاقات السياسية والدبلوماسية بين القطرين وما يشوب هذه العلاقة من عراقيل. كما شرح له الملك سياسته في الحكم ونظرته إلى مستقبل البلاد العربية والإسلامية، نظرة ملؤها الأمل في أن تعدل هذه الحكومات والدول من نظرتها إلى حكومة المملكة، وعلق آماله على الشعوب أكثر من الحكام الذين تستحكم فيهم شؤون الحكم وظروف السياسة.

وقد أبدى الدكتور هيكل إعجابه بهذا الملك البدوي الذي كانت له أيادٍ بيضاء على هذه البلاد لا يستطيع أحد أن ينكرها، وعلى رأس هذه الأيادي أن الحجاز لم يتمتع منذ مئات السنين بما يتمتع به اليوم من أمن، وأن الأخلاق العامة في المدن أرقى مما كانت عليه، وأن ما يُنفق في التعليم وما إليه من مرافق الإصلاح أكثر مما كان يُنفق في العهود السالفة جميعًا.[١]

ويضيف الدكتور هيكل: إن الرجل –ابن السعود– خرج بنجد من عزلة كانت فيها بعيدة عن العالم، وأتاح لهؤلاء البدو أن يتصلوا عن طريق المخترعات الحديثة بعالمنا السريع التطور والتغير. وهو الذي لفت أنظار المسلمين إلى بلاد العرب وأهلها، ولم يكن أحد يفكر فيها من قبل إلا من جهة أنها البلاد المقدسة.[٢]

من وحي صلاة الجمعة في المسجد الحرام:

أدى الدكتور هيكل صلاة الجمعة في المسجد الحرام، فأثارت هذه الصلاة خواطره. فالمسجد على سعته الرحبة، يقوم الخطيب بإلقاء الخطبة بدون مكبر للصوت. فيتساءل الدكتور هيكل: "أنَّى لصوت رجل ينطلق في الفضاء فلا يحجزه جدار، أن يصل إلى هؤلاء الذين جلسوا في مئات متلاصقة من الصفوف، وكلهم متوجه إلى ناحية الكعبة من جهاتها الأربع؟ قلت لنفسي: أليس من الخير أن يستعين الخطيب بمكبر للصوت ينقل خطبته إلى جميع المصلين بالمسجد وفيما وراء جدرانه؟ إن خطبة الجمعة ركن من أركانها، والغرض من خطبة الجمعة إرشاد الناس إلى ما يجب عليهم في أمر دينهم ودنياهم حسب الأحوال المحيطة بهم... فأي رشد إذا لم يسمع الناس لقول المرشد؟... ما أجدر خطيب المسجد الحرام أيام الحج أن يحيط خبرًا بأمر المسلمين كافة، وأن يصل إلى المصلين صوته ليكون لهم هدايةً ورشدًا".[٣]

---

(١) في منزل الوحي د هيكل ص ١٦٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ – ١٦٧.

(٣) في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٦٨.

تحليل رائع:

وتتداعى الخواطر إلى الدكتور هيكل بعد عودته إلى الدار من هذه الصلاة الجامعة، مفكرًا في حال المسلمين متسائلًا: "ما بال هذه الألوف المؤلفة من المسلمين الذين يصلون الجمعة في الحرم، ثم ما بال إخوانهم الملايين من المسلمين المنتشرين في بقاع الأرض جميعًا وهم يؤدون صلاتهم في هذا النظام البالغ ويسمعون هاتين الكلمتين (الله أكبر) ويكررونهما في صلاتهم مرات وعشرات المرات، وما بالهم فيما هم فيه من ضعف وجمود وخضوع لسلطان الغير وحكمه؟... فكرت في ذلك متألمًا ثائرًا بهؤلاء الذين أوتوا أسباب القوة فضعفوا واستكانوا، وأوتوا أسباب العزة فذلوا وهانوا.. ولم ألقَ عسرًا في الوقوف على علتهم، فنظامهم هذا ينقصه الروح، ولذلك غاضت حياته فانقلب آليًا، فانقلبت على أهله غايته".[1]

ثم يستطرد الدكتور هيكل محللًا هذه الظاهرة –ظاهرة الضعف والتخاذل المتفشية في المسلمين– معللًا فيقول: "ليس هذا شأن المسلمين اليوم في هذا العصر الأخير وكفى، بل هو شأنهم منذ مئات السنين التي خلت منذ انتقل الأمر بينهم من الشورى إلى الاستبداد ومن الاجتهاد إلى التقليد ومن الاستهانة بالموت إلى حب الحياة ومن عبادة الله وحده إلى عبادة المال وأرباب المال. منذ ذلك اليوم البعيد عنا حينما كان تاريخ الأمة الإسلامية ما يزال مزدهرًا، بدأت الأثرة تبلغ من المسلمين أن صار أحدهم لا يعرف إلا نفسه، ولا يحب إلا نفسه، ويحسب مع ذلك أنه يستطيع الوصول إلى رضا الله باعتزال إخوانه المؤمنين والانقطاع عن التفكير في أمرهم إلى التفكير في أمر نفسه.

وحيثما بلغت الأثرة من النفوس هذا المبلغ، ضعف إيمانها وتزعزع يقينها، وتعلقت بالحياة وأذعنت خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة في الحياة. هنالك تنزوي الروح ويضمحل سلطانها على النفس، وهنالك تتهلهل

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٧٥.

أواصر الاتصال بين المؤمنين وتضعف أخوتهم فيضعفون جميعًا، وعندئذ تصير حياتهم حياة أفراد تنتهي بالموت لا حياة أمة تتصل على الزمان، ولها في شهدائها وموتاها أعلام مجد وعزة تتعلق بها وتضحي للاحتفاظ بما شادوا من هذا المجد ولإكباره والمزيد منه".[١]

لقد تداعت هذه الأفكار على الدكتور هيكل وهو يراقب آلاف المصلين للجمعة في المسجد الحرام، فكر راجعًا إلى الوراء يتذكر كيف كان صحابة النبي ﷺ والمسلمون الأولون يجيئون إلى الصلاة عند الكعبة. فإذا صدهم صاد وقفوا أمامه متحدين متضامين وهم يعلمون أنهم معرضون للأذى والموت فلا يفت ذلك في عضدهم أو يزعزع من تضامنهم، وإنما تعالوا على كل ذلك بفضل إيمانهم بالله وبقوة أخوتهم في الله التي نبع منها فيض حب كبير وعميق لا يضعف ولا يتناهى فيشد بعضهم أزر بعض ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه "فكانوا بذلك حربًا على كل ضعف في أنفسهم كما كانوا حربًا على قوة خصومهم، ومن أجل ذلك استلوا من نفوسهم كل سلطان للأثرة عليها، فقوى اعتداد الفرد منهم بنفسه وبحبه لإخوانه، فكانوا هم الغالبين. لقد تمكن الإيمان في قلوبهم فهان أمامهم كل صعب ورخصت عندهم كل تضيحة ولو بالنفس في سبيل هذا الإيمان[٢]

فأعزهم الله ونصرهم، وتحقق فيهم وعد الله حيث يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.[٣]

أنانية و سلبية في حياة المسلمين المعاصرين:

على عكس ما كان عليه السلف الصالح من حب وتضامن وتعاون على البر والتقوى، يلحظ الدكتور هيكل أن من أسباب ضعف المسلمين في العصر الحاضر

(١) في منزل الوحي د|هيكل ص ١٧٥ – ١٧٦.

(٢) في منزل الوحي د|هيكل (المرجع السابق) ص ١٧٧.

(٣) الآية رقم ٤٠ من سورة الحج.

ما سيطر عليهم من أنانية بغيضة وسلبية مهينة. حتى إن القادرين منهم والذين يبغون التقرب إلى الله لا يفكرون في القربى إليه سبحانه عن طريق البر والتقوى وخدمة إخوانهم بفعل الخيرات والمسارعة في إنشاء المرافق العامة. فلم يفكر أحد منهم في دار علم يقيمها ولا في مكتبة ينشئها ولا في مستشفى أو مصلى ينفق عليه. إنما غاية همه أن يستغفر الله عن الخطايا كأن حياته كلها خطيئة يريد أن يكفر عنها، وكأنما يعجز عن أن يجعل من الحياة عملًا صالحًا يكون به عند الله راضيًا مرضيًا.

وإنما هوت النفسية الإسلامية في عصور الانحلال إلى هذه المكانة لأن من المسلمين من اتخذ إلهه هواه ورفعه تدهور الجماعة إلى مكان الزعامة منهم والحكم فيهم. وقد ألف كثيرون أن يقولوا: الناس على دين ملوكهم فجرت الجماعة مجرى هؤلاء الحكام والملوك، وجعلت إلهها هواها، واقتصرت من عبادة الحق على ما ترى فيه مغفرة وزرها والتخفيف من إثمها، ولم تقصد وجه الحق جل شأنه لذاته إياه تعبد وإياه تستعين. ووقفت عبادتها عند ألفاظ تتلوها، وفاتها أن العمل عبادة والسعي عبادة ومعرفة سنة الله في الخلق بالاجتهاد والجد أسمى معاني العبادة".[١][٢]

الدكتور هيكل في رحاب آثار مكة:

ينزع المسلمون أثناء حجهم وعمرتهم إلى ماضي البلد الحرام، ولا يعيشون حاضره، ولا يعنيهم ما يجيش بصدور أبنائه من آمال في المستقبل. والحجاج والمعتمرين بمجرد إتمامهم للشعائر، تنصرف همتهم إلى زيارة آثار النبي وأهل بيته بهذا البلد الآمن، ابتغاء زيادة الأجر عند الله.

ولقد أراد الدكتور هيكل أن يقوم بزيارة هذه الأماكن أو المزارات التي يضفي عليها أهل مكة ثوب التاريخ، لعله يجد من الفائدة العملية ما يشيد بذكرى الذين شادوها والذين يرقدون الرقدة الأخيرة في المقابر.

---

(١)، (٢) في منزل الوحي د/ هيكل ص ١٨٦.

ولقد عجب الدكتور هيكل من قول أولي الرأي من أهل مكة وشبابها إن هذه الآثار لا تجد سندًا ثابتًا من التاريخ، فأراد أن يمحص قولهم هذا ويقف على جلية الأمر، فرجع إلى الكتب وما سجل فيها، فلم يجد ما يطمئن إليه السند العلمي الصحيح، فأحب أن يقف بنفسه عند هذه الآثار ليستوحي منها عبق التاريخ لعله يهتدي من خلاله إلى الحقيقة التاريخية لهذه الآثار.

ولقد رافق الدكتور هيكل خلال هذه الزيارات شيخٌ حجازي من أهل العلم ذو ثقافة واسعة وهو لسعة فكره بعيد عن التعصب وعدم التقيد إلا بموجب العقل، ويتمتع بقدر كبير من حرية الرأي. لذلك كان يشارك الدكتور هيكل آراءه فيما يتعلق بالآثار مشاركة تظهر في أسفه على ما فعله بها حكام الحجاز من النجديين. ولذلك كان أول الأمر لا يبدي كبير اهتمام بزيارة الدكتور هيكل لهذه الآثار. "فلقد كان لكثير منها فيما مضى قيمة فنية بما أقيم عليه من قباب وما شيد لذكره من مساجد. أما اليوم، ومنذ حكم الوهابيون بلاد العرب، فقد هدمت هذه الآثار وانمحت رسومها، فهم أعداء ألداء لكل ما يحسبونه يورث الشبهة في توحيد الله جل شأنه، وهم يرون فيها على الأقل منكرًا تجب إزالته. وما عسى أن تغني مثلي زيارة آثار لم يبقَ منها اليوم إلا ما يحفظه الناس أو يروون عنها، وأية فائدة في أن أذهب إلى مقابر المعلاة مثلًا، حيث قبر خديجة وقبور أجداد النبي وأعمامه، وقد سويت هذه القبور بالأرض، وأصبح ما يرويه حراس المقابر عنها أشبه شيء بالخرافة، ولم يخف أسفه على زوال القباب الجميلة التي كانت مزار عشرات الألوف من الحجاج والتي كانت تدر لذلك على مكة الخير الوفير".[1]

تنوعت الآثار في مكة، وأهمها: المقابر، والمساجد، والآبار، والدور، والجبال، والشعاب، وغيرها. نسير مع الدكتور هيكل وهو يزورها ويسجل ما تبعثه في نفسه من خواطر وذكريات.

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٠٨- ٢٠٩.

١ - مقبرة المعلاة:

كانت مقبرة المعلاة في مكة أول ما اتجه إليه الدكتور هيكل بالزيارة. وهي تقع في الشمال الشرقي من مكة، وهي عبارة عن فضاء فسيح محصور بين الجبال من شماله وغربه، وتفصل بينها وبين الجبال من الشرق بعض المساجد والمساكن، ومن الجنوب تتصل بمنازل أهل مكة. وهي مقبرة قديمة وما تزال مقبرة أهل مكة حتى هذا الزمن الحاضر، وقبورها مسواة بالأرض، ولم تكن كذلك قبل دخول الوهابيين الحجاز.

وفي مقبرة المعلاة يوجد قبر خديجة أم المؤمنين وقبور أجداد النبي وأعمامه. وإذ يقف الدكتور هيكل أمام قبور هؤلاء، يستعيد في ذاكرته مواقف هؤلاء الذين رقدت أجسامهم تحت الثرى من النبي ﷺ نصرةً وتأييدًا وجهادًا وإيمانًا. هنا يرقد جد النبي وعمه اللذان احتضناه طفلًا أيام يتمه، وترقد زوجه الوفية التي وهبته مالها وقلبها وروحها أيام شبابه وبعد البعثة. في هذه البقعة يرقد أولئك الذين شب محمد بينهم واستظل ببرهم ورعايتهم من يوم ولد وإلى أن جاءهم الموت لسنوات بعد رسالته، تعرض أثناءها للسوء والأذى.[1]

وبعد استعراض مواقف الراقدين على شريط الذكريات، يتساءل الدكتور هيكل: كيف لا تخلد هذه الأسماء في لوح الوجود خلود إجلال وتعظيم وإكبار؟

يدور حوار بين الدكتور هيكل ومرافقه يتناول الآراء حول هدم القباب التي أقيمت على القبور تخليدًا لذكرى الثاوين فيها. ويدل هذا الحوار على أن الرأي منقسم بين مؤيد لإقامتها ومعارض لها. ووجهة نظر الذين يرون إقامة القباب تقول: ما كان يجمل بالوهابيين أن يعتدوا على آثار أهل بيت النبي غير مراعين لحرمتها وغير مراعين لمشاعر المسلمين، فالباعث على إقامة القباب إنما هو باعث ديني قصد منه التقرب إلى الله، ومقصد زيارته هو التبرك بهؤلاء الصالحين الذين يرقدون تحت هذه القباب.

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢١١.

ووجهة نظر المعارضين لإقامة القباب فحواها أن ذلك غير جائز حيث لم يفعله النبي ولا الخلفاء الراشدون من بعده، وإنما شاع ذلك في عهد الانحلال والضعف. وما دام الباعث على بنائها وهدمها باعثًا دينيًّا، فيجب أن يحكم الدين في هذه القضية ممثلًا في القرآن الكريم والسنة المطهرة. ولو حكمنا القرآن الكريم والسنة، لكان الذين هدموها أقرب إلى الصواب والحكمة، ليكون التوجه إلى الله وحده.

والدكتور هيكل يرى من خلال هذا الحوار أنه نضال بين عقيدتين، وهذا تزيد منه أو مبالغة. فلماذا لا نعتبره خلافًا بين رأيين؟ لأن الكل يدين بعقيدة التوحيد، فما قصد الذين يؤيدون إقامة القباب أن يتخذوا من هؤلاء الراقدين زلفى إلى الله كما كان يفعل المشركون بعبادتهم للأصنام.

ثم يشارك الدكتور هيكل بالرأي ويطرح وجهة نظر أخرى فيقول: "لو كان الباعث لإقامة القباب غير ديني لوجب النظر في إقامتها وهدمها نظرة أخرى، ولكان حقًّا أن يُلام الوهابيون أبلغ اللوم".[١] ثم يفصح عن هذا الباعث بأنه فن العمارة الراقي فيقول:

"لو أنك يا صديقي أرجعت الباعث على بناء هذه القباب إلى فكرة في فن العمارة، لشاركتك في تأثيم الذين هدموها، فللفن جلال وسلطان في حياتنا اليومية وفي حياتنا الروحية، جاهل من ينكرهما".[٢]

ثم يصف الفن والجمال في القبة التي كانت على مقابر المعلاة بأنها كانت آية بارعة الجمال في فن العمارة براعة تصد من يفهم هذا الفن عن أن يصيبها بسوء، وبذلك كانت هذه المقبرة بدعًا يعشقه من يحبون جمال الفن، وكان الناس يزورونها إجلالًا لهذه القباب وتبركًا بذكرى ساكنيها.[٣]

(١) المرجع السابق ص ٢١٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٤.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٢.

فـإذا كان الـذي حدث هو أن النـاس يزورون هذه المقابر إجـلالًا لهذه القباب وتبركًا بذكرى ساكنيها، فإن هذا وحده كافٍ لأن تهدم طالما كان هذا هو حال من يزورونها.

وإذا كانت هذه مقبرة المكيين منذ أيام الجاهلية، فأي تبرك يحصل لزائريها وفيها رفات من لم يؤمن برسول الله ﷺ وإن كان يحبه ويدافع عنه وهو عمه أبو طالب؟ وأي أثـر للفـن في حياتنـا الروحية وفي زيـارة المقابر بالذات؟ إن زيـارة المقابر إنما شرعـت لأنهـا تذكرنا بالآخرة ونـرى فيها رأي العين زوال زخـرف الحياة الدنيا، فـأي علاقة للفـن بمثل هذه الذكـرى؟ على أن كلمـة الفن مطاطة وواسـعة جدًا يدخل تحتها كثير مما يخالف روح الإسلام، فالغناء فن، والرقص فن، والإضحاك فـن وهكـذا. صحيح إنه بعد ذلك يقال فن راقٍ وفن هابـط ولكن هذه التفرقة لا تعـدو كونها تفرقة لفظيـة، فلا يُمنَع فن هابط ولا يرفع من هبوطه الذي تردى فيه إلى الدرك الأسفل.

ثـم ينحو عـلى الوهابيين باللائمة لأنهـم هدموا القباب فيقـول: "وكان لأتباع ابـن عبـد الوهـاب مندوحة عن هدم هـذه الآثار الفنيـة الجميلة بتحريـم التقرب إلى الله بواسـطة المدفونـين طـي ثراهـا تقربًا ينكـره مذهبهم في الإسـلام، ومن ثم أراهـم حقيقـين بالتثريب عليهـم ولومهم ولو عنف لذلك من شـاء في هذا اللوم ما خالفته".[1]

وكان يجمل بالدكتور هيكل ألا ينحو هذا المنحى في لومهم أشد اللوم، فالأمر أولًا وأخـيرًا يتعلق بأمـر ديني لا دخل للفن فيه. فهل يجيز الإسـلام أن يجعل من المقابـر تحفًا فنية أو معرضًا لفن العمارة الراقـي حتى إن زائريها يأتون إليها إجلالًا لهذا الفن الجميل؟ اللهم إن الحق واضح.

(١) في منزل الوحي د هيكل ص ٢١٤.

٢- المساجد الأثرية:

المساجد الأثرية بمكة لا شيء فيها من الجمال أو الفن. ولا عجب، فهي لم تقم للعبادة ولا لاجتماع الناس بها، وإنما أقيمت لذكرى حادث وقع حيث تقوم. فهي أدنى إلى أن تكون نصبًا تذكاريًا تحفظ بأنباء هذا المكان منها إلى كونها مكانًا للعبادة والصلاة. ويقلل من قيمتها العلمية أنك لا تقف على نبأ صحيح للذكرى التي يقوم المسجد شاهدًا عليها. ومن هذه المساجد مسجد الراية ومسجد الجن، وهما قبالة مقبرة المعلاة، ومنها أيضًا مسجد الإجابة ومسجد حمزة رضي الله عنه.

ويعتقد الدكتور هيكل أنه يتعذر القول بصحة ما للمساجد القائمة اليوم من دلالة على الآثار المسندة إليها، والراجح أنها أقيمت على الظن لا على اليقين، وأقيمت لأغراض تتصل بهوى النفوس إلى مكة أكثر مما أقيمت لأغراض علمية صحيحة ثابتة.[1]

٣- الآبار:

الآبار تُعد بعض آثار مكة، وتختلف عن المساجد في أنها كانت موجودة بعدد كبير في عهد النبي ﷺ، ولم تحدث بعد أجيال من عهده. فهي لم تنشأ ذكرًا لقصة أو حديث رواه الرواة، بل كانت موجودة بالفعل. بعض هذه الآبار كان قائمًا في زمن النبي، ومنها ما اندثر من بعده وجاء غيره. تختلف الروايات بشأن هذه الآبار أشد الاختلاف عدا بئر زمزم.

لقد كانت الآبار موضع عناية المكيين، فلما أجرت زبيدة زوج الرشيد الماء إلى مكة، لم يبقَ ما يثير العناية بهذه الآبار، وإن احتفظ أهل مكة منها بما علقوا عليه من القصص الديني ليثيروا تطلع الذين يزورون مكة والذين يبتغون أثناء زيارتهم كل سبيل للتبرك. ومن هذه الآبار بئر طوى التي يروى أن الرسول ﷺ قد اغتسل منها حين دخوله مكة عام الفتح، وبئر عثمان بن عفان المنسوبة إليه لأنه هو الذي أنشأها.

(١) المرجع السابق ص ٢١٦.

٤- الدور التاريخية:

الدور التاريخية بمكة أثبت نسبًا من المساجد والآبار، وإن كان ما يتصل منها بعهد الرسول ﷺ قليل. ودار الأرقم بن أبي الأرقم من أشهر هذه الدور وأثبتها نسبًا، وهي تثير في النفس ذكرى من أروع الذكريات في حياة النبي ﷺ وفي حياة الدعوة الإسلامية، ألا وهي ذكرى إسلام عمر بن الخطاب، الذي كان إسلامه نقطة تحول كبير في أسلوب الدعوة.

ويعتقد الدكتور هيكل أن دارًا شهدت مثل هذا الحدث لجديرة بأن تصان وأن تزار، ولكنه يأسف لأن قيمتها التاريخية قد أُهدرت في عهد النجديين؛ فقد أصبحت دارًا عادية تباع وتشترى وتسكن ويمنع الناس من زيارتها، ويرى خيرًا من ذلك أن تصان وأن تزار لا للتبرك، ولكن لما تحويه من معانيَ وفوائد تستفاد من الذكريات التي حدثت فيها.

ومن الدور التاريخية دار أبي سفيان، التي قال الرسول بشأنها يوم فتح مكة: "ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن". وقد خضعت لتقلبات الدهر حتى أصبحت الآن مستوصفًا يزوره الناس ويُصرف منه الدواء.

ومنها أيضًا دار أم هانئ، وهي الدار التي كان فيها الرسول ﷺ ليلة أُسري به، وليس لهذه الدار أثر؛ فقد دخلت في المسجد الحرام حين توسيعه.

أما الدور التي كانت مكانًا لميلاد الرسول ﷺ ومولد فاطمة ابنته ومولد علي بن أبي طالب، فقد عفا عليها النجديون ولم يتركوا لها أثرًا ولا ذكرًا.

وهذا الفعل لا يغفره لهم حتى الذين لا يرون في هدم القباب بأسًا، ويرون في التعفية على معالم هذه الأماكن التي وُلد فيها النبي وأهل بيته وزرًا لا يعدله وزر.

وقفة أمام الآثار المحطمة و الدور المهملة:

ما كان يجوز للدكتور هيكل وهو رجل فكر أن يقف هذا الموقف من الآثار

التـي هدمها النجديون والمزارات التي أزالوها بعـد أن رأوا تعلق الناس بها تعلق تقديـس وزيارتهـم لها على سـبيل القربى لا على سـبيل الذكـرى، فالتقرب إلى الله عبادة، والعبادة في الإسـلام لا تقبل إلا إذا كانت على الوجه المشروع. والرسـول ﷺ يقول: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد".(١)

ولقـد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حازمًا لا يقاس به النجديون، حين أمر بقطع الشـجرة التـي ورد ذكرها في القرآن حيث تمـت تحتها بيعة الرضـوان، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.(٢)

حـين رأى النـاس يزورونهـا زيـارة تقديـس وتبجيـل، لأن الإسـلام لا يقيـم للماديـات وزنًا لأنهـا زائلة مهما بقيـت. والذكريات في الإسـلام محفوظة بمغزاها ومعناها لا بأماكنها المحدودة ولا بأزمانها المنقضية، وبذلك تحل في روح المسلمين وتخلد في كل عمل صالح في كل مكان، وبذلك تستعصي على النسيان أو الزوال.

إن البنـاء الفكري في الإسـلام أثبت وأقوى من كل بنـاء مهما كانت فخامته أو ضخامتـه، ومهما اشـتمل على آيـات الفن وإيحاء الإبـداع. والدليل عـلى ذلك أن المسلمين جميعًا في كل بقاع الأرض يذكرون بالإجلال والتقدير أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وابنـة النبـي فاطمة الزهراء، وابن عمه وصهره علي بن أبي طالب، بل وكل أهـل بيـت النبي ﷺ بالحب والتقديـر، وحبهم وتوقيرهم فرض على كل مسـلم. وليـس بعد هذا الخلود الروحي خلود، وليسـوا بعد أن وقـر حبهم في القلوب في حاجة إلى نصب تذكاري يقام هنا أو منزل يحدث بذكراهم هناك.

أما مقارنة ما فعله الوهابيون بما يفعله الغربيون فهي مقارنة غير صحيحة، لأن ما فعله الوهابيون ليس فيه إهدار لذكريات هؤلاء الخالدين، وإنما هو تصحيح لمفهوم

(١) رواه الإمام البخارى في الصلح، باب إذا اصطلحوا على جور فالصلح مردود.

(٢) الآية رقم ١٨ من سورة الفتح.

وتخليص لعقيدة مما قد يعلق بها من سوء الفهم أو ضلال العمل استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.(١)

أما ما يفعله الغربيون لتخليد ذكريات عظمائهم فنابع من خواء روحي ونزوع مادي سيطر عليهم حتى حل منهم محل العقيدة.

وإذا كان الدكتور هيكل نفسه يقرر أن هذا الذي حدث من إنشاء المزارات وإقامة القباب عليها قد حدث في عصور التدهور والجمود والانحطاط التي يمقتها الدكتور هيكل، فلماذا يقبل آثار هذا التخلف العقلي والجمود الفكري المتمثلة في هذه القباب والهياكل التي أقيمت على غير سند علمي ثابت بل على أنها مجرد نصب تذكاري؟

وإذا كان الدكتور هيكل يضيق ذرعًا بحال المسلمين الجاهلين بروح الإسلام والمتخلين عن مبادئه السامية والنزاعين إلى المادية على حساب الروحانية، والمتحولين عن التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة إلى التقرب إلى الله بالأولياء والصالحين، فلماذا لا يقف الموقف المنصف الذي يتمشى مع هذا الضيق والإنكار لكل خروج عن روح الإسلام؟ فإذا هدم الوهابيون القباب فإنما يهدف ذلك العمل إلى تصحيح فكر وتنقية عقيدة، خاصة إذا تعلق الناس بهذه الآثار تعلق إجلال وإكبار واتخذوا ممن قامت لهم هذه الآثار زلفى إلى الله. وإذا كان في ذلك جناية على الفن والإبداع في المعمار، فإنه لا يعدو أن يكون تضحية بسيطة في سبيل مصلحة أكبر، وهذه هي سنة الإسلام في التشريع، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.(٢)

فالإسلام حرم الخمر والميسر رغم ما فيهما من منفعة، حيث لا تقارن هذه المنافع البسيطة بما ينطويان عليه من إثم كبير. فالقيمة الفنية للقباب والآثار لا

(١) الآية رقم ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) الآية رقم ٢١٩ من سورة البقرة.

تضاهي ما تسببه من شبهة في العقيدة وضلال في السلوك وانحطاط في الفكر لا يرضاه الإسلام لأهله.

- في مهبط الوحى (فى غار حراء):

يذهب الدكتور هيكل إلى جبل النور ليزور غار حراء، حيث كان يتحنث رسول الله ﷺ، وحيث نزل عليه الوحي بأول فيض من كلام الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.[١]

ويأسى الدكتور هيكل لما صنع الوهابيون بهذا المكان الذي يرى فيه أقدس مكان تجب له الزيارة بعد حج البيت الحرام؛ فقد هدموا القبة التي كانت مقامة فوق هذا الجبل، مما أدى إلى إهماله وقلة الزائرين له، مع أنه المكان الذي شهد الرياضة الروحية للرسول منذ أن هداه الله للحق وإلى أن أتم عليه هذه الهداية بتنزل الوحي إليه وهو فيه. ومكان هذا شأنه جدير بأن يتعلق به الذهن، وأن يتوجه إليه القلب، وأن تشد إليه المشاعر.[٢]

وتحت تأثير هذا الشوق، يقول الدكتور هيكل: "ألحت عليَّ الرغبة في ارتقاء هذا الجبل لأقف حيث كان يقف النبي ﷺ، وأشهد من مظاهر الخلق ما كان يشهد، ولأرى الغار الذي كان يقضي فيه ليله والذي نزل عليه الروح الأمين بالوحي فيه".[٣]

وحين يصل إلى حيث غار حراء، ليجلس في مكان جلس فيه الرسول، وينظر إلى الكون من حيث نظر ﷺ، تأخذه الرهبة والدهشة لما كان يقوم به الرسول من رياضة روحية عجزت الأمة عن مجاراته فيها، مع أنه ﷺ الأسوة والقدوة للأمة.

---

(١) الآيات من ١-٥ من سورة العلق.

(٢) انظر في منزل الوحي د هيكل ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٢.

وتتداعى إليه الخواطر من وحي هذا المكان، وتنهال عليه التساؤلات بعد أن ترك لخياله العنان، فتمثل له الرسول جالسًا في هذا المكان. ترى ما بال أهل مكة لا يجيء منهم من يتعبد في حراء طوال شهر رمضان كما كان يفعل النبي قبل البعثة؟ وما بال المسلمين من أهل مكة ومن يقصدون إلى مكة للحج أو عمرة رجب لا تميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة الروحية والعقلية؟

ثم يجد الإجابة عن هذه التساؤلات في واقع المسلمين الذين يرغبون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفوا عن أمر الروح الذي يكيّف المادة وأذعنوا لسلطان المادة يكيّفها غيرهم بقوة عقله وروحه، ولأنهم آثروا راحة التقليد على عناء الاجتهاد، ولأنهم نسوا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه فاستولت عليهم الأثرة وصار ما يرضي هذه الأثرة من ابتغاء المال والجاه وما إليها كل شيء عندهم. والمسلمون يرغبون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم لا يطيقونها، فالوحدة للتفكير ابتغاء الحقيقة إنما يطيقها ذوو الأرواح القوية، وهؤلاء يتلمسونها تلمسًا ويتخذونها ملجأ من ضعف الجماعة. وقليلون منهم عادوا إلى الإنسانية بحقائق أضاءت سبلهم فساروا على هداها، وهؤلاء هم الذين اتبعوا سنة الرسول ﷺ. ولكن الله لم يؤتِ أحدًا ما آتى عبده ونبيه ورسوله محمدًا ﷺ.[1]

ومع تقديري لمشاعر الدكتور هيكل تجاه غار حراء، فإنه لا يصل إلى أن يكون أقدس مكان تجب له الزيارة بعد بيت الله الحرام، أو يكون مزارًا أو متعبدًا للمسلمين في رمضان كما كان يفعل النبي قبل البعثة. فقد سن لنا الرسول ﷺ قيام الليل في البيوت والاعتكاف في المساجد، سيما في العشر الأواخر من رمضان، كما لم يؤثر عن النبي ﷺ أنه ذهب إلى حراء ليتعبد فيه بعد البعثة.

وإذا كان هذا الغار قد شرف بتنزل أول آي القرآن على الرسول ﷺ وهو فيه، فإن الوحي كله بين أيدينا وفي أعماق قلوبنا، وما علينا إلا أن نقيم حياتنا بكل

(١) المرجع السابق ص٢٤٠-٢٤١ باختصار.

جوانبها على مقتضى هذا التنزيل الحكيم، ففي هذا خير احتفاء بالوحي الذي أنزل على الرسول ﷺ.

وحراء كأي مكان آخر نزل فيه الوحي على الرسول ﷺ، وكأي مكان آخر أقام فيه الرسول، فليس له قدسية خاصة ترفعه إلى وجوب زيارته أو اتخاذه متعبدًا.

على أن الأسوة برسول الله ﷺ لا تعني وجوب فعل كل ما كان يفعله ﷺ، إذ له خصوصيات لا يمكننا التأسي به فيها حتى في العبادة، كالوصال في الصوم مثلًا.

على أن ما لحق بالدكتور هيكل من مشقة وما تحمله من متاعب جمة أثناء صعوده إلى حراء وهبوطه منه كاف لأن نشكر الله أنه لم يكلفنا بزيارته، ويجعلنا نردد في إخبات قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.(١) وقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.(٢)

٥- في مختبأ الرسول عند الهجرة (في غار ثور):

حرص الدكتور هيكل على زيارة غار ثور، حيث اختبأ رسول الله ﷺ حين هجرته إلى المدينة. ولما وصل إليه تداعت إليه ذكريات هجرة النبي ﷺ من جنبات هذا المكان الذي أوى إليه الرسول ورفيقه أبو بكر ليستترا عن أعين المشركين ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

٦- الآثار في ظاهر مكة:

وظاهر مكة هو المساحة الواقعة بين مساكن مكة وبين أعلام الحرم. ولما كان الحرم له أحكام خاصة، فلا يُراق فيه دم، ولا يحل فيه الصيد، ولا يُنفَّر فيه الطير، ولا يُعضد شجره، ولا تُلتقط لقطته إلا لمنشد ومعرف، كان لا بد من وجود أعلام تبين حدود هذا الحرم الآمن. وهذه الأعلام قائمة اليوم في خمس جهات تحيط

(١) من الآية رقم ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية رقم ٧٨ من سورة الحج.

بمكـة من نواحيهـا جميعًا، فثم علمان عنـد الحديبية، وهي التي يُطلـق عليها اليوم الشـميسي، في طريق القادم من جدة إلى مكة، وعلمان عند التنعيم في طريق القادم من المدينة إلى مكة، وعلمان عند الجعرانة في طريق القادم من العراق، وعلمان عند عرفـة في طريق القادم من الطائف، وعلمان عند إضاءة في طريق القادم من اليمن. والأعلام التي يشـيدها الإنسـان اليوم حجـارة متقنة النحـت ترتفع عن الأرض قرابة متر.[١] وتختلف المسـافة بين الكعبة وهذه الأعـلام، فأقربها علماً التنعيم على مسـافة ستة أميال، وأبعدها علمًا الحديبية على مسـافة عشرين ميلًا. وما وراء هذه الأعـلام وحتى مواقيت الحج المكانية يقع الحل، وأبعد المواقيت عن الحرم هو ذو الحليفـة التي تقع بظاهر المدينة وهي ميقات أهـل المدينة. وتليها الجحفة التي تقع في منتصـف الطريق بين مكة والمدينة، وهي ميقات المصريين والشـاميين وكل من حاذاها في البر والبحر، ثم تليها يلملم، وهي ميقات أهل اليمن.

وعند زيارة الدكتور هيكل لعلمي التنعيم تذكر مقتل خبيب ﵁، وتذكر عمرة عائشـة أم المؤمنين من هذا المكان، وقد بني فيه مسـجد يطلق عليه مسجد عائشة.

ويتابع الدكتور هيكل زياراته للأماكن التي حدثت بها أحداث على عهد النبي ﷺ، ويقف أمام الآثار التي أقيمت لتذكر بهذه الأحداث، منها مسـجد ميمونة أم المؤمنـين بـسرف، الذي يُروى أنه بنـي فوق قبرها، ومنها مسـجد الرضوان الذي تُجـرى الروايـة بأنه أقيم مكان الشـجرة التي تمت تحتها بيعة الرضـوان، والتي أمر عمـر بن الخطاب بقطعها، خوف أن يفتتن المسـلمون بها لـورود ذكرها في القرآن الكريم فيتخذون منها منسـكًا من المناسـك يحجون إليه. وكان عمر ﵁ حريصًا غاية الحرص على أن يظل التوحيد في صفائه لا يشوبه شائبة، ولا يرضى أن يكون التقديـس لمـكان غير بيـت الله، وألا يحج المسـلمون إلا إليه.[٢] وهـذا هو الموقف

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٦٣.

(٢) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٧٤-٢٧٥.

الحق، رضي الله عن عمر وأجزل له المثوبة.

وفي هـذا المكان تداعـت إلى خاطر الدكتور هيكل ذكريـات بيعة الرضوان من حيث أسبابها ونتائجها، فيلهج بالثناء على رسول الله ﷺ وعلى حسن سياسته التي جعلت من صلح الحديبية فتحًا مبينًا.

وهكـذا يمتعنا الدكتور هيكل -رحمـه الله- بخواطره أثنـاء زياراته، وينقل لنا مشـاعره حتـى لكأننا نرى هذه المشـاهد معه رأي العين. وأجمل مـا في هذا المنهج طريقته في المقارنة بين الماضي والحاضر ورسـم صورة لآمال المسـتقبل. ولا غرو، فهو أديب قبل أن يكون كاتبًا، وكتاباته الإسلامية ما هي إلا تسجيل لرجع الصدى لهـذه الخواطـر والذكريات أكثـر منها كتابـات منهجية. فهي فـورة وجدان مفعم بالإيمان بعد أن ألقى إطلالة على بحر الإسلام العميق الغور البعيد الشطآن، وثورة سياسي أدرك البون الشاسع بين ماضي الإسلام العريق وحاضر المسلمين الهزيل، فأخذ ينقب عن أسـباب الهزال في الثانية، فسالت المداد على القرطاس متأثرة بهذه الفـورة ومعبرة عن هذه الثورة ليحرك المسـلمين الذين قعد بهم فتور الهمة وخور العزيمة، فاسـتكانوا للظلم واسـتراحوا للذل، فتداعـت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، لأنهم صاروا كغثاء السيل لا قيمة لهم ولا وزن، بعد أن سيطر عليهـم حـب الدنيا فتعلقوا بها ونسـوا الآخرة وبخلوا أن يقدمـوا من أجلها بذلًا أو تضحيـة، مع أن القرآن يصك أسـماعهم صباح مسـاء بقـول الحق جل جلاله:

"ومـا هـذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعـب وإن الدار الآخرة لهـي الحيوان لو كانوا يعلمون".[1]

(١) الآية رقم ٦٤ من سورة العنكبوت.

الفصل الثاني

منهج الدكتور هيكل في الكتابة

عن مدينة

رسول الله ﷺ

و ما يتعلق بها

الفصل الثاني

منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن مدينة رسول الله ﷺ و ما يتعلق بها

بعد أن قضى الدكتور هيكل زيارته للبلد الأمين مكة المكرمة، وسار في آثار النبي ﷺ الموجودة بها، مستحضرًا العبرة من سيرته العطرة، أكمل المسير في أثر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، حيث عاصمة دولة الرسول ودار هجرته وموطن جهاده لنشر وتأمين دعوة الإسلام ومثوى جسده الطاهر صلوات ربي وسلامه عليه.

وفي كتابته عن المدينة، اتبع منهجًا تتضح سماته في النقاط الآتية:

أولًا: المقارنة بين مكة مدينة السلام والمدينة المنورة مدينة الجهاد.

ثانيًا: السير في آثار الرسول ﷺ في طريق المدينة وفي المدينة وظاهرها، مستلهمًا العبرة من مواقف النبي ﷺ.

ثالثًا: دراسة أحوال المدينة الحديثة.

وسأتناول هذه النقاط بشيء من التفصيل.

أولًا: المقارنة بين مكة و المدينة:

يوضح الدكتور هيكل أن مكة هي مدينة السلام الكامل والشامل. ففيها الحرم الآمن الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، يتجاوز الأمن فيها الإنسان إلى الحيوان والنبات والطير بل والجماد، فلا تلتقط لقطتها إلا لمعرف بها، وفيها هيكل التوحيد الخالص ورمزه الخالد الكعبة المشرفة، أول بيت وضع للناس.

ولأنها كذلك، فهي جديرة بأن تكون مقر عصبة أمم إسلامية تجمع أقطار المسلمين في شتى بقاع الأرض إن أرادوا تكوين عصبة تجمعهم، كما اتخذ الأوروبيون من جنيف بسويسرا المحايدة مقرًا لعصبة الأمم الأوروبية.

بل إن مكة بما لها من مكانة وما تتمتع به من أمن وأمان، لجديرة بأن تكون مقرًا لعصبة سلام عالمي إن أراد العالم أن يصنع عصبة لتحقيق السلام. وذلك لأن السلام بمكة المكرمة نابع من منطلق إيماني رباني بخلاف غيرها من الأماكن، فالسلام فيها نابع من منطلقات مؤقتة كالخوف من التخريب والتدمير أو مقتضيات سياسية مؤقتة. ولهذا تخفق الإنسانية في تحقيق سلام عالمي.

فلقد بذلت الدول المشتركة في عصبة الأمم جهودًا كبيرة في سبيل السلام، فقررت وسائله في عهد العصبة وفي ميثاق التحكيم وفي محكمة العدل الدولية، وحاولت أن تجعل من التفاهم المشترك بينها جميعًا حينًا ومن التفاهم الثنائي حينًا آخر سببًا للاحتفاظ بالسلام. ومع ذلك ذهبت جهودها هدرًا وباءت من مقاصدها السلمية بالخيبة، وارتدت إلى سياسة التسلح والسلام المسلح وإلى النظرية القائلة بأن الاستعداد للحرب يمنع الحرب.[1]

وطبيعي أن تخفق سياسات السلام إذا قامت على أسس واهية، ولن يستقر السلام بين بني البشر إلا يوم تجمع الإنسانية على هذا السلام مؤمنة بأنه من أمر الله، ويوم تؤوب به إلى الله من خطاياها. يومئذ تتم كلمة الله، ويكون الدين كله

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٣٩٤.

لله، ويومئذ تكون مكة رمز التوحيد ومقام هيكله ومثابة للناس قاطبة من أمم الأرض جميعًا، فتكون بذلك مقر السلام المطمئن طمأنينة الإيمان، ومقر عصبة الأمم الإنسانية كلها.(١)

في هذا البلد الأمين مكة المكرمة نزل الوحي على رسول الله ﷺ، فدعا إلى الله بالسلام، وتحمل هو ومن آمن معه العذاب والإيذاء، فلم يقابل السيئة بالسيئة ولا العدوان بمثله، إذ كان الوحي ينزل عليه آمرًا إياه بالصبر الجميل ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا﴾.(٢) ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.(٣) ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾.(٤)

فلما ضاقت مكة ذرعًا بدعوة الإسلام، هاجر رسول الله ﷺ إلى يثرب. ولما أذن الله بفتح مكة، فتحت سلمًا بلا قتال. وفي رحاب هذا البلد الآمن أكمل الله للمسلمين دينهم وأتم عليهم النعمة أثناء تأدية النبي لحجة الوداع.

وبهذا نرى أن الدعوة للإسلام في المرحلة المكية كانت عن طريق الجهاد السلمي في بلد السلام حتى الهجرة. فلما لم يجب أهل مكة داعي السلام وأعرض عنه رجال القبائل الذين يجيئون حاجين بيتها، هاجر النبي ﷺ إلى يثرب جهادًا في سبيل الله.(٥)

وهذه الحقبة من حياة الدعوة إلى الله يذكرها أعداء الله من المستشرقين، مشيدين بجهاد النبي السلمي خلالها، لا عن إيمان واقتناع بصدق هذا الرسول، وإنما يفعلون ذلك مقدمة للطعن والغمز بجهاده ﷺ في المدينة بعد الهجرة. فيتظاهرون

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص٣٩٥.
(٢) الآية رقم ٥ من سورة المعارج.
(٣) الآية رقم ١٠ من سورة المزمل.
(٤) الآية رقم ٣٥ من سورة الأحقاف.
(٥) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٢٧

بتقدير السمو الذي وصل إليه جهاده بمكة، فيشيدون به ويرونه دعوة خالصة إلى عقيدة أيقن محمد ﷺ أنها الحق وآمن فيما بينه وبين نفسه بأن الله أمره أن يبلغها للناس. وهي لذلك دعوة جديرة بالاحترام، والجهاد في سبيلها جهاد مبرأ من كل غاية ذاتية، وفيه لذلك من مظهر السمو الروحي ما هو جدير بالإكبار. ولذلك سما بمحمد ﷺ في نظرهم إلى مرتبة العظماء.(١)

فهل العظمة في الشخص الواحد وفي المجال الواحد ممكن أن تتجزأ؟ وهل من المعقول أن يكون الشخص الواحد صادقًا وكاذبًا فيكون صادقًا في مرحلة من مراحل دعوته وكاذبًا مدعيًا في مرحلة أخرى؟ وهل من الصواب والحق أن يكون الرسول جديرًا بالإكبار والتعظيم في مرحلة من حياته ودعوته ثم يكون غير جدير بهما في مرحلة أخرى؟ إنه التشكيك في الرسالة والرسول ﷺ. وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾.(٢)

وفي مجال المقارنة بين مكة والمدينة تظهر الحقيقة واضحة، وهي أنه إذا كانت مكة هي مدينة السلام، فإن يثرب هي مدينة الجهاد في سبيل هذا السلام القائم على ركائز الإيمان، ولذلك فهو سلام دائم وكامل. "فهو سلام الروح للفرد من طريق الرضا عن علم، وللجماعة المسلمة من طريق التحاب في الله وبنور الله، وللإنسانية كلها من طريق الأخوة التي تدعو المرء ليحب لأخيه ما يحب لنفسه. وذلك هو الكمال الذي يدعو الإسلام إليه وإلى الجهاد في سبيله".(٣)

فالكمال الإنساني الذي يدعو إليه الإسلام ويجاهد من أجله يتمثل في الإيمان بالله عن علم، ثم البلوغ عن طريق هذا العلم إلى معرفة سنة الله في الكون، وبهذه

(١) المرجع السابق ص ٤٢٨

(٢) الآية رقم ١٠٠ من سورة آل عمران.

(٣) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٢٧-٤٢٨

المعرفة يثبت الإيمان وتكون الحياة سائرة في طريقها المرسوم الذي يحقق السعادة للإنسان في الدنيا ويؤدي إلى الفلاح في الآخرة.

ولما كان جهاد الرسول ﷺ في المدينة هو الأساس الذي جعل من السلام حقيقة واقعة بعد أن كان مجرد أمل سام تتطلع الأرواح إليه في المرحلة المكية، فقد كان هذا الجهاد المدني موضع الانتقاد من أعداء الإسلام من المستشرقين. يرون فيه جهادًا دفع إليه حرص على الانتقام وحب للقيادة والملك لدى الرسول ﷺ، ثم يكرون بعد ذلك على الجهاد النبوي خلال العهد المكي الذي سبق وأن رفع محمدًا ﷺ في نظرهم إلى مرتبة العظماء لينفوا عنه ما سبق أن أثبتوه. يدعون أن جهاد الرسول في المدينة جهاد في سبيل السلطان دفع إليه الحرص على الانتقام من قريش لأنها أخرجته ومن تبعه من ديارهم، وأغرى الظفر فيه على الاستئثار بالقيادة والملك، وقد كان محمد ﷺ يعف عنه ويتسامى عليه أيام مقامه بمكة. لكن فوزه في هذا الجهاد المدني قد ألقى على غايته من دعوته المكية ألوانًا من الشبه، ذهبت بالكثير من جلالها وجمالها، وهون من مبلغ الإكبار لجهاده الشاق الطويل في سبيلها.(١)

وهكذا ينفون ما أثبتوه ويهدمون ما بنوه حقدًا على خاتم النبيين وآخر المرسلين ﷺ.

يتصدى الدكتور هيكل -رحمه الله- لهذه الفرية التي يتشدق بها الحاقدون على الإسلام ونبيه وتاريخه من المستشرقين الذين يوازنون بين الجهاد المكي والجهاد المدني ليطيحوا بهما جميعًا. يقول: "ربما خدعت هذه الموازنة من تسحرهم الحجة المنمقة عن تنطس الحقيقة وتصرفهم عن الإحاطة بها من كل نواحيها، وهي في الحق موازنة خادعة ساحرة".(٢) ثم يبين الحق قائلاً: "والحقيقة التي يلمسها من أخلص للتاريخ ولله وجهه أن غاية النبي العربي ﷺ من جهاديه (المكي والمدني) كانت واحدة، فكان بمكة يجاهد للدعوة، وكان بالمدينة يجاهد لحمايتها والدفاع

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٢٩.

(٢) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٢٩.

عنهـا، ولم يكن لـه وراء هذا الجهاد بكلتا المدينتين من غاية إلا أن يبلغ رسـالة ربه للناس كاملة".[١]

ثانيًا: السير في آثار الرسول ﷺ:

١- في طريق المدينة:

وفي هـذا الطريـق كثير من الذكريات لرسـول الله ﷺ، فكثيرًا ما سـار فيه منذ طفولتـه وحتـى حجـة وداعه ﷺ. فقد سـلكها طفلًا مـع أمه حين رافقهـا لزيارة أخواله من بني النجار لما عزمت على زيارة قبر زوجها عبد الله في يثرب، كما سلكه يافعًا مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، وسلكه شابًا في تجارة لخديجة، وسلكه مهاجرًا، وسلكه مجاهدًا وفاتحًا، وسلكه حاجًا ومعتمرًا.

حين سار الدكتور هيكل في هذا الطريق بين مكة والمدينة، تداعت إليه ذكريات الرسول في هذا الطريق فكانت كثيرة وعظيمة. يعجب حين يسير المسلمون حيث سـار الرسـول ﷺ ثـم لا يتذكرون هـذه الذكريـات النبوية مـع أن الله علمهم أن الذكرى تنفع المؤمنين.

أوليس هذا نسـيانًا يجب أن نتنزه عنه إكبارًا لذكرى الرسـول الخالدة والتماسًـا لموضـع الأسـوة والعبرة من سـيرته وحياتـه ﷺ؟ بل إنـه ليتطلع إلى اليـوم الذي يسـتطيع فيه العلم أن يحل شـفرة الزمان كما اسـتطاع أن يحل شفرة المكان لنعايش هـذه الذكريات كأننا نراها حين حدوثها. يقـول الدكتور هيكل: "لو أن علم هذا العصر الذي سـخر لنا قوى الطبيعة اسـتطاع أن يحلل ما ينطوي عليه الماضي وأن ينقل إلينا ما نشـاء من ذكرياته على موج الزمن كما ينقل إلينا الأصوات التي نشـاء مـن أقـصى الأرض على موج الأثـير، إذن لرأينا في هذا الطريق مـا تهتز له القلوب وما تطير له الأفئدة تقديسًا وإعجابًا".

(١) المرجع السابق ص ٤١٧.

الـذي جعـل الدكتور هيكل يتمنـى هذه الأمنيـة أنه كان مـن المؤمنين بإمكان الاتصـال بأرواح من سـبقونا عن طريـق التنويم المغناطيـسي أو تحضير الأرواح، ولكن مرور الزمن لم يكن في صف هذه الفكرة فانحسرت الموجة التي كانت عاتية إبان حياته، رحمه الله.

ومن الذكريات التي يوحيها طريق المدينة ويقف أمامها الدكتور هيكل: أسفار النبـي عبر هذا الطريق مع قوافل التجارة إلى الشـام. يصفه لنـا أثناء رحلاته تلك حتى في صباه بأنه ينصت قلما يتكلم، ويقلب ما يسمع على أوتار فؤاده، ليرى مبلغ اتساقه مع ما يرى. وتبلغ القافلة حدود فلسطين، فيرى فيها قومًا غير الذين ألفهم في البادية؛ فيرى قومًا عرفوا الحضر وصناعته والاسـتقرار ونظمه. يتحدثون عن رومية وعن بزنطية وعن أديانها ورسلها، ويذكرون اليونان والرومان وحكمتها وتشريعهـا، ويذكرون موسـى وعيسـى والنبيين مـن قبل. وليس يشـغله من أمر التجارة التي جاء قومه بها ما يصرفه عن التفكير فيما يرى ويسمع ومن استذكار.

ويعـود في الخامسـة والعشرين إلى مثل هـذه الرحلة في تجارة خديجـة مع قافلة الشـام، وتربح تجارته ويتزوج خديجة. ولكن رحلة الصيف إلى الشـام لم تسـتهوه ليعود إليها مرة أخرى. لقد عرف أنباء الشام واتصل بأهلها وفكر فيما وقف عليه من ذلك كله.[1]

الدكتـور هيكل في خواطره هذه يكرر ما سـبق أن ذكـره في كتابه (حياة محمد) مـن أثر لهـذه الرحلات على محمد ﷺ من الناحية الفكريـة، وهو غير محق في هذا. إذ كيـف لصبـي لم يتجاوز الثانيـة عشرة من عمره أن يكون على هذا المسـتوى من الفكر حتى إنه ليفكر في كل ما يرى ويسأل ويختزن المعلومات بل ويستذكرها؟ لا في فرع واحد من فروع العلم ولكن في الديانات والتاريخ والحكمة، أي الفلسـفة والتشريع. إن هذا لشيء عجيب.

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤١٨.

لعلـه تأثر في خواطـره تلك بمزاعم المسـتشرقين الذين يزعمـون أن محمدًا قد اسـتوحى ما جاء به مـن الديانة اليهودية والنصرانية حيـث تعلمه على يد الرهبان والأحبار إبان رحلاته إلى الشام. بل إنهم يدعون أنه اقتبس كثيرًا من نظم الشريعة من اليهودية بعد هجرته إلى يثرب ومجاورته لليهود واطلاعه على شريعتهم.

إذا كان الأمـر كذلـك، فما كان يجـوز للدكتور هيكل أن يقـف هذا الموقف من ذكريات الرسـول أثناء أسفاره إلى الشام، لأنه بهذا المنحى الخطير يبدو وكأنه يؤيد هذه المزاعم.

وتابـع الدكتـور هيكل ذكريـات النبي إبان أسـفاره عبر هذا الطريـق، فتذكره مهاجرًا وتذكره حين عاد إلى مكة قاصدًا لعمرة عام الحديبية، ثم عودته مرة أخرى لعمـرة القضـاء، ويتذكـره عائـدًا إلى مكة فاتحًا منتـصرًا وطهر بيتها مـن الأوثان. ويتذكـر الدكتـور هيكل النبي ﷺ حين سـار في هذا الطريق قاصـدًا البيت الحرام لأداء فريضـة الحـج، فكانـت حجة الـوداع. ومن خـلال هذه الذكريات ترتسـم صورة من حياة النبي ﷺ أمام ذهن وقلب الدكتور هيكل فيصفها قائلًا:

"إنها الحياة الإنسـانية بلغت غاية السمو من إنسانيتها ثم سمت فوق الإنسانية إلى حيث رفعتها مراتب النبوة والرسالة، وبقيت مثلًا تحاول الأجيال أن تجعل منه أسوتها، وهيهات هيهات أن تبلغ من ذلك إلا يسيرًا".[١]

ويعلق مرافق الدكتور هيكل حين سـماعه لحديـث الذكريات قائلًا: "ما أعظم العـبرة وأبلغ الموعظة فيما تذكر، ولو أن المسـلمين الذين يسـيرون كل عام في هذا الطريـق ذكـروا من ذلك بعـض ما ذكرت لازدادت نفوسـهم بالحج طهـرًا، وإنه في الحـق لطريـق لو حدثت رمالـه وحدثت هضابه بما شـهدت لأنصت العالم كله بأرضه وبحاره لأروع ما شهد على التاريخ من جلال الحق وانتصاره".[٢]

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٢٠.

(٢) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٢٢٠.

ثالثًا: في رحاب آثار الرسول ﷺ في المدينة:

في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم:

يصل الدكتور هيكل إلى مدينة رسول الله ﷺ ليسير حيث سار، يستلهم العبرة والأسوة من سيرة الرسول ﷺ. وأول مكان تهفو إليه النفوس وتطير إليه الأفئدة هو المسجد النبوي حيث الروضة الشريفة والحجرة النبوية. الدكتور هيكل في كتابته عن المسجد النبوي حرص على استقصاء الأدوار التي مرت بها عمارته وزخرفته لأنها في نظره مقياس للتطور الذي حدث في العمارة الإسلامية والتفكير الإسلامي. يعبر عن هذا المنهج قائلًا: "حرصنا على استقصاء الأدوار التي مرت بها عمارة المسجد النبوي لأنها تصور التطور الذي حدث في العمارة الإسلامية والتفكير الإسلامي، وهي أدق تصويرًا لهذا التطور لأن المسلمين لم يبذلوا من العناية ما بذلوا لمسجد المدينة، ولم يجعلوا للمسجد الحرام بمكة إلا بعض هذه العناية".[1]

ثم يستعرض هذه الأدوار ودلالاتها على الفكر الإسلامي كالآتي:

الدور الأول: حين بناه الرسول ﷺ:

في هذا الدور، كانت فكرة العمارة نابعة من الحاجة أكثر من المتانة أو الزخرف. المسجد في الإسلام هو مكان نظيف وطاهر يجمع بين النظافة والتقشف، فهو يجمع إلى الطهر الرغبة عن زخرف الحياة الدنيا الزائل وغرورها الباطل. ولهذا كان بناؤه بسيطًا، بالتالي فهو يجسد فكرة الدين الإسلامي كما دعا إليه الرسول ﷺ الذي هو قوة على الحياة وزهد فيها واستحضار دائم للحياة الآخرة. ومع هذا أوجب على المسلم أن يسعى لاكتساب رزقه حتى لا ينسى نصيبه من الدنيا.

بساطة بناء المسجد النبوي في دوره الأول تتمثل في أن جداره كان من الطوب اللبن، وسقفه من الجريد، وعمده من جذوع النخل، وفرشه الحصباء. لم يكن فيه

(١) المرجع السابق ص ٤٦٩.

وقاية من قسوة الجو أو انهمار المطر.

وعندما أراد عمر توسعة المسجد، لم يزد في عمارته وإن زاد في مساحته، وألحق به مكانًا يدعى البطيحاء، يجلس فيه من أراد أن يلغط أو يرفع صوتًا أو ينشد شعرًا حفاظًا على حرمة المسجد وصيانة له.

الدور الثاني: في عهد عثمان بن عفان ﷺ :

فعند توسعته في عهد عثمان ﷺ ، بنى جدرانه من الحجارة، وبذلك تطورت فكرة العمارة إلى المتانة والبقاء. وظل المسجد على هذه العمارة حتى عهد الوليد بن عبد الملك.

الدور الثالث: عمارته في عهد الوليد بن عبد الملك:

وكان ذلك في السنة الثامنة والثمانين من الهجرة حين أراد الوليد أن يزيد في مساحته بدافع سياسي وأن يجدد في عمارته بدافع فكري.

أما الدافع السياسي في زيادة مساحة المسجد، فقد أراد الوليد أن يدخل فيه بيوت أزواج النبي حتى يبعد من بقي من آل بيت النبوة عن هذا المكان، ليضعف من سلطانهم على الناس ويخفض من تعاطف الناس معهم، إذ كانوا ينازعون بني أمية السلطان والحكم.

أما الدافع الفكري وراء تجديد العمارة، فهو النزوع إلى الفن الجميل في العمارة الذي مداره رضا النفس من طريق الحس والسمو بها في درجات هذا الرضا إلى حسن المتاع بالحياة، وبذلك تطورت الفكرة من البساطة والزهد إلى التعقيد والزخرف.

وحين أراد الوليد القيام بعمارته، أرسل إلى ملك الروم وطلب إليه أن يمده بمواد البناء والعمال المهرة في البناء والتشييد والزخرف. فبعث ملك الروم بأحمال من الفسيفساء وعمال من الروم ومن القبط وبأحمال من سلاسل القناديل وبقدر كبير من الذهب.

هـدم المسـجد وأعيد بناؤه مـن جديد بعد أن أدخل فيه حجـرات أزواج النبي ﷺ، وبنى له أربع مآذن، وفرشـت أرضه بالرخام، وزينت جدرانه بالفسيفسـاء، وكُـسِيَ سـقفه بالذهب، وجعلت أسـاطينه مـن المرمر. بالغ عمر بـن عبد العزيز، عامـل الوليـد على المدينة حينئذ، في تزيين المسـجد وتجميله وجعـل معظم اهتمامه بسقف المقصورة النبوية، فكان بديعًا في الفن، استوحاه المسلمون مما رأوا في الشام وعاونهم العمال من الرومان والقبط على إتقانه.

يـرى الدكتـور هيكل في هذا التطور في عمارة المسـجد النبوي تطـورًا في الفكر الإسـلامي، ويدل على هذا التطور الفكري رد أبان بن عثمان على الوليد حين قال لـه: "أين بناؤنا من بنائكم؟" فقال له أبان: "إننا بنيناه بناء المسـاجد، وبنيتموه بناء الكنائس".

يقـول الدكتور هيكل معلقًا على عمارة المسـجد النبوي في عهـد الوليد بن عبد الملك: "وإنما كان هذا التطور مظهرًا لتأثر المسلمين بالفكر الكنسي الذي أحاط بهم في الشام، والذي تسرع النفس الإنسانية إلى مثله حين لا تجد سندًا من الإيمان بالله يعصمها من الضعف لسـلطان الطبيعة. فالنفس الإنسانية في سذاجتها محتاجة إلى مظاهر قريبة منها يدركها الحس، وترى فيها صورة الكون والحياة مجتمعين، وهي لا تسـتطيع السـمو إلى الحقيقة المجردة التي تمثل هذا المعنى، ولا تسـتطيع امتثالها في كل صفائها ما لم تكن لها في ذلك أسـوة، كما كان للمسـلمين الأولين في رسـول الله ﷺ أسـوة، أو تبلـغ من المعرفة التي تؤهلها للاتصـال بالكون حظًا عظيمًا".[1]

ثـم تتبع الدكتور هيكل الأدوار التي مرت بها عمارة المسـجد النبوي ودلالاتها عـلى الأدوار التـي مر بها الفكر الإسـلامي، ورصـد أثر الخصومـات والنزاعات السياسـية والتطـور في الفكـر السـياسي لدى المسـلمين على تعديل رقعة المسـجد النبوي وعمارته. حدد أبرزها في النقاط الآتية:

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٦٢.

١- أثر الخصومة السياسية بين بني هاشم وبني أمية في تعديل رقعة المسجد.

٢- أثر التحول الفكري على المبالغة في التشييد والزخرفة وإقامة القباب وغيرها من مظاهر العمارة، وذلك حين ضعفت الروح الإسلامية القائمة على الصلة المباشرة بين المرء وخالقه على أساس من الإيمان الذاتي وتحاب المؤمنين فيما بينهم حبًا يصل إلى درجة التضحية والإيثار.

٣- أثر الحكام المستبدين الذين عملوا على إشباع الجانب الروحي لدى جماهير المسلمين عن طريق الإغراق في هذه المظاهر، وذلك لصرف المسلمين عن التفكير في لب الإسلام وروحه القائم على المساواة والحرية والإخاء بين المسلمين جميعًا، والحكام هم خدام الرعية ولا يستأثرون دونهم بمزايا يجلبها الجاه والسلطان إليهم.

ثم يعرج الدكتور هيكل على قضية ثارت إزاء هذا التطور في العمارة بين مؤيد ومعارض. فريق يرى ألا بأس بنظام العمارة الجديد المقتبس من الآثار الموجودة بالممالك الإسلامية، وفريق آخر يرى وجوب التمسك بالفكرة الإسلامية القائمة على البساطة والزهد اتباعًا لما فعل رسول الله ﷺ. ثم يوضح نتيجة هذا الخلاف فيقول: "ولقد كان النصر في القرون الخمسة الهجرية الأخيرة حليف الذين يقولون بإنشاء القباب تبركًا والتماسًا للمثوبة، لأن هذا الرأي أدنى إلى إدراك الجمهور، ولعل النصر يظل حليف هذا الرأي لاعتبار آخر، ذلك أن العمارة العربية بلغت من دقة الفن وبراعته في إقامة هذه القباب مبلغًا يدعو حماة الفن الجميل إلى نصرها من غير نظر إلى اعتبار المثوبة والتبرك".[1]

حي الروضة والمسجد النبوي إلى النفس الإسلامية في عهدها الحاضر:

يرصد الدكتور هيكل تصرفات المسلمين التي تعكس ما يبعثه المسجد والروضة إلى النفس الإسلامية في عصرنا الحاضر من أثر خشوعها وتعبدها. ينقل لنا صورة هؤلاء الجالسين إلى جوار المحراب النبوي ملصقين أنفسهم به مخافة أن يزحزحوا

(١) في منزل الوحى د/ هيكل ص ٤٦٧.

عـن مكانهم، وصورة الذيـن ينفحون خادم الحجرة النبويـة ليختصهم بمكان إلى جـوار منبر الرسـول ﷺ، وصورة هؤلاء الجالسـين في الصفـوف الأولى ممن يبدو عليهم أثر النعمة والوجاهة.

كل أولئـك في تصرفاتهم هذه إنما يعكسـون الحالة النفسـية للروح الإسـلامية في عصرنـا الحـاضر. فالروضة الشريفة وما تحاط به اليوم من تقديس وما تبعثه إلى النفس من أثر في خشـوعها وتهجدها إنما هي صورة النفس الإسـلامية في طورها الديني الحاضر.

"ولو أن النفس الإسلامية كانت اليوم كما كانت في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الأولـين صفاء وطهارة وقوة، لما تأثرت في خشـوعها وتهجدهـا وتوجهها إلى الله بمـكان وإن بلغت الذكريات التي يثيرها هذا المكان غاية الطهر والسـمو. ولكان الاجتـماع بمسـجد رسـول الله ﷺ أدنـى أن يبعث فيها مـن معاني المحبـة والقوة والجهاد أسـوة بصاحب هـذا المكان وأصحابه الأولين، مـا يزيدها على الحياة قوة وما يجنبها أن تعبد إلا الله وحده لا شريك له".[1]

الدكتور هيكل أمام الحجرة النبوية:

وقـف الدكتـور هيكل أمام الحجـرة النبوية وقفة المتأمل، يسـترجع الذكريات التـي تثيرهـا أيام كانت مأوى النبـي ﷺ وزوجه أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها. يومها كانت البسـاطة كل البسـاطة والزهـد كل الزهد، ومع ذلك كانـت موئل الرحمة. يسـتعيد ذكرياتها حين لفظ النبي ﷺ أنفاسـه الأخيرة فيها، ورأسـه الشريف على حجـر عائشـة بين سـحرها ونحرهـا رضي الله عنها، ويوم دفن بها الرسـول وسـوى عليه التراب. يسترجع ذكرياتها أيام دفن بها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما.

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٤٨.

يومها كان حالها يحدث للناظرين إليها بحياة الرسول وصاحبيه وجهادهما معه في سبيل الدعوة إلى الله، وجهادهما من بعده لتثبيت دعائم الدعوة ونشرها في العالمين. كان مرآها يصور أمام الذهن صورة من حياة النبي وصاحبيه من بعده، من بساطة في العيش وزهد في الحياة الدنيا، مع ما بسط الله سبحانه تعالى عليهم من فضله ووسع ما آتاهم من متاع.

بعد استرجاع هذه الذكريات، يتساءل الدكتور هيكل متعجبًا: "أليس عجبًا أن يكون ذلك شأنهم وأن تكون هذه سيرتهم، ثم تكون هذه الحجرة النبوية وهي ما هي اليوم جمالًا وتألقًا في النقش والزخرف والعمارة، حتى لتزري بأكثر الحجر في أبهى القصور فخامة وروعة، وحتى لكانت تزري إلى عصر قريب بكل قصر ثراء ونعمة لما اجتمع فيها من نفائس؟"

ذلك أن الملوك والأمراء والسلاطين والأثرياء في عصور الانحطاط الفكري والخواء الديني جعلوا كل همهم في الزينة والزخرف والهبات والهدايا للحجرة النبوية الشريفة، وجعلوا من ذلك كل حظهم من حب رسول الله ﷺ وغاية تقربهم إلى الله عز وجل.

وقد وقع خلاف بين علماء المسلمين في جواز تحلية الحجرة النبوية بالذهب والجواهر النفيسة، بين مجوز وغير مجوز، وقد كان لهذا الخلاف أثره في الهبات ونوعها على مر العصور. ومع هذا، فقد تجمع كثير من هذه الهبات للحجرة وتعرضت لحوادث السلب والنهب والسرقة.

ويعلق الدكتور هيكل على هذا قائلًا: "ليس البهرج الذي يخدع الناس به هو العبرة التي تلتمس في هذه الحجرة النبوية، وما سلب من جواهرها ولآلئها إنما سلب يوم أراد الله لدينه أن يعود فيملأ النفوس سموًا على كل زينة وبهارج. وإنما العبرة الكبرى التي تملأ النفوس رهبة وجلالًا ويخشع أمامها القلب مهابة وإكبارًا فتلك ما تحدث هذه الحجرة عنه من سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة

والسلام، ومن سيرة صاحبيه ووزيريه وخليفتيه أبي بكر وعمر. ومن وقف أمام الحجرة وشغل عن سيرة صاحب الرسالة وبلاغه إياها للناس وعن سيرة صاحبيه وجهادهما في سبيل الله ليظل لواء الإسلام العالم كله، وكان شغله عن ذلك بزخرف البناء وما كان فيها من تحف وجواهر، فقد فاتته العبرة ولم يبلغ من زيارة قبر الرسول ما يجب أن يجعله كل مسلم غايته من هذه الزيارة".[١]

يرى الدكتور هيكل أن هذه الهبات للحجرة النبوية أوضح شاهد على تطور التفكير الإسلامي إلى ناحية الأثرة وحب الذات، لأن الذي يقدمها إنما يبغي من ورائها غفران ذنوبه والزلفى إلى الله، دون أن يفكر في إخوانه ومن غير أن يقدم لهم معروفًا أو يسدي إليهم إحسانًا هم في أمس الحاجة إليه. يحسب أنه بإهدائه قناديل الذهب أو نفيس الجوهر إلى الحجرة النبوية يفتدي نفسه من عذاب الله ويجزى جنة عرضها السموات والأرض.

لذلك يقترح الدكتور هيكل ويتمنى لو أنفقت هذه النفائس والجواهر المكدسة في الحجرة النبوية في سبيل الله تيسيرًا للحج أو إعلاءً لكلمة الله، لكان أجدى وأنفع، فما يسر رسول الله ﷺ أن يكون قبره متحفًا للجواهر وهو الذي أراد أن ينفق كنز الكعبة في سبيل الله.

حين يستعيد الدكتور هيكل هذه الذكريات، يرى الفرق واضحًا بين حال المسلمين الأولين وحال المسلمين المعاصرين. بعد المقارنة بين الحالين، ينحاز بحق لرأي المسلمين الأولين: "فلو أن الحجرة النبوية بقيت كما كانت يوم دفن بها رسول الله ﷺ، لكان منظرها أقوى إلهامًا من منظر الحجرة المزخرفة البديعة النقش الجميلة العمد الثمينة الأثاث، والتي تبعث إلى النفس من الروعة والإعجاب أكثر مما تدعو إليه من الأسوة والعبرة".[٢]

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٦٣.

(٢) المرجع السابق ص ٥٥٠.

ومن الآثار النبوية بالمدينة المنورة بعد المسجد النبوي، كثير من المساجد والآبار والعيون والدور والجبال والأودية، وكلها تتصل بجهاد الرسول ﷺ في سبيل الله عز وجل.

والآثـار بطبيعتها تصور الجليل من أحـداث العصر الذي حدثت فيه، وتتصل بمن وجه العالم في ذلك العصر ثم كان له بعد ذلك الأثر الباقي على الزمان. كذلك كانت آثار النبي ﷺ بالمدينة المنورة، وهي كلها البساطة والجلال، ولا أثر فيها من عظمة العمارة أو بهرج الزخرف.

أعرض بإيجاز لبعض هذه الآثار التي زارها واستوحى العبرة منها الدكتور هيكل:

الدور التاريخية:

هـي دور كانت لأصحاب النبي ﷺ أو لبعض حكام المدينة في عصر بني أمية، وما بقي من هذه الدور لا يشـهد بما كانت عليه أيام أصحابها الذين تنسب إليهم، فقد أصابها التحول على مر الزمن، بل إن بعضها تهدم، ولا يجد الإنسـان من أثره شيئًا يدل عليه أو يذكر به. وأهم الدور التاريخية:

دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

هي الدار التي نزل فيها رسـول الله ﷺ أول مـا بلغ المدينة مهاجرًا. يقوم اليوم عليها مسـجد ذو قباب ومحراب، لا شـبه بينه وبين الدار التي نزل فيها رسول الله. مع ذلك يثير هذا المكان في النفس صورة ما حدث في اليوم الأول لنزول الرسول دار أبي أيـوب، وما حدث في الأشـهر التي أعقبت هذا اليوم. شـهدت هذه الدار أثناء مقام النبي ﷺ بها من الأعمال العظيمة ما كان لها في الإسـلام وسياسـته الأثر الباقي على مر التاريخ، فقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، ووضع سياسة المعاهدة بينه وبين اليهود، وأقام في المدينة نظامًا جديدًا لم يكن مألوفًا من قبل أدى إلى قيام دولة الإسلام.

يقف الدكتور هيكل أمام سياسة الرسول التي رسمها إبان مقامه بدار أبي أيوب معلقًا: "وهذا نوع من التفكير السياسي كان جديدًا في حياة النبي ﷺ. فهو لم يرم حين مقامه بمكة إلى تنظيم سياسي أو أن يجعل التنظيم السياسي وسيلة إلى الدعوة للدين الذي أُلقي عليه تبليغه للناس. لكن ما لبث حين أقام بدار أبي أيوب واتصل بالمسلمين من أهل المدينة أن قدَّر ما بين العقيدة ونظام الحياة من صلة، وأن العبادات التي تدعو العقيدة إليها تتصل بنظام الحياة ويتصل بها هذا النظام أوثق اتصال. فالعقيدة أمر فردي من حيث اتصالها بالرأي وتكييفه، فإذا انتقل الأمر إلى مظهرها العام والعبادات المتصلة بها والفضائل التي يتحلى بها صاحبها أصبحت مسألة اجتماعية لا مفر من أن يتناولها التنظيم. وليس يقف تنظيمها عند فرائض العبادة من وضوء وصلاة وصوم وزكاة وحج، بل يتعدى الأمر هذه الفرائض إلى صلات الناس بعضهم ببعض".[1]

وهذا كلام يحتاج إلى تعليق:

لقد دأب المستشرقون على الطعن في سياسة رسول الله ﷺ بالمدينة، ويرون فيها خروجًا على سياسته في الدعوة إبان إقامته بمكة وتحولًا إلى استخدام القوة بعد أن واتته الظروف. كان الرسول في نظرهم يسير في سياسته وفقًا لمقتضيات الظروف، فهو يدعو بالحسنى طالما كان ضعيفًا، فإذا أتيحت له وسائل القوة لجأ إليها واستخدم البطش والعنف مع المخالفين، وكأنهم يريدون بذلك أن تظل الدعوة الإسلامية أسيرة الضعف، وأن يظل المؤمنون بها مجرد شرذمة خارجة على نظام المجتمع، وبذلك لا تقوم للإسلام قائمة.

وحيث إن الإسلام نظام حياة للفرد وللجماعة، فمن الواجب أن تتاح له فرصة التطبيق في واقع الحياة، وهذا يعني ضرورة قيام دولة للإسلام تحمي أفراده وتطبق شرائعه وترفع لواء الدعوة إليه.

---

(١) في منزل الوحي هيكل ص ٥٠١- ٥٠٢.

فـإذا كانـت المرحلـة المكية فـترة إعداد تهـدف إلى تكويـن لبنـات صالحة قوية صهرهـا التعذيب والأذى، وقوى عزيمتها إيـمان عميق وصبر جميل، فإن المرحلة المدنية تهدف إلى إقامة تنظيم سـياسي يجمع شـتات هذه اللبنات حتى تكون خلايا حية في بنيان جسد الدولة الفتية.

ولا يمكن أن نتصور أن هذه الحقيقة يمكن أن تغيب أو تخفى عن تفكير رسول الله ﷺ حين أمر أصحابه بالهجرة إلى يثرب وحين هاجر هو نفسه ﷺ. وعليه، فإن قـول الدكتـور هيكل عن رسـول الله ﷺ: "لكنه ما لبث حين أقـام بدار أبي أيوب واتصل بالمسـلمين من أهـل المدينة أن قدَّر ما بين العقيدة ونظـام الحياة من صلة" قـول لا يليـق أن يقال في حقه ﷺ، لأنه كأنه تأكيد لصحة رأي المسـتشرقين الذين يعيبون السياسة النبوية في المدينة ويرون فيها انتهازًا لفرص أكثر منها تمسكًا بمبدأ.

وبخصـوص الفهم القاصر لدور الدين في الحيـاة والذي يحصره في مجرد إقامة الشعائر وفصله عن توجيه الحياة، يرد الدكتور هيكل على أصحاب هذا الفكر بأن الدين في اتصاله بالحياة يصبح مسألة اجتماعية لا مفر من تنظيمه تنظيمًا شاملًا يتعدى فرائـض العبادة إلى صلات الناس بعضهم ببعض، وبذلك تخرج تعاليم الدين إلى حيز الوجود بدلًا من أن تظل وجدانات أو مشاعر روحية لا أثر لها في دنيا الناس.

دار عثمان بن عفان رضي الله عنه :

تقع هذه الدار إلى الشمال من دار أبي أيوب ويفصل بينهما زقاق الحبشة. توحي هـذه الـدار إلى نفس الدكتـور هيكل ذكريات المـرارة والحسرة إذ قتـل فيها عثمان رضي الله عنه، ورغم ما شـهدت هذه الدار من أحداث عظام كان لها الأثر الكبير في امتداد الفتـح الإسـلامي، إلا أن ذكريات الفتنـة وقتل الخليفة بها غشـت على غيرها من الذكريـات. وشـتان بين ما تذكرنا به دار أبي أيوب ومـا تذكرنا به دار عثمان، فبينما تبـين دار أبي أيوب أثر الإخاء ومـا يؤدي إليه من عزة وقوة ومنعة، تبين دار عثمان أثر التنازع والفرقة من قتل ودماء.

الأماكـن التاريخيـة: هناك بالمدينة كثـير من الأماكن التي لها ذكريات في سـيرة الرسول ﷺ، ذهب إليها الدكتور هيكل ووقف بها مستحضرًا عبق السيرة العطرة، ومتذكرًا ما توحي به هذه الأماكن من الأسوة والعبرة. ومن هذه الأماكن:

المناخة وميدان بدر والخندق:

المناخة:

وهـي مـا زالت فضاء فسيحة كـما كانت على عهد رسـول الله ﷺ. يسـترجع الدكتـور هيـكل حديـث التاريخ عنهـا، فقد كانـت أول أمرها سـوقًا لليهود بني قينقاع، سـوقًا للمدينة كلها، وقعت بها حادثة لامرأة مسـلمة على يد بعض اليهود الذيـن مـن دأبهم أن يسـخروا دائـمًا بالفضيلة تنفيرًا منهـا وتشـجيعًا للرذيلة على حسابها، فكان عاقبة هذا الحادث طرد بني قينقاع من ديارهم بالمدينة.

كما شهدت المناخة قدوم المسلمين إليها من شتى بقاع الجزيرة ملبين نداء داعي رسـول الله ﷺ لأداء فريضة الحج، فكانت حجة الوداع التي لها من الذكريات في الإسلام ما لا يُنسَى على مر الزمن.

تثـير المناخـة أفكار الدكتـور هيكل لتقويم مـا حدث على إثر إجـلاء يهود بني قينقاع عن المدينة، فيتسـاءل: "أيهما خير لحياة أمة من الأمم؟ أن تكون على عقيدة واحدة ودين واحد أم يترك فيها أمر العقيدة جانبًا فلا بأس بأن تتعدد فيها الأديان والمذاهـب؟ الجـواب: إن الناس في العصور كلها قـد حرصوا على أن تكون الأمة رأيًـا واحـدًا في دينها وعقيدتهـا كفالة لأمنها وسـلامتها، فحيثما تعـددت الأديان وتشـعبت المذاهـب كان ذلـك مبعث الثـورة والاضطراب".[1] ومـا ذاك إلا لأن الديـن أسـاس الحيـاة الاجتماعية، وأن وحـدة العقيدة هـي المظهـر الأول للحياة الاجتماعيـة السـليمة إذا قامت على أسـاس إدراك وفهم للدين بعيـدًا عن الجمود الذي يؤدي إلى الضلالة والجهالة.

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥١١.

ميدان بدر:

وهـو من الأماكن التي لها ذكرى في تاريخ الإسـلام، حيـث كان أول مواجهة مسـلحة بين قوة الإسلام وقوة الظلم والكفران، فأعز الله الإسلام وجنده وخذل الباطـل وحزبـه. وقد نزل القـرآن الكريم مسـجلًا هذه الموقعـة الفاصلة. قبل أن يصل الدكتور هيكل إلى ميدان بدر، حدثته نفسه متسائلًا: ترى أية صورة لذكرى بـدر أقامها أهل هـذه البلاد حيث وقعت؟ ولكنه فوجـئ بوجود زاوية متواضعة قيل إنها زاوية السنوسي أقيمت على مقربة من ميدان بدر ولا يحول بينها وبينه بناء، وإنما يفصل بينهما فضاء فسيح منبسط.

لقـد أثـار حال هذه الزاوية خواطر الدكتور هيكل على هؤلاء المسـلمين الذين يتصـورون أن ابتغاء الدار الآخرة لا يكون إلا بالانقطاع عن الدنيا وترك السـعي في مناكـب الأرض والاسـتغراق في العبـادة والنسـك. يرون في الفقـر تطهرًا من رجـس الحياة الدنيا، فيتمسـكون به ويدعون غيرهم إليه. مـع تقديره لهذا الرأي، يـرى أنه بعيـد عن روح الإسـلام كما يفهمه مـن القرآن الكريـم الذي يحض على السعي والضرب في الأرض للأكل من رزق الله بشرط ألا يلهيه ذلك عن ذكر الله وعبادته وطاعته والجهاد في سبيله وابتغاء الدار الآخرة.

كـما ثـارت حفيظتـه عـلى الوهابيـين والأشراف الذيـن اقتتلـوا في ميـدان بدر في العـصر الحديـث، لا لإعـلاء كلمة الله ومجاهـدة الباطل، ولكن مـن أجل الجاه والسـلطان في موقعة أطلقوا عليها اسـم معركة بدر، وكأنهـا كالتي حدثت بقيادة رسول الله ﷺ. وشتان ما بينهما.

وكعادتـه، يأسـف الدكتور هيكل لعـدم وجود أثر في هذا المـكان يليق بمكانة بدر وشـهدائها، ويقارن بين ما يفعله المسـلمون تجاه تاريخهم من إهمال وما يفعله غيرهم من عناية واهتمام. يرجع ذلك الإهمال لميدان بدر إلى الجهل الذي خيم على العالم الإسـلامي منذ عصور الانحلال، فأضاع المسـلمون تاريخهم ولم يبذلوا من

الجهد والعناية ما يليق بجلال أحداثه، وعلى رأسها معركة بدر.

يقف الدكتور هيكل مستحضرًا أحداث معركة بدر يوم الفرقان، حتى لكأنه يراها رأي عين، فيغمره من المهابة والجلال لهؤلاء الذين شاركوا فيها. يتمنى أن لو كان معهم فيفوز فوزًا عظيمًا. تعيد ذكرى شهداء بدر صورة مثالية من صور التضحية والفداء وافتداء الإيمان بالحياة، تبين هذه الصورة في جلاء أن الإيمان قوة لا تقهر لأنه يسمو بالحياة إلى المثل الأعلى.

الخندق:

ومن الأماكن التاريخية، الخندق الذي أمر الرسول ﷺ بحفره واشترك في ذلك العمل، فتم حفره حول المدينة بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه حين تآلبت الأحزاب وجمعوا جموعهم يريدون أن يفتضوا المدينة على المسلمين ليقضوا عليهم القضاء الأخير. ولكن الله خذلهم وبدد جمعهم وأرسل عليهم ريحًا وجنودًا لم يروها، فانهزموا وولوا الأدبار من غير حرب ولا نزال، وكفى الله المؤمنين القتال. لكن الدكتور هيكل يعتقد أن لا سبيل اليوم إلى تحديد مكان الخندق بدقة بعد أن درست معالمه واندثرت آثاره.

المساجد:

من الآثار النبوية في المدينة المساجد غير المسجد النبوي، ومنها مسجد الغمامة الذي أقيم في المكان الذي كان يصلي فيه الرسول ﷺ صلاة العيدين. فلم يكن فيه مسجد على عهد رسول الله، وإنما كان مكانًا خلاء حتى بني فيه مسجد في القرن الثاني الهجري. من هذه المساجد أيضًا مسجد السقيا، مسجد الفتح، مسجد الإجابة، مسجد قباء (أول بناء أقيم في الإسلام ليكون مسجدًا، وقد بني يومئذ من اللبن والجريد خلال الأيام الأربعة التي قضاها رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يدخل المدينة)، مسجد الجمعة، مسجد المشربة، مسجد القبلتين، وغيرها من المساجد التي أقيمت في المدينة وضواحيها تخليدًا لذكرى حادثة أو شخص كان له دور في تاريخ الإسلام.

القبور:

توجد في المدينة كثير من المقابر التي تضم رفات أناس كان لهم دور بارز في تاريخ الإسلام. على رأس هذه المقابر، قبر الرسول الكريم وصاحبيه في الحجرة النبوية. أمام قبر النبي وقف الدكتور هيكل وكله مهابة وإجلال لساكنه عليه الصلاة والسلام، شاهدًا له بالرسالة والبلاغ، وسلم على صاحبيه وخليفتيه من بعده أبي بكر وعمر اللذين أعز الله بهما الإسلام وفتح له بقيادتهما قلوب العباد والبلاد فقامت دولة الإسلام العظيمة.

ومن المقابر الأثرية في المدينة مقبرة بقيع الغرقد التي يثوى في ثراها رفات كثير من العظماء، وفيها مقابر أزواج النبي أمهات المؤمنين، وقبور أولاده، وقبور كثير من الصحابة وعلى رأسهم جماعة من البدريين ﷺ.

القبور في مقبرة البقيع مسواة بالأرض، يحيط بكل منها أحجار تعلمه. في رحاب البقيع وقف الدكتور هيكل، فتواردت عليه الخواطر ووقف مناجيًا نفسه: "أوَيموت الذين يسبقوننا إلى القبور؟ أم إنهم ينقلون من عالمنا هذا إلى العالم الآخر فتنحل أجسامهم إلى عناصرها الأولى وتبقى أرواحهم بين يدي بارئها يحاسبها على ما قدمت؟ وما قدم الذين قبلنا لا يزول بزوالهم، بل ينتقل إلينا ويصبح ميراثنا عنهم تتأثر به حياتنا حتى لكأنهم بيننا"[1]

وتذكر الدكتور هيكل ترداد النبي ﷺ إلى هذا المكان كلما مات صاحب من أصحابه يصلي عليه ويقف حتى يوارى جثمانه في التراب، أو كلما جاء لزيارة القبور والاستغفار لساكنيها والدعاء لهم. أمام قبور البقيع يتذكر في موقفه هذا يوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، فتعتريه هذه الهزة وهو يتذكر يوم موته وساعة دفنه حين بكى أبوه محمد ﷺ لا من جزع أو ضعف وإنما شفقة ورحمة وعاطفة أبوية سامية. هذه العاطفة هي التي تربط الأجيال وتجعلنا نكد ونكدح لا من أجل

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٢٠.

أنفسنا فقط بل من أجل الذين يأتون بعدنا، فتستمر الحياة وتتواصل الأجيال.

وأمام قبر عثمان بن عفان ﷺ ، يلاحظ الدكتور هيكل أمرًا عجبًا؛ إذ رأى قومًا يطيلون الوقوف عند قبور أهل البيت ويبكون، فإذا مروا بقبر عثمان استحثوا الخطى فلم يقفوا عنده. فلما سأل أصحابه عن ذلك قالوا له إنهم جماعة من الشيعة. فقال في نفسه: "أفتبقى الموجدة في نفوس الشيعة أكثر مما بقيت في نفوس بني العباس وهم أقرب الناس إلى علي وإلى الحسين نسبًا؟ أم أنها ليست الموجدة؟ ولكنها العقيدة التي يتوارثها الأجيال من غير تفكير في سببها ومنشئها، والتي تنشأ أول أمرها متأثرة بأهواء شعوبية أو سياسية أغلب الأحيان".[1]

وكم كنت أتمنى أن يكون الدكتور هيكل دائمًا من المنصفين للخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ الذي آثر أن يموت شهيدًا ولم يشأ أن يشعلها حربًا بين المسلمين. فضّل أن يقدم نفسه قربانًا وقى به كثيرًا من أرواح المسلمين ودمائهم، مستمسكًا بحق ثبت له بإجماع الأمة أن يكون خليفة لهم، فلا ينحل عنه بخروج شرذمة من شذاذ الآفاق على إجماع الأمة. بيّن بموقفه هذا حرصه على الحق وتمسكه به بل وتضحيته في سبيله. لو اتبع الحق أهواء مثل هذه الشرذمة لاضطربت الأمور وعمت الفوضى، ولما ثبت حاكم للمسلمين؛ إذ إن الواقع السياسي لا يخلو أبدًا من معارضين. فلو سير هؤلاء المعارضون سياسة الدولة فخلعوا خليفة وثبتوا آخر، ثم جاء غيرهم ليخلعوه ويثبتوا غيره، لضاعت هيبة الحكم، واضطربت الأمور وعمت الفوضى ديار الإسلام، فانحلت السلطة وضاعت الرابطة الاجتماعية. هذا ما دعا عثمان ﷺ إلى التمسك بموقعه، لا حبًا في السلطان وإنما حفاظًا على كيان الدولة، وضحى بنفسه لتأمين سلامة هذا الكيان.

لقد أثبتت حوادث التاريخ أن عثمان ﷺ كان على الحق، وأن قاتليه عليهم لعنة الله كانوا على الباطل، يدل على ذلك عدم استقرار الأمور بعد مقتله ﷺ. بل

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٢٥.

فتح باب فتنة كانت سببًا في فرقة المسلمين حتى اليوم.

كان الواجب على الدكتور هيكل - وهو السياسي المحنك - أن يكون منصفًا لهذا الشيخ المقتول ظلمًا عند حديثه عن وحي الحجرة النبوية والراقدين فيها، حيث ذكر أن السمو الذي تحقق لأبي بكر وعمر ﷺ هو الذي جعلهما مجاورين الرسول الله ﷺ في قبره فدفنا بجواره في الحجرة النبوية. أما عثمان فلم يجمع المسلمون على تأسيه بالرسول ما أجمعوا على تأسي الخليفتين الأولين به، ولو أنه فعل لسما سموهما ولحق له أن يرقد معهما في جوار رسول الله ﷺ.(١)

في هذا ما فيه من تعريض بعثمان ﷺ الذي قتل مظلومًا، لا تمسكًا بأهداب الحكم ولكن حفاظًا على حق الأمة التي طوقت عنقه ببيعة وجب عليه أن يقوم بتبعاتها طالما لم تعزله الأمة أو تعفه من هذا الواجب. معلوم أن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة، فلو أن عثمان ﷺ كان مقصرًا أو أهمل، كيف يتصور أن يتركه الصحابة مع إهماله وتقصيره؟ إن ذلك نقص يجب أن نبرئ منه ساحة عثمان بن عفان ﷺ وساحة صحابة رسول الله الذين لا يخافون في الله لومة لائم.

عود إلى مشكلة القباب والآثار على القبور:

حين يسترجع الدكتور هيكل شريط الذكريات لهؤلاء العظماء الراقدين في بقيع الغرقد، يتذكر ما كان على قبورهم من شواهد وقباب قبل أن يهدمها الوهابيون عند غزوهم للحجاز في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد. زارها السويسري (برخارت) وقتئذ وهي محطمة، فوصفها بأنها حقيرة جدًا لا تليق بقداسة الأشخاص الذين تحوي رفاتهم. فلما أُجْلِيَ الوهابيون عن الحجاز وعاد الأمر فيه إلى السلاطين من آل عثمان، أعادوا بناء كثير من القباب وشادوها على صورة من الفن تتفق وذوق العصر. فلما عاد الوهابيون إلى الحجاز مرة أخرى في مطلع القرن العشرين، دمروا هذه القباب وجعلوا القبور مسواة بالأرض.

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٦٨.

يتساءل الدكتور هيكل إزاء هذه الظاهرة: إلى متى يظل البقيع ميدان صراع بين التيارات المذهبية والفكرية؟

هكذا تسيطر فكرة بناء القباب على تفكير الدكتور هيكل سيطرة تجعله يذكرها عند كل مناسبة، فيأسى لما أصابها من هدم وتحطيم على أيدي الوهابيين، ويتمنى لو تقام مرة أخرى لا للتقديس والزلفى، وإنما إجلالًا لسيرة هؤلاء العظماء الراقدين تحت ثراها. فنحن لا نقيم الآثار لمن سبقونا متاعًا لهم بها، فمتاعهم في عالمهم بما قدموا من عمل صالح، وإنما نقيمها ذكرًا ومعتبرًا للأجيال في تعاقبها حثًا لأبنائها على أن يجدوا في السابقين الأولين الأسوة والمثل.(١)

فإذا وقف الإنسان أمام آثار هؤلاء الخالدين، حركت ذكراهم الرغبة في النفوس لتسمو إلى غاية ما تؤهلها ملكاتها أن تسمو تشبهًا بهؤلاء الذين تركوا على الحياة أثرًا أخلد الأثر وأبقاه. فإذا صدقت الرغبة واستقر العزم وامتلأت به الإرادة، لم يكن لقوة أن تصدنا عن بلوغ ما نبغي، فالإرادة الصادقة أعظم قوة في الحياة، ومن عرف كيف يريد قدر على بلوغ ما يريد".(٢)

الحل لمشكلة الزلفى والتبرك بالقباب والآثار:

يعتقد الدكتور هيكل أن ما يحدث من التقرب إلى الله ببناء هذه الآثار أو من الزلفى إليه بالراقدين تحت ثراها ليس مسوغًا لهدمها أو لعدم إقامتها، لأن الجهل هو الذي حجب عن هؤلاء جلال ما صنع الذين تخلد القباب والآثار ذكراهم، فجعلوا يتخذون من القباب مواضع للزلفى إلى الله توسلًا إليه بأصحابها.

فإذا أردنا أن نقاوم هذا الانحطاط، فلا يكون بهدم الآثار، وإنما الوسيلة إليه بهدم ما في النفوس من حجب الجهل وقبابه وتفتيح مغاليقها بإظهارها على ما صنع السلف وما خلفوا من علم وفن وحضارة. فالعلم هو النور الكاشف الذي

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ٥٢٧.

يهتك حجب الزمان ويرينا ما خلفه آباؤنا وأسلافنا للإنسانية من أسباب المعرفة، وما تؤدي إليه المعرفة من فضل وخير، وما تنير به سبل الإنسانية لمستقبلها على هدى الماضي وما تم فيه.[1]

هذا الحل رغم وجاهته من الناحية النظرية، فإنه لا ينهض حجة لإقامة القباب على القبور أو المحافظة عليها نظرًا لصعوبة تحقيقه في واقع المسلمين، لأن هذه المزارات في الأراضي المقدسة يأتي إليها المسلمون من شتى بقاع العالم الإسلامي. فكيف نصل بمستوى شعوبها إلى هذا الأفق الذي يستشرفه الدكتور هيكل؟ وكم من الوقت نحتاج حتى نصل إلى هذا المستوى؟ وإذا وصلنا جدلًا إلى هذا المستوى من الفهم والإدراك، فما جدوى الآثار في هذه الحالة بعد أن انطبعت أعمال هؤلاء السابقين في عقل وقلب كل الناس؟

إن الدكتور هيكل ليأخذه العجب مما رأى وشاهد أمام قبر حمزة بن عبد المطلب ﷺ من تصرفات أولئك الذين يزورونه لمجرد الزلفى والتبرك. بل إن منهم لمن يشرك حمزة في قدرة الله أو يتخذه وسيلة إليه، وقد كان لحمزة قبر ومسجد هدمهما الوهابيون، وكان على القبر الذي بالمسجد لوحة نقشت عليها أبيات، منها:

قف على أبوابنا في كل ضيق وأطلب الحاجات وأبشر بالمُنَى

فـحِـمَانـا ملجأ للطالبين وبنا تُجْـلَى الـكـروب والعنا

وضعف هذين البيتين يصف قائلهما ومبلغ ثقافته، ولكن هذه العقلية تصور عقيدة كثيرين من زوار قبر حمزة وعقيدة كثيرين من المسلمين في أنحاء الأرض المختلفة. ولهؤلاء جميعًا العذر أن الذين خيم على عقولهم الجهل قد طبعوا على عبادة القوة وعلى عبادة البطولة، فهم يخلعون على أبطال الماضي من صفات العبادات ما يجعلهم في حكم الأرباب، وما يدعو هؤلاء الضعفاء أن يتخذوهم إلى الله زلفى.

(١) المرجع السابق ص ٥٢٧.

هـذا أمـر ينكره الإسـلام حين ينكر على النـاس أن يتخذ بعضهـم بعضًا أربابًا من دون الله، الأموات منهم والأحياء في ذلك سواء. الإسلام ينكره لأنه ينكر أن يتجه إنسان بالعبادة لغير الله.[١]

فـإذا كان واقـع المسـلمين كـما رآه الدكتـور هيكل وسـطره في كتابـه (في منزل الوحي) حتى بعد هدم القباب ورغم مقاومة السـلطات السـعودية لمظاهر التبرك بالقبـور، فكيـف يأسـى على هدمهـا ويتمنى أن يأتي اليـوم الذي تقـام فيها الآثار تخليدًا لذكرى عظماء المسلمين؟

وإذا كان الدكتـور هيـكل يـرى أنه "من الواجب على الذيـن يزورون قبر حمزة أن يلتمسوا فيه الأسوة، وأن يعلموا أن الله يجزيهم بجهادهم لبلوغ الغاية من هذه الأسوة، ولا يجزيهم لمجرد الزيارة والتبرك والدعاء، فإنما يجزى الله العامل بعمله، فمن يعمل صالحًا يجزَ به. وأسـوة حمزة هي الجهاد في سـبيل الله وبذل الحياة لدفع من يصد عن سبيل الله ابتغاء العاجلة من حكم أو سلطان.[٢]

فكيف السـبيل إلى تحقيق هـذا الواجب والذين يناط بهم تحقيقه سـيطر عليهم الجهل فنسـوا كثـيرًا مما ذُكروا به، حتـى إن بعض أمم منهم اتخـذت ملوكها أربابًا وجعلـت من بعض الصالحين فيها أولياء اتخذتهـم إلى الله زلفى. ولهؤلاء وأولئك بنـت القباب وأقامت عليها المسـاجد، لا تقصد تخليـد ذكراهم ليكون في الذكرى للأجيـال أسـوة ومثل، بل تقصـد أن تكون القباب والمسـاجد محاريـب لعبادتهم والتوسل بهم إلى الله، وإلى ذلك قصد الذين أقاموا على قبر حمزة قبة ومسجدًا.[٣]

فـإذا كان هذا هو واقع المسـلمين كما يراه الدكتور هيكل نفسـه، فلماذا المكابرة والإصرار على بناء القباب والآثار؟

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٩.

(٣) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٣٩-٥٤٠.

أعتقد أننا لو طبقنا القواعد الشرعية في هذا المجال لكان أجدى وأهدى سبيلًا. من هذه القواعد، قاعدة سد الذرائع، وقاعدة درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة. خاصة وأن إحياء الذكرى ليس مرتهنًا بإقامة الآثار والنصب، بل إن إحياء الذكرى الذي يؤدي إلى الأسوة إنما يكون بغرس ذكرى هؤلاء السابقين في القلوب وإحياء سيرتهم بالاتباع والتذكير الدائم بهم، حتى لكأنهم يحيون بيننا حياة مجردة من أبعاد الزمان والمكان.

الآبار والعيون:

لقد حبا الله المدينة المنورة بكثير من الآبار والعيون التي هي مصدر السقيا لأهلها كما أنها من مصادر الري لأرضها. وأهم هذه الآبار:

بئر أريس بجوار مسجد قباء، وبئر رومة بالعقيق، وبئر غرس وبئر حاء وبئر بضاعة وبئر السقيا وبئر أبي أيوب وبئر ذروان وبئر عروة بن الزبير وبئر أنس بن مالك وبئر صفية وبئر فاطمة، والعين الزرقاء التي أجريت بأمر معاوية بن أبي سفيان في مستهل النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

وبئر أريس عليه قبة تشبه مزار الولي أو الصحابي، إلى جانبها قبة أخرى ذات محراب بها طاقة تطل على البئر ويستقى منها. ماء البئر عذب سائغ يشرب منه الزائرون تبركًا لما يقال إنه كان ملحًا أجاجًا، فتفل فيه النبي فصار عذبًا فراتًا بإذن الله.[1]

وبئر رومة كانت ليهودي تسمت باسمه وكان يبيع الماء للمسلمين. فاشتراها عثمان بن عفان ﷺ استجابة لرغبة الرسول ﷺ وجعلها للمسلمين، فكان حظه منها كحظ واحد منهم.

الجبال و الأودية:

وفى المدينة جبال تحدث بذكريات عزيزة في الإسلام، وعلى رأسها جبل أحد

(١) المرجع السابق ص٥٧٤.

الذي شـهد واحدة من معارك الإسـلام الكبرى، فتسمى باسـمه، ألا وهي غزوة أحد. صُرِع فيها أبطال مغاوير من المسـلمين، وعلى رأسـهم أسد الله حمزة بن عبد المطلـب ومصعب بن عمير رضي الله عنهما. يثير مرأى هذا الجبل ذكريات هذه الموقعة التي تلقى فيها المسلمون درسًا من دروس الجندية وهو طاعة أوامر القائد.

فى رحـاب هذا الجبـل، تذكر الدكتور هيـكل قول النبي ﷺ: "هـذا جبل يحبنا ونحبـه".[1] عندئـذ، تهيـج ذكرى شـهداء أحد خواطره فيناجي نفسـه متسـائلاً: "لماذا يذكر الناس هؤلاء الشـهداء بتقديس وإجلال وإن بعد بهم العهد وحجبهم المـاضي في غيابـات الدهـور؟" فتجيبـه نفسـه: "نحـن إنـما نكبرهم لأنهـم وهبوا أنفسهم وحياتهم كلها للإنسانية، وتمنوا الموت صادقين، ليبلغوا بالإنسانية أسمى الأغراض التي تصبو إليها".

حمزة بن عبد المطلب كواحد من شهداء أحد الأبرار، لم يكن يفكر في نفسه ولا في أبنائه حين استشـهد، ولم يرد من أحد جزاءً ولا شـكورًا، إنما كان تفكيره في الله وجزائه، وفي نصر الله لدينه الحق لتهتدي الإنسـانية إلى الصراط المسـتقيم وتشرق روحها بإذن ربها.[2]

إذا كان هـذا هو دور الأفراد، فإن الأمم أيضًـا يجب أن تقوم بهذا الدور. ولقد كلف الله أمة الإسلام أن تكون قائمة به، فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.[3]

ويوم تسـتجيب دولة الإسـلام لهذا الأمر الرباني، يعزهـا الله ويؤيدها بنصره. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء. أدعو الله أن يكون ذلك قريبًا.

---

(١) رواه البخاري ج٢ ص٢٥١ كتاب الزكاة، باب فرض التمر عن سهل بن معد، ط العالم الكتب.

(٢) انظر في منزل الوحي د/ هيكل ص ٥٤٥.

(٣) الآية رقم ١٠ من سورة آل عمران.

ثالثًا: مدينة رسول الله ﷺ بين الماضي والحاضر:

يثير حاضر المدينة خواطر الدكتور هيكل -رحمه الله- فيقارن بين حالها الآن وحالها يوم كانت العاصمة الأولى لدولة المسلمين، فيرى البون شاسعًا، فيتساءل متعجبًا عن الأسباب التي أدت بها إلى هذه الحال المتدنية من قلة في عدد السكان وتأخر في العمران وانحطاط في مستوى سكانها العلمي والثقافي، إلى غير ذلك من مظاهر التخلف. يرصد الأسباب التي يراها سبب هذا التخلف ليكون ذلك منطلقًا للنهوض بها وإصلاح أحوالها في مقتبل الأيام. يحدد أهم هذه الأسباب فيما يلي:

١- قلة المرافق العامة للمدينة وفي مقدمتها وسائل المواصلات:

من المعلوم أن سهولة المواصلات إلى المدينة يؤدي إلى زيادة عدد سكانها وانتشار العمران بها. وقد ظهر ذلك واضحًا حين سيرت سكة حديد الحجاز سنة ١٩٠٧ ووصلت بين المدينة والشام، فسهلت بذلك انتقال الأفراد والبضائع إلى مدينة رسول الله ﷺ، فانتعشت فيها الحياة واتسع نطاق العمران، حتى وصل عدد سكانها إلى ثمانين ألف نسمة سنة ١٩١٤، بعد أن كان عددها لا يتجاوز العشرين ألف نسمة في بداية تسيير خط السكة الحديد. فلما تعطل هذا الخط أثناء الحرب العظمى الأولى وأهمل إصلاحه، أصبحت المدينة في عزلة تامة، فتناقص عدد سكانها حتى وصل إلى ثلاثة عشر ألف نسمة فقط.

٢- تغير عنصر السكان بالمدينة:

فلقد أدت الظروف السياسية والحربية التي مرت بها مدينة رسول الله ﷺ إلى موت كثير من سكانها العرب ونزوح أعداد كبيرة ممن بقي منهم إلى مواطن أخرى. على العكس من هذه الحركة للسكان الأصليين، فقد جذبت إلى رحبها أعدادًا كبيرة من المسلمين من شتى الأجناس، فتغير بذلك التركيب السكاني للمدينة. عاش المستوطنون الجدد لا يعنيهم من أمر المدينة شيء، بعد أن انتشر الجهل بحقيقة الدين بينهم، فسوغ لهم هذا الجهل كثيرًا من الأخلاقيات التي

تتعارض مع روح الإسلام، فسادت بينهم روح التواكل والاعتماد على الغير باسم التوكل على الله. سيطر عليهم روح الإذعان والخضوع لغيرهم باسم التسليم والرضا بقضاء الله، وبذلك زاد اعتمادهم على غيرهم فصاروا كَلًّا عليهم. فقدوا بذلك مكانة الاعتداد بالذات وأصبحوا يعيشون كَلًّا على غيرهم من المسلمين. ولهذا بدأ حظ بلدهم يتفاوت من اليسار أيام الاستقرار في البلاد الإسلامية وكثرة زوارها إلى الشدة والإعسار أيام الاضطراب وانصراف المسلمين عن أداء فريضة الحج وسنة الزيارة. ولو أن أهلها ألفوا الاعتماد على أنفسهم ولم يجعلوا من موسم الزيارة ومن صدقات المسلمين مورد حياتهم لما أصابهم من الجهد ما أصابهم، بل لاحتملوا الشدة بالصبر والتمسوا الخروج منها بالحيلة.[1]

لكنهم استراحوا لذلك ولم يفكروا في أن ينزعوا بالمدينة منزع الاعتماد على مواردها الذاتية باستغلالها وتنميتها حتى تكون في منأى عن هذا الاختلال.

٣- إهمال أولي الأمر من المسلمين الذين تولوا أمر المدينة:

فلقد حرص هؤلاء الولاة على أن يظل أهل المدينة في غيابات الجهل حتى لا يكون لهم من العلم قوة تضاعف مكانتهم بمجاورتهم لقبر رسول الله ﷺ. إذ لو علموا الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، لكان لهم شأن غير شأنهم منذ أن حل سلطان العاصمة عن مدينتهم، ولفهموا أن التوكل على الله لا يعني ترك الأسباب، ولعلموا أن الرضا بالقضاء لا يعني الذل والخضوع لغير الله. عندئذ، يصبح حكم الاستبداد إياهم مُحالًا.

من هنا، حجب هؤلاء الحكام المستبدون نور العلم عن أهل المدينة ليسوسوهم بالجهل ويربطوهم برباط التبعية المهين. لذلك، انحط مستوى التعليم الذي قام على الهبات فسار في ركاب الواهبين إرضاءً لهم ومناصرةً لسياستهم. فضعف تأثيره إذ لم يكن هدفه تعليم الناس ما ينفعهم.

---

(١) في منزل الوحي د/ هيكل ص ٤٧٩.

كنتيجة لهذه العوامل، انحط مستوى التفكير وهبط مستوى الثقافة عند أهل المدينة، وانعكس أثر ذلك تدنيًا في مستوى المعيشة. فلم يجاروا التطور والتقدم الذي حدث في العالم بعد الحرب العالمية الأولى لأنهم يكادون يكونون معزولين عن العالم المعاصر.

لولا ما حبا الله به مدينة رسول الله ﷺ من المهابة والكرامة لوجود مثوى النبي بها، لما زارها زائر، ولما حط رحاله فيها مسافر، بل ولهجرها أهلها فأصبحت خاوية. ولكنها عناية الله التي حفظتها، ورجاؤنا في الله أن تتبوأ المكانة اللائقة بها بين العواصم والحواضر الإسلامية، بل والمدن العالمية باعتبارها مصدر نور ومنبع هداية ورشاد للإنسانية جمعاء.

٤- الظروف السياسية التي مرت بها مدينة الرسول ﷺ:

لقد واجهت المدينة ظروفًا سياسية جعلتها أكثر عرضة للقلق والاضطراب أكثر من غيرها من بلاد الحجاز، وبذلك ظلت على ما هي عليه من تأخر. من هذه الظروف، تحصن الأتراك العثمانيون بها حين ثار عليهم الشريف حسين. فلما رأوا أن الأمر أصبح وشيكًا أن يخرج من أيديهم، نهبوا كل ما فيها وبعثوا به إلى الآستانة. فسلبوا مجوهرات الحجرة النبوية، كما نهبوا أنفس ما في مكتباتها من المخطوطات والكتب النادرة، وتركوا المدينة للأشراف يحتلونها خاوية على عروشها.

فلما استقر الأمر للأشراف في الحجاز وأخذوا يفكرون في الإصلاح، سرعان ما دهمتهم الحرب السعودية، فأصابت المدينة بشر مما أصابها في ثورة الشريف حسين. إذ انتصر الوهابيون من أشياع ابن سعود، فحطموا ما بالبقيع من قباب وآثار كانت غاية في الفن حتى كان يطلق عليها (جنة البقيع). هذا أثر على حركة زيارة المدينة بالسلب، وأثر ذلك بدوره على موارد أهلها بالانخفاض، فازدادت الأحوال سوءًا.

٥- إهمال المسلمين لشأن مدينة رسول الله ﷺ:

بعد أن كانت هي العاصمة الأولى لدولة الإسلام أيام الرسول ﷺ وأيام أبي بكر وعمر وعثمان، وكانت محط الأنظار ومهبط القصاد وموئل العلماء والفقهاء ومنارة العلم والثقافة، ولما كانت خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ونازعه معاوية الأمر وتحصن بالشام، انتقل علي إلى الكوفة وقتل بها، فاتخذها أبناؤه من بعده قاعدة لنضالهم ضد بني أمية. فلما انتهى الأمر لصالح الأمويين، جعلوا دمشق عاصمة لهم. ولما ثار عبد الله بن الزبير على الأمويين، جعل مكة عاصمة ثورته. وبذلك انحلت عن المدينة صفة العاصمة ولم تعد إليها بعد ذلك، إذ أهمل المسلمون شأنها، فلم يطالب أحد منهم بأن تظل عاصمة للدولة الإسلامية كما كانت، وكان لمن يطالب بذلك الحجة البالغة، فلقد كانت دار هجرة النبي و بها نزل الوحي أكثر مما نزل بغيرها، وكانت دار إقامته فما استبدل بها غيرها حتى بعد أن فتح الله له البلد الأمين، وإنما قال للأنصار:

المحيا محياكم والممات مماتكم، فمات بها ﷺ وفي ثراها الطيب دُفِن، ولكن أهلها من الأنصار آثروا العافية من يوم السقيفة، فأخرجوا أنفسهم من معترك السياسة والحكم و تركوا الأمر لقريش.

ومنذ أن انحل سلطان العاصمة عن المدينة تغير حالها بين الازدهار والأفول تبعًا لموقف الحكام المسلمين من هذه المدينة العريقة.

أمنيات لمدينة رسول الله ﷺ:

هذه المدينة العزيزة على كل مسلم والحبيبة إلى قلب رسول الله ﷺ، فحرمها ودعا لها بالبركة وأوصى بأهلها خيرًا، فهي بلا شك تستحق من عناية المسلمين وأولي الأمر فيهم ما يتناسب وهذه المكانة السامية.

لذلك تمنى لها الدكتور هيكل -رحمه الله- من الأمنيات، راجيًا من المولى سبحانه وتعالى أن يحققها، وأهمها:

١- أن تنمو هذه المدينة الحبيبة وتزدهر حتى تكون على المستوى اللائق بها.

٢- أن تنال من عناية المسلمين وأولي الأمر فيهم فتحظى المرافق العامة فيها باهتمامهم، خاصة وسائل المواصلات والاتصالات بالعالم الخارجي، و أن ينظروا إلى العلم فيها بعين الاهتمام، فتنشأ فيها المدارس والجامعات، حتى تعود مصدر نور وعلم وحضارة.

٣- أن تعود عاصمة لدولة الإسلام كما كانت على عهد رسول الله ﷺ.

و قد تحققت الأمنيتان الأوليان، فازدهرت المدينة وعظم شأنها، حتى أصبح عدد سكانها يربو على الثلاثمائة ألف نسمة، كما قامت بها نهضة عمرانية وحضارية رائعة، فأصبحت بفضل الله مزدهرة، وأُمِدَّت بكافة المرافق الحديثة، وأصبحت يُضخّ إليها الماء من محطة تحلية مياه البحر في ينبع، لمواجهة الزيادة في عدد السكان، بعد أن عجزت مياه الآبار والعيون عن توفير الكميات اللازمة، كما تم إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، كما تم إنشاء محطة إرسال للتلفاز ملحقة بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثالث

منهج الدكتور محمد حسين هيكل

في الكتابة عن

نظام الحكم في الإسلام

"الفصل الثالث"

منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن نظام الحكم في الإسلام

من الطبيعي أن يلج الدكتور هيكل ميدان الكتابة السياسية بحكم ثقافته وموقعه على الساحة السياسية، فقد كان رحمه الله واحدًا من كبار السياسيين في عصره. آلت إليه رئاسة حزب سياسي له وزنه على الساحة السياسية وهو حزب الأحرار الدستوريين، وشغل منصب الوزارة أكثر من مرة. لذلك كانت له رؤيته السياسية التي تؤهله للكتابة في هذا الميدان.

حين اتجه إلى الكتابات الإسلامية، كتب عدة مقالات في سنة ١٩٤٢ حول الأسس التي يقوم عليها النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الإسلام. هذه الأسس كتب فيها كثيرون من قبل وستظل موضع دراسة الكثيرين من بعد، ولكن الذي عُنِي به الدكتور هيكل في هذه المقالات هو تبسيط هذه المبادئ العامة لنا وبيان مدى اتفاقها مع الأسس التي تقوم عليها المذاهب السائدة في عالم اليوم.[١]

قام الأستاذ أحمد هيكل المحامي، نجل المرحوم الدكتور هيكل، بنشر هذه المقالات وغيرها في طبعة جديدة في كتاب أسماه "الحكومة الإسلامية"، وهو مرجع أساس في هذا الفصل.

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٦ (المقدمة للأستاذ أحمد هيكل).

كان الدكتور هيكل يهدف من وراء هذه الدراسة لنظام الحكم في الإسلام إلى وضع مذهب كامل يضع فيه كل شأن من شؤون الجماعة في المكان الواجب له من نظام الحكم في الإطار الإسلامي الصحيح، بعد أن قصر فقهاء المسلمين في العصر الحديث عن وضع هذا الإطار الذي يحكم النظرية السياسية في الإسلام.

يقول الدكتور هيكل محددًا هذا الهدف: "إن أحدًا من فقهاء المسلمين في العصر الحديث لم يتجه نظره إلى تصوير الفكرة الإسلامية في الحكم تصويرًا كاملًا وتطبيق هذا التصوير على الأمم الإسلامية في هذا الزمن الذي نعيش فيه. لم يتجه أحدهم ليقيم مذهبًا كاملًا بين الحدود والتفاصيل يضع كل شأن من شئون الجماعة في المكان الواجب له من نظام الحكم في الإطار الإسلامي الصحيح. لقد قام جماعة من علماء الغرب بتصوير الاشتراكية المسيحية، ولست أعرف أحدًا قام بتصوير الاشتراكية الإسلامية في مذهب كامل. هذا، والتفكير الإسلامي القديم غني بالمادة التي تكفي لإقامة هذا المذهب الكامل في هذا الموضوع، كغناه بالمادة التي تكفي لإقامة مذهب كامل لنظام الحكم على الأساس الإسلامي في صفاء جوهره. أفأستطيع أن أصور هذا النظام الإسلامي في الحكم بما يتفق وما عليه العالم في هذا العصر؟"[١]

الدكتور هيكل قبل تناوله لنظام الحكم في الإسلام يتحدث أولاً عن الدولة الإسلامية التي كانت مسرحًا لتطبيق هذا النظام، فيحدد أسباب قيامها وأسباب قوتها واستقرارها وثباتها لعدة قرون، ثم يعرج على أسباب تدهورها وانحلالها.

أسباب قيام الدولة الإسلامية:

وقيام الدولة الإسلامية في رأي الدكتور هيكل حادث فذ في تاريخ الإنسانية. فقد بدأ الغزو العربي للشام والعراق في السنة الخامسة والثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح عليه السلام، وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ كانت الدولة

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٤٢،٤٣.

الإسـلامية قد اشتملت على فارس ومصر وشمال إفريقيا وامتدت إلى حدود الهند وتاخمت الصين. وقيام دولة بهذه السعة في هذا الزمن الوجيز بمنزلة معجزة قاطعة بصدق مبادئ الإسلام التي نفذت إلى قلوب البشر وآمنت بها عن يقين.(١)

وإذا كان هنـاك مـن حـركات الفتوح في التاريـخ ما يقارب هـذه المعجزة مثل فتوح الإسـكندر الأكـبر وجنكيز خان، فإن حرب الإسـكندر وحروب المغول لم تكد تنتهي حتى تناثر عقد الإمبراطورية التي نشأت بسلطانها وعادت الدول التي انتظمها الغزاة إلى نظامها الأول.

أما الدولة الإسـلامية التي مدت لواءها في هذا الزمن اليسـير على هذا الجانب الكبير من العالم، فقد اسـتقرت قرونًا امتـدت في أثنائها إلى الأندلس وانتشرت في الهند وأظلت جانبًا من الصين. وهي إلى ذلك قد أقامت حضارة سـادت شـؤون العـالم كل هذه القـرون، فلما آن للدولة الإسـلامية أن تنحل بقيـت هذه الحضارة تناضل عن نفسها، وهي اليوم تبعث من جديد، وهذه هي المعجزة حقًا.(٢)

إذن ليس الإعجاز في مجرد السرعة في الفتح، ولكن في ثباته واستقراره حتى بعد رحيل القادة الموهوبين والسياسيين البارعين، حيث إن الإسلام يقوم بذاته ولا يقوم بالأشـخاص، بل إنه هو الذي يؤدي إلى بـروز المواهب وصقل العبقريات. ولأنه نظام رباني ليس من أهدافه الغزو والفتح لتكوين الإمبراطوريات أو لفرض هيمنة جنس على جنس، فما كان يجمل بالدكتور هيكل وهو يعي ما يقول أن يسمي حركة الفتح الإسلامي بالغزو العربي، لأن ذلك يلقي بظلال الريبة على هذا الفتح المبارك الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى إبلاغ دعوة الإسـلام وإخراج الناس من الظلمات إلى النور. وإذا كان اسـتخدام القوة المسـلحة وسيلة من وسـائل الدعوة تستخدم لإزالـة العراقيل والعقبات التي تعترض طريق تبليغها، فإنه لا يجوز أن نطلق على

(١) انظر في المرجع ص ١٥.

(٢) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ١٥-١٦.

هذه الوسيلة لفظة الغزو التي تعني العدوان وفرض السيطرة في الفكر المعاصر، بل الواجب أن نسميها بالمصطلح الإسلامي الحق وهو الجهاد في سبيل الله لا غير.

ولتفسير معجزة قيام الدولة الإسلامية واستقرارها، يلجأ الدكتور هيكل إلى أسلوب التحليل الاجتماعي لحياة العصر الذي قامت فيه، للوقوف على الأسباب الداخلية والعوامل الخارجية التي أدت إلى قيام هذه الدولة واستقرارها. يقول الدكتور هيكل موضحًا طريقته هذه في دراسته لهذه الظاهرة: "لابد إذن أن نلتمس لقيام الدولة الإسلامية ولاستقرارها سببًا غير الذي أقام إمبراطورية الإسكندر وغير الإسكندر من عباقرة الحرب... وأن نلتمس هذا السبب أو هذه الأسباب، إن شئت تعبيرًا أدق، عن طريق التحليل الاجتماعي لحياة العصر الذي قامت فيه الدولة الإسلامية."[١]

ويستخلص الدكتور هيكل من تحليله هذا الأسباب التي أدت إلى قيام الدولة الإسلامية، وأهمها ما يأتي:

١ - بعثة النبي محمد ﷺ بدين الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجًا: إذ من المعلوم أن الإسلام هو الدين الحق وهو خطاب الله للعالمين، فوجب على المسلمين أن يحملوا لواء الدعوة إلى الله. "من هنا كان قيام النبي العربي بالدعوة إلى الإسلام وانضواء جزيرة العرب كلها تحت لوائه هو الذي دفع العرب إلى ما وراء حدودهم وجعلهم يغنمون العراق والشام ويغزون الإمبراطوريتين الرومية والفارسية".[٢]

٢ - الدين الإسلامي نفسه بما اشتمل عليه من مبادئ سامية: وبما انطوت عليه تعاليمه من تأكيد لمبادئ الحرية والمساواة، مما جعل شعوب البلاد المفتوحة تقبل عليه وأن تدخل فيه عن طواعية واختيار حر.

---

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ١٦-١٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٧.

٣- حماية الله لدين الإسلام بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم: ذ نصر الله سبحانه المسلمين بقيادة الصديق ﷺ في حرب الردة التي اشتعلت نارها عقب وفاة رسول الله ﷺ، فحفظ الله بذلك النصر قوة الدفع للدعوة الإسلامية. "فلما انتصر أبو بكر في حروب الردة وجمع شبه الجزيرة تحت لواء واحد وأقر وحدتها السياسية إلى جانب وحدتها الدينية آن للعرب أن يندفعوا لغزو العراق والشام، وكان هذا أول التمهيد للفتح واتساع الدولة".[١]

٤- استمرار الفتح بعد موت الصديق إبان خلافة عمر بن الخطاب: وذلك أن الله تبارك وتعالى مكن لهذا الدين باستخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب من بعده، حتى إن البعض يرى أن الأمر لو أسند إلى خليفة غير عمر لتغير وجه التاريخ. ذلك أن ابن الخطاب اتبع سياسة أدت إلى تضعضع قوة الروم وقوة الفرس، فاندفع المسلمون يتخطون العراق إلى فارس ويتخطون الشام إلى مصر ولا يحاولون أن يكرهوا الناس من أهل هذه البلاد حتى يكونوا مسلمين.[٢]

٥- القوة المعنوية العالية لجنود الإسلام: وضعف هذه القوة أو انعدامها لدى جنود الفرس والروم، تلك القوة التي مصدرها الإيمان بالله تعالى والثقة بصدق وعده في الدنيا والآخرة، فاندفع المسلمون بتأثيرها لا يرهبون شيئًا ولا يلوون على شيء. الإسلام علمهم أن الآجال محددة والأرزاق مقدرة ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وأدركوا أن عليهم تبعات تجاه رسالة الإسلام يجب عليهم أن يقوموا بها وأن يبلغوها إلى العالمين.

"وهناك على ضفاف دجلة والفرات، وعلى ضفاف بردى بين جبال لبنان، لقي العرب نظامًا اجتماعيًا ونظامًا سياسيًا بلغا من الهرم والانحلال مبلغًا صرف الناس عن التحمس لهما والدفاع عنهما. لذلك لم تحرك فرق الجند من الفرس ومن

(١) المرجع السابق ص ١٨، ١٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٨، ١٧.

الروم فكرة تدافع عنها في قتالها العرب، بل كانت هذه القوات تذهب طوعًا لأمر السادة الحاكمين. قل أن حفزت الطاعة للحاكم وحدها إلى تضحية، وإن قلت، فما بالك بالجندي يسير إلى ميدان القتال ليضحي بحياته وليترك من بعده أهله وأبناءه بين أيم تندبه ويتيم يتلفت يمنة ويسرة فلا يجد ما هو في أشد الحاجة إليه من حنان ورحمة."[١]

٦- العبقرية العسكرية لقادة الجيوش الإسلامية:

لقد منّ الله على المسلمين إبان فترة تكوين الدولة الإسلامية بنخبة ممتازة من القادة الذين يضاهون أقرانهم من قادة الجيوش المعادية حنكة ودربة، ويفوقونهم إيمانًا وتقوى. وكان لهؤلاء القادة المسلمين أثر واضح في اتساع رقعة الدولة الإسلامية. أمثال خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، والمثنى بن حارثة، وشرحبيل بن حسنة، وعكرمة بن أبي جهل، وعقبة بن نافع، وغيرهم كثير ممن أبلوا في سبيل الله بلاء حسنًا، فتح الله ببركة قيادتهم البلاد فانفسحت رقعة الدولة الإسلامية.

أسباب ثبات و استقرار الدولة الإسلامية:

إذا كان قيام الدولة الإسلامية حدثًا فذًا في التاريخ، فإن ثباتها واستقرارها بحق هو المعجزة التي لن تتكرر لغيرها من الإمبراطوريات التي قامت بسرعة، ولكنها زالت ودالت بموت مؤسسيها وانتهت بانتهاء حياة العباقرة الذين أقاموها.

وإذا كان لقيام الدولة الإسلامية أسباب، فإن لثباتها واستقرارها أسبابًا أهمها:

١- الفتوحات الإسلامية كانت فتوحات إيمانية تهدف إلى تبليغ رسالة الحق إلى جميع الخلق: ذلك أن العرب لم يندفعوا إلى الغزو تحركهم مطامع مادية صرفة، بل اندفعوا إليه مؤمنين بأن القدر ألقى عليهم رسالة وأوجب عليهم تبليغها للناس

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٢١،٢٢.

كافة لخير الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها. وهذا الإيمان هو الذي أقام الدولة الإسلامية وهو الذي أبقاها ما بقيت من القرون، فلما اضمحل هذا الإيمان بدأ الانحلال يدب في أرجائها.[١]

٢- انعدام الدافع المادي في حركة الفتوحات الإسلامية:

ذلك أن فلم يكن هدفهم ماديًا ينتهي بتحقيقه من مغانم أو أسلاب أو بسط سيطرة وتحقيق نفوذ. وإذا حدث من ذلك شيء، فإنما هو شيء عارض ناشئ عن الحركة لنشر دين الله تبارك وتعالى. تجرد الفتوحات الإسلامية من هذه الدوافع المادية هو الذي أبقى الدولة الإسلامية ثابتة، وذلك لارتباطها بهدف ثابت ودائم، ألا وهو التمكين لدين الله عز وجل والدعوة إليه.

٣- مبادئ الإسلام مبادئ خالدة ثابته ورسالته هي رسالة الحرية والإخاء والمساواة: فمبادئ دين الإسلام هي مبادئ الحق الذي لا يتغير ولا يتبدل مهما مرت الأيام وكرت السنون. ولقد تمسك المسلمون الأولون بهذه المبادئ التي أرساها الإسلام في وجدانهم وركزها في قلوبهم فطبقوها في حياتهم. فلما استقروا في البلاد المفتوحة، أقروا هذه المبادئ السامية بين أهلها، فجعلوا التسامح الديني أساس حكمهم حيثما نزلوا، فلم يكرهوا أحدًا من أهل البلاد التي فتحوها على الإسلام. أباحوا للناس من ألوان الحرية ما كان معروفًا في ذلك العهد، والحرية الدينية وحرية الرأي في مقدمة ما أباحوا.

احترموا شعائر الجميع وعقائدهم، وجعلوا العدل بين المسلم وغير المسلم أساس الحكم. فلما رأى الناس ذلك ورأوا المسلمين أنفسهم يستمتعون من ألوان الحرية العقلية والحرية العامة بما لم يكن له وجود من قبل في بلاد الروم ولا في بلاد الفرس، كان ذلك داعيًا لهم إلى الدخول في الدين الجديد والتمتع بما قرره من

(١) المرجع السابق ص٢٠.

مبادئ الحرية والإخاء والمساواة.[١]

اختلط المسلمون بأهل البلاد المفتوحة حتى انصهروا جميعًا في بوتقة الإسلام، وصار أهل الأمصار جميعًا في مصر والشام والعراق وفارس نسيجًا واحدًا تاهت فيه ملامح القومية وظهرت فيه الملامح الإسلامية، فعمل الجميع متعاونين في بناء صرح الدولة الإسلامية وتدعيم هذا البناء.

٤- قيام حضارة إسلامية أظلت ربوع الدولة الإسلامية:

وكان من أثر هذا التفاعل بين الشعوب والأجناس التي أظلها لواء الإسلام أن ظهرت حضارة إسلامية حفظت هذا الكيان الإسلامي متماسكًا رغم ظهور الفتن والمؤامرات التي أودت بحياة الفاروق عمر، ومن بعده بحياة ذي النورين عثمان بن عفان، ومن بعدهما أودت بحياة علي بن أبي طالب، واشتعلت الحرب بين المسلمين التي أدت إلى فرقتهم واختلافهم إلى شيع وأحزاب.

مع كل هذا، اجتازت الدولة الإسلامية كل هذه الفتن بفضل الحضارة الإسلامية التي كانت بمثابة الروح الذي جمع أعضاء الجسد فحفظها من التحلل أو التعفن، حتى في حالة مرض هذا الجسد. حتى إذا عاد له الشفاء، عادت إليه صحته وقوته كما كان، بل ربما أقوى مما كان، وكأن هذه المحن والشدائد قوَّت من عزيمته وشدَّت من أزره.

نظام الحكم في الإسلام:

تتضح معالم منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن نظام الحكم في الإسلام في النقاط الآتية:

أولًا: تحديد طبيعة الحكم الإسلامي وفكرته.

ثانيًا: تحديد المبادئ الأساسية في الحكم الإسلامي.

---

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص٢٢.

ثالثًا: تحديد المبادئ التي أرساها الإسلام لتكون أساسًا لقيام حضارة إنسانية.

رابعًا: تتبع تطور نظام الحكم الإسلامي:

خامسًا: كيفية تطبيق نظام الحكم الإسلامي في العصر الحاضر:

وأحاول أن ألقي الضوء على هذه النقاط توضيحًا لمفهومها عند الدكتور هيكل ثم أعقب بالملاحظات على هذا المنهج.

أولًا: تحديد طبيعة الحكم الإسلامي وفكرته:

يرى الدكتور هيكل أن الكلام في نظام الحكم في أمة من الأمم لا يقف عند الفكرة العامة لهذا النظام، فردي هو أم نيابي، ملكي أم جمهوري، ديمقراطي أم ديكتاتوري، بل هو يتناول أمورًا كثيرة تتصل بهذه الفكرة العامة للحكم من قريب أو بعيد. يتناول النظام الاقتصادي والنظام الخلقي والنظام الاجتماعي، وألوانًا أخرى من النظم تتعلق بالسلم والحرب، بالدين والعلم، وغير ذلك من تفاصيل لا يتم تصور نظام الحكم إلا بتصورها كاملة في حال حركتها وفي حال استقرارها وسكونها.

فإنجلترا مثلًا ملكية وأمريكا ديمقراطية، وإنجلترا برلمانية النظم وأمريكا نيابية النظم. العلاقات بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية في إنجلترا غير العلاقات بين الحكومة المركزية في أمريكا وحكومات الولايات، والقيم الخلقية ليست واحدة في الدولتين. هذا تباين طبيعي مرجعه إلى تاريخ الأمة وإلى الأطوار التي مرت بها والأحداث التي تعاقبت عليها. نستطيع أن نقول مثل ذلك عن الدولة الواحدة في أطوار حياتها المختلفة.[1]

وهذا ينطبق تمامًا على نظام الحكم في الإسلام، فالفكرة العامة له واحدة، ولكن تطورت صورة هذا الحكم مع الزمن أو مع اختلاف البيئة. "فالفكرة العامة في هذا

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٢٧.

النظام واحدة، لكن آثار هذه الفكرة تطورت على مر القرون أطوارًا شتى وبدت في صور مختلفة باختلاف البيئة التي حلت بها، والأحداث التي وقعت في أثنائها، والثورات التي كانت الدولة الإسلامية مسرحًا لها في العصور المختلفة. فإذا أردنا أن نصور نظام الحكم في الإسلام تصويرًا يقربه من أذهان الجيل الحاضر، وجب علينا أن نقف وقفات سريعة عند طائفة من هذه الأطوار. ولعل وقفاتنا هذه تجلو لنا صورة تتمشى فيها الوحدة المستمدة من الحياة الإسلامية، وإن غشيت هذه الوحدة في كثير من الأحيان مظاهر تجعل من المتعذر محاولة إثبات هذه الوحدة بمقارنة الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد آل عثمان مثلًا".[1]

يقف الدكتور هيكل عدة وقفات على مدى تاريخ الأمة الإسلامية ليستجلي طبيعة الحكم الإسلامي وفكرته العامة التي لازمته خلال حقب التاريخ:

الوقفة الأولى: في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين :

يعتقد الدكتور هيكل أن بداية تنظيم شؤون الجماعة المسلمة لم يبدأ إلا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. ومع ذلك، فإن القواعد الأساسية التي تناولت شؤون الجماعة بالتنظيم في المجالات المختلفة لم تتناول أي تفصيل في الأسس التي تقوم عليها الدولة، كما لم تتعرض لنظام الحكم تعرضًا مباشرًا ولم تفصله. يقول الدكتور هيكل:

إن العهد المكي في حياة رسول الله ﷺ لم يتعرض للدولة ولم يجعلها غرضًا من أغراضه. أما العهد المدني فقد تقررت فيه القواعد الأساسية لحياة الأسرة، والميراث، والتجارة، والبيع، وللكثير مما فصله الفقهاء من بعد تطبيقًا لهذه القواعد الأساسية واستنباطًا من حياة الجماعة التي كانوا يعيشون فيها. على أن هذه القواعد الأساسية لشؤون حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية لم تتناول أي تفصيل في الأساس الذي تقوم عليه الدولة، ولم تتعرض لنظام الحكم تعرضًا مباشرًا.

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٢٨.

الآيتان الكريمتان "وشاورهم في الأمر" و"وأمرهم شورى بينهم" لم تنزلا في مناسبات تتصل بنظام الحكم، وهما بعد لا تصوران نظام الحكم نظامًا تفصيليًا. فهل يؤثر الإسلام النظام الجمهوري على النظام الملكي؟

لقد بويع الخلفاء الراشدون في العهد الأول للإسلام على قاعدة من الشورى ليست هي الانتخاب المباشر، وليس بينها وبين النظام البرلماني أو النظام النيابي شبه واضح. ومع ذلك، تستطيع أن ترى في بيعة الخليفة بعد تشاور أهل الرأي ما يجعله أدنى إلى رئيس جمهورية منه إلى ملك.[١]

ويرى الدكتور هيكل أن الفكرة العامة لنظام الحكم لم تكن مفصلة القواعد في عهد النبي بعد الهجرة إلى المدينة. وهو ﷺ لم يغير شيئًا من النظام العربي في الحكم على ما بينه في الأساس الذي كان يقوم عليه في قبائل البادية وفي حضر الحجاز واليمن من تباين واضح. فقد ترك الرسول هذه الشؤون ليواجهها الناس في كل أمة كما اعتادوا أن يواجهوها مكتفيًا منهم بأن يقبلوا الدين الذي جاء به من عند الله. وكان إذا سئل في شيء من ذلك أجاب: "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

فلما استقر سلطان المسلمين بالمدينة، وآل الحكم فيها إلى النبي العربي، لم يغير صورة الحكم عما كانت عليه. كل ما حدث أن ما كان ينزل به الوحي من قواعد تخالف ما ألف العرب في حياتهم كان يوجه المسلمين وجهتهم الجديدة في الحياة دون أن يغيروا المبدأ الأساسي للحكم العربي الذي كان يختلف من البادية إلى الحضر، ومن حضر الشمال إلى حضر الجنوب. وكان اختلافه هذا يرجع إلى اعتبارات إقليمية وأخرى تاريخية تأثرت بها كل بيئة تأثيرًا يختلف عما حدث في بيئة أخرى. وكانت مدن الحجاز تستقل كل واحدة منها بنفسها ولا تعرف لغيرها سلطانًا عليها.[٢]

---

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٢٩ باختصار.

(٢) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٣٠.

والمبدأ الأساسي للحكم العربي الذي قام عليه الحكم الإسلامي هو المبدأ الديمقراطي بالتعبير الحديث، وهو يقوم على مبدأ حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة وإقرار رأي الأغلبية. إذا رجعنا إلى الحكم الإسلامي في عهده الأول، وجدنا المبدأ الأساسي للديمقراطية مبدأه. ورأينا الصور التي تصور فيها تختلف بعض الاختلاف عما نعهده اليوم في نظم عصرنا الحاضر، ولكنها تتفق وإياه في الغاية والمبدأ.

ولا غرابة في ذلك، فقد نشأ الإسلام في بلاد العرب وكان كتابه عربيًا، وكان رسول الله ﷺ عربيًا. كانت بلاد العرب في ذلك العصر تعيش في نظام ديمقراطي بحت، أدنى إلى نظام سويسرا اليوم وإلى نظام المدن اليونانية القديمة. لقد كانت الحرية التامة أعز شيء على العربي، بدويًا كان أم حضريًا.

كان أهل القبيلة أو المدينة يجتمعون للنظر في شؤونهم العامة والفصل فيما بينهم من المنازعات، وكانت دار الندوة بمكة مكانًا لهذا الاجتماع للنظر في شؤونها. كان طبيعيًا أن ينعقد نظام الحكم في الإسلام على هذا الأساس الإسلامي الصريح، وأن يكون ديمقراطيًا بالمعنى الذي يفهمه المسلم من الألفاظ التي ترادف هذه الكلمة في لغة ذلك العصر.

إذا رجعنا إلى بيعة أبي بكر وبيعة عمر وبيعة عثمان، نجد هذا المعنى واضحًا فيها تمام الوضوح. كان الناس يجتمعون ويختارون خليفتهم ثم يبايعونه. لم يكن هؤلاء الخلفاء يتولون السلطة التشريعية، لأن هذه السلطة كانت متروكة إلى القضاء، وكان القضاة يستمدون قضاءهم من القرآن والسنة والإجماع والقياس. ثم كانت أحكامهم وفتاوى العلماء هي الأساس الذي يقوم عليه الفقه وتُجرى على مقتضاه المعاملات بين الناس. كان الخلفاء إذن يتولون السلطة التنفيذية على حد تعبيرنا في النظام الديمقراطي.

فهل كانوا يتولونها مستبدين لا يحاسبهم أحد، أو أنهم كانوا يحاسبون وتكون عليهم رقابة سواء من نوع الرقابة البرلمانية في أوروبا أو من نوع الرقابة النيابية في أمريكا؟ إذا كانت عليهم رقابة أيًّا كان نوعها، فلا يبقى ريب في أن نظام الحكم الإسلامي نظام ديمقراطي، وإن اختلف في الصورة عما نألف اليوم، فهو متفق معه في المبدأ والأساس تمام الاتفاق.(١)

الوقفة الثانية:

عند الدولة الأموية والعباسية وما تلاهما:

إذا كان نظام الحكم في الإسلام خلال عهد الخلفاء الراشدين قام على أساس المبدأ الديمقراطي في صورة أقرب إلى الجمهورية، فإنه خلال الدولة الأموية والعباسية وما تلاهما قام على أساس ملكي وراثي لا يمت للمعنى الجمهوري بأي صلة. ومع هذا الاختلاف، فلا يمكن أن نقول إن أحدهما إسلامي والآخر غير إسلامي، بعد أن انعقد إجماع المسلمين على قبول كل منهما.(٢)

ولقد حدثت تطورات واستجدت عوامل هي التي نقلت فكرة الحكم الإسلامي من المبدأ الديمقراطي إلى نظام الملك الوراثي. كان من هذه العوامل الأجنبية التي بدأ يتضح أثرها منذ العهد الأول للإسلام، قتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة، أول مظاهر هذه العوامل الأجنبية. ثم ما كان من مؤامرة انتهت بقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان وما حدث بعد ذلك من ثورة شبت نارها وتلظت الحرب بسببها بين علي ومعاوية.

كان أبو لؤلؤة فارسيًا، وكانت مصر ذات يد في المؤامرة على عثمان، وكانت الشام تؤيد معاوية، وكان العراق يؤيد عليًا. هذه العوامل الخارجية الآتية من فارس ومصر والعراق والشام هي التي نقلت النظام الإسلامي من الخلافة

(١) المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٥ باختصار.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٩- ٣٠.

وإمـارة المؤمنين إلى الملـك الذي توارثه بنو أمية ثم بنـو العباس، فمن جاء بعدهم من الملوك في أقطار العالم الإسلامي.

هـذه العوامـل الخارجيـة هي التي رسـمت الإطـار الخارجي لصـورة الحكم الإسلامي منذ العهد الأول. بعد أن كان هذا الإطار عربيًا صرفًا في عهد الرسول ﷺ وفي عهد أبي بكر، وبعد أن كانت البساطة العربية تطبعه، حمل الفتح الإسلامي عمر بن الخطاب على إنشاء الديوان. أدى امتداد الفتح إلى تنظيم الحكومة الإسلامية في حدود الدين الجديد على مثال الحكومات القائمة في بلاد فارس وفي بلاد الروم.[١]

يسـتعرض الدكتـور هيكل الظـروف التي مر بها نظام الحكم الإسـلامي حتى تحول من الشورى إلى الاستبداد ومن الخلافة إلى الملك. يرى أن بداية هذا التحول ظهرت إثر اشـتعال نار الحرب بين علي ومعاوية، ثـم زاد هذا التحول بعد اندلاع الثورة ضد البيت الأموي.

تأثر الحكم الأموي بهذه الثورات، ولكن بقي الحكم قريبًا من المبدأ العربي الذي يقـدس الحريـة خلال حكم الخلفاء الأولين من الأمويين. فلما اسـتعرت الثورات ثانيـة بين الأمويين والعباسـيين، ولما دخل الفرس ثم دخـل الروم في بلاط الحكم الإسلامي، بدأت هذه المبادئ العربية التي تتفق والروح الإسلامي الصحيح تتأثر بالبيئة الجديدة، ثم طغت هذه البيئة عليها. آمن ملوك المسلمين بحقهم المقدس في الملك كما كان يؤمن به ملوك أوروبا.[٢]

ثانيًا: المبادئ الأساسية للحكم في الإسلام:

يرى الدكتور هيكل أن العلماء والفقهاء المسلمين في العصر الحديث قد قصروا في وضع مذهب كامل لنظام الحكم في الإطار الإسلامي، يحدد التصوير الصحيح لنظام الحكم وتطبيق هذا التصوير على الأمم الإسلامية في هذا الزمن الذي نعيش

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل س ٢٩ – ٣٠ باختصار.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨.

فيه. في محاولة منه لتدارك هذا التقصير، قام باستخلاص المبادئ الأساسية للحكم الإسلامي من المبادئ التي وضعها الإسلام وجعلها أساسًا للحضارة.

يلجأ الدكتور هيكل إلى هذا الأسلوب التحليلي والاستنتاجي لأنه يعتقد أن الإسلام لم يضع قواعد خاصة تنظم شؤون الحكم، وأن النبي العربي لم يغير شيئًا من نظم الحكم التي كانت سائدة في الحجاز، كما لم يضع قواعد ثابتة لنظام الحكم الإسلامي. كان يكتفي من الناس بقبول الإسلام، فإذا فعلوا ذلك، ترك لهم شؤون الحكم وأرسل إليهم من يفقههم في دينهم ويعلمهم قواعده ويحملهم بذلك على تنظيم سلوكهم بموجب هذه القواعد.

ثم يستطرد الدكتور هيكل فيبين أن هذه القواعد الجديدة التي جاء بها الإسلام لتنظيم السلوك والمعاملات كانت مقدمة لتنظيم سياسي لا مفر من استقراره، وقد اطمأنت قواعده بالفعل شيئًا فشيئًا متأثرة بالبيئة وأحداث التاريخ.

في مقدمة القواعد الأساسية التي تأثر بها النظام السياسي للإسلام الإيمان بالله وحده لا شريك له، وأنه تجب له العبادة. فقد أدى هذا الإيمان إلى تقرير قواعد المساواة بين البشر جميعًا، فربهم جميعًا واحد تعنو لعظمته كل الوجوه والكل أمام جلاله سواء. أدى هذا إلى تقرير قواعد الحرية التامة فلا خضوع لمخلوق كان من كان، بل العبادة والخضوع لله الواحد القهار، وتقرير قواعد الإخاء التي أرساها الإيمان، فجعل لحمته أقوى من لحمة النسب، بل وعلم الإنسانية أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة، فأرسى قواعد الإخاء بين الناس جميعًا. الناس إخوان، يجب أن تقوم المحبة بينهم مقام البأس بل مقام القانون، فلا يكمل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

الناس أحرار في كل شيء، حتى في العقيدة نفسها، فلا إكراه في الدين ولا إيمان إلا بعد اقتناع بالحجة والموعظة الحسنة. لقد كانت هذه الركائز التي قام عليها نظام الحكم في العهد الإسلامي الأول، وقد أدت هذه المبادئ إلى تطور نظام الحكم في

بـلاد العرب. ثم أكملـت القواعد الاقتصادية والاجتماعية التي جاء بها الإسـلام هذا التطور وأسرعت بالنظام الإسلامي إلى أن تتضح صورته وأن يستقر.

لقـد بقـي هذا التطور مسـتمرًا على مر العصـور، ولم يقتصر تأثـره على العامل الإسـلامي، بـل تأثـر أحيانًـا بالبيئة وأحـداث التاريـخ تأثـرًا بعيدًا عـن القواعد الإسلامية، بل مناقضًا لها في بعض الأحيان مناقضة صريحة.[١]

إذن فالدكتور هيكل يرى أن مبادى الحكم الإسـلامي يمكن أن تستشـف من المبادى الآتية:

١- مبدأ التوحيد الخالص لله، عقيدة وعبادة.

٢- مبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي.

٣- مبادئ النظام الاجتماعي الإسلامي.

٤- مبادئ النظام الخلقي الإسلامي.

٥- عوامـل البيئة وأحـداث التاريخ التـي تؤثر على نظام الحكـم عند التطبيق العملي في واقع حياة المسلمين.

ثالثًا: مبادئ الحضارة الإنسانية في الإسلام:

يؤكد الدكتور هيكل دائمًا على أن الإسلام لم يضع للحكم نظامًا مفصلًا، ولكنه وضع قواعد للسـلوك في الحياة والمعاملات بين الناس، كانت مقدمة لنظام حكم تطـور عـلى مر الزمان. ولئـن لم يضع الإسـلام للحكم نظامًا مفصـلًا، فقد وضع مبادئ أساسية لحضارة الإنسانية من شأنها أن تتطور على الزمان.[٢]

حـاول الدكتـور هيكل أن يصـور الإطار العام للحكم في الإسـلام من خلال

(١) انظر الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٣٢- ٣٣.

(٢) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٤٢-٤٣.

هـذه المبادئ والقواعد التي وضعها الإسـلام لتكون أساسًـا لحضارة الإنسـانية، وذلك عن طريق التحليل الاجتماعي لحياة المجتمع الإسلامي على تباين العصور.

يضع الدكتور هيكل هذه الحقيقة في صورة سؤال يقول فيه: "كيف نستخلص من هذه المبادئ التي وضعها الإسـلام أساسًـا للحضارة ما يمكن أن يكون نظامًا للحكـم صالحًا لتحقيق أغراضها؟" ثم يجيب عنه قائلًا: "نسـتطيع أن نسـتخلص هذا النظام من تاريخ الإسـلام نفسه ونستخلصه كذلك من تاريخ الأمم المختلفة على تباين العصور".[١]

أوضـح الدكتور هيكل أن الأسـاس الإسـلامي للحضارة الإنسـانية روحي، يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومعرفة مكانه منه، وإلى البلوغ بهذا الإدراك حد الإيمان. على هذا الأسـاس الروحي يجب أن ينظم الإنسان سلوكه في الحيـاة عـلى مبادئ الأخوة والمحبة والبر والتقوى. على أسـاس هـذه المبادئ أيضًا يجب أن تنظم الحياة الاقتصادية للجماعة الإنسانية.[٢]

يسـتخلص الدكتـور هيـكل المبادئ التي وضعها الإسـلام لحضارة الإنسـانية كالآتي:

١ - عقيدة التوحيد.

٢- ثبات سنة الله في الكون.

٣- المساواة بين الناس جميعًا.

٤ _ المسؤولية أمام الله وما ينشأ عنها من نظرية الواجب.

و توضيحًا لهذه المبادئ ألقي عليها بعض الأضواء:

---

(١) المرجع السابق ص٤٤ بتصرف.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٤٤.

١ - عقيدة التوحيد:

وهـذا المبدأ يؤدي إلى تحقيق وحدة الأمة وتماسـكها، إذ إن العقيدة ركيزة هامة في البناء الاجتماعي. فقد ثبت أن اختلاف العقيدة الأساسية في الأمة الواحدة كان دائمًا سـبب قلق واضطراب بين أفرادها. لهذا دعا الإسـلام إلى وحدة العقيدة على أساس بسيط يسيغه العقل البشري في مختلف الأمم وفي مختلف العصور. وهذا هو المبدأ الأول من مبادئ الحضارة الإنسانية في الإسلام.

٢ - ثبات سنة الله في الكون:

المبـدأ الثـاني مـن مبادئ حضارة الإسـلام هو ثبـات سـنة الله في الكون وعدم تعرضهـا للتغـير. وردت في هذا المعنى آيات كثيرة تدل على أنك لن تجد لسـنة الله تبديـلًا ولا تحويـلًا. قد انتهـى العلم في عصرنا الحاضر إلى تقريـر هذا المبدأ في أمر الأحياء وغير الأحياء على السواء، وفي مجال الجماعات والأفراد باضطراد مستمر.[1]

٣- المساواة بين الناس:

وهذه المسـاواة نتيجة حتمية لمبدأ الوحدانية وثبات سـنة الله في الكون والحياة. فوحدانية الله سـبحانه وتعالى وثبات سـنته في الكون يقتضيان المساواة بين الناس وخضوعهم على السواء لسنته جل شأنه.

هذه المسـاواة هي المبدأ الثالث من مبادئ الحضارة الإسـلامية، وعلى أساسـها أقـام العـرب صلتهـم بغيرهم من الأمم التـي اتصل الغزو بينهـا وبينهم في العهد الأول. فالمؤمـن أخـو المؤمن، يتسـاوى معـه في الحقوق والواجبـات، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى. مع هذه المساواة أمام دين الله، لم يفرض الإسلام على الناس بالسيف، بل بقيت حرية الاعتقاد وحرية الرأي مطلقة من كل قيد.

(١) انظر الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٤٦.

وغاية ما فُرض على الذين لم يعتنقوا الإسلام أن يدفعوا الجزية ليكونوا في حماية المسلمين، يتولون دون سواهم القيام بأعباء الحرب والدفاع عن كيان الدولة وذمارها. هذه المساواة سبق بها الإسلام الشرائع الحديثة، وهي تعتبر بعض قواعد الحضارة الإنسانية كما صورها الإسلام. لذلك يجب أن تكون من أسس النظام الإسلامي للحكم، يقررها التشريع وتجرى على موجبها قواعد الأخلاق.[١]

٤- المسؤولية أمام الله تعالى وما ينشأ عنها من نظرية الواجب:

والمسؤولية أمام الله تبارك وتعالى هي التي تجعل الإنسان يراقب ربه، حيث إنه موقن بالرجوع إليه والحساب بين يديه، ويؤمن بأنه مُجزَى منه يوم القيامة. هذه المسؤولية يخضع لها الإنسان فردًا كان أو جماعة، فالجماعة في نظر الإسلام كالفرد تمامًا تجاه هذه المسؤولية، فهي مسؤولة أمام الله، وعليها واجبات للفرد وواجبات لنفسها، والقائمون على أمر الجماعة هم الذين يقع على عاتقهم هذه المسؤولية.

وإذا كانت حضارة عصرنا الحاضر تعتبر الكثير من هذه الواجبات حقوقًا للأفراد بحيث يكون للإنسان حرية التمتع بها ما شاء، فإن الإسلام يراها فروضًا واجبة الأداء لا يصح للإنسان أن ينزل عنها أو يتهاون فيها، فهي حقوق له إزاء أمثاله، وواجبات عليه إزاء بارئه جل شأنه. فالله خلقه ليستمتع بها، واستمتاعه الصحيح بها عبادة لله، فإذا هو نزل عنها أو قصر فيها كان مسؤولًا أمام الله في هذه الدنيا، وكان مسؤولًا أمامه في الآخرة.

هذه المسؤولية هي أساس الجزاء، والجزاء الأوفى عند الله هو الذي يجعل المسلم يسمو بالقيم الخلقية سموًا كبيرًا. إنه لا يخاف جزاء الشارع عنها في هذه الحياة، لأنه يعلم أنه غير ناج من جزاء الله عنها في الآخرة. فالله تعالى مطلع على ما تخفي الأنفس وما تكنه الصدور. ومن ثم كانت الأقدار الخلقية جليلة المقام في الحياة الإنسانية لدى الجماعة الإسلامية. ولذلك من غير ريب أثره البالغ في حياة الجماعة

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٩٧-٩٩ باختصار.

وفي نظامها وفي الحكم وآثاره.[١]

ومن المسؤولية أمام الله تعالى تستمد نظرية الواجب، أي أن الفرد واجب عليه أن يؤدي ما فرض عليه تجاه نفسه وتجاه غيره، وأن يستمتع بما شرع الله له من حقوق على الوجه الذي شرعت له، فإذا قصر في ذلك كان آثمًا.

نظرية الواجب هذه أساسية في النظام الإسلامي وهي مستمدة من مسؤولية الإنسان أمام الله أولًا وقبل كل شيء. فالإنسان مسؤول أمام الله عن أعماله، كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها. فهو مسؤول حتى عن نواياه كما هو مسؤول عن أعماله، فالنوايا مظاهر نفسية يطلع الله عليها، كما أن الأعمال مظاهر مادية يطلع الله ويطلع الناس عليها. فالجماعة الإنسانية مسؤولة أمام الله كمسؤولية الأفراد سواء بسواء. عليها واجبات للفرد وواجبات لنفسها، إن قصرت في أدائها لقيت جزاءها كما يلقى الفرد جزاءه من قضاته. والقائمون بأمر الجماعة هم الذين تقع هذه المسؤولية على عاتقهم أولًا وبالذات.

وتقرير نظرية الواجب على هذا النحو يجعل ما نسميه في التفكير الحديث حقوقًا جزءًا من هذا الواجب علينا أفرادًا وجماعات، ولهذا لا نملك النزول عنه.[٢] بل الواجب على الإنسان التمسك به والدفاع عنه.

علاقة نظام الحكم بمبادئ الحضارة في الإسلام:

ونظام الحكم في الإسلام هو ذلك النظام الذي تتحقق في ظلاله الفكرة الإسلامية في الحياة ونظامها، وتتحقق من خلاله هذه المبادئ التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية في تطورها الدائم نحو الكمال. من هنا، وجب أن يكون هذا النظام نابعًا من هذه المبادئ حتى يكون محققًا لها عند التطبيق.

---

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٤٨.

(٢) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٤٩-٥٠.

رابعًا: تطور نظام الحكم في الإسلام:

يؤكد الدكتور هيكل دائمًا على أن النبي ﷺ لم يضع نظامًا مفصلًا للحكومة الإسلامية، وإن كان يعترف بأن ما جاء به النبي من عند الله تنظيمًا لقواعد السلوك والمعاملات كان مقدمة لتنظيم سياسي لا مفر من استقراره. وقد بدأ هذا التنظيم السياسي تطوره البطيء من عهد النبي ﷺ، ثم كان تطوره أكثر وضوحًا عقب حروب الردة. فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامي، بدأت العوامل الخارجية تحدث أثرها في هذا التطور، وكان أثر هذه العوامل بعيدًا عن القواعد الإسلامية أحيانًا، بل ومناقضًا لها كل المناقضة أحيانًا أخرى.(١)

إذن فالدكتور هيكل حين يستعرض تطور نظام الحكم في الإسلام إنما يقصد واقع الحكم في بلاد المسلمين، أي في التطبيق العملي في حياة المسلمين، بصرف النظر عن كونه متفقًا مع الأصول الإسلامية أو مخالفًا لها، فهو إنما يصور الواقع كما كان.

يلاحظ الدكتور هيكل أن نظام الحكم في الإسلام مر بمرحلتين، اتخذ نظام الحكم في كل منهما صورة مختلفة عن الأخرى، وكان وراء كل منهما فكرة وفلسفة مغايرة للأخرى.

أ- **الصورة الأولى**: صورة الحكم إبان الخلافة الراشدة والخلفاء من بني أمية:

وطبعت صورة الحكم إبان هذه الفترة الفكرة العربية كما فهمها أبو بكر وعمر، وتقوم على الركائز الآتية:

١- الأمة تختار الخليفة و توليه.

٢- الخليفة وكيل عن الأمة، عليها أن تطيعه في حدود توكيله.

٣- الخليفة مسؤول أمام الأمة، وعليها أن تراقبه وأن تقومه في حدود مبادئ الدستور (القرآن الكريم والسنة).

(١) الحكومة الإسلامية في هيكل ص ٣٥.

٤- للأمة أن تعزل الخليفة إذا أخل بشروط الوكالة.

يوضح الدكتور هيكل هذه الركائز فيقول: "لما تمت البيعة لأبي بكر خطب الناس فقال: لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. وقال: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. وهذا صريح في أن أبا بكر يقر بحق الرأي العام في مراقبته وإرشاده، ويذهب في ذلك إلى حد الإقرار لهذا الرأي العام بعصيانه إذا هو عصى الله ورسوله. نحن إذا أردنا أن نرتب على هذا الكلام نتيجته المنطقية، لم نكن مخطئين في القول بأن الذين بايعوا أبا بكر كان لهم حق محاسبته وتقويمه، فإن عصى كان لهم حق العصيان، وبعبارة أخرى كان لهم حق عزله".

وكان عمر بن الخطاب بعد أن أصبح أمير المؤمنين يخطب الناس بمثل المعنى الذي تحدث به أبو بكر، ويذكر للناس أن لهم أن يقوموه إن رأوا في تصرفه اعوجاجًا. لقد أجابه أحد الحاضرين بهذا الجواب الذي يحفظه كل مسلم عن ظهر قلب: "والله يا عمر لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناه بحد سيوفنا". وهذا الجواب يشهد لعمر بأنه كان رجل عدل وصدق ونزاهة، لكنه يشهد كذلك بأن العرب كانوا يعرفون ما لهم من حق في محاسبة صاحب السلطان عليهم ومراقبته.[١]

ظل الحال كذلك في عهد خلفاء بني أمية، وإن تغيرت بعض ملامح هذا النظام في اختيار الخليفة، إلا أن الشكل العام والجانب الأكبر كان امتدادًا لحكم الخلفاء الراشدين لأن الذين كانوا يضطلعون بأعباء الحكم ومناصب الدولة الكبرى كانوا عربًا.[٢]

ب- الصورة الثانية: صورة الحكم إبان عهد الخلفاء العباسيين ومن بعدهم:

الصورة الثانية: صورة الحكم إبان عهد الخلفاء العباسيين ومن بعدهم:

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٥.

في هـذه الفترة تأثرت صورة الحكـم بمؤثرات خارجية خرجت بها من الفكرة العربية كما فهمها أبو بكر وعمر، وهي التي تتفق مع ما نزل في القرآن على محمد ﷺ "قل إنما أنا بشر مثلكم"، إلى الفكرة التي أخذ بها ملوك بني العباس من أنهم يستمدون سلطانهم من الله لا من الناس، وأنهم محاسبون أمام الله غير محاسبين أمام الناس.[1]

هذه الصورة من صور نظام الحكم تقوم على الركائز الآتية:

١- أسـاس الحكـم هو الحق الإلهي المقدس، أي أن السـلطة مسـتمدة من الله بالغَلَب لا من الناس بالبيعة.

٢- الخليفة هو ظل الله على الأرض.

٣- الخليفة وكيل عن الله وضع في يده مفاتيح خزائنه في الأرض.

٤- يتصرف الخليفة في شؤون الحكم بإرادته المطلقة المستمدة من إرادة الله.

٥- الخليفة غير محاسب أمام الناس، إنما سيحاسبه الله وحده.

ويوضـح الدكتور هيكل هذه الصورة فيقول: "فلما انتقل الأمر إلى العباسـيين بـدأ الأثـر الخارجي يبدو أكثر وضوحًـا لأن الفرس كانوا أصحـاب نفوذ كبير في شـؤون الدولة، إذ بسواعدهم وصل العباسـيون إلى الحكم. ثم إن العهد العباسي امتاز بنقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، وبدأت نظريات هذه الفلسفة تعمل عملها في تصوير الحياة العامة للدولة الإسلامية. إذا كان الفقهاء والمحدثون عنوا في هذا العهد باستنباط القواعد والأحكام من الكتاب والسنة ومهدوا بذلك لوضع التشريع الإسلامي، فإن كثيرين من هؤلاء الفقهاء والمحدثين وكثيرين من الكتاب والمفكرين كانوا من غير العرب. كان طبيعيًا أن تؤثر وراثتهم العقلية في أحكامهم وفي منطقهم. ثم إن النظام الذي كان قائمًا في بلاد فارس وفي بلاد الروم كان يجعل لولي الأمر سـلطانًا مطلقًا. من أثر ذلك أن تطورت الفكرة الأساسية في الحكم إلى

(١) المرجع السابق ص ٣٦.

النقيض لما كانت عليه في أول العهد الإسلامي. ثم كان من أثره أن شاعت فكرة هذا الحكم المطلق، متنقلة من أمير المؤمنين إلى الحكام والولاة وإلى من دونهم من سائر من يتولون منصبًا من مناصب الدولة ذا أثر في توجيه حياة الناس ومنافعهم".[١]

ثم يعلل الدكتور هيكل سبب شيوع هذه الظاهرة وأصلها، وهي ظاهرة الاستبداد والحكم المطلق، بأن الخلفاء أو الملوك على حد تعبيره من بني العباس كانوا يعتقدون أن الأمر قد آل إليهم بعد جهاد طويل وأنهم جلسوا على عرش المملكة الإسلامية بحق الفتح والغلب، وأن الله تعالى هو الذي أمكنهم من ذلك. عليه فلا فضل عليهم لأحد من الناس، فهم قد غلبوا الشعب الذي كان خاضعًا لخصومهم السياسيين وتسلطوا على رقابه بقوة البأس. فهم سادته وحكامه، وقد سار في ركاب هؤلاء الخلفاء الجدد بطانتهم وحاشيتهم من أولي الرأي الذين كانوا يقولون لهم سمعنا وأطعنا. طبيعي أن يكون العامة تبعًا لأولئك، فكان الجميع خاضعين تحت سلطان القهر.[٢]

أثر التطور في الفكرة العامة للحكم على مبادئ الإسلام:

يرى الدكتور هيكل أن التطور الذي طرأ على الفكرة العامة لنظام الحكم قد أحدث تأثيرًا سلبيًا على الفكر الإسلامي. تحت هذا التأثير، اهتز الفهم والتطبيق لمبادئ الإسلام في حياة المسلمين. كان من أثر ذلك حدوث تأثيرات سيئة في كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والحضارية في الدولة الإسلامية.

١ - أثر التطور على الحياة الاجتماعة:

يرى الدكتور هيكل أن المبادئ التي جاء بها الإسلام لتنظيم الحياة الاجتماعية قد تأثرت بالتطور الذي طرأ على الفكرة العامة للحكم، وضرب أمثلة لهذا التطور بشيوع ظاهرة الرق. رغم أن الإسلام يعمل بكل السبل على إنهاء هذه الظاهرة

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٢٠ - ٣٩.

(٢) انظر المرجع السابق.

المهينة من حياة الإنسان، حيث قصر موارده على أسرى الحرب المشروعة الذين لا يفتدون أو لا يُقبل منهم الفداء فيُضرب عليهم الرق، ثم فتح الأبواب على مصاريعها لتحرير هذا الرقيق.

وقد أحدث التطور الذي طرأ على أمر الحكم أثره فجعل من الرق تجارة رائجة، فلم يقف منبعه عند أسرى الحرب، بل تعدى ذلك إلى خطف الغلمان والفتيات واعتبار هذا الخطف غزوًا مبررًا لضرب الرق عليهم وبيعهم في سوق النخاسة.

كما ظهر هذا الأثر على الناحية الاجتماعية في مكانة المرأة ومعاملتها، حيث صارت أشبه بالرقيق، ونظر الرجل إليها على أنها بعض المتاع لقضاء الشهوة وإنجاب الأولاد. فسقطت عنها كرامة الإنسان، وأصبح الإحسان في معاملتها تفضلًا من الرجل، وحُرم عليها الحرية في المتاع الشريف بالحياة، بل تحكم فيها تحكم أمير المؤمنين في رعيته.[1]

٢- أثر التطور في فكرة الحكم على الناحية السياسية:

لقد تأثرت الناحية السياسية للأمة الإسلامية بالتطور الذي طرأ على نظام الحكم، حيث أدى هذا السلطان المطلق لأمير المؤمنين، والذي جعله أشبه بإمبراطور الرومان أو بعاهل الفرس حيث السلطان غير المحدود وغير المسؤول، إلى إغراء كل حاكم ولاية إسلامية بأن ينتقض على أمير المؤمنين ليكون هو أيضًا مطلق السلطان في ولايته، فلا يخضع لأحد غير هواه وشهوته في الحكم ليكون أشبه بأمير المؤمنين.

بذلك، عم الانتفاض أنحاء العالم الإسلامي وانتهت بذلك فكرة الإمبراطورية الروحية التي تربط المسلمين جميعًا برابطة التقوى والإيمان بالله وحده ورفض الخضوع لغير الله. بذلك دخلت دولة الإسلام في طور الإمبراطوريات المتداعية الركن المهيضة الجناح، بعد أن غاض ماء الحياء من مثلها الأعلى، وأصبحت لا

(١) المرجع السابق ص ٣٨-٣٩.

تعـرف التضامن ولا التراحم ولا الاعتصـام بحبل الله، بل صارت إلى مثل مصير الحيوان، لا هَمَّ لأفرادها إلا في التماس الرزق لأنفسهم ولو بالقضاء على أخيه.[١]

٣- أثر التطور في فكرة الحكم على الناحية الأخلاقية:

نظرًا لانقلاب فكرة الحكم من الخلافة الراشدة التي تقوم على الشورى واحترام آدمية الإنسان إلى الملك العضوض القائم على التسلط والقهر، فقد انقلبت أوضاع الناس الأخلاقية وانتكسـت من الأخلاق الفاضلة السـامية إلى الأخلاق الدنيئة. سـاد بينهـم التطاحن والتناحر والتفـرق، وعمت البغضاء والشـح والبخل وغير ذلك من فاسد الأخلاق التي إذا سادت مجتمعًا أتت عليه من القواعد.

لقد وصل انحطاط الأخلاق بين الطبقات الحاكمة إلى مسـتوى العمالة والتآمر ضـد الأمة من أجل الوصول إلى السـلطان أو الحفاظ عليه. كـم من أمير أو ملك في أمة إسـلامية تحالف مع الصليبيين أو مع التتار ليكون وإياهم إلبًا على غيره من ملوك المسلمين وأمرائهم!

ورغـم أن القـرآن يفرض على الذيـن آتاهم الله من فضله أن يؤتـوا الزكاة وأن يـؤدوا الصدقـات إلى أهلهـا، ويقـرر في أمـوال ذوي المـال حقًـا معلومًا للسـائل والمحـروم، ويقيـم بذلـك توازنًا بـين الفردية التي تحفز العامل للسـعي وكسـب الرزق وبين الاشتراكية التي تكفل للجماعة الطمأنينة والاستقرار بسد عوز المعوز وحاجـة المحتاج. مـع ذلك ترى في عصور التدهور ما يناقض هذه المثل العليا كل المناقضة من شح مطاع ودنيا مؤثرة.

بذلك صغرت النفوس وضعفت القلوب وهانت كرامة الإنسان، وأصبح أمر النـاس مظاهـر لا تنطوي على حقيقة ولا مأرب لهم منهـا إلا إرضاؤهم لأنانيتهم وإشباعهم لغرورهم.[٢]

(١) انظر الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٤٠-٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٤١-٤٢ بتصرف.

١ - أثر التطور في نظام الحكم على الحضارة الإسلامية:

لقد أدت الآثار السابقة إلى نتيجتها الحتمية، وهي الجمود والتخلف الذي ساد المجتمعات الإسلامية التي رزحت تحت نير التسلط وخضعت لسلطان القهر. فتخلفوا في شتى مجالات الحياة، واتخذ أعداء الإسلام من هذا التخلف الناشئ عن تعطيل مبادئ الإسلام دليلًا على عدم صلاحيته للحياة الحديثة، ووصموه زورًا بأنه دين رجعي يؤدي إلى التخلف ولا يساعد على التحضر والتقدم. لذلك، قالوا إنه لا يصلح أن يكون دينًا للإنسان المتحضر، ليوقفوا بهذه الفرية المد الإسلامي المستمر والتنامي رغم ضعف المسلمين وتخلفهم.

ثم كروا بعد ذلك بالهجوم عليه ليزعزعوا من ثقة المؤمنين به، إذ ربط هؤلاء الأعداء بين تخلف المسلمين وبين اعتناقهم لدين الإسلام، بل جعلوا هذا الإسلام هو السبب الأوحد لهذا التخلف. فلما أفاق المسلمون من سباتهم، بدأ الحكماء منهم والمفكرون يتساءلون عن سبب هذا التردي والتخلف: هل هو ناشئ بسبب عقائد المسلمين أم بسبب نظام الحكم فيهم؟

لقد أحدث هذا الخلل فراغًا حضاريًا غزت حضارة الغرب بلاد المسلمين من خلاله، وكانت نظم الحكم الغربية تنتقل مع هذا الغزو إلى الأقطار الإسلامية، وبذلك صاروا إلى تبعية مهينة بل إلى احتلال أثيم.

خامسًا: كيف نعود بنظام الحكم في العصر الحاضر إلى نظام الإسلام؟

حيث إن نظام الحكم في الإسلام قد مر بأطوار مختلفة وصور شتى، وتأثر خلال أطواره وصوره بعوامل كثيرة منها البيئة والأحداث التي مرت بهذه البيئة، وكذلك بالتطور الفكري والعلمي الذي انتهى الناس إليه. لذلك يرى الدكتور هيكل أنه لا يصح أن نطلق على أي صورة منها خلال هذا التطور أنها هي وحدها الصورة الصحيحة لنظام الحكم في الإسلام، فنتخذها مثلًا يُحتذى ونطبقها في عصرنا الحاضر دون غيرها.

كما أنه ليس طبيعيًا أن نعود بنظام الحكم إلى الفكرة العربية الأولى، فالتطور الذي مر به العالم خلال القرون يجعل هذا العود غير مستطاع. هكذا يعتقد الدكتور هيكل، فهو يقول: "قد رأينا أن نظام الحكم في الإسلام قد اختلفت صورته، فهو في عهد الخلفاء الراشدين غيره في عهد بني أمية، وهو في هذين العهدين غيره في عهد بني العباس. ومن غير الميسور أن نختار نظامًا من هذه النظم فندعو للعودة إليه. فنظام الحكم لا يتأثر بالمبادئ وحدها، بل يتأثر كذلك بالبيئة التي يقوم بها، وبالأحداث التي تمر بها هذه البيئة، وبالتطور الفكري والعلمي الذي انتهى الناس إليه. قد تأثر نظام الحكم في الممالك الإسلامية بهذه العوامل تأثرًا بينًا ناقض بعض المبادئ التي أشرنا إليها مناقضة بينة. وليس طبيعيًا أن نسمي هذا النظام نظامًا إسلاميًا سليمًا، وليس طبيعيًا كذلك أن نعود بنظام الحكم الإسلامي إلى الفكرة العربية الأولى. فالتطور الذي مر به العالم خلال القرون الثلاثة عشرة الأخيرة يجعل هذا العود غير مستطاع".

لكن ليس معنى هذا أن نظام الحكم الإسلامي لا يستطاع تطبيقه في عصرنا الحاضر، وإنما معناه أننا يجب أن نجعل هذا النظام قائمًا في حدود تفكيرنا، محققًا في نفس الوقت للفكرة العامة وللمبادئ التي وضعها الإسلام أساسًا للحضارة الإسلامية، لا يحيد عنها ولا يناقضها.

لن يعترض أحد حينئذ بأن مراعاة التطور الفكري والعلمي والملاءمة بينه وبين النظام الإسلامي للحكم فيه ما يخالف المبادئ الإسلامية ما دام النظام الذي يقوم تكون غايته تحقيق هذه المبادئ وما دام النظام نفسه يقوم في حدود تلك المبادئ.

ليس المقصود بنظام الحكم التفاصيل، وإنما يقصد به تحقيق الفكرة السامية والمثل الأعلى والمبادئ العامة التي أرادها الإسلام لتكون أساسًا للحضارة. فإذا تحقق هذا الغرض، كان النظام الإسلامي الذي يسير مع التطور الإنساني في التفكير والعلم والفن. وإن وقف عند التفاصيل دون تحقيق الأغراض كان نظامًا

جامـدًا متداعيًـا، كالنظم التي قامت في عهد الانحلال وبعـده عن أن يكون نظام الحكم في الإسلام كما أراده الله أن يكون.

إذن فالنظـام الإسـلامي الذي أردنا أن نصوره هو النظـام الذي تتحقق بقيامه المبادئ الإسـلامية، والمسـتمد من الإيمان بالله الحق وثبات سنة الله في الكون، ثباتًا ندركـه بعقولنا الحرة وتفكيرنا المتصل. وأن نتعـاون فيما بيننا وعلى أن يحب أحدنا لأخيـه ما يحب لنفسـه، وأن يـؤدي الفرد واجبه لله وللجماعـة، وأن تؤدي الجماعة واجبها لله وللأفراد جميعًا.[1]

بهـذا يتضـح تصور الدكتـور هيكل لنظـام الحكم في الإسـلام. يتلخص في أن هـذا النظـام لا يخضع لصـورة معينة أو قالب محدد، فليكـن في أية صورة ما تكون وفي أي قالب طالما كان هدفه تحقيق مبادئ الإسلام وطالما كانت وسيلته إلى ذلك الشورى، سواء أكان من نوع خلافة الراشدين أم من نوع إمارة المؤمنين على عهد الأمويين أم من أي نوع آخر تمليه ظروف البيئة وأحداث الزمان وحالة الناس.

ولي على هذا التصور بعض الملاحظات أوردها فيما يلي:

ملاحظات على منهج الدكتور هيكل في كتابته عن نظام الحكم في الإسلام:

الملاحظة الأولى:

رغم أن الدكتور هيكل -رحمه الله- قد وضح توضيحًا جليًا أهمية نظام الحكم وأثره في حياة الأفراد والمجتمعات، إلا أنه مع ذلك اعتبره من شـؤون الدنيا التي ترك الإسـلام للناس حرية التصرف فيها باعتبار أنهم أعلم بشـؤون دنياهم. هذا مـا لا يتفـق مع موقف الإسـلام من الأمور التـي تؤثر في حياة النـاس هذا التأثير العميق، لأن نظام الحكم هو الإطار العام الذي تساس في حدوده كل أمور الدنيا،

(١) انظر الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٥١-٥٤.

وتؤدى من خلاله الواجبات وتصان عن طريقه الحقوق والحدود. هذا مما يختلف عليه الناس، ولا أدل على ذلك من اختلاف أنظمة الحكم من بيئة إلى أخرى ومن زمان إلى آخر.

قد استوحى الدكتور هيكل هذه الفكرة من فعل الرسول الكريم ﷺ، فقد ترك شؤون الحكم يوجهها الناس في كل أمة كما اعتادوا أن يوجهوها، مكتفيًا منهم بأن يقبلوا الدين الذي جاء به من عند الله. كان إذا سُئل في شيء من ذلك أجاب: أنتم أعلم بأمور دنياكم.[١]

ولست أدري: كيف ينسب الدكتور هيكل هذا القول إلى رسول الله ﷺ مقترنًا بنظام الحكم؟ ذلك أن المناسبة التي قيل فيها هذا القول الكريم لم تكن تتعلق بأمر يختلف عليه الناس، وإنما كان أمرًا فنيًا بحتًا مختصًا بأمر من أمور الزراعة، وهو تأبير النخل من عدمه وتأثير ذلك على الإنتاج. هذا من سنن الله في الخلق التي لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بإيمان أو كفر ولا بطاعة أو معصية. مثل هذه الأمور لا يتعلق بها تشريع، وإنما تُترك للناس يصلون فيها إلى الصواب عن طريق الاستقراء والتجربة التي لا تحيد ولا تختلف نتائجها من مكان إلى مكان لأنها من سنن الله التي لا تتبدل.

نظام الحكم ليس من هذا القبيل، ولذلك فالحق أنه ليس من شؤون الدنيا التي تُترك للناس يتعلمونها عن طريق الخطأ والصواب فيضلون ويُضلون. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.[٢] فنظام الحكم من أمور الدين التي أرسى الإسلام قواعدها وأجملها الله في كتابه وفصلها النبي في سنته. ومن أهم هذه القواعد: الشورى – المساواة – العدل.

(١) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ص ٣٠.

(٢) الآية رقم ٢٨ من سورة النساء.

الملاحظة الثانية:

لما كان لنظام الحكم أثر بالغ في حياة الناس، فقد عُنِيَ الإسلام بوضع قواعد عامة تنظمه، وهذه القواعد العامة التي وضعها الإسلام للحكم تتلخص فيما يأتى:

١ - **أن يكون للناس ولي أمر يلي أمورهم العامة:** لأن كلًا منهم ينصرف إلى شئونه الخاصة، فلا بد لهم من شخص يقوم بشئونهم العامة مما لا غنى لهم عنها في حياتهم. هؤلاء هم أولوا الأمر الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى في الآية ٨٣ من سورة النساء: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم". وليس كل شخص صالحًا للقيام بهذه الولاية، بل لابد له من شروط تجعله صالحًا لها من العلم والأمانة ونحوهما، مما يجعله صالحًا لها. كل المسلمين سواء في هذه الشروط.

٢ - أن يقوم ولي الأمر فيهم برضاهم: فلا ينتصب واليًا عليهم إلا بعد رضاهم به، ولابد من دوام رضاهم عنه. فإذا حصل منه ما يستوجب عدم رضاهم انقطع حكمه كائنًا ما كان شكل هذا الحكم. قد جاء القرآن الكريم بهذا في قوله تعالى في الآية ٣٨ من سورة الشورى: "وأمرهم شورى بينهم". لأن الشورى لا تكون إلا مع الرضا.

٣ - أن يكون الحكم بالعدل بين الناس جميعًا: ليستووا فيه بلا فرق بينهم باختلاف أديانهم وأجناسهم. قد أمر الله تعالى بهذا في الآية ٥٨ من سورة النساء: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل".

٤ - أن يكون الحكم بالشورى بما أنزل الله في كتابه وفصله النبي في سنته: لأنها أساس الحكم الصالح. فالرأي الواحد قد يميل مع هوى صاحبه، والآراء الكثيرة إنما تجتمع على المصلحة العامة. بهذا يكون في الشورى صيانة لولي الأمر عن إيثاره لمصلحته، وصيانة للأمة عما يصيبها من الضرر بإيثاره لهذه المصلحة. هذه الشورى

تدخل أيضًا فيما جاء في الآية السابقة: "وأمرهم شورى بينهم". وهي التي أمر الله تعالى بها في الآية ١٥٩ من سورة آل عمران: "وشاورهم في الأمر". والأمر بها في الآية للنبي ﷺ، وإذا كان قد أمر بها وهو يتلقى الوحي عن الله تعالى فإن غيره ممن لا يتلقى الوحي أولى بهذا الأمر.(١)

فهذه القواعد التي توضح الخطوط العامة لنظام الحكم في الإسلام واضحة كل الوضوح، وهي قواعد أصلية ليست مستنتجة من النظام العام في الإسلام ولا من المبادئ التي وضعها الإسلام لتكون أساسًا للحضارة. يكفي لأصالتها أن كتب الحديث قد أفردت أبوابًا للأحاديث المتصلة بشئون الحكم ككتاب الإمارة في صحيح مسلم وكتاب الأحكام في الجامع الصحيح للإمام البخاري.

الملاحظة الثالثة:

يرى الدكتور هيكل -رحمه الله- أن نظام الحكم في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين كان امتدادًا للفكرة العربية في الحكم. يقول بعد استعراضه لنظم الحكم في الجزيرة العربية قبل الإسلام: "ولما استقر سلطان المسلمين بالمدينة وآل الأمر فيها إلى النبي العربي لم يغير صورة الحكم عما كانت عليه، وكل ما حدث أن ما كان ينزل به الوحي من قواعد تخالف ما ألف العرب في حياتهم كان يوجه المسلمين وجهتهم الجديدة في الحياة دون أن يغير المبدأ الأساسي للحكم العربي".(٢)

ثم يعلل ذلك بقوله: "ولا غرابة في ذلك، فقد نشأ الإسلام في بلاد العرب، وكان كتابه عربيًا، وكان رسول الله ﷺ عربيًا. قد كانت بلاد العرب في ذلك العصر تعيش في نظام ديمقراطي بحت، فكان طبيعيًا أن ينعقد نظام الحكم في الإسلام على هذا الأساس العربي الصريح".(٣)

---

(١) السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، عبد المتعال الصعيدي، ص ٥-٨ باختصار.

(٢) الحكومة الإسلامية د/ هيكل ٣٠.

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٤.

وهـذا رأي غير سـديد لأن الإسـلام نسـيج وحـده وليـس امتـدادًا أو تطورًا للنظـام الجاهـلي الذي هو من نتاج الضلال البشري في العقيدة والقيم والسـلوك. أمـا الإسـلام فهو دين سـماوي جاء لتقرير صوالـح البشريـة في كل نواحي الحياة بمقـررات ربانية عامة وقواعـد كلية تقوم عليها جميع التنظيـمات الحيوية. لذلك، لا يمكن أن تكون مبادئه العامة نظرية بشرية، لأن القواعد الكلية في الإسلام، في العبادات والمعاملات، في شؤون السلم والحرب، في الأمور السياسية والدستورية مـن وضـع الخالق سـبحانه وتعالى. المبادئ السياسـية للإسـلام هي المبـادئ التي تتحدث عنها أصوله ويمكن التعرف عليها في القرآن الكريم وفي صحيح السـنة، والاسترشـاد في ذلـك بالتطبيق العملي للرسـول عليه الصلاة والسـلام والخلفاء الراشدين من بعده.[١]

وقـد لخص فضيلة الإمام الأكبر شـيخ الجامـع الأزهر المرحوم الشـيخ محمود شلتوت المبادئ الأساسية للحكم في الإسلام في المبادئ الآتية:

١- السـيادة: هـي لله وحـده لأنه الخالق المالك، وهي في كل شـعب للشـعب نفسه بعد الله الذى استخلفه في وطنه.

٢- **الحكم**: هولله، وهو حقه وحق الشعب الذي يباشره نيابة عن الله.

٣- **الحاكـم**: وكيل للأمة وليس له عليها سـيادة، بل هي سـيدته وهو خادمها الأمين.

٤- **الشورى**: أساس الحكم، وكل حكم لايقوم على الشورى لايكون شرعيًّا.

٥- **التضامن الاجتماعى**: الأفراد جميعًا يتضامنون في المسـؤولية عن صوالحهم وصوالح الدين والدولة.

(١) من توجيهات الإسلام، للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، ص ٥٠٥٠-٥٥١ بختصار.

٦- **الرقابة الشعبية**: حق للأمة أن تراقب حكامها وتحاسبهم و ترسم لهم خطوط تدبير صوالحها، وتشرف على التنفيذ وتعدله حسب مصلحتها.

٧- **عزل الخليفة**: للأمة أن تعزله إن جار أو ظلم و ظهر غشمه، ولم يرعوِ لناصح أو زاجر، فإن رفض العزل عزلته بالقوة، ولو أدى ذلك إلى نصب الحرب وشهر السلاح في وجهه إذا رأت الأمة ذلك في مصالحها.

٨- **أهل الحل والعقد**: هم أهل العلم والرأي والخبرة في كل نواحي النشاط الحيوى للأمة، وهم لسانها المعبر عن رضاها وسخطها، ومن حقهم ترشيح أصلحهم للخلافة وتقديمه للأمة لترى رأيها فيه عن رضا واختيار دون ضغط أو قهر، و من حق كل مسلم أن يكون له رأي في اختيار الخليفة، وأن يمكن من إعلان رأيه بحرية تامة، دون أن يضار بسبب رأيه لو خالف رأي الأغلبية، وعليه مع هذا أن يلزم الجماعة.

٩- **هدف الحكم**: سعادة المحكومين وتحقيق السلام في الداخل والعزة في الخارج ونشر السلام.[١]

فأي المبادئ من هذه كان موجودًا ومطبقًا في حياة العرب قبل الإسلام؟ لم يكن الا الجاهلية بضلالها و ظلامها الذي سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.[٢]

حقيقةً كانت في حياة العرب السياسية بعض الومضات المضيئة، مثل حلف الفضول الذي شهده رسول الله ﷺ قبل البعثة، وأثنى عليه خيرًا بعد أن صار رسولًا، ولكن لا ترقى هذه الومضات الضئيلة إلى أن تكون نظامًا متكاملًا للحكم يقوم عليه نظام الحكم في الإسلام.

(١) المرجع السابق الشيخ محمود شلتوت ص ٢١٧ – ٢١٨.

(٢) الآية رقم ٢ من سورة الجمعة.

الملاحظة الرابعة:

يكتب الدكتور هيكل أبحاثه في نظام الحكم في الإسلام وهو متأثر بآراء أستاذه: أحمد لطفي السيد، الذي كان يدعو إلى الرابطة القومية العربية على حساب الرابطة الدينية ويتمسك بالجامعة المصرية على حساب الجامعة الإسلامية، فجاء رأي الدكتور هيكل في الخلافة الإسلامية كإحدى صور الحكم الإسلامي متأثرًا بهذه الآراء:

"ولُبُّ مذهب هذا الفريق من مثقفي حزب الأمة ومفكريه، وعلى رأسهم أحمد لطفي السيد، وخلاصة رأيهم فيه: أن الوطنية لا ينبغي أن تكون اندفاعًا عاطفيًا أعمى يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادئ المتزن، ولا ينبغي أن تقام على أساس من الأوهام التي لا سبيل إلى تحقيقها من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية. الأحرى بالمصري أن يفكر في نفسه أولًا وفي مصلحته قبل كل شيء، وهي مصلحة يتفق فيها سائر المصريين وهم يعنون بهم المقيمين في مصر ممن استوطنوها على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، ولا يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين".[1]

والمعروف أن الخلافة الإسلامية كانت راشدة في عهد الخلفاء الراشدين، وكانت أصفى وأنقى صور الحكم، إذ كانت التطبيق الصادق والأمين لمبادئ الإسلام في السياسة والحكم. ولكنها بعدت عن هذا الصفاء رويدًا رويدًا بمرور الزمان وتغير الأحوال، حتى كانت آخر المطاف في السلاطين من آل عثمان، الذين فتح الله على أيديهم مدينة القسطنطينية واجتاحوا شرق ووسط أوروبا، ووصلت جيوشهم إلى مدينة فيينا. لذا كانت الدولة العثمانية شبحًا مرعبًا لملوك وأمراء أوروبا. فلما اعتراها الضعف وظهرت عليها أمارات الوهن بسبب كيد هؤلاء الأعداء، ظهرت العداوة والبغضاء سافرة حاسرة وتمثل ذلك في حرب لا هوادة فيها على هذه الدولة وعلى دينها الإسلام وعلى رمز قوتها ومكمن عزتها: الخلافة الإسلامية. ضرب على

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد حسين ج ١ ص ٧٩-٨٠.

نفس وتر العداء وسار على درب القضاء على الدولة العثمانية المسلمون الجهلاء، الذين انطلت عليهم حيل الأعداء حين اعتبروا تركيا دولة استعمارية، فانفصلوا عنها وثاروا عليها واعتبروها حربًا تحررية يبذل في سبيلها النفس والنفيس.

يروي الدكتور هيكل في مذكراته هذه المؤامرة ضد دولة الخلافة فيقول: "لقد أراد الحلفاء وأرادت إنجلترا بنوع خاص بعد أن انتهت الحرب الكبرى أن تقضي على السلطنة العثمانية التي قامت بأمر الخلافة الإسلامية قرونًا عدة قضاء مبرمًا. شجع ذلك اليونان على حرب تركيا في سنة ١٩٢٢م، حربًا أرادوا من ورائها الاستيلاء على الآستانة والتوغل في آسيا الصغرى. لم يقوَ الخليفة (السلطان العثماني) على ردهم، فتصدى لهم مصطفى كمال القائد التركي وواجههم في الأناضول وهزم الجيوش اليونانية في سقاريا هزيمة منكرة وردهم على أعقابهم واسترد منهم ما كسبوه. بذلك انتهت السلطنة العثمانية وانتهت معها خلافة بني عثمان على الدول الإسلامية. أعلن مصطفى كمال الجمهورية التركية واتخذ من أنقرة مقرًا لها، وصرح بأن تركيا لم يبق لها بالخلافة حاجة، ولم يتردد في الجهر بأن هذه الخلافة جرت على تركيا متاعب لا قبل لها بها.[1]

وبذلك عملت إنجلترا عن طريق الكيد العسكري والخداع السياسي على إسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا، التي كانت ترتعد منها فرائص الغرب الصليبي، ثم عملت عن طريق الغزو الفكري لإسقاطها من نفوس المسلمين، حتى لا يعودوا إليها مرة أخرى.

وفي إطار هذا الغزو الفكري، صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق، ذلك الشيخ الأزهري الذي تتلمذ على يد الأستاذ الإمام محمد عبده، وأعجب بآراء السيد جمال الدين الأفغاني، وحضر دروسًا في الجامعة المصرية لمدة عامين استمع في أثنائهما إلى بحوث (نللينو) في تاريخ الأدب العربي، وإلى دروس

(١) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص ١٩٤.

(سانتيلانا) في الفلسفة، وحصل في سنة ١٩١١ م على شهادة العالمية من الأزهر، والتحق بجامعة أكسفورد للحصول على درجة علمية في الاقتصاد والعلوم السياسية، بيد أنه انقطع عن هذا الدرس لقيام الحرب العالمية الأولى وعاد إلى مصر.[١]

وهذا الكتاب كان -كما يقول الدكتور محمد محمد حسين- أخطر ما ظهر فيما كتب عن الخلافة مما كان صدى لما تلا الحرب من تطورات في تركيا، ولا ترجع خطورته لدقته في البحث، فالكتاب يمتاز بجمال أسلوبه أكثر من امتيازه بالتزامه المنهج العلمي. فهو يعتمد على المستشرقين فيما لا يوثق بهم فيه، بينما يفرط تفريطًا ظاهرًا في الرجوع إلى المصادر العربية الأصلية على كثرتها وأهميتها وتوافرها.[٢]

والشيخ علي عبد الرازق تربطه صداقة حميمة بالدكتور هيكل نظرًا لانتمائهما لمدرسة فكرية واحدة هي مدرسة التجديد، وانتمائهما لحزب سياسي واحد هو حزب الأحرار الدستوريين. عندما صدر الكتاب في سنة ١٩٢٥م أهدى المؤلف نسخة لصديقه الدكتور هيكل، الذي أثنى عليه ويقول عنه: "قد أهداني الشيخ علي الكتاب فقرأته وكتبت عنه في السياسة مقرظًا له ومثنيًا على طريقة البحث فيه".[٣]

وهكذا يقرظ الدكتور هيكل الكتاب، رغم ما وصفه به الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في الفقرة السابقة، بل ويثني على طريقة البحث فيه. هذا يدل على عدم معارضته لما تضمنه هذا الكتاب الذي انتهى فيه مؤلفه إلى ضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ودعا فيه إلى هدم نظام الخلافة الإسلامية. ثارت عليه ثائرة المحافظين ورجال الدين، وبلغت الثورة مداها حين اجتمعت هيئة كبار العلماء برئاسة شيخ الأزهر وحضور أربعة وعشرين عالمًا من أعضاء هذه الهيئة، اجتمعوا بصفة تأديبية في الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٢٥م للنظر

(١) هيكل في ذكراه د/ عبد العزيز شرف ص ١٩٦ (سلسلة اقرأ العدد رقم ٤٣١).
(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين ج ٢ ص٨٠.
(٣) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج١ ص ١٩٥.

في التهمة التي وجهت لعلي عبد الرازق وكتابه.

وأصدرت الهيئة بالإجماع حكمها بأن الكتاب يحوي أمورًا مخالفة للدين. وقد رأت في نشر هذا الكتاب أمرًا يتنافى مع كرامة الهيئة التي ينتمي إليها العلماء، ولذلك حكمت بإخراجه من زمرة هذه الهيئة. وأحالته إلى السلطة المدنية لتنظر في فصله من منصبه في القضاء الشرعي، وقررت الهيئة كذلك عدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية، دينية كانت أو غير دينية[١].

يوجز الدكتور هيكل فكرة الكتاب في عبارات بسيطة فيقول:

"ظهر في أواخر الربيع وأوائل الصيف من هذا العام (سنة ١٩٢٥) كتاب وضعه القاضي الشرعي الشيخ علي عبد الرازق جعل عنوانه (الإسلام وأصول الحكم). دلل فيه على أن الخلافة ليست أصلًا من أصول الحكم في الإسلام، وأنها طرأت على الحكم الإسلامي في عصور متأخرة عن العصور الأولى. هذا الكتاب لم يتجاوز التدليل على فكرة اقتنع بها صاحبها وأورد على صحتها مختلف الأسانيد. فلو كان مخطئًا لكان أكبر جزائه أن يتصدى له من يرد عليه ومن يفند حججه وأسانيده، ومن يدلل على أن الخلافة أصل من أصول الحكم الإسلامي، سواء أكان العالم الإسلامي دولة واحدة أم دولًا متعددة".[٢]

بعد صدور الحكم من هيئة كبار العلماء ضد الشيخ علي عبد الرازق وكتابه، تصدى الدكتور هيكل لهذا الحكم معتبرًا إياه عدوانًا على حرية الفكر وانتقاصًا من حرية الرأي.

شن الدكتور هيكل حملة صحفية ضد هذه المحاكمة وضد هذا الحكم، الذي اعتبره حربًا على حرية الرأي ومصادرة لحرية الفكر. تعجب كيف يحاكم كاتب من أجل رأي ارتآه مخالفًا فيه غيره.

(١) هيكل في ذكراه د/ شرف ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ باختصار.

الحق أن محاكمة الشيخ علي أمام هيئة كبار العلماء لا غضاضة فيها ولا تستدعي استنكارًا من الدكتور هيكل ولا من غيره من أحرار الفكر، فهي جهة اختصاص شرعًا وقانونًا. الحكم الذي أصدرته هو حكم عن بينة، فكبار العلماء هم من أهل الذكر في أمور الدين. كما أصدرته في دائرة اختصاصها، فالشيخ علي من هيئة كبار العلماء وممن لها عليهم سلطان، تمامًا كأعضاء أي نقابة حين يحاكمون أمام نقاباتهم عن الأعمال التي تخل بكرامة المهنة.

ويعلن الدكتور هيكل احتجاجه قائلًا:

"سيحاكم علي عبد الرازق أمام هيئة كبار العلماء لأنه قاضٍ شرعي حاصل على شهادة العالمية من الأزهر، ولأن المادة ١٠١ من قانون الأزهر والمعاهد الدينية تقتضي محاكمة الحاصلين على شهادة العالمية أمام هذه الهيئة إذا هم ارتكبوا أمرًا يتنافى مع كرامة شهادتهم الدينية. عدت إلى المادة ١٠١ هذه وقرأتها أكثر من مرة، وأشهد لقد قصر كل تفسير يمكن أن تفسر به عن إقناعي بمحاكمة كاتب حائز لشهادة العالمية لأنه رأى رأيًا يخالفه غيره فيه".[١]

لقد ركب الدكتور هيكل الذلول والصعب في تأييد الشيخ علي عبد الرازق متأثرًا في ذلك برابطة الصداقة ودفاعًا عن حرية الرأي فيقول:

"أما نحن محرري السياسة فقد أخذنا على عاتقنا الدفاع عن حرية الرأي في غير هوادة. ولقد ظن قوم يومئذ أننا كنا في هذا متأثرين بصداقتنا للشيخ علي عبد الرازق ولأسرة عبد الرازق كلها، وربما كان في هذا القول جانب من الصدق، ولكن هذا الجانب لم يكن هو الحافز الأقوى لنا. بل كان اعتدادنا برأينا وحرصنا على احترام الدستور، ومخافتنا أن يجر التهاون في هذا الأمر إلى نتائج محزنة تعوق تقدم البلاد هو الحافز الأقوى، وهو الدافع لشدتنا في حملتنا، شدة كنا نرجو أن ترد

(١) مذكرات في السياسة المصرية د/ هيكل ج ١ ص ١٩٥-١٩٦.

الأمور إلى نصابها الحق فتصون للمفكرين وأولي الرأي حريتهم وكرامتهم".[١]

هـذه الحملـة التي شـنها الدكتـور هيـكل لا تتناسـب ومكانتـه القانونية، فهو مـن رجـال القانون، وليس في هـذه المحاكمة أي مخالفة قانونية. ثـم إنه يدافع عن الكاتب دفاعًا جانبه الصواب، إذ إنه يسجل في كتابه أن الخلافة طرأت على الحكم الإسـلامي في عصـور متأخـرة، فإن كان يقصـد الخلافـة العثمانية، فأيـن الخلافة الراشدة في عهد الصديق والفاروق وذي النورين ﷺ؟

ثم إن الكاتب، وهو الشـيخ علي عبد الـرازق، لم يكن منصفًا في كتابه ولم يتحرَّ الحق والدقة في أحكامه التي سـطرها في كتابه وألصقها بنظام الخلافة كصورة من صور الحكم الإسلامي. يقول الدكتور محمد محمد حسين:

"ووجـه الضعـف في كل ما يسـوقه المؤلف أنـه لا يتصور الخلافة إلا في أسـوأ حالاتها وأشدها فسادًا. لا خلاف بين كل من بحث في الموضوع في أن الذي ينبغي أن يسعى إليه المسلمون هو الخلافة الصحيحة، لا الخلافة الصورية التي تقوم على القهـر والغلبـة. ولكن المؤلف يهاجـم الخلافة ويزعم أنها لا تقـوم إلا على الغلبة، ويتخذ من فساد المتلقبين بلقب الخلافة دليلًا على فساد النظام نفسه. هذا أسلوب غير سـليم من الناحية العلمية، وهو شـبيه بأن يسـتنتج باحث من فساد المسلمين فساد الإسلام نفسه فيدعو إلى اطراحه والتخلص منه".[٢]

(١) المرجع السابق ص١٩٧.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر أ.د | محمد محمد حسين ج ٢ ص ٨٥.

"خاتمة"

(النتائج و التوصيات):

بعد استعراض منهج الدكتور هيكل في كتاباته الإسلامية بالتحليل والدراسة، يتبين أن الكتابات الإسلامية حتى تحقق أهدافها وتؤتي ثمراتها يجب أن تنطلق من مرتكزات أساسية أوصى بضرورة مراعاتها، وهي:

١- ضرورة مراعاة مبدأ التخصص في الدراسات الإسلامية:

الكتابة الإسلامية ليست كلأً مباحًا يرتع فيه الشارد والوارد من غير إعداد واستعداد، خاصة تلك المتعلقة بسيرة النبي ﷺ. وهي جزء من السنة المطهرة التي تحتاج إلى تخصص دقيق. لا يكفي فيها مجرد عاطفة جياشة أو نية حسنة، بل تحتاج إلى دراسة متعمقة وبحث علمي مستفيض يقوم على أسس منهجية سليمة تعصم الكاتب من الزلل حتى لا يقع في أخطاء من حيث لا يدري.

الدكتور هيكل ﷺ نتيجة لعدم تخصصه في الدراسات الإسلامية قد وقع في أخطاء منهجية ما كان ليقع فيها لو كان من المتخصصين. من هذه الأخطاء مثلًا: إغفاله للسنة النبوية كمصدر تاريخي بحجة أنها تعرضت للتزييف والوضع، مغفلًا بذلك مصدرًا له قيمته العلمية لا في المجال التاريخي فحسب، بل هي مصدر أساس من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، كما أجمع على ذلك العلماء. أهدر بذلك جهود علماء السنة الذين ابتكروا علومًا كثيرة هداهم الله عن طريقها إلى تنقية السنة مما علق بها من أدران الكذب وظلمات الوضع، فأعادوا إليها وجهها المشرق كما نطق بها الحبيب المصطفى ﷺ.

بل إنه رحمه الله قد ركب مركبًا صعبًا حين لجأ إلى المكذوب من الروايات، وأخذ برأي غير المتخصصين في علوم السنة ليضع مقياسًا لقبول الحديث أو رده يقوم على أساس النقد الداخلي. وقع رحمه الله فيما حذر هو منه، إذ إن علماء السنة لم يغفلوا النقد الداخلي للمتون نقدًا يقوم على أسس علمية. أما غير المتخصصين فيظنون أن النقد للمتون يقوم على أساس القبول العقلي المجرد، فجانبهم الصواب. والله تبارك وتعالى ينعى على من يفعل ذلك فيقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.(١)

ومراعاة مبدأ التخصص ليس قصرًا على الكتابات الإسلامية، وإنما هو تكليف رباني يشمل كل ما يأتي به الإنسان المسلم من عمل. فرسول الله ﷺ يقول: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه".(٢) والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.(٣) ويقول عز من قائل: "وأتوا البيوت من أبوابها".(٤)

إعمالًا لهذه النصوص في مجال الكتابة الإسلامية، يجب أن يكون الكاتب من المتخصصين فيما يتناوله من جوانب الإسلام حتى لا يقع في الأخطاء وهو لا يدري، وحتى لا يُسيء إلى الإسلام من حيث يظن أنه يدعو إليه أو يدافع عنه.

واجب على الكاتب أن يبين هويته الثقافية وتخصصه العلمي بوضوح. فلا يكفي أن يكتب مثلًا: (الدكتور محمد حسين هيكل) مجردًا من ذكر تخصصه العلمي، لأن هذا يوهم بأنه حائز على هذه الدرجة في مجال الدراسة التي يتناولها

(١) الآية رقم ٨٣ من سورة النساء.

(٢) رواه أبو يعلى في مجمع الزوائد ج٤ ص ٩٨، والطبراني، وصححه الألباني في الصحيحة نظرًا لشواهده.

(٣) الآية رقم ٣٠ من سورة الكهف.

(٤) الآية رقم ١٨٩ من سورة البقرة.

الكتـاب، مـع أن الحقيقة خلاف ذلك، وكثيرًا ما يقـع مثل هذا الوهم حين يتناول بعض الكتاب موضوعًا إسلاميًا على درجة كبيرة من التخصص، ثم يتبع الكاتب عنوان الكتاب بلقب (الدكتور)، رغم أن هذا اللقب قد يكون حاصلًا عليه في مجال دراسـة الموسـيقى مثلًا أو في مجال العلوم الزراعيـة أو غيرها، مما لا يمت لموضوع الكتاب بأدنى صلة، وفي هذا خلط كبير يجب أن ننزه حقل الكتابة الإسلامية عنه.

٢- ضرورة مراجعة ما يكتب في الشؤون الإسلامية قبل نشره:

وهذا يقتضي إنشاء هيئة علمية متخصصة في شتى مجالات الدراسات الإسلامية تكون مهمتها مراجعة الكتابات الإسلامية قبل نشرها وتداولها، وتكون موافقتها شرطًـا لطبع الكتاب، وبذلـك نضمن صحة ودقة ما يُلقَى على العقل المسـلم، مما يـؤدي إلى سـلامة التوجيه الفكـري والمعلومـات الصحيحة، وهي أسـاس البناء الفكري السليم للأمة.

يمكن الاسـتفادة في هذا المجال من المؤسسـات العلميـة القائمة، مثل: جامعة الأزهر والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ضرورة الرجـوع الى الأصـول الثابتـه والمنابـع الصافية للفكر الإسـلامي عند الكتابة عن الإسلام:

وإذا كان كل شيء يبـدأ صغـيرًا ثـم يكـبر وينمـو، فإن الدين عـلى العكس من ذلك. فقد نزل من عند الله عز وجل تامًا كاملًا، وتلقاه النبي ﷺ فتمثله في حياته، فكان ﷺ المثال العملي للمنهاج الرباني. بذلك، بلغ الإسـلام إلى الصحابة الكرام منهجًـا وتطبيقًا، فكانـوا أقرب الناس إلى هـذا المثل الأعلى. كانـوا الرعيل الأول الذي تلقى الوحي غَضًا طريًا من المعصوم ﷺ بلا واسطة، فأثر هذا القرب وأثمر هذا التلقي خير أمة أُخرجت للناس.

ثم تلقى التابعون عن الصحابة، ثم تلقى تابعو التابعين عن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين. وهكذا، كلما مضى جيل وأقبل آخر، بعدت المسافة بين المسلمين وبين

مصدر الهداية جيلًا بعد جيل، فخفت نور الهداية وقل تمسك الناس بتعاليم الدين.

لقد وضح الرسول ﷺ هذه الحقيقة فقال:

"خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".[١]

وعلى ذلك، إذا أردنا صلاحًا وفلاحًا وهداية ورشادًا، وجب علينا أن نعود إلى منبع الهداية وإلى الذين تلقوا الرسالة من مصدرها الأول، فنأخذ عنهم ونتتلمذ على أيديهم. لا يركبنا الغرور فنظن أننا بأساليب العصر الحديث ووسائله ومناهجه قد أصبحنا أقرب إلى النبع من الصحابة ومن التابعين، وندعي أننا أعلم بالصواب من علماء السلف، فنطرح فقههم جانبًا حتى لا نُوصَم بوصمة الرجعية وحتى لا نكون من الجامدين.

وليس معنى الرجوع إلى المنابع الأصلية للفكر الإسلامي أن نهمل الثروة الفكرية التي تركها لنا علماء السلف وأن نأخذ مباشرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فإنه لا يقول بذلك عاقل. أولًا، لأننا لسنا على مستوى الأخذ المباشر من النصوص. ثانيًا، لأن في ذلك حمقًا وسفهًا، إذ كيف نتجاهل تراث هؤلاء الأفاضل ونطرحه وراء ظهورنا؟

حتى نستفيد من هذا التراث العظيم، يجب أن نبذل الجهد لتنقيته من الشوائب ونحققه تحقيقًا علميًا ينفي عنه الزيف ويميز الخبيث من الطيب، على أن يقوم بهذا العمل علماء أثبات ممن آتاهم الله العلم والحكمة.

٣- ضرورة الاستفادة من البحوث العلمية التي يقوم بها الباحثون في جامعة الأزهر وأقسام الشريعة في الجامعات الأخرى مع ربط هذه البحوث بحاجة المجتمع:

ذلك أن هذه البحوث على درجة عالية من الدقة وتمثل مصدرًا هامًا من مصادر الفكر الإسلامي الجاد. إني لأعجب كيف لا نستفيد من هذه الثروة الفكرية

(١) رواه البخارى باب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

الضخمة في المجال العملي، إذ إنها في الحقيقة تقدم حلولًا لكثير من المشكلات التي تواجه المسلمين في العصر الحاضر، سواء من الناحية الفكرية أو التطبيقية. يقوم بها باحثون متخصصون وأساتذة أجلاء يتقدمون بها لنيل درجات علمية في كافة فروع العلوم الإسلامية.

حتى نستفيد منها، يلزم تصنيفها وضم المتجانس منها بعضه إلى بعض. فمثلا، تُجمع كل البحوث والرسائل في مجال التفسير لتكون سلسلة متجانسة متكاملة تجيب على كثير من التساؤلات وتحل كثيرًا من المشكلات التي تواجهنا في مجال تفسير كتاب الله عز وجل. وكذلك تُجمع كل بحوث السنة، العقيدة، الشريعة، وكل فرع من فروع العلوم الإسلامية. لو أحسنا تصنيفها وترتيبها وتبويبها، لأمكن الاستفادة منها في مجال التطبيق بدل أن تنحصر قيمتها في الناحية النظرية التي تتمثل في الحصول على الدرجة العلمية، ثم بعد ذلك تكون في طي النسيان أو حبيسة الأدراج في المكتبات.

لو فعلنا ذلك، لتوفر لدينا مرجع من مراجع الفكر الإسلامي الحديث والجاد في نفس الوقت. وحتى تكون الفائدة تامة من هذه البحوث، يجب أن تكون مخططة. يكون في كل قسم قائمة بالموضوعات التي تحتاج إلى بحث ليختار الباحث منها ما يستطيع أن ينجزه. هذه الموضوعات التي تدرج في قائمة البحوث يجب أن تكون نابعة من حاجات المجتمع، سواء من الناحية الفكرية لتوضح حقيقة أو ترد على شبهة أو تصحح مفهومًا، أو من الناحية التطبيقية. بذلك تكون بحوثًا حية، يكون لها رد فعل على الناس والحياة، بدل أن تكون منعزلة لا يسمع عنها الناس ولا يهتم بها أحد.

٤- ضرورة التصدي للهجمة الشرسة التي يشنها الأعداء وأشياعهم على السنة النبوية وعلى نقلتها من الصحابة باسم حرية الفكر تارة وباسم حرية البحث تارة أخرى:

ذلك أن الأعداء يدركون أهمية السنة في فهم وتطبيق الإسلام، فوجهوا جهودهم للصد عنها بأدنى الأساليب وأحقر الوسائل. كان من أخطر أساليبهم التشكيك في صحتها مستندين في هذا التشكيك إلى تأخر تدوينها وظهور الوضع والكذب على رسول الله ﷺ. رغم أن هؤلاء الأفاكين لم يعرفوا أخبار الوضع والكذب إلا من خلال المراجع الإسلامية، إلا أنهم يتحدثون وكأنهم هم الذين اكتشفوا هذا التزييف، ثم يتجاهلون بعد ذلك ما قام به علماء السلف من جهود للذب عن سنة رسول الله ﷺ. بذلك أحاط المستشرقون وأذنابهم السنة بضباب كثيف من الشك والريبة، وسار وراءهم في هذا الدرب المظلم الأغرار من المسلمين ممن ليس لهم دراية بعلوم السنة، واعتبروا ما كتبه المستشرقون في هذا الصدد مراجع علمية، فنقلوا عنها واستندوا إليها. وهذا خطأ فاحش يجب أن تتنزه عنه ساحة الكتابة الإسلامية، إذ كيف نعتبر ما كتبوه عن الإسلام حجة ومرجعًا وهم به كافرون؟

وإحكامًا للمؤامرة ضد السنة، فقد شن هؤلاء المعترضون حملة شعواء ضد صحابة رسول الله الأكرمين، وهم حملة السنة ونقلتها. سلطوا الأضواء على ما شجر بينهم من خلافات سياسية، وعرضوها في صورة تشبه ما يحدث اليوم من مؤامرات خسيسة وتصرفات دنيئة، مركزين على أن الوضع في الحديث كان من أساليبهم ليصلوا من وراء هذا كله إلى التشكيك في صحة السنة كلها. رغم أن علماء الرجال والجرح والتعديل قد تناولوا أحوال كل الرواة وبينوا على سبيل اليقين أحوال كل منهم، وحددوا على سبيل القطع من ترد روايته ومن تقبل منه الرواية، وأصدروا أحكامًا صريحة واضحة بتحديد درجة القبول وبتحديد درجة الضعف وبيَّنوا أسباب رد الرواية. بناءً على ذلك، فلا مجال لهذا التعميم الذي يلجأ إليه هؤلاء الأعداء ومن سار على دربهم.

ولقد دأب هؤلاء الأعداء على غرس هذا التشكيك حتى في قلوب الناشئة من أبناء المسلمين، فدسوا هذه الافتراءات في مناهج التاريخ التي تُدرس لأبناء المسلمين، وذلك إبّان سيطرة الاستعمار على الأقطار الإسلامية. أثمرت هذه

المناهج الضالة جرأة على صحابة رسول الله ﷺ. فلما شبّ الأبناء من الطوق وأكملوا دراستهم في جامعات أوروبا وتتلمذوا على المستشرقين، ظهرت الآثار السيئة لهذه التربية الخاطئة، فإذا بهم يحاكمون الصحابة ويصدرون عليهم أحكامًا ظالمة هي رجم بالغيب وأخذ بالظن. ارتكبوا هذا الجرم باسم حرية الفكر وباسم المنهج العلمي في البحث، وهذا منزلق خطير حذرنا منه رسول الله ﷺ فقال:

"الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم".(١)

والله تبارك وتعالى علمنا في القرآن أن من سمات المجتمع المسلم تواصل أجياله على التقدير والتبجيل لمن سبقوهم ومهدوا لهم سبيل الرشاد، فعرف اللاحقون فضل السابقين فدعوا الله لهم وأثنوا عليهم خيرًا، فقال عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.(٢)

والواجب على الكتاب المسلمين إزاء هذا الوضع السيئ أن يعملوا جاهدين من خلال الكتابات الجادة على تعميق هذا الانتماء وتقوية روابط المودة والاحترام بين الأجيال حتى تتواصل المسيرة التي بدأها الآباء من الرعيل الأول وسار على دربها الأبناء البررة والأحفاد الصالحون. وفي غياب هذا المنهج تتقطع أواصر الصلة بين الأجيال، فيكون الضياع والهلاك بعد أن تنقطع أسباب التواصل بين الماضي والحاضر.

والواجب عليهم أيضًا ألا يعتبروا كتب المستشرقين مراجع للبحوث والكتابات الإسلامية، وعليهم أن يخضعوها للدراسة والبحث ليبينوا للناس ما تنطوي عليه من زيف وتحريف للحقائق ليحذروها. وعلى الكتاب المسلمين أن يبينوا للناس جهود العلماء المسلمين في تمحيص سنة رسول الله ﷺ، حتى يعلموا

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب ٥٩ ج رقم ٣٨٦٢.

(٢) الآية رقم ١٠ من سورة الحشر.

أن السنة في مجموعها قد دونت بطريقة علمية صحيحة توجب الثقة فيها وتلزم العمل بها. وعليهم أيضًا أن يقوموا بتوعية المسلمين وتذكيرهم بمكانة الصحابة، فهم أساس هذا الدين وحملته إلى العالمين. وواجب علينا أن نعرف لهم قدرهم ولا نظن بهم إلا خيرًا، رضوان الله عليهم أجمعين.

٥- ضرورة العمل من جانب الكتاب الإسلاميين على تطبيق ما يدعون إليه إذا أُسندت إليهم سلطة التنفيذ: فالملاحظ أن الكتاب الإسلاميين يقصرون همتهم على الجانب الفكري، فيبدعون فيه ويبذلون غاية الجهد لتقديم الإسلام للناس فكرًا ودعوة. فإذا ما أُسندت إلى أحدهم مهام تنفيذية أو آلت إليهم سلطة زمنية، أداروا شؤون الحياة بعيدًا عن روح الفكر الذي قدموه. تراهم يخضعون في إدارتهم دفة الأمور لما تمليه عليهم ظروف الواقع المعاش، مما يؤدي إلى الإساءة لهذا الدين العظيم.

هكذا وللأسف الشديد نجد بونًا شاسعًا بين الفكر والتطبيق، وكأن هؤلاء المفكرين يعانون من انفصام في الشخصية لا أدري ما سببه ولا كيف الشفاء منه. يكون المفكر والكاتب الإسلامي في قمة الشموخ والقوة كاتبًا وداعيًا، فإذا أصبح مسؤولًا تغير حاله، فإذا به يجلس في صفوف المنفذين بعد أن كان بالأمس في طليعة الموجهين، وينسى في غمرة السلطان ما كان يدعو إليه بالأمس القريب. وهذا والله نقص كبير يجب أن يتنزه عنه المفكرون من علماء الإسلام والكتاب الإسلاميين حتى لا تسقط هيبتهم ولا تتزعزع ثقة المسلمين في إمكان تطبيق قواعد ونظم الإسلام. فإذا ما حالت دون تطبيق الفكر الإسلامي ظروف خارجة عن إرادتهم، وضحوها للناس حتى لا تُتَّهم تعاليم الإسلام بعدم مسايرتها لظروف العصر كما يدَّعي ذلك المفترون والشائنون.

هذا والله من وراء القصد، نسأله سبحانه وتعالى أن يأخذ بأيدينا إلى سواء السبيل، هو حسبنا فنعم المولى ونعم النصير. والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

١ – القرآن الكريم.

كتب التفسير:

٢ – تفسير القرآن العظيم – للإمام الجليل إسماعيل بن كثير (مطبعة الاستقامة بالقاهرة).

كتب السنة:

٣ – تدوين السنة للشيخ محمد الطيب النجار (كتب إسلامية ٣٨).

٤ – تيسير اللطيف الخبير في علوم حديث البشير النذير ج ١ د/ مروان محمد مصطفى شاهين.

٥ – الجامع الصحيح للإمام البخاري (المطبعة الخيرية بمصر – الطبعة الأولى ١٣٢٠ ه).

٦ – الجامع الصحيح للإمام مسلم (كتاب التحرير – القاهرة ١٣٨٣ ه).

٧ – رياض الصالحين للإمام النووي (دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان).

٨ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي أ.د/ مصطفى السباعي.

٩ – في رحاب السنة الكتب الصحاح الستة د/ محمد محمد أبو شهبة (البحوث الإسلامية ٨).

١٠ – الفكر المنهجى عند المحدثين د/ همام عبد الرحيم سعيد (كتاب الأمة ١٦).

كتب السيرة والتاريخ:

١١ – حياة محمد – د/ محمد حسين هيكل – دار المعارف ط ١٤.

١٢ – الدكتور هيكل وحياة محمد منهج في دراسة التاريخ الإسلامي د/ حسين فوزي النجار.

١٣ – السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج١ د/ محمد بن محمد أبو شهبة (دار القلم).

١٤ – السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين عبد المتعال الصعيدي ط١ دار الفكر.

١٥ – الصديق أبو بكر د / محمد حسين هيكل دار المعارف بمصر.

١٦ – عثمان بن عفان بين السياسة والملك د / محمد حسين هيكل – دار المعارف بمصر.

١٧ – في منزل الوحي د/ محمد حسين هيكل – دار المعارف.

١٨ – الفاروق عمر ج١ د/ محمد حسين هيكل.

١٩ – الفاروق عمر ج٢ د/ محمد حسين هيكل.

٢٠ – كيف نكتب التاريخ الإسلامي – محمد قطب (دار الشروق).

٢١– محمد الرسالة والرسول – د/ نظم لوقا.

٢٢ – محمد ﷺ من بعثِهِ إلى بعثتِهِ – الشيخ محمد الصادق عرجون (البحوث الإسلامية ٤١).

٢٣ – المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي د/ عبد العظيم محمود الديب (كتاب الأمة ٢٧).

٢٤ – منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه – محمد بن صامل السلمي (ط ١ دار الوفاء بالمنصورة).

كتب الفقه:

٢٥ – المدخل للفقه الإسلامي تاريخه ومصادره ونظرياته العامة د/ محمد سلام مدكور (دار النهضة العربية).

كتب عامة:

٢٦ – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج١ د/ محمد محمد حسين ط ٣.

٢٧ – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ د / محمد محمد حسين ط ٢.

٢٨ – أخطار التبشير في ديار المسلمين محمد عبد الرحمن عوض (مجلة الدعوة – المركز الإسلامي للدراسات والبحوث).

٢٩ – الإسرائيليات في التفسير والحديث د / محمد السيد حسين الذهبي (البحوث الإسلامية ٣٧).

٣٠– الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د/ محمود حمدى زقزوق ط ٢ دار المنار.

٣١ – أضواء على حاضر العالم الإسلام د / محمود عبد الحكيم عتمان – الدار الإسلامية.

٣٢– الإيمان والمعرفة والفلسفة د / محمد حسين هيكل دار المعارف بمصر.

٣٣– التبشير والاستعمار في البلاد العربية د/ عمر فروخ، د/ مصطفى خالدي – بيروت.

٣٤– تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة د / محمد عماره (كتاب الهلال ٣٨٠) دار الهلال.

٣٥ – ثورة الأدب د / محمد حسين هيكل – دار المعارف بمصر.

٣٦ – الحكومة الإسلامية د / محمد حسين هيكل – دار المعارف بمصر.

٣٧ – دور الأزهر في السياسة المصرية د/ سعيد إسماعيل علي (كتاب الهلال ٣١) دار الهلال.

٣٨ – الدكتور محمد حسين هيكل مفكرًا وأديبًا د / حسين فوزى النجار.

٣٩ – الدكتور محمد حسين هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية أحمد زلط – الهيئة الحرية العامة للكتب.

٤٠ – فقه الدعوة والإعلام د/ عمار نجيب.

٤١ – المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام د/ محمد البهي (مكتب الصحافة والإعلام – وزارة الأوقاف).

٤٢ – مجتمع علماء الأزهر في مصر (١٨٩٥ – ١٩٦٩) د/ عصام الدسوقي (القضايا الإسلامية ٦) دار الثقافة الجديدة.

٤٣ – محمد حسين هيكل في ذكراه د/ عبدالعزيز شرف (اقرأ ٤٣١) دار المعارف.

٤٤ – مذكرات في السياسة المصرية ج١ د/ محمد حسين هيكل.

٤٥ – مذكرات في السياسة المصرية ج٢ د/ محمد حسين هيكل.

٤٦ – المستشرقون والتاريخ الإسلامى د/ علي حسن الخربوطلي (دراسات في الإسلام ١١١).

٤٧ – المعارك الأدبية في مصر أ. أنور الجندي.

٤٨ – من توجيهات الإسلام للإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت ط ٢ دار الشروق.

٤٩ – النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين د/ محمد رجب البيومي (البحوث

الإسلامية).

٥٠ – نظرة تحليلية في كتابات الدكتور محمد حسين هيكل – السيد أحمد المخزنجى المكتبة الثقافية ٤٢٩).

٥١ – الوثيقة الإسلام الخطر محمود الشاذلي (المختار الإسلامي).

"هذا وبالله التوفيق"

الفهرس

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد: نبذة عن حياة الدكتور هيكل رحمه الله	١٣
نشأة الدكتور هيكل	١٣
عصر الدكتور هيكل من الناحية الثقافية والاجتماعية	٢٥
الحالة الدينية في عصر الدكتور هيكل	٣٧
الباب الأول	
منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن رسول الله ﷺ	٤٧
الفصل الأول: دوافع التأليف ومحاولة النهوض بالأمة الإسلامية من خلال الكتابة عن تراثها لتربط حاضرها بماضيها	٤٩
دوافع التأليف	٤٩
العودة إلى رحاب التاريخ الإسلامي والسيرة العطرة	٥٣
الإسلام وسلامة الفطرة	٥٤
البدء بسيرة النبي ﷺ	٥٥
١ – الرد على التعصبين من غير المسلمين	٥٧
٢ – الرد على الجامدين من المسلمين	٦١
٣– هداية الحائرين من شباب الإسلام	٦٤
٤ – عرض الجانب الإنساني من حياة النبي ﷺ	٦٧
٥ – تمهيد السبيل لإقامة حضارة إسلامية في العصر الحاضر	٦٨
معالم منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن رسول الله	٧١

ملاحظات على منهج الدكتور هيكل في كتابته عن النبي ﷺ	٧٥
الفصل الثاني: حركة التبشير والرد عليها بما يتفق مع أسلوب العصر	٩١
المبحث الأول: حركة التبشير	٩١
حركة التبشير حلقة من حلقات الصراع	٩٤
أهداف التبشير في العصر الحديث	٩٧
وسائل المبشرين	٩٨
المبحث الثاني: رد الفعل عند المسلمين وجهود الدكتور هيكل في هذا المجال	١٠٧
العلاقة بين التبشير والاستشراق	١٠٧
جهود الدكتور هيكل في هذا المجال	١١١
أولًا: توضيح العلاقة بين المسيحية والإسلام	١١١
ثانيًا: موقف الإسلام من المسيحية	١١٦
ثالثًا: موقف المسيحيين من الإسلام	١١٧
١ – موقف المستشرقين المتعصبين من الإسلام	١١٧
٢ – موقف المستشرقين المعتدلين من الإسلام	١٢١
إسهامات الدكتور هيكل في الرد على مطاعن المستشرقين	١٢٢
١ – الرد على فرقة تحريف القرآن	١٢٤
٢ – الرد على فرية الصرع	١٢٨
٣ – المستشرقون وقصة الغرانيق	١٣١
٤– المستشرقون والجهاد في الإسلام	١٣٣
الفصل الثالث: ما اختلف فيه الدكتور هيكل مع علماء السيرة والمحدثين ووجه الصواب في ذلك	١٤٣
منهج البحث العلمي الأوروبي الغربي	١٤٥
رجوعه إلى كتب المستشرقين واعتبارها صدرًا أهليًا	١٤٨
عدم الأخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث فيما يتصل بحياة النبي ﷺ	١٥١
ردود الدكتور هيكل على هذه الملاحظات	١٥٣

تعقيب على رد الدكتور هيكل	١٥٤
الباب الثاني	
منهج الدكتور محمد حسين هيكل في كتابته عن الخلفاء الراشدين الثلاثة ﷺ	١٨٥
التمهيد	١٨٧
الفصل الأول: منهجه في الكتابة عن أبي بكر ﷺ	١٩١
المبحث الأول: منهجه في الكتابة عن الصديق مع النبي ﷺ	١٩٣
علاقة أبي بكر بالنبي قبل البعثة	١٩٤
بعض المواقف التي وقف أمامها الدكتور هيكل ليبين عظمة الصديق خلال صحبته للنبي	١٩٥
بعض المواقف التي تبين عناصر القوة الخلقية في شخصية الصديق	٢٠٤
موقفه من أسرى بدر	٢٠٤
غضبة الصديق على فنحاص	٢٠٥
ثبات الصديق حين مات النبي	٢٠٧
المبحث الثاني: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن الصديق بعد رسول الله	٢١١
أولًا: سقيفة بني ساعدة	٢١٤
ثانيًا: موقف الصديق من حركة المتنبئين والمرتدين	٢٢٢
مواجهة أبي بكر لهذه الفتنة	٢٢٤
خطته للقضاء على الردة	٢٢٦
ثالثًا: التمهيد للفتح وتكوين الدولة الإسلامية	٢٣٥
رابعًا: جمع القرآن الكريم	٢٤٤
خامسًا: حكومة أبي بكر ﷺ	٢٤٨
سادسًا: حرص أبي بكر على مصالح الأئمة حتى بعد موته	٢٥٠
الفصل الثاني: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن الفاروق عمر ﷺ	٢٥٥
ملامح المنهج في الكتابة عن الفاروق عمر	٢٥٦

المبحث الأول: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عمر بن الخطاب منذ نشأته وحتى إسلامه	٢٥٧
طفولة عمر وصباه	٢٥٧
مولده ونشأته	٢٥٨
معارضته لدعوة الإسلام	٢٦١
إسلام عمر والروايات في أسباب إسلامه	٢٦٢
الدافع النفسي لإسلام عمر	٢٦٥
الأثر الإيجابي لإسلام عمر	٢٦٦
المبحث الثاني: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن عمر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر	٢٦٨
عمر في صحبة النبي في مكة	٢٦٨
عمر في صحبة النبي في المدينة	٢٧٠
عمر في صحبة الصديق	٢٧٥
المبحث الثالث: نهجه في الكتابة عن عمر ﷺ أميرًا للمؤمنين ودوره في بناء دولة الإسلام	٢٨٣
أولًا: الجانب الفكري العسكري والسياسة العمرية	٢٨٤
ملاحظة على منهج الدكتور هيكل عند تناوله لحركة الفتح الإسلامي	٢٩٩
ثانيًا: الجانب المدني في دولة الإسلام وإسهامات عمر بن الخطاب به	٣٠٣
١- الجانب السياسي وإسهامات عمر فيه	٣٠٤
٢ - الجانب الاقتصادى وإسهامات عمر فيه	٣١٨
٣- إسهامات عمر في الجانب الاجتماعي	٣٢٤
٤- إسهامات عمر في البناء الفكري	٣٣٥
مقتل عمر بن الخطاب ﷺ	٣٣٧
الفصل الثالث: منهج الدكتور محمد حسين هيكل في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ	٣٣٩
تقديم	٣٤١

المبحث الأول: منهجة في الكتابة عن عثمان بن عفان ﷺ عن رسول الله ﷺ ومع الصديق والفاروق	٣٤٣
المبحث الثانى: منهجه في الكتابة عن عثمان ﷺ أميرًا للمؤمنين تحمله المسؤولية الأولى في الدولة الإسلامية بعد عمر ﷺ	٣٤٩
الوقفة الأولى: تفسيره للخلاف بين أهل الشورى	٣٤٩
الوقفة الثانية: لماذا وافقت الأغلبية على خلافة عثمان ﷺ	٣٥١
عثمان بن عفان يتحمل المسؤولية الأولى عن الدولة الإسلامية	٣٥٢
تقييم الدكتور هيكل السياسي للخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ	٣٥٥
1 – حب عثمان ﷺ لذوي قرباه	٣٥٥
٢ – الاضطراب في تقييم بعض قرارات أمير المومنين عثمان ﷺ	٣٥٨
3 – جمع الناس على قراءة واحدة للقران	٣٦٠
4 – رصد التيارات الخفية التي أدت إلى الثورة بعثمان ﷺ	٣٦٠
الباب الثالث	
منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن المشاعر الإسلامية (بعض التشريعات الإسلامية)	٣٦٣
مدخل وتمهيد	٣٦٥
سبب الكتابة عن المشاعر الإسلامية	٣٦٥
منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن المشاعر الإسلامية	٣٦٧
حرية البحث وعدم التقيد بما كتب في مفهوم الدكتور هيكل	٣٧١
السر في اختيار القدر بلاد العرب لتكون الموطن الأول للإسلام	٣٧٥
أسباب تخلف بلاد العرب	٣٧٩
الدعوة إلى إحياء الحضارة الإسلامية عن طريق دراسة السيرة النبوية	٣٨١
أهداف الدكتور هيكل من بحوثه في منزل الوحي	٣٨٣

الفصل الأول: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن الحج وما يتعلق به من الأماكن وغيرها	٣٨٥
خواطر الدكتور هيكل حول أركان الحج	٣٩١
1 – الإحرام	٣٩١
2 – الطواف بالبيت الحرام	٣٩٤
3 – السعي بين الصفا والمروة	٣٩٥
4 – الوقوف بعرفة	٣٩٦
5 – إلى المشعر الحرام بالمزدلفة	٣٩٩
6 – المبيت بمنى	٤٠٠
8 – العودة إلى منى لرمي الجمار	٤٠١
9 – مكة الحديثة	٤٠٤
10 – سلبيات في حياة المكيين	٤٠٨
١١– الدكتور هيكل في رحاب آثار مكة	٤١٣
الفصل الثانى: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن مدينة رسول الله ﷺ وما يتعلق بها	٤٢٧
أولًا: المقارنة بين مكة والمدينة	٤٣٠
ثانيًا: السير في آثار الرسول ﷺ	٤٣٤
ثالثًا: في رحاب آثار الرسول ﷺ في المدينة	٤٣٧
المسجد النبوي	٤٤٠
الدور التاريخية	٤٤٤
المساجد	٤٤٩
القبور	٤٥٠
الآبار والعيون	٤٥٦
الجبال و الأودية	٤٥٦
مدينة رسول الله ﷺ بين الماضي والحاضر	٤٥٨
الفصل الثالث: منهج الدكتور هيكل في الكتابة عن نظام الحكم في الإسلام	٤٦٣

أسباب قيام الدولة الإسلامية	٤٦٦
أسباب ثبات واستقرار الدولة الإسلامية	٤٧٠
نظام الحكم في الإسلام	٤٧٢
أولًا: تحديد طبيعة الحكم الإسلامي وفكرته	٤٧٣
ثانيًا: المبادئ الأساسية للحكم في الإسلام	٤٧٨
ثالثًا: مبادئ الحضارة الإنسانية في الإسلام	٤٨٠
رابعًا: تطور نظام الحكم في الإسلام	٤٨٥
خامسًا: كيف نعود بنظام الحكم في العصر الحاضر إلى نظام الإسلام؟	٤٩١
ملاحظات على منهج الدكتور هيكل في كتابته عن نظام الحكم في الإسلام	٤٩٣
الخاتمة والنتائج والتوصيات	٥٠٥
قائمة المراجع	٥١٣
الفهرس	٥١٧